وِلايَةُ البَصْرَة
في
مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا

الجُزءُ الأَوَّل

آلِكسَنْدَر أَدَامُوف

ترجمة عن اللغة الروسية

الدكتور هاشم صالح التكريتي

دار ميسلون للنشر

العراق - بغداد



نسخة مقروءة على النسخة المطبوعة

شبكة رافد للتنمية الثقافية



مقدمة الناشر

البصرة علوية المنشأ والهوى

الحمـــد لله ربّ العـــالمين، وصـــلّى الله علـــى محمّـــدٍ وآلـــه الطـــاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين.

وبعـد: قبـل الـدخول في كتابـة بعـض السـطور الـتي تتعلّـق بالبصـرة مـن جانـب العقيـدة واللغـة وموافقهـا المشـرِّفة بـودّي أن أشـير الى أنّ جنـاب الأخ الاسـتاذ الفاضـل الـورّاق مـدير دار ميسـلون للطباعـة والنشـر دام مسـدّداً ومؤيـداً لحفظـه الـتراث، قـد طلـب مـنّي أنْ أكتـب شـيئاً كمقدمـةٍ لكتـاب (ولايـة البصـرة في ماضـيها وحاضـرها) للقنصـل الروسـي في البصـرة عـام ١٩١٢ م، فنزلـتُ عنـد رغبتـه مـن بـاب الامتثـال خـير مـن الأدب. وإلّا أنّي قليـل البضـاعة ولكـن هـذا حسـن ظنـه بي، فلـه جزيـل الشـكر والامتنـان، وأسـأله تعـالى أنْ يوفقـه لمـا فيه الخير والصلاح بمحمدٍ وآله الطاهرين.

فنقـول: قـد كانـت البصـرة منـذ تأسيسـها واجهـة العـرب والمسـلمين في التحـدي الحضـاري في جميـع صـوره. وكـان لهـا دورهـا الكبـير في المسـيرة الحضـارية والإسـهام الفاعـل في الحضـارة الإنسـانية. ولـيس بخـافٍ علـى أحـد ولا يجهله العلماء والباحثون قديماً وحديثاً.

البصـرة هـذه الحسـناء، الّـتي تربعـت علـى كنـوز السـحر والثـراء، واسـتهوت التجـار والشـعراء، وأنبتـت العلمـاء والأدبـاء، وملكـت القلـوب وفتنـت العقـول، وسـالت لهـا لعـاب المطـامع ــ في الغـابر والحاضـر ــ، هـذه

المدينة الساحرة الّتي كثر خطّابُها والمعجبون بها لن تكون مهمة الباحث أمامها سهلة، إذا ما أراد الحديث عن تراثها العريق وأدبها الغزير. ولكن ممّا يهوّن الخطب إذا تناولنا جانباً واحداً من ذلك التراث الضخم ونرصده في زاوية من زوايا تأريخنا الطويل، وهذه الزاوية حول دور الشيعة بشكلٍ إجمالي. ويشتمل هذا البحث على أربعة أمور هي:

أولاً: فضل البصرة.

ثانياً: جذور التشيّع في البصرة.

ثالثاً: دور شيعة البصرة في نصرة الأئمة عليهم السلام، الإمام الحسين عليه السلام . نموذجاً ..

رابعاً: دور شيعة البصرة في الأخذ بثارات الإمام الحسين عليه السلام.

البصرة في اللغة :

قال الحموي في معجم البلدان: قال ابن الأنباري: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة، وقال: قُطْرب: البصرة الأرض الغليظة التي فيها حجارة تُقَلِّعُ وتَقْطَع حوافِرَ الدواب. قال: ويقال بصرة للأرض الغليظة.

وقال غيره: البصرة حجارة رَخْوَة فيها بياض، وقال ابن الأعرابي: البصرة حجارة صلاب. قال: وإنما سُمّيت بصرة لغلظها وشدّتها، كما تقول: ثوب ذو بُصر، وسقاءٌ ذو بُصر إذا كان شديداً جيّداً.

قال: ورأيتُ في تلك الحجارة في أعلى المِرْبَد بيضاً صلاباً، وذكر الشرقي بن القطامي إنّ المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها فقالوا: إنّ هذه أرضٌ بَصرَةٌ يعنون حَصْبَة فسميت بذلك، وذكر بعض المغاربة: أنّ البصرة الطين العلك.

وقيل: الأرض الطيبة الحمراء [(١)].

وقيل: البصرة تعريب (بَس راه) لأنّها كانت ذات طُرُق كثيرة انشعبَتْ منها إلى أماكن مختلفة [(٢)].

فضل البصرة

قال الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: هل علمت أنّ بين الّتي تسمى البصرة والّتي تسمّى الأُبُلَّة أربعة فراسخ وسيكون الّتي تسمّى الأُبُلَّة موضع أصحاب العشور ويقتل في ذلك الموضع من أمتي سبعون ألفاً شهيدهم يومئذٍ بمنزلة شهداء بدر [(٣)].

فقال له المنذر يا أمير المؤمنين ومن يقتلهم فداك أبي وأمي قال: يقتلهم إخوان الجن، وهم جيل كأنهم الشياطين، سود ألوانهم، منتنة أرواحهم، شديد كلبهم، قليل سلبهم، طوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه، ينفر لجهادهم في ذلك الزمان قوم، هم أذلة عند المتكبرين من أهل زمان، مجهولون في الأرض، معروفون في السماء، تبكي السماء عليهم وسكانها، والأرض وسكانها، ثمّ هملت عيناه.

يا منذر أنّ للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأول لا يعلمها إلّا العلماء، منها الخريبة، ومنها تدمر، ومنها المؤتفكة.

ثمّ قال: يا أهل البصرة إن الله لم يجعل لأحد من أمصار المسلمين خطّه شرف ولا كرم إلّا وقد جعل فيكم أفضل ذلك، وزادكم من فضله بمنّه ما ليس لهم، أنتم أقوم الناس قبلة، قبلتكم على ـ كذا ـ المقام حيث

---

(١) معجم البلدان ٢: ٣٤٠، ط بيروت، دار إحياء التراث العربي.

(٢) نفس المصدر.

(٣) في الملاحم والفتن: ص١٧٥ رقم ١١٣.

يقوم الإمام بمكّة، وقارؤكم أقرأ النّاس، وزاهدكم أزهد النّاس، وعابدكم أعبد النّاس، وتاجركم أتجر النّاس وأصدقهم في تجارته، ومتصدقكم أكرم النّاس صدقه وغنيّكم أشد النّاس بذلاً وتواضعاً، وشريفكم أحسن النّاس خلقاً، وأنتم أكرم النّاس جواراً وأقلهم تكلّفاً لما لا يعنيه، وأحرصهم على الصلاة في جماعة، ثمرتكم أكثر الثمار، وأموالكم أكثر الأموال، وصغاركم أكيس الأولاد، ونساؤكم أقنع النساء وأحسنهن تبعّلاً، سخر لكم الماء يغدو عليكم ويروح صلاحاً لمعاشكم، والبحر سبباً لكثرة أموالكم، فلو صبرتم واستقمتم لكانت شجرة طوبى لكم.....

وأقسم لكم يا أهل البصرة ما الّذي ابتدأتكم به من التوبيخ إلّا تذكير وموعظة لما بعد لكي لا تسرعوا إلى الوثوب في مثل الّذي وثبتم، وقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [1].

وقال ابن المنادي: حدّثنا أبو قلابة الرقاشي، قال حدّثني محمّد بن عبّاد المهلّبي، قال سمعت صالح المرّي ينعق به غير مرّة، قال حدّثني المغيرة ابن حبيب صهر مالك بن دينار، قال: قلت لمالك بن دينار وكانت بالبصرة فتنة، لو خرجت بنا إلى بعض سواحل البحر فأقمنا هناك؟

فقال: ما كنت لأفعل ذلك بعد شيء سمعت الأحنف بن قيس يحدّث به، قال: قال لي أبو ذرّ الغفاري أين مسكنك؟ قلت: بالبصرة فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

« تكون بلدة أو قرية أو مصر، يقال لها البصرة أقوم النّاس قبلة، يدفع الله عنهم ما يكرهون » [2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٢ ص٢٥٤ والآية: ٥٥ من سورة الذاريات.

(٢) الملاحم لابن المنادي: ص١٧٤ رقم ١١٠.

وقال ابن المنادي أيضاً: حدّثني محمّد بن حمّاد أبو جعفر الدباغ، قال: حدّثني أبو الربيع الزهراني، قال: نبأ عبد القاهر بن شعيب بن الحبحاب، قال: نبأ هشام بن حسّان، عن محمّد بن سيرين قال :

تكون فتنة شديدة يكون أعفى النّاس فيها أهل البصرة [1].

وللبصرة أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي، إذ يقول معاوية بن أبي سفيان إلى الزبير دونك الكوفة والبصرة، لا يسبقنك لها ابن أبي طالب، فانه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد طلب الزبير وطلحة من الإمام عليّ ان يوليهما البصرة والكوفة [2].

قال ابن المنادي: حدّثنا جدّي، قال: نبأ عليّ بن الحسن بن شقيق، قال: أخبرنا حازم، عن زياد المكي، قال: قال لي الضحاك بن مزاحم. أخرج من هذه . يعني خراسان . فإنّه كان بها فتن. قال: قلت: فالجزيرة، بالموصل؟

قال: فإنّ بها الملاحم، ولكن عليك بالمصرين ـ يعني الكوفة، والبصرة ..

قال ابن المبارك: وأخبرنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، قال: إذا وقعت الفتنة فعليكم بالمصرين: البصرة، والكوفة [3].

وبعد هذا نأتي على المحاور التالية :

أوّلا: جذور التشيع في البصرة

كانت البصرة تتهم طوال تأريخها بأنّها عثمانية أحياناً، وأموية أحياناً أخرى، ولكن التأريخ قد شوّه الحقائق لدور البصرة في ولائها لأهل بيت

---

(١) المصدر السابق: ص١٧٤ رقم ١١١.

(٢) المصدر السابق: ٥.

(٣) الملاحم: ص١٥٥ رقم ٨٤.

النبيّ صلى الله عليه وآله، إما حسداً، وإما ثأراً.

فالبصرة شيعية إذ يقول حمد الله المستوفى في كتابه «نزهة القلوب»: الشيعة الإمامية في العراق من العرب يتواجدون في نواحي البصرة والكوفة والحلة :

الفرق الشيعية الإمامية في البصرة

١ ـ الضميرية: فرقة من الشيعة تسكن على ضفاف نهر الضمير، وقديماً كانوا ينقشون مذهب أهل البيت على لوح، وهم الآن يقاربون ٥٠٠ منزل [١].

٢ ـ العُقيراوية: قال القاضي نور الله الشوشتري هم طائفة من الشيعة الإمامية في البصرة [٢].

٣ ـ المزرعية: طائفة من الشيعة الأمامية، ومنها ٢٠٠ عائلة لهم منازل خارج البصرة [٣].

ونلاحظ أن أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد ظهروا في زمان ولايته، خاصة قبائل بني عبد القيس، وربيعة، وبني سعد، وبني تميم وهذه القبائل معروفة بولائها المطلق للإمام عليّ عليه السلام، كما يؤيد لنا المؤرخون ذلك، فقد خرج يوم الجمل إلى عليّ عليه السلام من شيعته من أهل البصرة من ربيعة ثلاثة آلاف رجل [٤]، وكذلك قدمت ربيعة على عليّ عليه السلام الكوفة لقتال معاوية بن أبي سفيان، بعد قدوم بني سعد الكوفة.

---

(١) مجالس المؤمنين: ص٦١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ص٦٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٣٢ ص١٢٠.

وكان الإمام علي عليه السلام يأمر عبد الله بن عبّاس بالإحسان إلى ربيعة فقد قال عليه السلام إلى ابن عبّاس :

« وأحسن إلى هذا الحي من ربيعة، وكلّ من قبلك، فأحسن إليهم ما استطعت إن شاء الله ».

أمّا دور قبيلة عبد القيس وهي معروفة في ولائها ونصرتها للإمام علي عليه السلام في حرب الجمل فهو جلّي واضح من خلال مواقف حكيم بن جبلة العبدي.

وقال أبو عمر: فلما قدم الزبير وطلحة وعائشة البصرة وعليها عثمان بن حنيف والياً لعليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعث عثمان بن حنيف، حكيم بن جبلة العبدي في سبعمائة من عبد القيس، وبكر بن وائل فلقي طلحة والزبير بالزابوقة قرب البصرة فقاتلهم قتالاً شديداً فقتل (رحمه الله).

وكان حكيم بن جبلة يقول اللهم اشهد، اللهم اشهد، وقال لأصحابه إني لست في شك من قتال هؤلاء يعني طلحة والزبير فمن كان في شك فلينصرف فقاتلهم قتالاً شديداً، وضرب رجل ساق حكيم فقطعها فأخذ حكيم الساق فرماه بها فأصاب عنقه فصرعه، وقتل يومئذ سبعون رجلاً من عبد القيس [(١)].

وعدّ أمير المؤمنين عليه السلام حكيم بن جبلة من عبّاد أهل البصرة ومخبتيهم.

وصايا الإمام علي عليه السلام ببني تميم

كتب عليه السلام إلى ابن عبّاس وهو عامله على البصرة فقال له :

حادث أهلها بالإحسان، واحلل عقدة الخوف من قلوبهم [خوف معركة الجمل] وقد بلغني تنمرك لبني تميم، وغلظتك عليهم، وان بني

---

(١) الإستيعاب في هامش الإصابة: ج١ ص٣٢٤.

تميم لم يغب لهم نجم إلّا طلع آخر، وانهم لم يسبغوا بوغم في جاهلية ولا إسلام، وأن لهم بنا رحماً ماسة، وقرابة خاصة، نحن مأجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها، وكان من شيعة علي عليه السلام من بني تميم حارثة بن قدامة أحد أشرافهم [١].

أما دور بني سعد في تثبيت جذور التشيع في البصرة فهو واضح من خلال زعيمهم الأحنف بن قيس، وان بني سعد لم تقاتل عليّاً عليه السلام يوم الجمل؛ إذ بعث الأحنف إلى الإمام عليّ عليه السلام: إنْ شئت أتيتك في مائتي فارس فكنت معك وان شئت اعتزلت ببني سعد فكففت عنك ستة الآف سيف، فاختار علي عليه السلام اعتزاله، وقد أرسلت عائشة إلى الأحنف تدعوه لنصرتها في حرب الجمل فأبى، واعتزل بالحلجاء من البصرة في فرسخين وهو في ستة آلاف.

فكان موقف شيعة البصرة واضحاً من قدوم عائشة، كما عبّر عنه أبو الأسود الدؤلي (رضي الله عنه) لما بعثه عثمان بن حنيف وهو يومئذٍ عامل الإمام عليّ عليه السلام على البصرة إلى عائشة، لما انتهت إلى مقر أبي موسى قريباً من البصرة ليعلم له علمهم فجاء أبو الأسود الدؤلي حتّى دخل على عائشة فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان.

قال: إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد.

قالت صدقت، لكنهم مع عليّ بن أبي طالب بالمدينة، وجئت استنهض أهل البصرة لقتاله، انغضب لكم من سوط عثمان، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟

فقال لها: ما أنت من السوط والسيف إنما أنت حبيس رسول الله،

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٣ ص٤٩٢.

أمرك أن تقرّي في بيتك، وتتلي كتاب ربك، ليس على النساء قتال، ولا لهن الطلب بالدماء، وأنّ عليّاً لأولى بعثمان منك وأمس رحماً، فأنهما ابنا عبد مناف، فقالت: لست بمنصرفة حتّى امضي لما قدمت له.

أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي؟

فقال: أما والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد ثم قام (١).

دور أهل البصرة في نصرة الإمام علي عليه السلام في صفين

قال نصر بن مزاحم في «كتاب صفين»: دخل أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة بعد رجوعه من البصرة ومعه أشراف من أهل البصرة (٢).

وقد قدم على الإمام عليّ عليه السلام بعد قدومه الكوفة من البصرة، الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة وحارث بن زيد، وزيد بن جبلة، وأعين بن ضبيعة وعظّم النّاس بنو تميم، وكان فيهم أشراف، ولم يقدم هؤلاء على عشيرة من أهل الكوفة.

فقام الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، وحارثة بن بدر، فتكلّم الأحنف فقال يا أمير المؤمنين أنه إنْ يك بنو سعد لم تنصرك يوم الجمل فأنها لم تنصر عليك وقد عجبوا أمس من نصرك، وعجبوا اليوم ممن خذلك، لأنهم شكوا في طلحة والزبير، ولم يشكّوا في معاوية، وعشيرتنا في البصرة فلو بعثنا إليهم فقدموا إلينا فقاتلنا لهم العدو [أي معاوية وأشياعه من أهل الشام] وانتصفنا بهم وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس.

ثم خاطب عليّ عليه السلام حارثة فوافق الأحنف في رأيه، فقال عليه السلام للأحنف أكتب إلى قومك، فكتب إليهم يحثّهم على الخروج

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٢ ص١٣٩.

(٢) كتاب صفين: ص٣.

والمسير إليه لقتال معاوية بن أبي سفيان.

وكتب معاوية بن صعصعة وهو ابن أخي الأشعث إلى بني سعد أبياتاً من الشعر في ذلك، فلما انتهى كتاب الأحنف، وشعر معاوية إلى بني سعد ساروا بجماعتهم حتّى نزلوا الكوفة فعزّت بالكوفة وكثرت.

وعن عبد الله بن عوف قال: إن عليّاً عليه السلام لم يبرح النخيلة حتّى قدم عليه ابن عبّاس بأهل البصرة، قال وكان كتب عليّ عليه السلام إلى ابن عبّاس:

أمّا بعد: فاشخص إليّ بمن قبلك من المسلمين والمؤمنين، وذكرهم بلائي عندهم، وعفوي عنهم، واستبقائي لهم، ورغبهم في الجهاد، وأعلمهم الّذي لهم في ذلك الفضل والسلام.

قال: فلمّا وصل كتابه إلى ابن عبّاس بالبصرة قام في الناس، فقرأ عليهم الكتاب وحمد الله وأثنى عليه وقال:

يا أيّها النّاس استعدّوا للشخوص إلى إمامكم، وانفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فإنكم تقاتلون المحلين القاسطين، الذين لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون حكم الكتاب، ولا يدينون دين الحق، مع أمير المؤمنين وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان بالحق والقيّم بالهدى والحاكم بحكم الكتاب الّذي لا يرتشي في الحكم، ولا يداهن الفجار، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

فقام إليه الأحنف بن قيس فقال: نعم والله لنجيبنك ولنخرجن معك، على العسر واليسر، والرضا والكره، تحتسب في ذلك الخير، وتأمل به من الله العظيم من الأجر.

وقام إليه خالد بن معمر السدوسي فقال: سمعنا واطعنا فمتى استنفرتنا نفرنا، ومتى دعوتنا اجبنا.

وقـام إليـه عمـرو بـن مرحـوم العبـدي فقـال: وفـق الله أمـير المـؤمنين، وجمـع لـه أمـر المسـلمين، ولعـن المحلـين القاسـطين الّـذين لا يقـرأون القـرآن، نحـن والله علـيهم حنقـون، ولهـم في الله مفـارقون، فمـتى أردتنـا صـحبك خيلنـا ورجلنا إن شاء الله.

فأجاب النّاس إلى المسير ونشطوا وخفوا [١].

ويقول معاوية بن أبي سفيان في رسالته إلى الإمام عليّ عليه السلام:

ولا حجتـك علـى أهـل الشـام كحجتـك علـى أهـل البصـرة؛ لأنّهـم أطاعوك ولم يطعك أهل الشام [٢].

وكـذلك خـرج شـيعة البصـرة لقتـال الخـوارج فقـال ابـن الأثـير خـرج شـريك الأعـور وكـان مـن شـيعة علـيّ لقتـال الخـوارج مـن البصـرة وانتخـب ثلاث آلاف فارس من الشيعة [٣].

شيعة البصرة والإمام الحسن بن عليّ

لم ترتـد شـيعة البصـرة بعـد استشـهاد الإمـام علـي عليـه السـلام، كمـا يؤيده التأريخ، وإليك مقالة سليمان بن صرد الخزاعي :

بعـد صـلح أمـير المـؤمنين الحسـن عليـه السـلام، مـع معاويـة بـن أبي سـفيان، جـاء سـليمان بـن صـرد إلى الحسـن عليـه السـلام وقـال لـه مـا ينقضـي تعجبنـا مـن بيعتـك معاويـة، ومعـك أربعـون ألـف مقاتـل مـن أهـل الكوفـة، وشيعتك من أهل البصرة. هذا أولاً.

ثانيـاً: وكـذلك لـدينا دليـل آخـر يؤيّـد بقـاء شـيعة البصـرة علـى ولائهـم لأمـير المـؤمنين الحسـن عليـه السـلام بعـد بيعـة النّـاس لـه بعـد شـهادة أمـير

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٢ ص٤٠٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٢ ص٣٩٣.

(٣) الكامل في التاريخ: ج١٣ ص٤٣١.

المؤمنين عليّ عليه السلام، فلمّا بلغ معاوية بن أبي سفيان شهادة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة النّاس ابنه الحسن عليه السلام دس رجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتب إليه بالأخبار ويفسد على الإمام الحسن عليه السلام الأمور فعرف الإمام الحسن عليه السلام بذلك فكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم فأخرج وضربت عنقه [١].

والدليل الثالث على بقاء شيعة البصرة على ولائهم لأمير المؤمنين الحسن عليه السلام، ما قاله عمرو بن العاص، لمعاوية بن أبي سفيان عندما قدم، وفد أهل البصرة على المعاوية زمان الإمام الحسن عليه السلام إذ قال عمرو، لمعاوية بأن الأحنف بن قيس، وصعصعة بن صوحان من شيعة عليّ الّذين قاتلوا معه يوم الجمل وصفين فكن منهم على حذر [٢].

والدليل الرابع موقف جارية بن قدامة السعدي البصري، قال المامقاني: لما رجع جارية من سيره بعد قتل عليّ عليه السلام دخل على الحسن عليه السلام فضرب على يده فبايعه، وعزاه، وقال: مايجلسك، سرْ يرحمك الله إلى عدوك قبل انْ يُسار إليك.

فقال عليه السلام: لو كان النّاس كلهم مثلك سرت بهم [٣].

وقد كان الإمام عليّ عليه السلام عالماً بأهل البصرة إذ يقول لهم: إني عارف لذي الطاعة منكم فضله، ولذي النصيحة حقه، غير متجاوز متهماً إلى بريء، ولا ناكثاً إلى وفي [٤].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤ ص٤٥.

(٢) المصدر السابق: ص١٣٣.

(٣) تنقيح المقال: ج١ ص٢٠٦.

(٤) المصدر السابق: ج٣٣ ص٤٩٥.

وكـذلك كـان أهـل البصـرة يـدركون مواقـف الإمـام علـي عليـه السـلام لهـم، وكـانوا يشـاطرونه في، مـا كـان يمـر بـه، فقـد كـان يبكـيهم كلامـه ومواعظـه، فعنـدما خطـب أمـير المـؤمنين عليـه السـلام في جـامع البصـرة فقـال لهـم معاشـر المـؤمنين والمسلمين .... إلى آخر كلامه فبكى أهل البصرة كلهم، وصلّوا عليه (١).

ثانياً: دور شيعة البصرة في نصرة الإمام الحسين بن علي

لم يكـن أهـل البصـرة غـافلين عـن شخصـية الإمـام الحسـين عليـه السـلام وعلمه، وفي ذلك روي عن الإمام الباقر عليه السلام هذه الرواية :

قـال وهـب بـن وهـب القرشـي، حـدّثني الصـادق جعفـر بـن محمّـد، عـن أبيـه عليهمـا السـلام إن أهـل البصـرة كتبـوا إلى الحسـين بـن علـيّ عليهمـا السـلام يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم (٢).

وعنـدما أرسـل أهـل الكوفـة كتـبهم إلى الإمـام الحسـين عليـه السـلام يدعونـه للقـدوم علـيهم، توجـه الحسـين عليـه السـلام إلى العـراق يـوم خـروج مسـلم بـن عقيـل بالكوفـة، وهـو يـوم التروية، بعـد مقامـه بمكّـة بقيـة شـعبان وشـهر رمضـان وشـوال، وذا القعـدة وثمـان ليـال خلـون مـن ذي الحجـة سـنة ٦٠ هـ وكـان قـد اجتمـع إلى الحسـن عليـه السـلام مـدة مقامـه بمكّـة نفـر مـن أهـل الحجاز ونفر من أهل البصرة انضافوا إلى أهل بيته ومواليه (٣).

ومـن الّـذين لحقـوا بالحسـين عليـه السـلام مـن شـيعة البصـرة وهـو في مكّـة يزيـد بـن ثبـيط العبـدي وابنـاه عبـد الله وعبيـد الله، وعـامر بـن مسـلم العبـدي، ومـولاه سـالم، وسـيف بـن مالـك، والأدهـم بـن أمية، وقـوي يزيـد بـن ثبـيط في

---

(١) المصدر السابق: ج٣٩ ص٣٤٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٢٣ رقم ١٤.

(٣) المصدر السابق: ج٤٤ ص٣٦٤.

الطريق حتّى انتهى إلى الحسين عليه السلام، وهو بالابطح من مكّة.

وقد أرسل الحسين عليه السلام كتبه إلى أشراف أهل البصرة يدعوهم لنصرته ولزوم طاعته، منهم يزيد بن مسعود النهشلي، والمنذر بن الجارود، وهو بمكّة فقد أرسل كتبه مع سليمان مولاه فكتب :

أمّا بعد، فان الله اصطفى محمّداً صلى الله عليه وآله على خلقه وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه، وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وآله، وكنّا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته، وأحق النّاس بمقامه في النّاس، فاستأثر علينا قومنا بذلك [فاغضينا كراهية للفرقة ومحبة للعافية] (١) ونحن نعلم إنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فان السنة قد اميتت، وان البدعة قد احييت، فان تسمعوا قولي وتطيعوا أمري، أهدكم سبيل الرشاد والسلام.

وكانت الشيعة في البصرة تجتمع في دار مارية بنت منقذ العبدية، وكانت دارها مألفاً للشيعة يتحدثون فيها.

وعندما أرسل الحسين عليه السلام كتابه إلى أهل البصرة اجتمع الشيعة في دار مارية العبدية لتدارس الموقف.

ومن الّذين أرسل لهم الحسين عليه السلام كتاباً، يزيد بن مسعود أبو خالد النهشلي البصري من أشراف البصرة يدعوه الحسين عليه السلام لنصرته.

فجمع يزيد بن مسعود قومه بعد قراءته كتاب الحسين عليه السلام، بني تميم، وبني حنظلة، وبني سعد، وبني عامر وخطبهم فقال:

يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم، وحسبي منكم؟ فقالوا: بخ

---

(١) في نسخة: فرضينا وكرهنا الفرقة واحببنا لكم العافية.

بـخ، أنـت والله فقـرة الظهـر، ورأس الفخـر، حللـت في الشـرف وسـطا، وتقدمت فيه فرطا.

قال: فاني قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه واستعن بكم عليه.

فقالوا له: إنا والله نمنحك النصيحة، نجهدك الرأي، فقل حتّى نسمع.

فقـال: أن معاويـة قـد مـات، فـأهون بـه والله هالكـاً ومفقـوداً، إلَّا وانـه قـد انكسـر بـاب الجـور والإثم، وتضعضـعت أركـان الظلـم، وقـد كـان أحـدث بيعـة عقـد بهـا أمـراً، وظـن أنـه قـد احكمـه وهيهـات الّـذي أراد، اجتهـد والله ففشـل، وشـاور فخـذل، وقـد قـال يزيـد شـارب الخمـور، ورأس الفجـور، يـدّعى الخلافـة علـى المسـلمين، ويتـأمر علـيهم بغـير رضـا مـنهم مـع قصـر حلـم، وقلّـة علـم، لا يعـرف مـن الحـق مـوطئ قدمـه، فأقسـم بـالله قسـماً مـبروراً، لجهـاده علـى الـدين، أفضـل مـن جهـاد المشـركين، وهـذا الحسـين بـن علـيّ أمـير المـؤمنين، وابـن رسـوله صـلى الله عليـه وآلـه، ذو الشـرف الأصـيل، والـرأي الأثيـل، لـه فضـل لا يوصـف، وعلـم لا ينـزف، هـو أولى بهـذا الأمـر، لسـابقته وسـنه، وقدمـه وقرابتـه يعطـف علـى الصـغير، ويحنـو علـى الكبـير، فـأكرم بـه راعـي رعيـة، وإمـام قـوم وجبـت لله بـه الحجـة، وبلغـت بـه الموعظـة، فـلا تعشـوا عن نور الحق، ولا تسعكوا في وهد الباطل.

والله لا يقصـر أحـد عـن نصـرته إلَّا أورثـه الله الـذل في ولـده، والقلـة في عشـيرته، هـا أنـا ذا قـد لبسـت للحـرب لامتهـا، وادرعـت لهـا بـدرعها مـن لم يقتـل يمـت، ومـن يهـرب لم يفـت فاحسـنوا رحمكـم الله رد الجواب.

فقالـت بنـو حنظلـة: يـا أبـا خالـد نحـن نبـل كنانتـك وفرسـان عشـيرتك، إنّ رميـت بنـا أصـبت، وإن غـزوت بنـا فتحـت، لا تخـوض غمـرة إلَّا خضـناها، ولا تلقى والله شدة إلَّا لقيناها، ننصرك بأسيافنا، ونقيك بأبداننا إذا شئت.

وقالت بنو أسد: أبا خالد إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافك، والخروج من رأيك.

وقالت بنو عامر: نحن بنو أبيك، وحلفاؤك لا نرضى إنّ غضبت، ولا نوطن إن ظعنت، فادعنا نجبك، وامرنا نطعك.

ثم كتب إلى الحسين عليه السلام:

أما بعد: فقد وصل إلى كتابك وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني له من الأخذ بحظّي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وان الله لم يخل الأرض من عامل عليها بخير، ودليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرعتم من زيتونة أحمدية، وهو أصلها، وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذلّلت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الأبل الظماء لورود الماء يوم خمسها، وقد ذللت لك بني سعد وغسلت درن قلوبها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع.

ثم أرسل الكتاب مع الحجاج بن بدر السعدي وكان متهيئاً للمسير إلى الحسين عليه السلام بعدما سار إليه جماعة من العبديين.

ثالثا: دور شيعة البصرة في الأخذ بثارات الإمام الحسين

وعندما أرسل الحسين عليه السلام كتابه إلى البصرة، صعد عبيد الله بن زياد المنبر فخطب وتوعد أهل البصرة على الخلاف وأثارة الأرجاف [١].

وأمر عبيد الله بن زياد فأخذ مابين واقصة إلى طريق الشام، وإلى طريق البصرة فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج [٢].

ولم تستطع شيعة البصرة الوصول إلى نصرة الحسين عليه السلام كما

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤ ص٣٣٧.

(٢) المصدر السابق: ص٣٧٠.

حصل ليزيد بن مسعود النهشلي عندما تجهز للخروج إلى الحسين عليه السلام، فبلغه شهادته قبل أن يسير فجزع من انقطاعه عنه.

وبعد شهادة الحسين عليه السلام شعر أهل الكوفة بالندم وأعلنوا توبتهم، لذا أرسل سليمان بن صرد كتاباً إلى شيعة البصرة للطلب بدم الحسين عليه السلام وأرسل الكتاب إلى المثنى بن مخرّبة العبدي وبعثه مع ظبيان بن عمارة التميمي من بني سعد.

فكتب المثنى الجواب:

أمّا بعد: فقد قرأت كتابك وأقرأته إخوانك، فحمدوا رأيك واستجابوا لك، فنحن موافقون إن شاء الله تعالى للأجل الّذي ضربت.

وقال الطبري: دعا سليمان بن صرد، المثنى بن مخرّبة للأخذ بدم الحسين، وجاء ومعه ثلاثمائة من أهل البصرة [1].

ويقول القنصل الروسي الكسندر أدامون في البصرة عام ١٩١٢ م في كتابه «ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها» ــ وهو الذي نحن بصدد تقديمه.

إن الشيعة في البصرة لم يدعوا الفرصة تمر بعد وفاة يزيد بن معاوية وحاولوا استغلال الاضطرابات الّتي قامت بسبب موت يزيد وكادت الانتفاضة الّتي أشعلوها أنْ تؤدّي إلى القضاء على الحكم العربي في العراق لقد بدأت هذه الانتفاضة بحملة من الشيعة تعدادها عشرة آلاف مسلح سارت نحو الشام وهدفها معاقبة عبيد الله بن زياد الّذي كان قد هرب من البصرة إلى الشام، لكن مروان بن الحكم الأموي الّذي كان قد اختير خليفة أسرع بإرسال جيشه لملاقاة حملة أهل البصرة فاستطاع هذا الجيش أن

---

(١) تاريخ الطبري: ج٥ ص٥٥٨، وبحار الأنوار: ج٤٥ ص٣٥٦، ٣٦٠، ٣٦٢.

يحطّم المنتقمين لدم الحسين.

غير إن هذا الفشل لم يكبح جماح الشيعة في البصرة فقد انضموا في السنة التالية إلى التمرد الّذي قام في الكوفة [1].

شهداء الطف من شيعة البصرة

١ . الأدهم بن أمية العبدي البصري [2].

صحابي سكن البصرة، فلما سمع وقعة كربلاء خرج مع يزيد بن ثُبيط وابناه عبد الله وعبيد الله، حتّى انتهى إلى مولانا الحسين عليه السلام، واستشهد في الحملة الأولى، وكان يجتمع في دار مارية البصرية.

٢ . الحجاج بن بدر التميمي، السعدي، البصري [3].

كان حامل كتاب يزيد بن مسعود النهشلي إلى الحسين عليه السلام، وله ذكر في زيارة الناحية المقدسة.

٣ . سيف بن مالك العبدي، البصري [4].

عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الحسين عليه السلام.

وقال المامقاني: شهيد الطف غني عن التوثيق وكان من الشيعة ممّن يجتمع في دار مارية بنت منقذ البصرية العبدية الّتي كان يجتمع شيعة البصرة في منزلها، فخرج مع يزيد بن ثبيط العبدي إلى الحسين عليه السلام، وانضمَّ إليه، وما زال معه حتّى قتل بين يديه في كربلاء مبارزة بعد صلاء الظهر.

---

(١) ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها: ج٢ ص١٥.

(٢) أعيان الشيعة: ج٣، ص٢٣٢، وتنقيح المقال: ج١، ص١٠٦، رقم ٦٢٣.

(٣) أعيان الشيعة: ج٤، ص٥٦٤، ومستدركات علم الرجال: ج٢، ص٣٠٦، ص٣٠٦ ، رقم ٣١٨١.

(٤) رجال الطوسي: ص٧٤، رقم ٣، وتنقيح المقال: ج١، ص٧٩، رقم ٥٤٦٣.

٤ ـ سالم مولى عامر بن مسلم البصري العبدي [١].

استشهد مع الحسين عليه السلام يوم الطف.

٥ ـ عامر بن مسلم بن حسان بن شريح العبدي، البصري [٢].

ذكر أهل السير أنه كان من الشيعة في البصرة فلما بلغه خبر الحسين عليه السلام خرج هو ومولاه سالم مع يزيد بن ثبيط العبدي، وانضموا إلى الحسين عليه السلام بالأطبح من مكّة حتّى ورد معه كربلاء، وقتل معه فيمن قتل في الحملة الأولى رضوان الله عليهم.

وقد زاده شرفاً على شرف الشهادة تخصيصه بالتسليم عليه في زيارة الناحية المقدّسة.

وذكره الفضل بن العبّاس بن ربيعة في قصيدته الّتي ينعى بها على بني أمية أفعالهم قال :

ارجعوا عامراً وردّوا زهيراً ثم عثمان فارجعوا غارمينا

٦ ـ عبد الله بن يزيد بن ثبيط العبدي، البصري [٣].

عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الحسين عليه السلام، قائلاً: معروف.

استشهد مع أبيه وأخيه عبيد الله مع الحسين عليه السلام.

٧ ـ عبيد الله بن يزيد بن ثبيط العبدي، البصري [٤].

---

(١) البحار: ج١٠١، ص٣٤٠، وفيه: (مسلم) وتنقيح المقال: ج٢، ص١١٧.

(٢) رجال الطوسي: ص٧٧، رقم ١٦، ورجال ابن داود: ص٢٥٢، رقم ٢٥٠. والبحار: ج٢٢، ص١٨٤.

(٣) رجال الطوسي: ص٧٧، رقم ١٥، وطبقات ابن سعد: ص٤٢.

(٤) رجال الطوسي: ص٧٧، رقم ١٥، وتاريخ الطبري: ج٥، ص٣٥٤.

ذكره الطوسي في أصحاب الحسين عليه السلام وقال: معروف.

استشهد مع الحسين عليه السلام يوم الطف مع أبيه وأخيه عبد الله، وزاد على شرف شهادته، شرف تسليم الحجة المنتظر عجل الله تعالى فرجه في زيارة الناحية المقدسة.

٨ . الهفهاف بن المهند الراسبي، البصري [1].

من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فارس شجاع من الشيعة المخلصين في محبة أهل البيت عليهم السلام، له ذكر في المغازي والحروب، وحضر مع أمير المؤمنين عليه السلام مشاهده، وأمّره عليه السلام في صفين على أزد البصرة، وكان ملازماً له عليه السلام، إلى أن قتل عليه السلام.

انضمّ إلى الإمام الحسين عليه السلام من مكّة إلى العراق خرج من البصرة فسار حتّى انتهى إلى العسكر بعد الوقعة فدخل على عسكر عمر بن سعد فسأل القوم ما الخبر، أين الحسين بن عليّ؟

فقالوا له: مَن أنت! فقال: أنا الهفهاف الراسبي البصري جئت لنصرة الحسين عليه السلام فقالوا: أما ترى هجوم القوم على المخيّم وسلبهم بنات رسول الله صلى الله عليه وآله؟

فلما سمع الهفهاف بقتل الحسين عليه السلام وهجوم القوم، انتضى سيفه وشدّ فيهم كليث العرين يضربهم بسيفه فلم يزل يقتل كلّ من دنا منه حتّى قتل منهم جمعاً كثيراً حتّى أُثخن بالجراح فحمل عليه جمع واحتوشوه حتّى قتلوه رضوان الله عليه.

وقال المامقاني: شهيد الطف فوق الوثاقة :

---

(١) تنقيح المقال: ج٣، ص٣٠٣، رقم ١٢٨٨٧.

٩ . يزيد بن ثبيط العبدي، من عبد القيس البصري [1].

عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الحسين عليه السلام.

وكان يزيد من شيعة البصرة، ومن أصحاب أبي الأسود الدؤلي، وكان شريفاً في قومه، اجتمع في دار مارية بنت منقذ العبدية وكانت دارها مألفاً للشيعة يتحدثون فيها.

وقال يزيد لأصحابه في بيت مارية: إني قد أزمعت على الخروج، وأنا خارج، فأجمع يزيد بن ثبيط على الخروج إلى الحسين عليه السلام، وكان له بنون عشرة، فدعاهم إلى الخروج معه، وقال أيكم يخرج معي متقدماً، فانتدب له اثنان، عبد الله وعبيد الله؟

وقال يزيد لأصحابه: إنّي والله إن لو قد استوت أخفافها بالجدد لهان عليَّ طلب من طلبني، ثم خرج وابناه، وصحبه بن مسلم العبدي، ومولاه سالم، وسيف بن مالك، والأدهم بن أمية، وقوي في الطريق حتّى انتهى إلى الحسين عليه السلام وهو بالأبطح من مكّة، فاستراح في رحله، ثم خرج إلى الحسين عليه السلام إلى منزله، وبلغ الحسين عليه السلام مجيئه فجعل يطلبه حتى جاء إلى رحله، فقيل له قد خرج إلى منزلك، فجلس في رحله ينتظره، وأقبل يزيد لما لم يجد الحسين عليه السلام في منزله، وسمع أنه ذهب إليه راجعاً على أثره، فلما رأى الحسين عليه السلام في رحله قال :

بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، السلام عليك يا ابن رسول الله، ثم سلم عليه وجلس إليه وأخبره بالذي جاء له، فدعا له الحسين عليه السلام بخير ثم ضمّ رحله إلى رحله، ومازال معه حتّى قتل بين يديه في

---

(١) رجال الطوسي: ص٨١، وتاريخ الطبري: ج٥، ص٣٥٤، وإبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ص١١٠.

الطف مبارزة، وقتل ابناه في الحملة الأولى.

وقد زاده شرفاً على شرف الشهادة، تسليم الحجة المنتظر عجل الله تعالى فرجه، عليه بالخصوص في زيارة الناحية المقدسة.

هذا ما أحببنا أنْ نشيرَ إليه في هذه العاجلة والمقدمة وإلّا فأن هناك جوانب كثيرة ومتعددة تخصُّ البصرة بالذات من حيث موقعها الجغرافي ــ في الماضي والحاضر ــ ومنزلتها العلمية؛ لأنّها إحدى المدارس اللغوية والنحوية التي يُشار لها بالبنان، وباللحاظ الاقتصادي؛ لكونها تعتبر عصب العراق وشريانه وثغره، ونسأل الله تعالى أنْ يوفّق الباحثين والمحققين، أو أحد أبنائها أن يكتبوا في هذه الجوانب وغيرها، إنه سميع الدعاء.

المقدمة

مؤلف هذا الكتاب الكسندر اداموف هو واحد من ديبلوماسي روسيا القيصرية المعروفين، عمل في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قنصلاً لبلاده في البصر، وكتابه هذا الذي صدر في سانت بطرسبورغ عام ١٩١٢م له أهمية خاصة. إنّ أهمية لا تكمن في كونه نتيجة لملاحظاته المباشرة ومعايشته للأحداث التي جرت في ولاية البصرة بشكل خاص والعراق بشكل عام والدولة العثمانية بشكل أعم فقط، وإنّما في كونه أيضاً حصيلة لاطلاع المؤلف على عدد واسع من المصادر والمراجع الروسية والفرنسية والألمانية والإنجليزية القيمة التي تتعلق بالمواضيع المختلفة التي يعالجها في هذا الكتاب خصوصاً وأن القسم الأغلب من هذه المصادر والمراجع إن لم يكن كلها غير متوفر في العراق، هذا إلى جانب المصادر العثمانية المتمثلة بالسالنامات الخاصة بولايتي البصرة وبغداد.

ومما يزيد من أهمية الكتاب أن مؤلفة، رغم تركيزه على ولاية البصرة والقسم الجنوبي من العراق، كثيراً ما يتعدى ذلك فيبحث العديد من الموضوعات التي تتعلق بالدولة العثمانية ككل فيقدم لنا بذلك صورة متكاملة وواضحة لتلك الموضوعات. لقد فعل ذلك مثلاً في حديثه عن التغلغل الاقتصادي الأجنبي في الدولة العثمانية وتكبيل الدول الأوربية لها مالياً، وكذلك في حديثه عن الطوائف الدينية المسيحية وغير ذلك من الموضوعات.

والكتاب كما هو واضح من عنوانه لا يقتصر عل موضوع معين، بل يتناول بالبحث كلّ ما يتعلق بولاية البصرة فهو يتحدث عن النواحي الجغرافية والإدارية والاقتصادية والصحية والتاريخية وأوضاع السكان وغير ذلك من الموضوعات ولهذا فهو أشبه بالموسوعة منه بالكتاب العادي.

لقد حافظنا على حرفية النص عند ترجمة هذا الكتاب غير إننا ارتأينا ضرورة الخروج عن هذه القاعدة في بعض الحالات القليلة منها إننا استبدلنا كلمة (القسطنطينية) بـ (اسطنبول) عندما كان الحديث يجري عن هذه المدينة باعتبارها عاصمة للدول العثمانية وأبقينا على التسمية القديمة عندما يكون المقصود عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، كما إننا استخدمنا مصطلح (الدولة العثمانية) أو (الإمبراطورية العثمانية) بدلاً من (تركيا) وهي التسمية التي كثيراً ما يطلقها الباحثون الأجانب ومنهم مؤلف هذا الكتاب على الدولة العثمانية.

لقد ارتأينا أن نبقي على أسماء الأعلام والمصطلحات التي أوردها المؤلف بلغات أجنبية كالفرنسية والألمانية والإنجليزية بلغتها الأصلية التي وردت بها في الكتاب ولكننا عمدنا إلى ترجمتها ــ عدا أسماء الأشخاص ــ في الهامش تسهيلاً للقارئ الكريم وتمكيناً له من تكوين فكرة متكاملة عن الموضوع.

كذلك حاولنا أن نشير إلى المصادر والمراجع التي استخدمها المؤلف وفق الأسلوب العلمي المتعارف عليه بين الباحثين وهو أمر تجاهله المؤلف تجاهلاً تاماً؛ إذ أنه يشير إلى المصادر التي استقى منها معلوماته بشكل غير منظم بعيد عن الأصول المتبعة في هذا الشأن، كما إننا عمدنا إلى ترجمة المصادر الروسية التي استخدمها المؤلف إلى اللغة العربية تلافياً لما قد يحدث من مشاكل طباعية.

بقي أن نذكر إننا أثبتنا في متن الكتاب بعض الهوامش والتعليقات توضيحاً لنقاط معينة أشار إليها المؤلف أو تصويباً لأخطاء وقع فيها سهواً، وفي عدد من الحالات أحلنا القارئ إلى مراجع عامة تعطيه فكرة موسعة عن الموضوع الذي يتطرق إليه المؤلف.

والكتاب في الأصل جزء واحد ولكننا ارتأينا تقسيمه على جزء أول وجزء ثانٍ وذلك لأسباب فرضت هذا التقسيم في مقدمتها أنه يحتوي مجالين في الدراسة منفصلين؛ يشمل الأوّل الذي نقدمه للقارئ الآن على خمسة فصول يتناول المؤلف فيها موضوعات جغرافية واقتصادية وإدارية وبشرية عامة. في حين يعرض الثاني الذي نأمل أن نقدِّمه قريباً للتطورات التاريخية في ولاية البصرة، ولذلك وجدنا من الأنسب أن يقدم كتاب ضخم كهذا إلى القارئ الكريم منفصلاً إلى جزئين. وفي الختام أملنا كبير في أن نكون قد أدينا بهذا العمل المتواضع خدمة للمكتبة العربية وللقارئ.

هاشم التكريتي

الفصل الأوّل

لم تكن ولاية البصرة حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أكثر من جزء من باشوية بغداد التي تمتد من الخليج حتى مدينة ماردين طولاً ومن كردستان وجبال فارس حتى صحراء سوريا وشبه جزيرة العرب عرضا. لقد كانت الولاية لا تقل مساحته عن مساحة أي من الدول الأوروبية [1] تعاني وضعاً شاذاً؛ فهي من ناحية كانت تفصلها عن بقية الدولة العثمانية سلاسل جبلية وعرة وصحاري قاحلة أصعب منالاً، وهي من الناحية الأخرى باعتبارها محاددة لفارس وتقطنها قبائل عربية وكردية تحب الحرية، كانت على الدوام موضوعاً للنزاعات الاستيلائية لشاهات فارس ومسرحاً لانتفاضات عربية وكردية متعددة ضد السيطرة التركية. وقد تطلبت جدية الكفاح ضد العدو الخارجي والاضطرابات الداخلية في وقت واحد ضرورة تقوية سلطة وأهمية باشا بغداد. وذلك أمر لم يكن ممكناً، في الوضع السياسي والمالي الذي كان سائداً في الإمبراطورية العثمانية والذي يذكرنا كثيراً بنظام العصور الوسطى الإقطاعي، إلّا بتوسيع المناطق الخاضعة لسلطنة هذا الباشا من أجل أن تزيد بهذه الوسيلة الأموال التي

(١) واضح أن حكماً كهذا يفتقر إلى الدقة فالحقيقة أن هناك العديد من الدول الأوروبية التي تزيد مساحتها على مساحة هذه الولاية. (المترجم).

تلزمه للصرف على جيش دائمي لا يستهان به. لذا فلم يكن بالإمكان تقسيم باشوية بغداد إلى أجزاء أصغر بهيئة ولايات الموصل وبغداد والبصرة إلّا بعد تغير الظروف السياسية في تلك الأنحاء، ولم تستطع الحكومة العثمانية أن تنهي ما كان يتمتع به ولاة بغداد من شبه استقلال غير مرغوب به من وجهة نظر النزعة المركزية، إلّا بعد أن زال خطر الغزو الفارسي الدائم واستكانت القبائل العربية والكردية المحلية لدرجة معروفة للنير التركي.

كانت ولاية الموصل هي الأولى التي فصلت عن باشوية بغداد حيث تألفت في ١٨٧٨م من سناجق الموصل وشهرزور والسليمانية وأصبحت تحادد ولاية بغداد بخط يسير من عنه على الفرات إلى تكريت على دجلة. وقد حتمت عودة السيطرة العثمانية في ١٨٧١م على القطيف وعلى واحة الحسا وكذلك احتلال القوات العثمانية للبدع [1]، وهي المدينة الرئيسة في شبه جزيرة قطر، حتمت ضرورة توحيد المنطقة التي أعيد الاستيلاء عليها إدارياً مع باشوية بغداد. إن إدارة بغداد لمنطقة يفصلها عن بقية الباشوية الخليج كانت أمراً بالغ الصعوبة في حين كانت البصرة التي تقع على نهر شط العرب الصالح لسير السفن البحرية الميناء الطبيعي للخليج كما أنها تبدو، باعتبارها مركزاً عثمانياً متقدماً في الزاوية الشمالية الشرقية لشبه جزيرة العرب، كما لو أن الطبيعة نفسها قد خصصتها للغرض المشار إليه.

لقد فصلت ولاية البصرة لأول مرة عن باشوية بغداد في عام ١٨٧٥م وأعطيت إدارتها لناصر باشا الشيخ المنتفكي المشهور من عائلة السعدون كمكافأة له على اشتراكه الفعال في إخضاع الحسا. ومع استدعاء ناصر باشا في ١٨٧٩م إلى اسطنبول انقطع مرة أخرى الوجود المستقل لولاية البصرة ،

---

(١) البدع هو الاسم القديم لمدينة الدوحة عاصمة قطر حاليا. (المترجم).

ولم يتقـــرر تحويـــل البصـــرة مجـــدداً إلى مركـــز إداري منفصـــل تحـــت إدارة والي مستقل عـن بغـداد إلّا في ١٨٨٤م. ومنـذ ذلـك التـاريخ لم تنضـم ولايـة البصـرة إلى ولايـة بغـداد وكـل ارتباطهـا بهـذه الأخـيرة يقتصـر في الوقـت الحاضـر علـى أن القـوات المرابطـة ضـمن حـدود ولايـة البصـرة تعـود إلى الفيلـق السـادس الـذي يوجـد مقـر قيادتـه في بغـداد وإن كـلّ مؤسسـات ولايـة البصـرة ودوائرهـا كالكمـارك والبريـد والـبرق والحجـر الصـحي وإدارة الـدين العثمـاني العـام وشـركة الريجـي الخاصـة بـالتبغ والبنـك العثمـاني الرسمـي تتبـع مباشـرة كـلّ لمركزها الرئيس الموجود في بغداد.

تبلـغ مسـاحة ولايـة البصـرة بمـا في ذلـك الحسـا والقطيـف وقطـر حسـب تقـدير ف. كونيـه [١] مـا يقـرب مـن ١٣٠٠٠٠ كـم مربـع في حـين تقـدر المعطيـات العثمانيـة الرسميـة الـواردة في الحلويـات الرسميـة الخاصـة بولايـة البصـرة هـذه المسـاحة بـ ١٥٠٠٠٠ كـم مربـع. ويمكـن اعتبـار الـرقمين كليهمـا تقـريبيين فقـط بسـبب مـن إن حـدود الولايـة كمـا سـنرى لاحقـاً لم تكـن محـددة بدقـة ومـع ذلـك فإن الرقم الأخير هو في رأينا الأقرب إلى الحقيقة على أية حال.

أمـا حـدود ولايـة البصـرة فهـي كـالآتي: الصـحراء السـورية أو الشـامية [٢] مـن الغـرب والصـحراء الرمليـة لشـبه جزيـرة العـرب مـن الجنـوب والخلـيج مـن الجنـوب الشـرقي وفـارس مـن الشـرق، أمـا مـن الشـمال فتحـدها ولايـة بغـداد الـتي تتصـل بهـا ولايـة البصـرة إلى الأعلـى مـن بلـدة علـي الغـربي علـى دجلـة

---

(1) V. cuinet: la turquire d Asia. Geographic Administrative. Paris 1891.T.iii. p. 215

(٢) الشـامية اسـم يطلقـه المؤلـف علـى باديـة الشـام وواضـح إن ذلـك فضـلاً عـن عـدم دقتـه مـن الناحيـة العلميـة، ربمـا يـؤدي بالقـارئ إلى الخلـط بـين باديـة الشـام ومدينـة الشـامية المعروفـة في العـراق، ولهـذا فإننـا سنسـتخدم مصـطلح باديـة الشـام كلمـا ورد ذكر الصحراء السورية في المستقبل. (المترجم).

وحصن قلعة الدراج على الفرات. وهكذا تنتهي الحدود الغربية والجنوبية إلى صحاري تسكنها قبائل عربية، حيث تعيق الظروف الطبيعية التي تمر بها تلك الأصقاع بالطبع أي تخطيط للحدود. كذلك تتصف الحدود مع فارس بقدر قليل من الدقة على الرغم من أن هذه القضيّة كانت طيلة سنوات عديدة وابتداء من ١٨٤٩م موضوعاً لعمل لجنة حدود خاصة تتألف من ممثلي فارس والدولة العثمانية ومندوبين عن روسيا وبريطانيا [(١)]. وقد تمخضت جهود الدولتين الأخيرتين عن وضع خارطة عين عليها شريط يتراوح عرضه بين ٢٠ ـ ٤٠ كم كان على فارس والدولة العثمانية أن تعينا خط الحدود ضمنه. ومع ذلك لم تستطع لا فارس ولا الدولة العثمانية حتى الآن أن تتفقا على ذلك نهائياً. وقد ظل الوضع غير المحدود للحدود العثمانية ـ الفارسية على الدوام حجة لقيام خلافات على الحدود يكون بعضها جدياً مثل الخلاف الأخير الذي أدى إلى استيلاء الدولة العثمانية على قسم لا يستهان به من إقليم أذربيجان الفارسي وهو القسم الواقع إلى الغرب من بحيرة أورميا.

وتتألف ولاية البصرة التي تمتد من منتصف المجرى الأدنى لنهري دجلة والفرات حتى شبه جزيرة قطر من قسمين قليلي الشبه ببعضهما من حيث الظروف الجغرافية، ففي الوقت الذي يتألف فيه الشريط الساحلي الممتد من شبه جزيرة قطر إلى الكويت فيكون بذلك منطقة نجد أو الحسا [(٢)] من صحراء يغلب فيها السكان الرحل وتحتوي على واحات قليلة جداً، يعتبر

(١) ي. أي: تشيريكوف؛ سجل الطريق، بإشراف م. أ. كمازوف. سانت بطرسبورغ ١٨٧٥م، ص٥٥، من المقدمة وما بعدها. [بالروسية].

(٢) لا يقصد المؤلف هنا نجد بالمعنى الجغرافي وهو الاقليم الذي يقع في وسط جزيرة العرب وإنما يقصد سنجق نجد أو الحسا كان أحد سناجق ولاية البصرة. (المترجم).

القسم الثاني الذي ترويه أنهار دجلة والفرات وشط العرب واحدة من أخصب بقاع الكرة الأرضية وقد اشتهرت منذ القدم بأنها (مخزن حبوب مقدمة آسيا).

وتبعاً لهذا التقسيم الطبيعي لولاية البصرة فإنها في وصفنا لها من الناحية الجغرافية سنقوم بتقسيمها إلى قسمين نبحث في أولهما القسم الشمالي والأكثر تحضراً من الولاية ونستعرض في القسم الثاني الحسا وهو بلد مقفر لم يبحث إلّا قليلاً.

يطلق اسم العراق الجنوبي في الخرائط الجغرافية على القسم الشمالي النهري من ولاية البصرة الذي يتميز بخصوبته غير إن كثيراً من الرحالة الأوروبيين يسمونه ما بين النهرين الأدنى. وهذه التسمية الأخيرة ليست صحيحة تماماً من الناحية العلمية لأن المصطلح العلمي (ما بين النهرين) يعني في أعمال الجغرافيين فقط المثلث الذي يكونه المجرى الأوسط لنهري دجلة والفرات من جهة وسفح هضبة أرمينيا من الجهة الأخرى أي الأقليم المعروف عند العرب باسم (الجزيرة). لهذا فإن ما بين النهرين لا يمتد إلى الجنوب من بغداد التي تقع تقريباً على الحدود بينها وبين بلاد الكلدانيين القديمة أي العراق العربي الذي يشمل بالإضافة إلى ولاية البصرة الأطراف الجنوبية لولاية بغداد أيضاً. ويعين العقيد (جسني) الباحث المتخصص في ما بين النهرين الحدود التي تفصل ما بين النهرين عن العراق العربي بشكل أكثر دقة فهو يؤكد أن العراق العربي يمتد في الشمال إلى الموضع الذي كان يقوم به السور الميدي القديم الذي يتجه من صدر قناة الدجيل على دجلة حتى مصب قناة الصقلاوية [1] في الفرات أي إلى ما

---

(١) الصحيح هو تفرع الصقلاوية من الفرات وليس مصبها فيه لأن جدول الصقلاوية كما هو معروف لايصب في الفرات وإنما يأخذ مياهه منه. (المترجم).

يوازي مدينة سامراء الحالية [١].

وإذا توخينا الدقة فإن اسم العراق الجنوبي ليس مصطلحاً جغرافياً وإنما هو على الأصح أثر أثنواغرافي وسياسي من آثار الماضي ظل قائماً منذ القرن الثالث عشر أي منذ عهد الايلخانيين خلفاء هولاكو، إذ لم تتوحد تحت سلطة هؤلاء الإيلخانيين ولايتا بغداد والبصرة الحاليتان فحسب وإنما شملت سلطتهم أيضاً الاقاليم الفارسية: كرمنشاه وهمدان واصفهان وكاشان وقم، ولهذا فإنهم أطلقوا على المنطقة التي يقطنها العرب اسم العراق العربي وعلى البلاد التي يسكنها الفرس اسم العراق الفارسي وذلك تجنباً للبلبلة الإدارية [٢].

والعراق الجنوبي من حيث السطح عبارة عن سهل ليس فيه مرتفعات أو سلاسل جبلية عدا تل صغير بالقرب من الزبير هو جبال سنام وجبال الحدود الفارسية المتاخمة للضفة الشرقية من دجلة وهي جبال بشت كوه التي تمكن رؤيتها جيداً من النهر عند كوت الأمارة لأنها في هذا الموضع لا تبعد عن دجلة إلّا مسافة ٢٠ ميلاً. وسهل العراق الذي هو امتداد لما بين النهرين ينحدر باتجاه الخليج وهذا أمر تؤكده مقارنة بسيطة بين الأرقام التي تشير إلى مقدار ارتفاع المدن الواقعة على دجلة بالتتابع من الشمال إلى الجنوب على مستوى سطح البحر. مثل الجزيرة [٣] والموصل وبغداد فالأولى تقع على ارتفاع ٤٠ متراً فقط [٤]. ثم يستمر الانحدار بعد

---

(1) F. R. Chesney: the expedition for the survey of the Revir Euphrates and tigris. Londan. 1850. vo. 1. pp. 29. 30.

(2) K. Ritter die Erdkunde von Asien. Berlin 1844. vII Abt. II. S. 925

(٣) جزيرة أن عمر. (المترجم).

(3) E. Jung. Les puissances Devant La Revolit Arabe. Paris. 1906.

ذلك بشكل أكثر انتظاماً فبموجب التحريات التي أجراها السيد ولكوكس تقع كوت الأمارة على ارتفاع ١٧،٥ متراً والعمارة على ارتفاع ٨،٥ متراً والقرنة على ارتفاع ٣ أمتار في حين لا ترتفع البصرة إلّا ٢،٥ متراً عن مستوى سطح البحر [١].

وتتألف تربة العراق الجنوبي من الألومينا الجيرية أو من الطمي الجيري الذي تكون نتيجة لترسبات دجلة والفرات وهما النهران العظيمان في المدخل (الغربي) [٢] ولذا فإن جزءاً صغيراً من الصحراء هناك يتكون من السبخات وتغطيه طبقات من الرمال وذلك ما يميز تلك الصحراء عن صحاري شبه جزيرة العرب بل ومصر أيضاً [٣].

وعلى أي حال بإمكان سهل العراق حتى في حالته المهملة حالياً أن يطعم عدداً كبيراً من الماشية التي تمتلكها القبائل العربية المتنقلة التي لا تعاني قطعانها من النقص في عشب المرعى إلّا في سنوات الجفاف غير الاعتيادي. وتساعد رواسب النهرين التي تزيد من خصوبة التربة على أن ترتفع المنخفضات العراقية تدريجياً وباستمرار ويقوم نهر الفرات بالدور الرئيسي في هذا المجال نظراً لأنه بسبب من جريانه الهادئ السلس يرسب كميات كبيرة من الغرين على ضفتيه في حين يحمل دجلة الذي يكون ماؤه سريع الجريان القسم الأغلب من ترسباته إلى الخليج حيث تترسب عند مصب شط العرب على هيئة حاجز فتستخلص من البحر بهذا الشكل مساحة من اليابسة متزايدة باستمرار. وقد استمر هذا الصراع منذ آلاف

---

(1) W.Willcocks: the Irrigation of Meso potamia. London. 1911. pp 27. 30.

(٢) أضفنا كلمة (الغربي) لوجود أنهار عديدة في مدخل آسيا الشرقي. (المترجم).

(3) K. Ritter; op. cit T. VII. Abs II s. 957. 958

السنين ولذا فليس من المستغرب أن نجد أن المواضع التي كانت قبل ٣٠٠٠ سنة أي منذ وقت قريب من وجهة نظر الجيولوجيا تحت الماء هي الآن برٌّ صلب، وتشير حسابات العالم الإنجليزي راولنسون إلى أن مياه الخليج تراجعت في الفترة من ١٧٩٣ إلى ١٨٥٣ أي خلال ٦٠ سنة بمقدار ٣٢٠٠ متراً باتجاه الجنوب أي بعدل ٥٣م سنوياً الأمر الذي يسمح بالافتراض بأن ضفة الخليج الشمالية كانت قبل ثلاثين قرناً تقع إلى الشمال من القرنة الحالية بمسافة ٣٠ ميل (١).

ويحتل الفرات ودجلة في حياة العراق نفس الأهمية التي يحتلها النيل في مصر، وكما إنه لم يكن بالإمكان تصوّر قيام أية حضارة هناك بدون ذلك النهر المقدس في نظر المصريين كذلك كان النهران كلاهما هنا أساساً لازدهار المنطقة في السابق وضماناً لانبعاثها في المستقبل. ويمكن الاختلاف بين النيل والنهرين العراقيين في أن موسم الفيضان بالنسبة للأول يقع في آب ــ تشرين الأوّل حيث يتجمع الماء الفائض في أحواض يعود منها مرة أخرى إلى النيل عند هبوط مياهه اعتباراً من شهر تشرين الثاني، في حين يحل فيضان الفرات ودجلة في شهر آذار ــ أيار ثم يعقبه أكثر فصول السنة حرارة وجفافاً اعتباراً من حزيران حتى نهاية أيلول حيث يضطر المزارعون بسبب توافق موسم هبوط المياه في النهرين مع فصل الصيف إلى اللجوء إلى ري الحقول اصطناعياً بواسطة القنوات أو مضخات المياه (٢).

ويمكن أن يطلق على الفرات ودجلة اسم: النهرين التوأمين، فكل منهما ينبع من هضبة أرمينيا من مواقع لا تبعد عن منابع الآخر ثم يفترقان

(1) E. Reclus. Novvelle Geographite Universelld. T. IX. P> 407$.

(2) W. willcocks: OP. cit. P. 5.

لبعض الوقت إلى جهات مختلفة حيث يعبران السلاسل الجبلية إلى سهل ما بين النهرين فيظهر الفرات إلى الغرب من جبل مازيوس (قرة داغ حالياً) ودجلة إلى الشرق منه. ومنذ هذه اللحظة لا يجد النهران عقبات تعيقهما فيبدأن بالاقتراب من بعضهما حيث يأخذ الفرات ابتداءً من عنه اتجاهاً موازياً لدجلة مقترباً منه إلى مسافة لا تزيد عن ٢٧ فرستاً [١] تارة كما هي الحالة عند بغداد ومبتعداً إلى مسافة ١٤٣ فرستاً تارة أخرى كما هي الحالة مقابل علي الغربي. ويلتقي النهران عند القرنة ومن هناك تأخذ مياه الفرات المتحدة مع مياه دجلة طريقها بقوة وأبهة نحو الخليج تحت اسم شط العرب.

ويتكون الفرات الذي يبلغ طوله ٢٦٧٠ فرستاً من التقاء نهري قره ـ هو الذي ينبع من موضع يقع على بعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال الغربي من أرضروم ومرد ـ جاي الذي ينبع من السفح الجنوبي لجبل الاداغ الواقع إلى الشمال من بحيرة وان. وتتحد مياه هذين النهرين تحت اسم الفرات [٢] الذي يتجه نحو البحر المتوسط وقبل أن يبلغه بمسافة ١٧٧ فرستاً محسوبة على أساس خط مستقيم من حلب إلى الاسكندرونة ينحرف بحدة عند موضع قلعة باليس باتجاه الجنوب الشرقي ويجتاز الصحراء السورية.

وبعد ذلك يجتاز الفرات منطقة تلال طباشيرية تؤلف الذيول الأخيرة للسلاسل الجبلية الواقعة في الشمال، ثم تكتنف مجراه بالقرب من مدينة

---

(١) الفرستا مقياس للطول مقداره ١٠٦٠ متراً. (المترجم).

(٢) يرجع جنسي هذه التسمية إلى الفعل العبري فيرات أو فرات الذي يعني يخصب أو يلقح.

عنه حوال ٢٦ جزيرة ويمتلئ مجراه بسلسلة من الصخور تعيق الملاحة وخصوصاً في موسم نقص المياه في الفرات أي اعتباراً من ايلول إلى منتصف تشرين الأوّل حيث تقل المياه في النهر في هذا الشهر إلى درجة كبيرة بحيث أن القوافل تعبر النهر في الموضع المذكور مخاضة.

يصل عرض الفرات عند مدينة عنه (عانة) إلى ٤٥٠ ارشينا [١] ولكنه يأخذ بعد ذلك بالضيق تدريجياً ابتداءً من الفلوجة حيث يذهب قسم من مياهه إلى دجلة خلال قناة الصقلاوية وذلك بفضل الانحدار الذي تتميز به الأرض في هذه المنطقة باتجاه هذا النهر الأخير [٢].

في أربعينيات القرن الماضي جاءت إحدى أميرات الهند لزيارة العتبات الشيعية المقدسة في كربلاء والنجف وقررت أن تنعم على هاتين المدينتين المقدستين بتجهيزهما بمياه جيدة للشرب، فحفرت لهذا الغرض وعلى حساب الأميرة قناة تصل الفرات بالمدينتين المذكورتين عرفت باسم الهندية. وأخذت القناة تتسع بمرور الزمن بضغط المياه ثم جاء إغلاق فوهة قناة الصقلاوية على الفرات في ١٨٧٠م بمبادرة مدحت باشا وإلى بغداد آنذاك فأدى إلى أن يتجه النهر الذي ازداد حجمه لا إلى مجراه الرئيسي وإنما إلى قناة الهندية التي تقع إلى الأسفل منه. لقد جذبت هذه الأخيرة كلّ مجرى الفرات بحيث أدت إلى جفاف الفرع الرئيسي للنهر تقريباً وهو الفرع الذي يتجه إلى مدينتي الحلة والديوانية اللتين أخذ يهددهما لهذا السبب خطر البقاء دون مياه كلياً. فاضطر احتمال خراب هذه المناطق الغنية الحكومة العثمانية لأن تباشر بنشاط عملية إعادة النهر إلى

---

(١) الأرشين مقياس روسي قديم للطول مقداره ٧١ سنتمتراً. (المترجم).

(2) F. R. Chesnesy. OP. cit. vol.I. p.55.

مجراه القديم فبنيت لهذا الغرض بالقرب من مدينة المسيب سدة أشادها مهندسون فرنسيون استجلبوا خصيصاً لهذا الغرض لكن بناءها لم يساعد إلّا جزئياً على إعادة الفرات إلى مجراه القديم [1].

ويمر الفرات إلى الأعلى من مدينة الحلة بالقرب من إطلال بابل التي يشتغل الأثاريون بالتنقيب فيها منذ عدة سنوات، ثم يدخل بعد ذلك في منطقة من القنوات والمسطحات المائية ذلك أن المياه تغمر المناطق المتاخمة للنهر في فصل الفيضان الربيعي بسبب انخفاض ضفتيه فتكوّن مستنقعاً مائياً متصلاً واسعاً ويمتد عشرات الفرستات على جانبي النهر.

ومما يساعد على زيادة مساحة المستنقعات أيضاً الشبكة الواسعة من قنوات الري التي تتفرع من النهر حيث تمتلئ في الربيع بسبب انعدام السدود إلى درجة بحيث تطفح المياه من ضفافها. وتعرف هذه المستنقعات في الخرائط الجغرافية باسم مستنقعات لملون [2] والتسمية مأخوذة من اسم قناتين رئيستين تتفرعان من الفرات هما لملون [3] القديم الذي يتفرع من الفرات في موضع يقع على بعد ٢٧ فرستاً إلى الجنوب من الديوانية ولملون الجديد الذي تقع بدايته إلى الجنوب من بداية الأوّل بعض الشيء [4].

وتبتلع هذه القنوات الفروع جميعاً كمية وافرة من مياه الفرات إلى درجة بحيث أن النهر نفسه يبدو وكأنه يختفي في الأهوار والمستنقعات. وبالرغم من أن القياسات التي أجراها ضباط البحرية الإنجليزية في عام

---

(1) W. Willcocks. OP.cit.p.12.

(٢) الصحيح لملوم. (المترجم).

(٣) الصحيح لملوم. (المترجم).

(4) K. Ritter. OP. Cit. T. VII. Abs. II. S. 978 FF.

١٨٤٠م تشير إلى أنه عبارة عن مجرى عرضه ٧٠ أرشيناً وعمقه ١٢ قدماً فإن القياسات التي جرت مؤخراً أظهرت أن المياه فيه لا تزيد في الكثير من الأماكن على ٧٥ سم [١].

ولا يستعيد الفرات منظره الجليل السابق فيأخذ بالجريان بسلاسة اعتباراً من موضع سوق الشيوخ متجهاً شرقاً إلى أن يلتقي بدجلة في القرنة، إلّا بعد عودة للون القديم والجديد على المجرى الرئيسي في موضع قلعة الكرة وعلى الأخص بعد أن تصب فيه بعض مياه دجلة بواسطة قناة شط الحي [٢].

أما دجلة الذي يبلغ طوله ١٧٢٠ فرستاً لا غير فإنه يتكون كتوأمه الفرات من التقاء جدولين ينبعان من السفوح الجنوبية لانتي طوروس وبعد أن يتجه إلى الشمال الشرقي يأخذ مجراه في قلب كردستان ثم يتجه من هناك إلى ديار بكر حيث تصب فيه في واديها عدة روافد منها الكبير ومنها الصغير وبعد ذلك يشق طريقه إلى الموصل وأطلال نينوى المشهورة الواقعة تجاهها على الضفة اليسرى من النهر. ويستمر دجلة في جريانه دون أن يغير اتجاهه الجنوبي الشرقي إلى أن يصل إلى الموضع الذي يصب به فيه الزاب الكبير فينحرف بشكل مباشر تقريباً نحو الجنوب. ويصل إلى قلعة الشرقاط أو توبرك قلعة سي بالتركية أي إلى الأعلى قليلاً من مصب الزاب الصغير عند جبال حمرين. وتأخذ هذه السلسلة الجبلية [٣] بخناق النهر من الجانبين فيسعى إلى الإفلات مسرعاً إلى سهل أسفل ما

---

(1) V. Berard: Le Sultan. I islam et Puissances. Paris. 1907.p.420.

(٢) شط الحي أو الغراف. (المترجم).

(٣) هي في الواقع ليست سوى سلسلة من التلال لا يرقى ارتفاعها إلى مستوى أكثر الجبال انخفاضاً. (المترجم).

بين النهرين مشكلاً في هذا المكان خطراً كبيراً حتى على الملاحة بواسطة الأكلاك والأطواف [١] التي تستخدم القرب المنفوخة بالهواء [٢]. ولا يصبح دجلة صالحاً للملاحة إلّا ابتداء من تكريت التي ينساح فيها النهر عريضاً بعد أن يصل إلى متسع رحب مكوناً العديد من الجزر حيث تكثر في موسم الفيضانات أسراب الطيور المائية الكثيرة العدد وحيث يعمد العرب القاطنين على الضفاف إلى زراعة بساتين الخضار [٣] في موسم نقصان المياه.

ويستمر جريان دجلة منذ اللحظة التي يخرج فيها إلى السهل وحتى القرنة باتجاه يوازي جبال فارس الواقعة على الحدود والتي ترسل إليه كلّ جداولها الكبيرة منها كديالى والصغيرة كمندلي وبدرة وطيب ودويريج. يصل النهر وهو يجري بسرعة إلى بغداد عاصمة العباسيين سابقاً، ثم يدفع مياهه العكرة بعد ذلك لتجري بالقرب من إطلال العاصمتين القديمتين طيسفون وسلوقيا الواقعتين على جانبي النهر إحداهما مقابل الأخرى فكان ذلك سبباً دفع العرب إلى تسمية هذا الموضع بـ (المدائن) أي المدينتين [٤].

---

(1) F. R. Chesney. OP. cit. VoI.I. P. 16 FF.

(٣) الحقيقة هي أن الأكلاك غير الأطواف فالأولى هي التي تستخدم فيها القرب المنفوخة بالهواء، أما الثانية فلا تستعمل فيها هذه القرب وإنما تعتمد على قابلية الخشب على الطوفان. (المترجم).

(٣) يقصد المؤلف ما يسمى بالعامية (الشواطي) أو (الشطاطي) أي الرقي والبطيخ والخيار وغير ذلك مما يزرعونه على ضفة النهر في تلك المناطق. (المترجم).

(٤) المدائن لا تعني المدينتين، وإنما تعني المدن طبعاً. وبالفعل فقد أطلق عليها هذا الاسم لأنها تتألف من عدة مدن. يذكر صاحب معجم البلدان إنها كانت مسكناً لعدد من الملوك المختلفين «فكان كلّ واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه

وعند كوت الأمارة الواقعة على بعد ٣٦٠ فرستاً أسفل بغداد يتفرع دجلة إلى فرعين يتجه الكبير منهما وهو الفرع الرئيسي إلى القرنة أما الأصغر فإنه يقطع العراق تحت اسم شط الحي ويصب في الفرات في موضعين عند بلدة العرجة والآخر عند قرية أبي صوف التي تقع قبل القرنة بما يقارب ١١٢ كم.

وفي منتصف الطريق بين دجلة والفرات يتفرع شط الحي بدوره إلى فرعين هما بوجي خيرات وشط العمه [١] ولا يزال الأوّل منهما أي الفرع الغربي صالحاً للملاحة حتى الوقت الحاضر لمدة ستة أشهر في السنة حيث يصل عرضه في موسم الفيضان إلى ١٤٠ أرشيناً وعمقه إلى ٧ أرشينات، وتستخدمه عادة المراكب الشراعية العربية لنقل الحبوب والغلال من المنطقة الخصبة جداً التي يرويها شط الحي الذي يعرف أيضاً باسم (الغراف) [٢].

وعلى امتداد المسافة من مصب نهر ديالى عند بلدة بعقوبة أي على بعد ٤٠ فرستاً إلى الجنوب من بغداد [٣] وحتى بلدة علي الغربي يكون

مدينة إلى جانب التي قبلها وسماها باسم. فأولها المدينة العتيقة التي لزاب ... ثم مدينة الاسكندر ثم طيسفون من مدائنها ثم إسطانبر ثم مدينة يُقال لها رومية فسميت المدائن بذلك». (ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، المجلد الخامس، ص٧٤ ـ ٧٥) (المترجم).

(١) إن اسمي فرعي الغراف المذكورين هما البدعة والشطرة، وأما جدول (العمه) كما يسمى محلياً فهو جدول يتفرع من الغراف إلى الجنوب من بلدة الحي بقليل. (المترجم).

(2) F. R. Chesmey. OP. voI. I. Pp36 - 37.

(٣) لا تقع مدينة بعقوبة عند مصب نهر ديالي، فديالي يصب في دجلة إلى الجنوب من بغداد بحوالي ٣٢ كم في حين تقع مدينة بعقوبة على بعد حوالي ٥٦ كم إلى الشمال الشرقي من بغداد. (المترجم).

مجـزى دجلـة كثـير التعـاريج بحيـث يكـاد كـلّ منعطـف مـن منعطفاتـه أن يشـكل دائـرة كاملـة حـتى ليبـدو أحيانـاً للمسـافر الـذي يراقـب مـن علـى ظهـر السـفينة المراكـب الشـراعية الـتي تمـر بهـذه المنعطفـات، إن هـذه المراكـب لا تتحـرك مـن مكانهـا وإنهـا تسـحب علـى الأرض لأن مـن غـير الممكـن رؤيـة تعرجات النهر بسبب ارتفاع ضفتيه.

وابتـداءً مـن بغـداد وحـتى العمـارة تقريبـاً يصـبح دجلـة نهـراً عظيمـاً يـتراوح عرضـه مـا بـين ٤٢٠ و ٤٩٠ أرشـيناً وعمقـه مـا بـين ١١ أرشـيناً في موسـم الفيضـان وأرشـينين في موسـم الصـيهود. وإلى الأعلـى مـن العمـارة قلـيلاً يتفـرع مـن الجانـب الأيمـن مـن دجلـة أول تلـك الفـروع الـتي تنقـل الميـاه مـن النهـر إلى المسـتنقعات الواقعـة في مجـراه الأدنى فتسـاعد بـذلك علـى نقصـان الميـاه في هـذا الشـريان الوحيـد الصـالح للملاحـة في العـراق العـربي. وتشـير حسـابات السـيد ولكـوكس (١) إلى إن هـذا الفـرع الـذي يعـرف باسـم بـاتره (٢) والفـرع الآخـر الـذي يتفـرع مـن جهـة النهـر اليسـرى في العمـارة نفسـها والـذي يعـرف باسـم جالـة (٣) يسـتنزفان كميـة كبـيرة مـن الميـاه بحيـث إن دجلـة في هـذا الموضـع لا يكـاد يبلـغ ٢٥٠ أرشـين عرضـاً و ١/٢، ٥ أرشـين عمقـاً في موسـم الفيضـان. إن فـرع جالـة شـأنه في ذلـك شـأن المجـر الكبـير الـذي يتفـرع مـن ضـفة النهـر اليمـنى إلى الأسـفل مـن العمـارة والمشـرح الـذي يتفـرع مـن جانبـه الأيسـر تقـع جميعهـا في مسـتوى النهـر فتؤلـف بسـبب الكميـة الكبـيرة الـتي تبتلعهـا مـن الميـاه الخطـر الرئيسـي علـى وجـود دجلـة كنهـر صـالح للملاحـة

---

(1) W. Willcocks: OP. cit. pp. 28 – 29.

(٢) يقصد البتيرة. (المترجم).

(٣) يقصد الكحلاء أو الجحلة كما يسمى محلياً. (المترجم).

بحيث أنه يضيق في هذا الموضع حتى يبلغ عرضه ٨٥ أرشيناً. ولا يستعيد دجلة شكله السابق إلّا ابتداءً من موقع النبي عزرا [١] وذلك بفضل ورود المياه إليه من الأهوار المحيطة به فيأخذ بالجريان متعاظماً حتى يصل إلى القرنة.

ودجلة بالمقارنة مع الفرات يكون أقصر بمقدار مرة ونصف تقريباً ولكنه يفوق توأمه في سرعة الجريان ولهذا أسماه العرب السهم [٢] (دجلة) [٣]. ويتخذ دجلة بسبب سريعة تياره والارتفاع والهبوط السريعين لمياهه في موسم الأمطار والفيضان طابع الجدول الجبلي الحقيقي الذي يستبعد أن تكون الملاحة فيه، وعلى الأخص ضد التيار، ممكنة حتى فبل بغداد لو لم توجد في مجراه المنعطفات التي أشرنا إليها أعلاه.

ومن الخصائص الأخرى التي ظل دجلة يتميز بها حتى الربع الأخير من القرن التاسع هي غزارة مياهه، فالمعطيات التي أوردها ريكلوس [٤] (e. reclus) تشير إلى أن كمية المياه التي يحملها إلى الشمال

---

(١) يقصد بلدة العزيز. (المترجم).

(٢) حول أصل تسمية دجلة وغيره من أنهار العراق راجع: جمال بابان. « أصول أسماء العراق وأنهاره الرئيسية » مجلة آفاق عربية عدد آذار ١٩٨٠ ص٩٨ ــ ١١١ المترجم

(٣) تشير حسابات الضباط البحريين الانجليزيين كليفلاند (Cleveland) ومورفي (murphy) إلى أن سرعة جريان دجلة شمال بغداد هي ٧،٣٣ قدماً في الثانية في حين يجري الفرات إلى الشمال من هيت بسرعة ٤،٤٦ قدماً في الثانية :

(f.r. Chesney: op. cit. vol. L. p. 62)

ولا تتعدى سرعة دجلة حسب آخر ملاحظات السيد ولكوكس الـ ٤/٩، ٥ قدم في الثانية . انظر: (w. willcockes: op. cit.p.28)؟

(4) (e. reclus: op. cit. t. lx.p.390).

من بغداد تبلغ ٤٦٥٦ متراً مكعباً في الثانية، في حين لا يحمل الفرات إلى الشمال من هيت إلّا ٢٠٦٥ متراً مكعباً في الثانية، لا أكثر هذا في الوقت الذي أعطت القياسات الحديثة التي أجراها المهندس الانجليزي السيد ولكوكس (1) للفرات في هيت ٢٧٥٠ متر مكعب مكعباً كحدٍ أعلى و ٤٠٠ متر كحد أدنى ولدجلة في بغداد ٣٠٠٠ متر مكعب كحد أعلى و ٣٠٠ متر مكعب كحد أدنى علماً بأن الحد الأعلى في الحالتين يقع في نيسان والحد الأدنى يقع في تشرين الأول. وبمقابلة المعطيات القديمة والحديثة المتعلقة بكمية المياه في دجلة والفرات يظهر بأنها متعادلة تقريباً بغض النظر عن كثرة الروافد لدى الأول وقلتها عند الثاني، فبعد أن يخرج الفرات إلى سهل ما بين النهرين لا يصب فيه رافد يستحق هذه التسمية إلّا الخابور ذلك إن الوديان الأخرى التي تصب فيه ليست سوى سيول شتوية تجف مع حلول حرارة الصيف.

كانت القرنة التي تقع على بعد ٧٠ فرستاً إلى الأعلى من البصرة تعتبر حتى وقت قريب الموضع الذي يلتقي فيه دجلة والفرات حيث يعرف المجرى المائي الذي يتكون من التقائهما باسم «شط العرب» أي النهر العربي. أما في الوقت الحاضر فإن المهندس الإنجليزي ولكوكس الذي أجري قياسات وقام ببحوث في العراق العربي تتعلق بخطة لإحياء نظام الري القديم في هذه المنطقة يؤكد بأن أية كمية من مياه الفرات لا تصب في دجلة بل إن هذا الأخير هو الذي يرسل قسماً من مياهه لتسير في المجرى الذي تركه توأمه الفرات. ويقودنا اكتشاف ولكوكس هذا إلى الاستنتاج بأن جزء شط العرب الواقع بين القرنة وكرمة علي وهو إسم

(1) (w. willcockes: op. ci. p. 8)

لموضع يقع على بعد ١٠ فرستات إلى الأعلى من البصرة يلتقي فيه الفرات بدجلة حقيقة، ما هو إلّا استمرار لدجلة ولهذا فمن غير الصحيح تسميته بشط العرب. وتشير قياسات السيد ولكوكس إلى أن عرض شط العرب، وهو الأسم الذي سنستمر على استخدامه، بين القرنة وكرمة علي يتراوح بين ٣٥٠ و ٥٣٠ أرشين في حين يبلغ عمقه ١/٤، ١١ أرشين ولا يكبر إلّا بعد أن يصب فيه الفرات فيصل عرضه إلى ٧٧٠ أرشيناً وعمقه إلى (١٩/٢، ١) أرشين. وتبلغ المسافة من البصرة حتى مصب شط العرب في الخليج ١٠٠ فرستاً يتراوح عرض النهر على امتدادها بين ٧٧٠ أرشين في مجراه الأعلى و ١٥٤٠ أرشيناً على الأسفل من مصب الكارون فيه بواسطة قناة الحفار. وتبلغ سرعة التيار في شط العرب عند البصرة ٦٣، ٥ قدم في الثانية ويصب في شط العرب إضافة إلى نهر الكارون الذي ينبع من جبال خوزستان نهر فارسي مهم آخر هو نهر كيركه [1] أو شط السويب وذلك في موضع يبعد ٨ فرستات إلى الأسفل من القرنة. وقبل أن يصيب الخراب في ١٨٣٧م السد الذي كان قائماً في مدينة الحويزة كان فرع آخر من هذا النهر يصب مباشرة في موضع غير بعيد عن مرقد النبي عزرا.

ويعترض مجرى شط العرب بين القرنة والمحمرة الواقعة عند مصب الكارون في ذلك النهر عدد كبير من الجزر، تقع إثنتان منها إلى الأعلى من

---

(١) كيركة هي التسمية التي يطلقها المؤلف على نهر الكرخة (أنظر ص٢٦ من هذا الكتاب) وهو غير نهر السويب، فالأول أي الكرخة ينبع من المرتفعات الأيرانية ويصب في الجانب الشرقي من هور الحويزة في حين أن الثاني أي نهر السويب يأتي بمياه هذا الهور من أجزانه الواقعة جنوب العزير ويصبها في شط العرب إلى الجنوب من القرنة بحوالي ٩ كيلو مترات أنظر: حسن الخياط، جغرافية أهوار ومستنقعات العراق، القاهرة ١٩٧٥، ص٢٤. ٦٧ ـ المترجم.

البصرة، أما عن الجزر الواقعة إلى الأسفل من البصرة فأقر بها إلى هذه الأخيرة جزيرة صلاحية [1]. التي يعرفها جيداً جميع المسافرين الأوربيين القادمين إلى البصرة بطريق البحر ذلك أنه كان يتحتم على أغلبيتهم أن يقضوا فترة قد تمتد طويلاً في مركز الحجر الصحي الواقع في الطرف الشمالي للجزيرة المذكورة. وتوجد إلى الأسفل من الصحلاحية على مسافة غير بعيدة عن مصب قناة الحفار، جزيرتان صغيرتان آخريتان يفصلهما عن بعضهما ممر ضيق، وتقعان على مقربة من الضفة اليسرى لشط العرب لذلك فإنهما تشكلان مع تلك الضفة فرعاً صغيراً للنهر صالحاً لمرور السفن.

ويكون شط العرب إلى الجنوب من المحمرة جزيرتين آخريتين هما خضر والمحيلة تقع ألاولى التي سميت على اسم الخضر الشخصية المقدسة عند المسلمين والمدفون فيها، بالقرب من قرية عبادان ويبلغ طولها ١٢ ميلاً في حين يتراوح عرضها بين ميل واحد وأربعة أميال. أما الثانية الواقعة في نفس موقع الأولى ويفصلها عنها شط العرب فإنها تتخلف عن جارتها من حيث الحجم لدرجة ملحوظة.

ويحد جزيرة خضر من الجنوب الخليج ومن الشرق بهمشير وهو فرع للكارون يأخذ قسماً من مياهه ويصب في الخليج. ومن الشمال قناة الحفار ومن الغرب شط العرب ولذلك فإنها تبدو كما لو أنها امتداد للضفة اليسرى لهذا النهر الأخير. وقد تنازلت الدولة العثمانية عن هذه الجزيرة وعن منطقة المحمرة لفارس بموجب المادة الثانية من معاهدة أرضروم لعام ١٨٤٧ التي نصت على تأخذ فارس جزءاً من الضفة اليسرى

---

(١) يقصد جزيرة الصالحية ـ المترجم.

من شط العرب يمتد لمسافة ٦٨ فرستاً من الخليج إلى مصب قناة « أبو جودي » بالقرب من قلعة شيخ المحمرة في الفيلية.

وتكمن أهمية شط العرب بالنسبة للبصرة في صلاحيته للملاحة حيث أصبحت البصرة بفضل ذلك، الميناء الطبيعي للخليج رغم أنها تبتعد عنه بما يقرب من مائة فرست. والواقع أن عمق شط العرب يبلغ درجة تستطيع معها السفن التي يبلغ غاطسها ١٥ قدماً الوصول إلى البصرة في أي فصل من فصول السنة. أما في أثناء المد الذي يحدث مرتين في اليوم ويرتفع مستوى المياه في النهر بسببه بمقدار ٤ ــ ٦ أقدام فإن المرور فيه لا يسبب مشكلة حتى بالنسبة للسفن ذات الغاطس الأعمق من ذلك.

وهكذا فإن العائق الوحيد للملاحة الجيدة، هو الحاجز المتكون عند مصب شط العرب والذي يتألف من مضحلين هما مرقط عبد الله الذي يتاخم الضفة اليمنى النهر ومرقط عبادان الذي يبدو كامتداد لضفته اليسرى. وينحدر كل من هذين المكاني الضحلين الذين يكونان ما يشبه الهلال باتجاه خور الكافكة الذي يكون المجرى الغربي لشط العرب ويؤلف حالياً المجرى الملاحي لسير السفن البحرية. وتمتد القناة المذكورة لمسافة ١١ ميلاً حتى رأس البيشة الذي تقع الفاو بالقرب منه، ويتراوح عمقها عند انخفاض المياه ما بين ٨ و ١١ قدماً يقل إلى ٧ أقدام قبل الفاو بميلين. ويضطر هذا المكان الضحل السفن ذات الغاطس الكبير نسبياً إلى انتظار الوقت الذي يصبح فيه القمر بدراً أو هلالاً حيث ترتفع المياه عند الحاجز إلى ١٧ ــ ١٩ قدماً، هذا بالرغم من أن المرور خلال الحاجز لا يشكل خطراً حتى بالنسبة للسفن التي يزيد غاطسها بمقدار قدم أو قدمين عن الحد المقرر وذلك بسبب من أن قاع الحاجز طيني ناعم ليس فيه صخور صلبة. إن فرع شط العرب الواقع إلى الشرق من خور الكافكة معروف، بالرغم من

طوله وكثرة تعرجاته، بأنه أكثر صلاحية للملاحة ولكنه خال من علامات الإرشاد ولذلك فإنه لا يصلح لمرور السفن ذلك أنه يصعب المرور حتى في خور الكافكة دون مساعدة مرشد عربي على الرغم من وجود أربع عوامات أقامتها في هذه القناة شركة النهد البريطانية للملاحة البخارية (British India Navigation Company) التي كانت تقوم برحلات بريدية أسبوعياً بين الهند وموانئ الخليج (١).

وعلى بعد ٢٠ كيلومتراً إلى الغرب من مصب شط العرب يقع مصب الفرع الذي كان الفرات سابقاً يصب بواسطته مباشرة في الخليج منفصلاً عن دجلة والذي عرفه اليونانيون باسم بالاكوباس أما العرب فيطلقون عليه حالياً أسم جيري زادة (٢). ولا يزال هذا الفرع حتى الآن يأخذ قسماً ملحوظاً من مياه الفرات طيلة ثمانية أشهر من السنة على الأقل وهو صالح تماماً لسير السفن الشراعية العربية ويلاحظ أن المسافة التي تفصل مصب جيري زادة عن مصب شط العرب تزداد من سنة لأخرى بسبب من أن مصب شط العرب يتقدم تدريجياً وباضطراد نحو الشرق بتأثير ترسبات تيار الخليج الذي يجري من شواطئ فارس نحو الضفة الغربية من الخليج.

ولن يكون وصفنا للعراق الجنوبي من الناحية الهيدروغرافية كاملاً إذا لم نتعرض لذكر القنوات القديمة التي ذكرها هيرودوت والتي لا تزال موجودة بحالة متفاوتة الدرجة من الجودة (٣) فبفضل منشآت الري تلك كانت جميع أصقاع المجرى الأسفل للفرات ودجلة التي تؤلف في قسمها

---

(1) H. J Wigham: The Persian Problem. London. 1903. p. 125 FF.

(٢) الصحيح جري سعدة . المترجم.

(3) K. Ritter. Op. cit. t. IXS.418 FF: t. VII. Abt. l.S. 201 FF.

الأغلب في الوقت الحاضر جزءاً من الصحراء التي تحرقها الشمس أو هي عبارة عن مستنقعات تستعصي على الاجتياز، كانت في وقت من الأوقات تشغلها البساتين والحقول ويقطنها بشكل مكثف سكان مزارعون مجدون. وتختلف هذه القنوات في حجمها تبعاً للهدف من إنشائها وهو هدف مزودج، فالبعض منها كالصقلاوية الذي يأخذ مياهه من الفرات إلى الأعلى قليلاً من الفلوجة ويصب في دجلة بالقرب من بغداد وكذلك الأنهر التي توازيه وهي على التوإلى من الأعلى إلى الأسفل: نهر عيسى (أبو غريب حالياً) ونهر صرصار (الرضوانية حالياً) ونهر ملك ونهر الكوت (وهذا الأخير كان يصب في دجلة إلى الأسفل من سلوقيا) لم تكن تستعمل للري فقط وإنما تستخدم أيضاً كشرايين صالحة للملاحة تمتد لعشرات الأميال في العراق العربي وتربط بين الفرات ودجلة؛ وينتمي النهروان الذي يجري في الضفة الشرقية لدجلة ويوزع المياه من رافدي هذا الأخير على كل المنطقة الواقعة بين بغداد وكوت الامارة وجبال الحدود الفارسية إلى هذا النوع من القنوات إذ أنه كان صالحاً للملاحة أيضاً بفضل عمقه الملحوظ الذي يصل في بعض المواضع إلى ١٥م. أما القنوات الأخرى فكانت مخصصة للري فقط لذلك فإنها تختلف في حجمها لدرجة ملحوظة عن النوع الأول، ومنها: شط الكار والمحمودية واللطيفية والاسكندرية التي تتغذى بالمياه من الفرات والدجيل والاسحاقي وغيرها التي تأخذ مياهها من دجلة.

وقد استكمل نظام الري، بهدف حماية البلاد من الفيضانات ولكي توزع مياه الري بالتساوي، بعدد من السدود المبنية من الحجر والطابوق. مثل سد ظهر العوض أو نمرود بالقرب من نينوى، وقد بنيت بإحكام إلى درجة بحيث ظلت آثارها قائمة حتى الوقت الحاضر على الرغم من مرور

آلاف السنين [١].

لقد كانت دراسة جميع منشآت الري القديمة هذه حتى القرن الحالي سيئة إلى درجة بحيث لا توجد هناك بالنسبة لأغلبية هذه القنوات أية معلومات لا عن زمن بنائها ولا عن اتجاهاتها بالضبط ولا حتى عن مدى صلاحيتها. ويتحتم علينا أن نأمل بأن لجنة المهندسين الأوروبيين برئاسة السيد ولكوكس التي تقوم منذ ١٩٠٨ بدراسة حقلية لوضع خطة لإحياء بلاد الكلدانيين القديمة عن طريق إعادة إنشاء قنواتها الاروائية، ستساعد على حل هذه المسائل وكثير من المسائل المهمة الأخرى المتعلقة بنظام الري القديم في العراق العربي.

وكان السيد ولكوكس وهو واحد من الشخصيات البارزة التي أهتمت بالري في مصر، وقد زار العراق العربي في شتاء ١٩٠٤ للإطلاع مسبقاً على طبيعة عمله القادم وقد اقتنع آنذاك بعدم جدوى الاقتصار على مجرد ترميم منشآت الري. ولهذا السبب أدخل في مخططه أيضاً حماية العراق من الغرق بسبب الفيضان الربيعي للأنهار وكذلك تخفيف الأهوار التي تحتل حالياً ما يقرب من ثلث سهول العراق.

وتتكرر الفيضانات التي أشرنا إليها أعلاه سنة بعد أخرى فتسبب للسكان خسائر تتفاوت في حجمها تبعاً لحجم الفيضان نفسه، فقد انقطعت بغداد مثلاً خلال الـ ٧٥ سنة الأخيرة عن العالم الخارجي ١٧ مرة بسبب الفيضانات وكان انقطاعها لفترات تتراوح بين شهر واحد وأربعة أشهر هذا إذا أهملنا الفيضانات الأخرى الأصغر حجماً [٢].

---

(1) F. R Chesney: op. cit. Vol.1.p.21.

(٢) السالنامة الخاصة بولاية بغداد لسنة ١٣٢١ هـ ص١٥٩ - ١٦٠.

أمـا في البصـرة فقـد دمـر فيضـان شـط العـرب في عـام ١٨٩٠ مليـوني نخلـة وهـي الوسـيلة الأساسـية للغـذاء والثـروة بالنسـبة للأهـالي هنـاك. لكـن الحكومـة العثمانيـة، بسـبب قلـة مـا تحـت يـدها مـن أمـوال، في وضـع لا يمكنهـا مـن مكافحـة هـذا الشـر الـذي يعـود في أصـله بالدرجـة الأولى إلى الاستعاضـة عـن السـدود الغاليـة التكـاليف بحـواجز بدائيـة تبـنى مـن حـزم القصـب المجـدول والطـين. فمثـل هـذه المنشـآت القائمـة حاليـاً في جميـع أنحـاء العـراق العـربي لا تتحمـل بـالطبع ضـغط فيضـان الربيـع لـذلك أصبـح تسـرب الميـاه إلى السـهول المحيطة بالفرات ودجلة ظاهرة مألوفة.

وتمتـد الميـاه الراكـدة الـتي تكونـت مـن الفيضـانات الـتي تتكـرر سـنوياً والـتي يسـميها الأتـراك بحـيرة (مـوخ صـو) ويطلـق عليهـا العـرب اسـم جزائـر المنتفـك، باتجـاه مسـتقيم مـن بلـدة سـوق الشـيوخ علـى الفـرات حـتى أسـوار البصـرة وتمتـد نحـو الغـرب حـتى مجـرى الفـرات القـديم جـيري زادة، في حـين تتصـل في الشـرق بميـاه هـور العمـارة الـتي تحتـل الضـفة اليمـنى لدجلـة إلى الأعلـى والأسـفل مـن قـبر عـزرا. وتتكـون مـن ميـاه هـذه المسـتنقعات جميعهـا بحـيرة حقيقيـة يبلـغ طولهـا مـا بـين ٥٠ إلى ٦٠ سـاعة سـير في القـارب وعرضـها مـا بـين ٢ إلى ٣ سـاعات في حـين يتجـاوز عمقهـا في بعـض المواقـع المـتر الواحـد وهنـاك مسـتنقع آخـر لا يقـل سـعة عـن ذلـك يُعـرف باسـم هـور عـزام يحتـل مسـاحة كبـيرة إلى الشـرق مـن دجلـة تمتـد مـن العمـارة حـتى نهـر كيركـة وموضع الحويزة.

إن تجفيـف المسـتنقعات الـتي تتـاخم المجـرى الأدنى للفـرات ودجلـة وهـو الاجـراء الـذي تضـمنه مشـروع السـيد ولكـوكس لـدرء الفيضـان السـنوي لهـذين النهـرين هـو قيمـة حقيقيـة للـبلاد لا في المعـنى الاقتصـادي فحسـب وإنمـا مـن وجهـة النظـر الصـحية في المنطقـة إيضـاً ذلـك أن العـراق العـربي هـو

في الوقت الحاضر بؤرة لكل أنواع الملاريا التي تتخذ في القسم الجنوبي منه وفي منطقة البصرة طابع الوباء المحض. ويمكننا أن نتبين إلى أي مدى يكون المناخ قاتلاً هناك بالنسبة للأجانب من المثل الذي اطلقه العرب والذي معناه كالآتي: أنا البصرة معروفة لكم جيداً إذا حضر غريب فانبئوني وإذا ما ذهب عني سالماً معافى فلوموني [1].

وينطبق المثل المذكور على العراق الأدنى بأجمعه إذ أنه يشبه البصرة تماماً في مناخه، ولكنه يفقد معناه بالنسبة للعراق إلى الشمال من كوت الامارة فلقد بات من الأكيد تماماً أن مناخ العراق يزداد جفافاً ويصبح صحياً أكثر كلما ابتعدنا عن الخليج. وهكذا فإن الأوروبيين يتحملون حرارة الصيف التي تصل في بغداد في أحيان كثيرة إلى ٥٠ درجة مئوية في الظل بفضل جفاف الهواء الرائع أسهل من تحملهم لدرجة الحرارة التي تقل عن ذلك في البصرة (٤٥ درجة مئوية كحد أعلى في الظل) حيث الهواء مشبع ببخار الخليج والمستنقعات المحيطة بالمدينة على السواء.

ومما لا شك فيه أن العراق العربي ينتمي من حيث ظروفه المناخية العامة إلى البلدان الحارة حيث تنقسم السنة إلى فصلين حار وبارد يتميزان عن بعضهما بشكل حاد، فالحرارة تبدأ بالارتفاع اعتباراً من النصف الثاني من آذار بعد ربيع قصير هو أطيب أوقات السنة في هذه الأصقاع، وتصل في تموز في البصرة وفي آب في بغداد إلى أعلى معدل لها [2]. ولا تأخذ

---

(1) T.M. Lycklama a Nijeholt: Voyage en Russie au Caucase et en Paris. 1872. t.III. p.74.

(٢) في الوقت الذي يكون فيه الحد الأعلى في بغداد ٥٠ درجة مئوية في الظل فإن هذا الحد لا يتعدى في البصرة ٤٥ مئوية علما بأن الحرارة تستمر في الأخيرة بمعدل أعلى من ٣٩ درجة مئوية في الظل لمدة لا تقل عن المائة والعشرين يوماً.

الحرارة بالانخفاض إلا اعتباراً من النصف الثاني من أيلول فتأخذ الليالي بالبرودة ويحل الخريف الذي يجلب معه الراحة للحيوانات والناس المنهكين. والشتاء في البصرة أدفأ منه في بغداد بشكل محسوس، فدرجات الحرارة تتراوح في النهار ما بين ١٠ و ١٥ درجة مئوية تنخفض في الليل إلى ١/٥ درجة مئوية ولكنها لا تنخفض أكثر من ذلك إلّا نادراً، في حين لا يزيد متوسط درجات الحرارة في النهار في بغداد خلال شهري كانون الأول وكانون الثاني عن ٥ درجات مئوية، أما في الليل فيحدث الصقيع أحياناً وتصل درجة الحرارة إلى ٥ درجات مئوية تحت الصفر.

وظروف سكان البصرة أسوء من ظروف سكان بغداد من حيث وسائل الاحتماء من الحر، فهؤلاء الأخيرون يقضون كل يومهم في الصيف في سراديب تحفر في الأرض لعمق يصل إلى عدة أرشينات لذلك تكون درجة الحرارة فيها أقل بدرجة محسوسة منها على السطح، أما في الليل فإنهم يأخذون أماكنهم في العراء على سطوح بيوتهم المستوية دون أن يخشوا الاصابة بالحمى وذلك بفضل جفاف الهواء المدهش.

أما في البصرة فليس بالامكان بناء سراديب بسبب قرب المياه الجوفية من سطح الأرض ولهذا يتحتم على الكثيرين في الصيف أن يقنعوا بالغرف الخانقة في الطابق الأسفل حيث تعلق على الشبابيك من الخارج، بهدف خفض الحرارة في الغرف، أطر من سعف النخل المجدول على شكل أقفاص تشبه رقعة الشطرنج وتملأ هذه الأقفاص بالعاقول أو الشوك الجاف ويصب عليها الماء بين الحين والأخر، وليالي الصيف في البصرة بعكس حالتها في بغداد، لا تختلف عن النهار من حيث القيض وانحباس الهواء كما أن الندى يسقط أثناءها ولهذا يتعذر النوم على السطوح إلا تحت سقائف سميكة معمولة من القصب. وتبعاً لهذه الظروف لا يتأتي

لساكن البصرة أن يستريح في الليل من تعب النهار لذلك فإنه يهرب عند أول فرصة إلى بغداد لكي يقضي برهة على الأقل من فصل الصيف الثقيل.

وليس بمقدور العراق الجنوبي ان يفخر بغزارة سقوط الأمطار فيه بالمعدل السنوي لسقوط الأمطار فيه لم يتعد طيلة ٢٥ سنة ابتداء من ١٨٨٨ مقدار ٨،٣٤ أنج حيث وقع الحد الأعلى ومقداره ٢٢،٣١ أنج في عالم ١٨٩٤ في حين كان الحد الأدنى ومقداره ١،٤٧ أنج من نصيب عام ١٩٠١ [(١)] وليس لهذه الأصقاع فصل محدد للأمطار كبقية البلدان المدارية، فالأمطار تسقط في العراق العربي بشكل متفاوت وفي فترات متباعدة ابتداء من النصف الثاني من تشرين الأول حتى نهاية نيسان. أما حزيران وتموز وآب وايلول فهي خالية من الأمطار نهائياً. وفي الوقت الذي يكون فيه سقوط البرد ظاهرة اعتيادية في هذه الأنحاء يكون الثلج نادراً حتى في بغداد التي تقع إلى الشمال من البصرة كثيراً إلى درجة بحيث أن الأسفار التاريخية تشير إلى سقوطه الذي يحدث مرة أو مرتين في القرن، على أنه حادثة خارجة عن المألوف.

وتعتبر الرياح الشمالية والشمالية الغربية من الرياح السائدة في العراق، فالأخيرة تهب اعتباراً من شهر أيار لمدة ستين يوماً بدون انقطاع تقريباً ويقسم الأهالي هذه الفترة إلى فترتين هما البارح الصغير ومقدارها ٢٠ يوماً والبارح الكبير (الريح) التي تستمر أربعين يوماً. وتجلب الرياح

(١) بلغ المعدل السنوي لكمية الأمطار الساقطة في السنوات السبع الواقعة بين ١٩٠٤ ونهاية ١٩١٠ مقدار ٤،٩٦ أنج حيث كانت النهاية العظمى ومقدارها ١٠،٢٣ أنج في ١٩٠٧ في حين صادقت النهاية الصغرى ومقدارها ٢،٨٧ أنج في ١٩٠٩: W. Willcocks: op. cit. p.74

الشمالية الغربية معها سحباً من الغبار يتشبع بها الهواء إلى درجة بحيث تصبح الشمس بالنسبة لمن ينظر إليها عبارة عن قرص ضخم من النحاس الأحمر. ويحل في نهاية تموز والنصف الأول من آب فصل « السموم » أو الرياح الحارة التي تمر على رمال صحاري شبه الجزيرة العربية الحارة فتسخن إلى درجة بحيث أن أنفاسها الحارة تهدد بالموت من تصادفه في طريقها من الناس والحيوانات. وفي الفترة من أيلول حتى تشرين الأول غالباً ما تغير الرياح اتجاهاتها مما يؤدي إلى تغييرات حادة في درجات الحرارة فيسبب ذلك زيادة الأمراض من مختلف الأنواع. ويعتبر « الشرجي » أو الرياح الجنوبية الشرقية التي تسود في شهر شباط مضر بالصحة بشكل خاص لأنه يجلب الأبخرة من الخليج فيرفع بذلك نسبة أمراض الحمى بدرجة كبيرةٍ.

أما بالنسبة لمدينة البصرة نفسها فهناك إلى جانب المناخ الردئ وأبخرة المستنقعات عامل آخر يساعد أيضاً على تحويلها إلى بؤرة لجميع الأمراض ذلك هو انعدام المياه الصالحة للشرب، فالواقع أن الفقراء يشربون من قناة العشار التي تجعلها نفايات المدينة قذرة جداً، بسبب بعد المدينة عن شط العرب والبصريون الموسرون هم وحدهم الذين يتأتى لهم جلب المياه لاستخدامهم الخاص من شط العرب، ولكن حتى مياه هذا الأخير لا يمكن وصفها بالنقاء وذلك لأنه لا تصب في النهر في أثناء الجزر المياه الراكدة من المستنقعات المجاورة فحسب وإنما يرد إليه أيضاً القسم الأغلب من قاذروات المدينة عن طريق قناتي العشار والخندق. ويمكن الحكم على درجة قذارة شط العرب من التجربة التي أجراها الدكتور بوريل الذي كان رئيساً لمحطة الحجر الصحي في البصرة في تسعينيات القرن السابق فلقد وجد بعد أن كرر التجربة خمس مرات ٦٨٢٠٠ عصية

في السنتمر المكعب الواحد من ماء أخذه من الموضع الذي يأخذ منه السقاة المياه. وقد استطاع السيد بوريل أن يجد بين هذه العصيات عدداً كبيراً من جراثيم التيفوس والدزانتري وغيرها من الأمراض المعدية الخاصة بالبلدان الحارة فضلاً عن أن أحد الجراثيم كان كثير الشبه بمكروب الكوليرا. ويتحدث السيد بوريل عن هذا الموضوع في كراسه [1] قائلاً: « للأسف أنني لم أستطع بسبب عدم وجود الأدوات اللازمة أن أكمل إلى النهاية ملاحظاتي حول الشبه بين العصيات التي وجدتها في مياه شط العرب ومكروب الكوليرا. ومع ذلك فإن هذ الحقيقة فائقة الأهمية وهي تفتح آفاقاً جديدة بالنسبة لقضية أوبئة الكوليرا في ما بين النهرين عموماً وفي البصرة على وجه الخصوص ». ويبدو أن العراق العربي يكون تربة أخصب من ذلك بالنسبة لظهور وتطور الطاعون فحسابات (E. Reclus) [2] تشير إلى أن إثنين وعشرين وباء للطاعون ظهرت أو استشرت بشدة في هذه المنطقة، من أصل أربعين وباء كانت قد ظهرت في الأرباع الثلاث الأول من القرن التاسع عشر.

ولا يسعنا ونحن ننتقل إلى وصف المملكة النباتية في العراق الجنوبي إلا أن نلاحظ مسبقاً بأن رواية الكتاب المقدس تشير إلى أن الجنة في الأرض أو المثوى السعيد للناس الأول قبل الخطيئة كانت ترويها اربعة أنهار ذكرت أسماؤها في الفصل الثاني من سفر التكوين. وفي الوقت الذي لا يزال فيه مكان وجود نهري فيشون وحيمون موضع جدل، فإن وضع الفرات ودجلة أو حد اقل باللغة العبرية لم يتغير ولهذا السبب يمكن

(1) La defense Samitaire du golfe Persique et du Chatt – el – arab.

(2) Nouvellle Geographie Univetselle. T. IX. P.418.

الاعتقاد بأن الجنة كانت تقع ضمن العراق العربي. ومع ذلك فالسذج من الناس الذين يعتقدون بأن العراق العربي يذكرنا في شكله الخارجي ولو من بعيد بالحديقة الغناء التي عاش فيها اسلافنا سيخيب أملهم بمرارة لو رأوه رأي العين. فالمسافر فقط الذي يأتي من سواحل الخليج العربي القاحلة التي تحرقها الشمس فتبدو كالملعونة إلى شط العرب الذي تحيطه غابات لا نهاية لها من اشجار النخيل الدائمة الخضرة يمكن أن يعتقد للوهلة الأولى بأنه في الجنة حقاً.

ولكن يكفي للقادم أن تزاوله لحظة الافتتان الأولى لكي يدرك بأن أحراش النخيل التي بدت له وكان لا نهاية لها لا تتوغل في داخل البلاد إلا لمسافة فرستين أو ثلاث تحل بعدها نفس الأهوار والصحاري التي تكون الميزة السائدة في مظهر العراق العربي كله.

تحتل النخلة دون شك المكان الأول بين نباتات هذه المنطقة. لأن تربة العراق الجنوبي وظروفه المناخية أكثر ملائمة لنجاح زراعتها فالمثل العربي يقول بأن النخلة يجب أن تكون أرجلها في الماء ورأسها في النار ولهذا يجب أن تكون حدود انتشارها في الشمال على الفرات عنه التي تحتوي على آخر بساتين النخيل وعلى دجلة التي لا تحتمل النخلة تمراً إلى الشمال منها.

أما المرتبة الثانية من حيث الانتشار فهي من نصيب الحبوب التي تنقسم حسب موسم بذارها وحصادها إلى شتوية وصيفية، ينتمي إلى الصنف الأول الشعير والحنطة اللذان تبدأ زراعتهما في تشرين الأول ـــ تشرين الثاني وتنضج في نيسان وأيار، ويعود إلى الصنف الثاني الرز والذرة البيضاء والصفراء والعدس والدخن والنباتات القرنية والسمسم حيث يكون بذارها في نيسان ـــ حزيران وتحصد في تموز ـــ ايلول. وإذا ما

أخـذنا بشـهادة المصـادر القديمـة [1] يزيـد مـن خصـوبتها طمـي نهـري دجلـة والفـرات كانـت تـدر في تلـك الأزمـان الغزيـرة محصـول الـرز والشـعير لا يقـل عـن ٢٠٠ صنف لكـن الشـعب هنـا لم يحفـظ عـن تلـك الخصـوبة الخيالية حـتى ولا الحكايـات، حيـث يعتـبر الفلاحـون حاليـاً ٣٠ أو ٤٠ صـنفاً محصـولاً ممتـازاً. ومـن بـين الحبـوب الرئيسـية الشـعير الـذي يحتمـل الجفـاف أكثـر مـن بقيـة الحبـوب ويـزرع بالدرجـة الأولى في ولايـة بغـداد، والـرز الـذي يحتـاج إلى حقـول تغمرهـا الميـاه فيـزرع بالدرجـة الأولى في ولايـة البصـرة وأمـا الحنطـة الـتي تفضـل مناخـاً أكثـر اعتـدالاً فإنهـا تؤلـف أكثـر محاصـيل ولايـة الموصل انتشاراً.

ولا تنتشـر زراعـة الخضـراوات وزراعـة البسـاتين، باسـتثناء بسـاتين النخيـل، في العـراق الجنـوبي إلا علـى نطـاق ضـيق ولا تكـون لهـا أهميـة صـناعية. إن محاصـيل تحتـاج إلى منـاخ أكثـر اعتـدالاً مثـل البرتقـال والعنـب والفسـتق تـنجح بشـكل أفضـل في ولايـة الموصـل. أمـا في العـراق الأدنى فمـن الممكـن زراعـة القسـم الأغلـب مـن الخضـراوات المعروفـة لأوربـا. ومـن بـين المحاصـيل كانـت تـزرع هنـاك في الأزمـان الغـابرة الحنـاء [2] وقصـب السـكر والتيلـة وهـذه جميعهـا اختفـت تمامـاً في الوقـت الحاضـر. أمـا زراعـة القطـن فإنهـا لم تزدهـر حـتى الأيـام الأخـيرة إلا علـى ضـفاف نهـر ديـالى وفي ضـواحي عنـه علـى الفـرات ولكنهـا لم تكـن تحمـل طـابع المشـاريع الكبـيرة المنفـردة. ومـن المحتمـل أن يكـون لزراعـة القطـن المحليـة مسـتقبل زاهـر بعـد انبعـاث العـراق بفضـل إعـادة منشـآت الـري القديمـة وإنشـاء سـكة حديـد ببغـداد. وتزدهـر

---

(1) Fr. Lenormant: Histoire de Lorient. Paris 1888. T. IV. P. 7.

(2) (Lawsonia inermes)

زراعة التبغ بشكل أساسي في الموصل والسليمانية وشهرزور أي في حدود ما بين النهرين، أما في العراق الجنوبي فليس لها أهمية تُذكر حيث تقتصر على مساحات صغيرة في أقضية كربلاء والحلة والديوانية في ولاية بغداد وعلى مساحات أقل في قضائي المنتفك والعمارة في ولاية البصرة.

إن غابات شجر الدلب والحور والجميز والتوت والأثل البرية التي كانت في بداية القرن الماضي أي القرن التاسع عشر تغطي ضفاف نهري الفرات ودجلة اختفت حالياً وعلى الأخص من ضفاف النهر الأخير. وقد ساعدت شركات الملاحة النهرية على انقراضها إذ افتتحت خطوطاً للملاحة المنتظمة في نهر دجلة بين بغداد والبصرة وظلت لوقت طويل تستخدم كوقود، الحطب الذي يجهزها به بموجب عقود خاصة الأعراب القاطنين على الضفاف. ولا يزال يوجد حتى الآن قليل من أحراش الحور والصفصاف على ضفتي الفرات. والحور المحلي المعروف باسم (Populus euphratica) تكون له آوراق تشبه المبضع في شكلها وهو كثير الشبه بالصفصاف.

وبسبب القضاء على الغابات فقدت المملكة الحيوانية في العراق العربي الكثير من ممثليها. فالأسد العديم اللبوة الذي كان قبل خمسين سنة يثير بزئيره الفزع في نفوس المسافرين على السفن التي تمخر عباب دجلة ليلاً، أصبح في الوقت الحاضر مثلاً مجرد أسطورة. ومن الأنواع التي اختفت من العراق أيضاً حمار الوحش الذي كانت قطعان كاملة منه تسرح في الوقت الذي زار فيه هذه الأصقاع الرحالة الأيطالي (Pitro Della Valle) في ١٦٢٥، أما الآن فلا يمكن للمرء أن يصادفه إلا في جبال حمرين. وكانت النعامة التي يذكرها كسينوفون هي الأخرى قد تركت وهاد العراق قبل حمار الوحش وتوغلت في صحاري بلاد العرب. أما الحيوانات الوحشية الأكثر انتشاراً في العراق في الوقت الحاضر فهي الخنزير والظبي

والـذئب والثعلـب والنـيص والضـبع وإبـن آوى. وهـذا الأخـير بشـكل خـاص يوجـد بأعـداد كبـيرة ويكـون كثـيرة الأزعـاج فهـو يبقـي عـادة علـى مقربـة مـن محـلات سـكن الانسـان وحـتى في البصـرة نفسـها كثـيراً مـا نجـده يعـيش في بسـاتين النخيـل وفي الصـحارى حيـث يتسـلل إلى مضـارب البـدو أو خيـام الرحالـة الأوروبيـين. ولقـد تعـود سـكان العـراق علـى تطـاولات إبـن آوى إلى درجـة بحيـث أنهـم أصـبحوا لا يعيرونـه اهتمامـاً وذلـك مـا يسـتغله اللصـوص مـن الأعـراب الـذي يعمـدون إلى تقليـد صـوته عنـدما يزحفـون في الظـلام إلى الـدار او الخيمـة وهـدفهم خـداع الحـرس. ويعـيش في بسـاتين النخيـل في العـراق وبالدرجـة الأولى في بغـداد وحـش صـغير يشـبه كثـيراً في شـكله الأخنمفـون [١] المصـري ولكنـه أصـغر حجمـاً وجلـده أكثـر احمـراراً وسـرعان ما يصبح أليفاً. ويطلق عليه الأهالي اسم جرذ التمر [٢].

علـى الـرغم مـن أن هـذا الحيـوان لا يعـيش علـى النخيـل ولا يأكـل التمـر، إنمـا يتـألف طعامـه كمـا هـي الحالـة بالنسـبة للأخنمفـون مـن الحيوانـات القديمـة الصـغيرة والحيـات والبرمائيـات والطيـور الداجنـة. إنـه يسـتثار بسـهولة وعنـد ذلك يسبب بأسنانه الحادة ألماً محسوساً [٣].

أمـا بالنسـبة للطيـور فتكثـر في العـراق بشـكل خـاص كـل أنـواع الطيـور المائيـة كـالأنواع البريـة مـن الأوز والـبط والبجـع والنحـام ومالـك الحـزين والغطـاس وغيرهـا مـن الطيـور الـتي تبـني أعشاشـها في الجـزر الـتي تكثـر في

---

(١) يبـدو أن المؤلـف يقصـد الحيـوان الـذي يسـميه المصـريون «التفـا» أو ربمـا «العرسة» المترجم.

(٢) يطلق عليه بالعامية في العراق إسم «جريدي النخل» . المترجم.

(3) G. A Oliver, voyage dans I,mpire Othoman. Paris An 12. T. IV. P. 393.

الفرات ودجلة. وتتعرض كل هذه الطيور إلى الفناء الجماعي بسبب مطاردة الصيادين العرب الذين. يسعون على الحصول على ريشها الذي يُصدر إلى الخارج، ولكنهم يطاردون بشكل أعنف مالك الحزين بسبب القيمة الكبيرة التي يمتلكها في أوروبا العرف الذي يوجد في رأس ذكر هذا الطائر ويسبب من أن شحم هذا الطير يعتبر دواءً جيداً للروماتيزم. ولقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى أن تمنع من حين لآخر صيد مالك الحزين تجنباً لانقراضه نهائياً. ومن بين الطيور الأخرى الموجودة في صحارى العراق ينبغي أن تذكر الحجل واليمام والحباري وغيرها. كما نصادف بين الطيور الجارحة مختلف أنواع الصقور التي يدربها العرب بمهارة فائقة على صيد الحباري والغزلان.

ومن بين الزواحف الموجودة في العراق يمكن أن نحصي كثيراً من أنواع العضائيات والحيات المائية والبرمائية ثم السلاميات والعقارب ... الخ. غير أنه لا يوجد بينها أنواع خطرة على حياة الأنسان باستثناء ما يسمى بـ «الجرار» وهو عقرب مخطط يتواجد إلى الشمال الشرقي من بغداد في جهات مندلي وتؤدي لسعته على ما يؤكده الأهإلى إلى الموت حتماً [1]. أما الحشرات فإنها كثيرة الأنواع جداً، فإلى جانب الأنواع التي لا يحصيها عد من الخنافس والذباب والفراش والنحل والزنابير فإن هناك آلاف مؤلفة من البعوض تسمم حياة الانسان وتلسع الجاموس في الأهوار حتى يقارب الموت ولكنه ينقذ بواسطة طلائه بالقطران أو عن طريق حجزه في زرائب يجري تدخينها بإحراق الروث. أما البراغيت فيمكن اعتبارها المأساة

(١) خورشيد أفندي، سياحت نامة حدود. ترجمة كامازوف، سانت بطرسبورغ ١٨٧٧، ص١٠٢.

الحقيقية لهذه المناطق ذلك أنها في خلال الربيع القصير تلتهم كل ما هو حي بالمعنى الحرفي للكلمة. ويزور العراق من حين لآخر الجراد الذي يكون لونه أصفر في العادة. وقد لاحظ الأهالي بأنه يأتي دائماً من الجنوب الشرقي الأمر الذي أدى إلى نشوء خرافة مفادها أن أمواج الخليج العربي تولد عدو المزارعين المجنح هذا. وعلى ما يشهد. (M. Otter) كان لا يزال يوجد في البصرة في منتصف القرن الثامن عشر النمل الأبيض الذي كانت تنقله إلى هناك السفن القادمة من الهند ولكنه معدوم تماماً في الوقت الحاضر. ويختار النمل الأبيض أماكن إقامته المفضلة في العنابر التي تخزن فيها الأقمشة المصنعة فيقضي دون رحمة على بالات كاملة منها والطريقة الوحيدة للتخلص من أذاه، هي وضع البضاعة على سقالات خشبية تغوص أرجلها في طبقة سميكة من الملح تغطي أرضية هذه العنابر.

وتكثر في أنهار العراق الجنوبي الأسماك من مختلف الأنواع ابتداءاً من الرنكة وانتهاءً بالقرموط بل وحتى القرش الذي يدخل في أثناء حرارة الصيف من الخليج إلى شط العرب ويرتفع في بحثه عن مياه أكثر برودة في نهر دجلة حتى يصل بغداد نفسها. ويؤلف الجميري المملح وكذلك وبشكل خاص الأسماك المجففة والمملحة غذاءً رخيصاً للطبقات الفقيرة من السكان لا سيما أن صيدها لا يتطلب مهارة خاصة إذ كل ما يحتاجه هو إقامة حواجز من القصب الضفاف يدفع إليها المد بالأسماك التي تبقى عند الجزر في القاع خلف تلك الحواجز. ويوجد في أهوار العراق الواسعة، إلى جانب المليارات من الضفادع التي تقيم في كل ليلة حفلات موسيقية تصم الأذان ولكنها لا تخلو من الأصالة » القندس الذي يسميه العرب «كلب الماء» ويجدون في صيده سعياً وراء جلده الذي يُصدر إلى الخارج. وتوجد على ضفاف دجلة والفرات فضلاً عن ذلك عدة أنواع من

السلاحف منها واحدة من سلاحف الفرات يصل حجمها إلى مقاييس كبيرة جداً.

وتتألف ثروات العراق الطبيعية من البتيومين أو الأسفلت والنفط والفحم الحجري ومناجم الملح، وكان استخراج هذه المعادن جميعها يجري حتى الأيام الأخيرة بأكثر الطرق بدائية، وهو لا يزال ينتظر رجال الأعمال الأوروبيين لكي يقام على اسس أكثر تقدّماً.

وتوجد مكامن الاسفلت على جانبي سلسلة تلال الحدود اعتباراً من كركوك حتى مندلي كما أنها يمكن أن تصادف بمحاذاة دجلة فيما بين الموصل وبغداد وعلى ضفاف الفرات في هيت وكذلك في الحلة بالقرب من أطلال بابل القديمة حيث استخدم الأسفلت في أبنيتها على نطاق واسع. أن المنابع التي يستخرج منها تكون ذات حرارة عالية جداً فتدفع المياه التي تكون في حالة غليان دائم بالأسفلت إلى السطح فيأخذ الأهالي بجمعه بواسطة سعف النخل. وبعد أن يبرد الأسفلت بشكل بهيئة قطع مربعة الشكل سمك الواحدة أنج واحد ويستعمل لطلي أنابيب المياه والحمامات والمطابخ وما أشبه من المنشآت التي تلزم حمايتها من تخريب الماء، وكذلك تطلى به السفن الشراعية من الخارج، ذلك أن الأسفلت المخلوط بقليل من الرمل أو الطين لا يمنع تسرب المياه إليها فحسب، إنما يحفظها مدة طويلة من التعفن والفساد أيضاً، ويحصل الأهالي من الأسفلت السائل قبل أن يتصلب على نوع من النفط الأسود يصلح للاستخدام كوقود بهيئة أقراص مصنوعة من خليط من روث البقر المجفف والقش المقطع المشبع بالأسفلت.

أما عن النفط الحقيقي فإن مصادره تقع على الجهة الأخرى من الحدود مع فارس في موضع قصر شيرين على بعد ١٥٠ كم عن بغداد وقد

درسـها بشـكل مفصـل الأثـاري الفرنسـي المعـروف (De Morgan) فحـدد طـول العـرق النفطـي الممتـد مـن الشـمال الغـربي إلى الجنـوب الشـرقي أو مـن كركـوك حـتى سـفوح شـاه كـوه وراء قصـر شـيرين بمـا يقـرب مـن ٣٠٠ كـم [١] وتخـرج تفرعـات هـذا العـرق في هـذه الجهـة مـن الحـدود في عـدة مواضـع، بـالقرب مـن كركـوك وفي طوزخرمـاتو وكفـري ومنـدلي حيـث يظهـر الـنفط علـى شـكل زيـت لـزج ذي لـون أخضـر ورائحـة كريهـة علـى سـطح الميـاه في الآبـار الـتي تحفـر خصيصـاً لهـذا الغـرض. ولقـد انتبـه رجـال الأعمـال الأنجليـز إلى الثـروات النفطيـة في فـارس فحصـلوا في ١٩٠٣ علـى إمتيـاز لاسـتخراج الـنفط مـن قصـر شـيرين ثم نقلـوا نشـاطهم مـن هنـاك بسـبب عـدم تحقـق آمـالهم بالحصـول علـى غنيمـة كبـيرة إلى منطقـة الأحـواز الـتي يفـترض أن يكـون الموضـع الرئيسـي لمكـامن الـنفط واقعـاً علـى بعـد ٥٠ مـيلاً إلى الشـمال الشـرقي منهـا. وكـان التنقيـب عـن مكـامن الـنفط الموجـودة في الأراضـي العثمانيـة الـتي تعتـبر ملكـاً للسـلطان في ١٩٠١ يجـري مـن قبـل المهندسـين الألمـان بتفـويض مـن عبـد الحميـد المخلـوع حاليـاً الـذي كـان ينـوي في البدايـة أن يسـتغلها شخصياً بعد الانتهـاء مـن بنـاء سـكة حديـد بغـداد ولكنـه عـاد بعـد ذلـك واعتـبر بـأن مـن الأصـلح مـنح حـق استغلال مصـادر الـنفط العثمانيـة إلى شـركة سـكك حديـد الأنضـول الألمانيـة وعمـد (Dentische Bank) فأرسـل في ١٩٠٥ باسـم هـذه الأخـيرة لجنـة خاصـة للتنقيـب عـن الـنفط في ضـواحي كركـوك ولكنـه لم يبـدأ بالعمـل فـوراً الأمـر الـذي يشـير علـى مـا يبـدو إلى عـدم تحقـق التوقعات بشان غزارة مكامن النفط في كركوك [٢]

---

(1) J. de morgan, Mission Scientifique en Perese Qeographiques. Paris, 1895. T. II. P. 86

(٢) تعتبر آبار النفط في كركوك حالياً من أغزر آبار العالم. المترجم

وتوجد مناجم الفحم الحجري التي يستخرج منها فحم جيد النوعية لسد حاجات الملاحة والصناعة المحلية في سلسلة جبال حمرين الواقعة على بعد ٩٠ كم تقريباً إلى الشمال الشرقي من بغداد.

ومع ذلك يبقى الملح الثروة الطبيعية الرئيسية في العراق الجنوبي فالأراضي السبخة تنتشر في كل مكان ذلك أن المجاري المائية أو ما تكون من تجمعات مائية صغيرة أو كبيرة تفرز حتماً تحت تأثير أشعة الشمس ملحاً من مختلف الأنواع ابتداء من الجيد في بياضه ونوعيته وانتهاء بغير الصالح نهائياً للاستعمال في الطعام. وقد منح احتكار استغلال الملح كما سنتحدث عن ذلك بالتفضيل في الفصل القادم إلى « إدارة الدين العثماني العام » التي لا تستغل مباشرة أو عن طريق المستأجرين إلا قسماً قليلاً من مكامنه وهو القسم الذي يقع بالقرب من المدن والمناطق المأهولة، أما أغلبية الملاحات فإنها لم تستغل بسبب وقوعها في الصحراء أو في مناطق القبائل البدوية المتنقلة التي لم تتعود بعد على احترام الحقوق الاحتكارية التي تتمتع بها الادارة المذكورة. ويتمثل استخراج الملح في ولايتي بغداد والبصرة بموجب المعطيات التي اوردها قنصل النمسا ــ المجر في بغداد بالأرقام التالية [1].

السنة	الولاية	الكمية بالطن المتري
١٨٩٩	ولاية بغداد	٧٣٢
١٨٩٩	ولاية البصرة	١٥٧،٧
في تسعة أشهر من	ولاية بغداد	٣٦٧،٥
سنة ١٩٠٠	ولاية البصرة	٩٥،١

(١) التقرير التجاري للسيد رابوبورت لسنة ١٩٠٠ (باللغة الالمانية) ص٣.

وتفسر الشحة النسبية في الثروة المعدنية في العراق الجنوبي طبعاً بانعدام السلاسل الجبلية والمرتفعات فيه، فالجبال التي تحيط به من الشرق والشمال ليست إلا حدوداً بين المنطقة التي يسكنها العرب من جهة وتلك التي يقطنها الفرس والأكراد من جهة أخرى.

وتتألف ولاية البصرة من الناحية الإدارية من أربعة سناجق تنقسم إلى أربعة عشر قضاء وتضم ستاً وعشرين ناحية كما يظهر بوضوح من الجدول التالي الذي وضع على أساس النشرة السنوية التركية للولاية المذكورة والخاصة سنة ١٣٢٠ هـ (١٩١٠م).

لقد اجلنا الحديث عن تفاصيل نظام السناجق والأقضية والنواحي وكذلك التفصيلات الخاصة بالإدارة والمؤسسات الحكومية في ولاية البصرة إلى الفصل القادم ولهذا فإننا سننتقل مباشرة إلى الحديث عن المدن والأماكن المأهولة في الولاية مبتدئين بمدينة البصرة باعتبارها المدينة الرئيسية في المنطقة ومركز الحكم الإداري فيها.

السنجق	القضاء	الناحية
١ . البصرة	البصرة	الفاو، الحارثة، أبو الخصيب، شط العرب، الزبير
	القرنة	بني منصور، المدينة، النشوة، الدير
	الكويت	لا يوجد
٢ . العمارة	العمارة	علي الغربي، علي الشرقي، المجر الكبير، المجر الصغير
	الزبير	لا يوجد
	الشطرة	لا يوجد

	دويريج	لايوجد
	الناصرية	البطيحة، الأزيرج
٣ . المنتفك	شوق الشيوخ	الحمار، كرمة بني سعيد
	الشطرة	البرعة، ديجي، شط الكار
	الحي	قلعة سكر، محيرجة
	الهفوف	العجير، الميرز، الجفر، العيون
٤ . نجد أو الحسا	القطيف	لا يوجد
	قطر	لا يوجد

تقع البصرة على الضفة اليمنى لشط العرب على بعد ٧٠ فرستاً إلى الجنوب من القرنة وتتخلف بمقدار ١٠٠ فرست عن الحاجز الحصباوي القائم عند مصب شط العرب في الخليج. وتتألف من قسمين منفصلين عن بعضهما هما البصرة الأصلية التي تحتل نهاية قناة العشار على بعد يقرب من ثلاث فرستات من مصب [1] القناة المذكورة في شط العرب، وضاحية مقام على الواقعة على جانبي قناة العشار بالقرب من مصبها في شط العرب.

والقناة المذكورة التي حفرت في البداية بهدف تجفيف المستنقعات المجاورة هي الآن بالنسبة للبصرة الشريان الرئيسي لحركة البضائع والركاب بين المدينة والنهر.

وضفاف العشار غاية في الجمال وهي مغطاة كلياً تقريباً ببساتين النخيل التي تطل، في الجهة التي تقع على يمين القادم من جهة النهر، على المياه مباشرة. أما الضفة اليسرى من العشار فقد عليّت بشكل اصطناعي

---

(١) قناة العشار تتفرع من شط العرب وتأخذ مياهها منه ولا تصب فيه، والمؤلف.

بمساعدة قوائم من جذوع النخل وحولت إلى كورنيش يربط المدينة بضاحية مقام علي. ويستخدم هذا الطريق غير المعبد والكثير التراب أثناء الجزر عندما ينقطع الاتصال مع المدينة بواسطة القوارب بسبب عدم وجود المياه في القناة. ويسير على هذا الكورنيش المشاة والراكبون وتعمل عليه ايضاً مركبة لنقل الجمهور من جسر العشار إلى سوق المدينة.

وبالإضافة إلى قناة العشار يمكن الوصول إلى المدينة بواسطة قناتين اخريين موازيتين لها هما الخورة الواقعة إلى الأسفل من العشار والخندق الواقعة إلى الأعلى منها. وأولى هاتين القناتين أي الخورة قليلة السكان ولكنها أجمل من العشار بفضل بساتين النخيل التي تزدحم بها ضفتاها. أما الثانية أي الخندق فإن العمران فيها يزداد من سنة لأخرى بحيث بدأت تنافس العشار منافسة جدية من حيث أهميتها بالنسبة للبصرة. ولكي نصل إلى البصرة بواسطة الخورة أو الخندق ينبغي أن نستخدم قنوات جانبية تتفرع منهما إلى العشار وتؤلف ما يشبه الشبكة تغطي كل المنطقة التي تشغلها البصرة وضاحيتها. ولقد قدمت هذه الحقيقة للكثير من الرحالة الأوروبيين حجة لمقارنة البصرة بالبندقية رغم أن التشابه بين بندقية الغرب وبندقية الشرق لا يتعدى القنوات وربما أيضاً القوارب الطويلة والمسطحة القاع أو الأبلام التي تذكر بالمحفات التي تثبت فيها لحماية الركاب من أشعة الشمس، بجندولات البندقية بعض الشيء.

ومدينة البصرة نفسها المختبئة في الصحراء تحتل مساحة واسعة نوعاً ما بين قناتي الخورة والخندق وتنقسم إلى ثمانية أحياء تحوي اكثر من ٥٠٠٠ بناء حجري إضافة إلى الكثير من أكواخ القصب أو الصرائف التي تؤلف مساكن للطبقة الفقيرة والتي تصادف في كل خطوة لا في أطراف المدينة فحسب وإنما في مركزها نفسه أيضاً.

ويبلغ عدد سكان مدينة البصرة القديمة دون ضواحيها بموجب الاحصائيات العثمانية الرسمية ٣٥٠٠٠ نسمة. ما لا يقل عن ٦٠٠٠ منهم من المسيحين واليهود وما يقرب من هذا العدد من الفرس، أما البقية فإنهم عرب أغلبيتهم من أتباع المذهب الشيعي، وهناك عدد غير كبير من الأتراك الذين يشغلون الوظائف الإدارية والعسكرية العليا. وكان عدد سكان البصرة في منتصف القرن الثامن عشر حسب الوثيقة التي أوردها زويمر (S Zwemer) [1] ما لا يقل عن ١٥٠٠٠٠ نسمة قل فأصبح حتى ١٨٢٥ (٦٠) الفاً. وقد ساعدت أوبئة الطاعون في ١٨٣١ و١٨٣٨ على نقصان السكان لاحقاً بحيث ظلت المدينة بعدها لفترة طويلة لا يتعدى عدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة. وهكذا فإن علينا، إذا ما أخذنا عدد سكان البصرة حالياً في الحسبان، أن نستنتج بأن سكانها ازدادوا منذ ذلك الوقت بمقدار ثلاث مرات تقريباً وبمقدار خمس مرات إذا ما أضفنا إليهم سكان ضاحية مقام على الذين لا يقل عددهم عن ١٥٠٠٠ نسمة.

لقد بُنيت البصرة القديمة على يد الخليفة عمر [2] وكانت تقع على مسيرة ثلاث ساعات إلى الجنوب الغربي من المدينة الحالية ولا يذكرنا في الوقت الحاضر بعظمتها السابقة، إلا أطلال كثيرة نشأت فيها في بداية القرن الثامن عشر بلدة الزبير. وهكذا فالبصرة الحالية مدينة حديثة نسبياً يدل على ذلك عدم وجود أية آثار قديمة مشهورة فيها ولا يوجد أي مسجد من بين الخمسة عشر مسجداً القائمة فيها يستحق الأهتمام من ناحية فن العمارة أو من ناحية أخرى. وتكاد تكون البنايات الحديثة أكثر بنايات

---

(1) Arabia The Cardle of Islam. P. 129 FF.

(٢) أنظر تفاصيل ذلك في الفصل السادس من هذا الكتاب

المدينة جدارة بالاهتمام.

يقع القونـاق الـذي يضـم مقـر الـوالي وجميـع الـدوائر الأخـرى علـى ضـفة العشـار عنـد مـدخل المدينـة، وهـو عبـارة عـن بنايـة واسـعة تتـألف مـن طـابقين مبنيـة بـاللبن لا يميزهـا شـئ عـن الأبنيـة المحيطـة بهـا غـير ضـخامتها وشـكلها الذي يشبه الثكنة.

وتضـم سـوق المدينـة الـتي تمتـد بمحـاذاة العشـار مـا لا يقـل عـن ألـف وخمسـائة دكـان تغـص، بسـبب انعـدام البضـائع المنتجـة محليـاً، أمـا ببضـائع أوروبيـة صـرفة مثـل سـكر مرسـيليا ومنسـوجات مانجسـتر أو بالمنتجـات العربيـة المسـتوردة مثـل عمـائم مسـقط وعبـاءات الحسـا وهـي عبـارة عـن طرحات صوفية بدون أكمام، وما أشبه ذلك.

وتوجـد في كثـير مـن المواضـع في السـوق وفي جميـع سـاحات المدينـة وتقـاطع الشـوارع فيهـا المقـاهي الـتي تكـاد لا تخلـو مـن الـرواد أبـداً ذلـك أنهـا تقـوم هنـا مقـام النـوادي حيـث يجتمـع فيهـا النـاس يتحـدثون في السياسـة ويتبـادلون فيمـا بيـنهم الأقاويـل والشـائعات المنتشـرة في المدينـة أو ينجـزون عقـد الصـفقات التجاريـة بـين فنـاجين القهـوة المركـزة المـرة علـى الطريقـة العربيـة. وتحـوي المدينـة ثـلاث كنـائس بعـدد الطوائـف المسـيحية الغالبـة فيهـا تعـود أحـداها إلى طائفـة الكـرمليين يقـيم فيهـا السـريان الكاثوليـك شـعائرهم الدينيـة ويمتلـك الثانيـة وهـي أوسـعها وقـد بنيـت مـؤخراً السـريان الكلـدان، أمـا الثالثة وهي بحاجة ماسة إلى الترميم فتعود للأرمن.

أمـا ضـاحية البصـرة، مقـام علـى، فـإنّ بناءهـا لم يبـدأ في ١٨٧٠ عنـدما عمـد مـدحت باشـا الـذي كـان يشـغل آنـذاك منصـب والي بغـداد الـتي كانـت البصـرة تابعـة لهـا إلى نقـل «القونـاق» أو مقـر الـدوائر الحكوميـة إلى مقـام علـي وأخـذ يشـجع بكـل الوسـائل بنـاء الـدور هنـاك وتـأجير الأراضـي الأميريـة

تـأجيراً طويـل الأمـد. ولم يصـادف هـذا التـدبير آنـذاك تعاطفـاً كبـيراً فالسـكنى على شـط العـرب لم تكـن آنـذاك آمنـة مـن القراصـنة لـذا فقـد توقـف السـكن في مقـام علـى في عهـد الـولاة الـذين أعقبـوا مـدحت باشـا مباشـرة وعلـى الأخـص في عهـد ناصـر باشـا المنتفكـي [١] الـذي عمـد بعـد أن وضـع علـى رأس ولايـة البصـرة الـتي فصـلت عـن بغـداد خصيصـاً لـه علـى إعـادة «القونـاق» إلى البصـرة وأصـدر أمـراً مشـدداً لسـكان البصـرة يمـنعهم فيـه مـن السـكن خـارج حـدود المدينـة، غـير أنـه لم يمـض إلا مـا يزيـد علـى ربـع قـرن بقليـل حـتى استطاعت مقـام علـى الـتي بـدا كمـا لـو أنهـا هجـرت خـلال هـذه المـدة القصـيرة نسـبياً، أن تنمـو وتصـبح مدينـة كاملـة يقطنهـا ١٥ ألـف نسـمة. وهكـذا حقـق الـزمن مـا تنبـأ بـه مـدحت باشـا بشـأن المسـتقبل الـذي ينتظـر الضـاحية المـذكورة، حيـث تتركـز فيهـا الآن بفضـل قربهـا مـن شـط العـرب كـل حركـة ميناء البصـرة وقـد استقر فيهـا لهـذا السـبب كـل الأشـخاص والمؤسسـات الـذين يرتبط نشاطهم بالميناء بشكل مباشر.

تقـع في مقـام علـى حاليـاً الترسـانة البحريـة وورشـة تصـليح محركـات السـفن والمـدافع والأسـحلة الملحقـة بهـا، وكـذلك إدارة الميناء ودائـرة الكمـارك ودائـرة الحجـر الصـحي ومكتـب الكومـودور [٢] أو قائـد الأسـطول الحـربي العثمـاني الصـغير الحجـيم، ومكاتـب شـركات الملاحـة العثمانيـة والأجنبيـة وأخـيراً ثكنـات لأربـع كتائـب مشـاة وكتيبـة واحـدة مـن جنـود البحريـة. وعلـى الضـفة اليسـرى لقنـاة العشـار عنـد مصـبها [٣] في شـط العـرب

(١) يقصد المؤلف ناصر باشا السعدون - المترجم.

(٢) يسمى بالتركية قبودان - المترجم.

(٣) الصحيح عند تفرعها من شط العرب - المترجم.

تقـع بطاريـة مدفعيـة بنيـت منشـآتها مـن الطـين وسـعف النخيـل ويقـيم فيهـا جنـود المدفعيـة ويقـوم هنـاك أيضـاً « فونـاق » مـدحت باشـا المهجـور. وعلـى الضـفة اليمـنى المقابلـة مـن العشـار تقـوم خلـف دائـرة الكمـارك في الهـواء الطلـق ترسـانة لصـنع القـوارب المسـطحة القـاع أو « الأبـلام » لنقـل المسـافرين وكـذلك السـفن الأكـبر حجمـاً لنقـل البضـائع. ويتصـل بـدائرة الكمـارك والترسـانة سـوق ضـاحية مقـام علـي الـذي يچشـتمل علـى اكثـر مـن أربعمائـة دكـان، وعنـد بدايـة السـوق بالضـبط يقـوم فـوق العشـار جسـر مكـوّن مـن الجـذوع والألـواح يؤلـف مـع جسـر آخـر يشـبهه في مظهـره البسـيط ويقـوم علـى قنـاة الخنـدق، أكثـر المنشـآت مـن هـذا النـوع ضـخامة في البصـرة الـتي تتخللهـا القنوات.

وعلــى أيــة حــال ليســت هــذه الجســور البســيطة فقــط وإنمــا أيضــاً أي جـذع نخلـة يلقـى علـى القنـاة بحيـث يـربط ضـفتيها أحـداهما بـالأخرى، يعتـبر ترفـاً لا مـبرر لـه بالنسـبة للطبقـات الفقـيرة مـن السـكان الـتي يفضـل أفرادهـا أن يعـبروا القنــاة خوضــاً أو ســباحة بعــد أن يتعــروا مســبقاً ويضــعوا ملابســهم علــى رؤوسهم.

وتعتــبر جميــع البيــوت والمبــاني الواقعــة علــى الضــفة اليمــنى لشــط العــرب والـتي تحتـل الموضـع الـذي كانـت تشـغله قريـة المنيـاوي قبـل ذلـك، مـن ضـمن مقـام علـي. وجميـع البيانـات هنـاك تقريبـاً هـي إمـا ملـك للشـركات التجاريـة الأنجليزيـة أو مسـتأجرة مـن قبلهـا، تلـك الشـركات الـتي انتقلـت إلى هنـاك منـذ وقـت قريـب أي بعـد أن أسـتوطنت مقـام علـي لكـي تكـون علـى مقربـة مـن الميناء. فقـد كـان الأوروبيـون قبـل ذلـك يسـكنون في موضـع يقـال لـه ماركيـل [١] أو

---

(١) ماركيل اسم يطلق في بعض الأحيان على المعقل. المترجم.

كوت أفرنجي يقع على الضفة اليمنى لشط العرب على بعد ست فرستات إلى الأعلى من مدينة البصرة، وهناك كانت توجد أيضاً القنصلية البريطانية التي تشغل الآن عمارة رائعة تمتلكها على ضفة شط العرب.

ويقوم حالياً في ماركيل حوض جاف وورشة تعود لشركة الملاحة الانجليزية (Lyncn Brothers) [1] التي أطلق عليها اسم آخر هو: (Euphrates and Tigris Steam Navigation) [2] والبناء الوحيد القائم على الضفة اليسرى لشط العرب المقابلة لمقام علي هو بناية المستشفى العسكري البحري الذي يتألف من طابقين ويضم ستين سريراً. إن عدم وجود مبانٍ أخرى في هذا المكان يفسر من ناحية بأن شط العرب العظيم الاتساع في هذا الموضوع يفصله تماماً عن المدينة ومن ناحية أخرى بانعدام أي حماية مهما كانت لسكان تلك المنطقة ضد هجمات اللصوص من الأعراب. أما إنشاء المستشفى في هذا المكان الخالي فقد حتمته الظروف المناخية الجيدة فيه بالمقارنة مع الضفة المقابلة وذلك بفضل انعدام المياه الراكدة في الجوار بحيث أن الكثير من أهالي البصرة من ذوي الدخل المتوسط ينتقلون في الصيف، بهدف تحسين صحتهم إلى قرية گردلان الواقعة إلى الأعلى قليلاً م المستشفى على قناة تحمل نفس الاسم. ويعلل البصريون أنفسهم بأمل مفاده أنه بعد مد سكة حديد بغداد من الزبير إلى البصرة سيقام على شط العرب جسر سيؤدي إلى ازدياد السكن في ضفة شط العرب المقابلة فتتكون مع الوقت ضاحية لا تقل ازدهاراً عن مقام علي.

وتعتبر بلدة الزبير من ضواحي البصرة وهي تبعد عنها بما لا يقل عن

---

(١) الأخوان لنج ـ المترجم.

(٢) شركة الفرات ودجلة للملاحة البخارية ـ المترجم.

ثلاث ساعات سيراً في الصحراء. لقد نشأت الزبير كما أشرنا إلى ذلك سابقاً على انقاض البصرة القديمة في بداية القرن الثامن عشر وهي مدينة بظهورها لوجود ضريحي الصحابيين طلحة والزبير هناك. وقد مات [١] الاثنان أثناء الصراع على السلطة مع علي رابع الخلفاء الراشدين [٢]، ولا يمجد ذكراهما بعد أن انقسم المسلمون إلى سنة وشيعة إلا الفريق الأول أي السنة لأن أفراد الفريق الثاني لا يستطيعون، باعتبارهم انصار علي وآل بيته، أن يقفوا من طلحة والزبير إلا موقف العداء، وقد استمرت كراهية الشيعة لهذين الصحابيين السنيين قروناً طويلة، حتى أنه عندما حاصر نادر شاه البصرة في عام ١٧٤٣ قام جنوده الشيعة بهدم جميع المساجد القائمة في الزبير ولم يعد بناؤها إلّا بعد مرور وقت غير قصير على ذلك. وقد ظلت الزبير بسبب هذا الشقاق الديني حتى الوقت الحاضر بلدة سنية صرف يثابر الشيعة على تجنبها [٣].

ولا يقل عدد سكان الزبير في الوقت الحاضر عن ستة آلاف نسمة أغلبهم من الموسرين بسبب الكسب الكبير الذي يجنونه من تهريب البضائع. ويبدو كما لو أن موقع الزبير يشجع سكانها على هذا العمل فهي تقع على مجرى الفرات القديم جري زادة الصالح للملاحة لمدة ثمانية أشهر من السنة والذي تؤدي إلى مصبه قناتان تكونهما في البحر جزيرة

---

(١) للدقة يقال قتل الاثنان فالأول قتله مروان بن الحكم برميه سهم والثاني الذي كان ضمن جيشه قتله عمرو بن جرموز بضربة سيف وقد كان القاتل معتزلاً للحرب والمقتول منسحباً من ساحتها اعتزالاً ايضاً. حميد الدراجي.

(٢) أنظر تفصيلات هذا الصراع في الفصل السادس من هذا الكتاب.

(3) K. Ritter. Op. cist T. VII, AbtII S. 1046 FF.

بوبيان هما خور عبد الله وخور عسابي الصالحان لسير السفن بما في ذلك ذات الغاطس الكبير (١) وهكذا ينزل التجار الراغبون في تجنب كمارك البصرة بضائعهم في الكويت عادة ومن هناك وبعد أن يدفعوا لشيخ الكويت ضريبة مقدارها ٢% ينقلونها بالطرق المائية المذكورة وبسفن شراعية عربية إلى الزبير التي يقوم سكانها بعد ذلك بتهريبها إلى جميع أنحاء العراق.

وتعتبر العمارة المدينة الثانية في العراق الأدنى بعد البصرة وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة على بعد ١٧٠ كم تقريباً أعلى مدينة البصرة. ولا يزيد عمر العمارة عن نصف قرن ذلك أن تأسيسها يعود إلى عام ١٨٣٦ وسببه النزاع بين قبيلتي بني لام وألبو محمد العربيتين القاطنتين في سنجق العمارة، ذلك النزاع الذي أشاع في البلاد فوضى حقيقية (٢)، فعمد والي بغداد آنذاك محمد نامق باشا الذي كانت تخضع له كل تلك المنطقة وبهدف إعادة النظام، إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة محمد بيك ديار بكرلي ضد العرب الثائرين، وقد استطاع هذا الأخير أن يحرز على الثوار نصراً حاسماً في الموضع الذي تقع فيه العمارة حالياً فرأى بأنه من الضروري أن يرابط هناك إلى أن يهدأ البلد نهائياً فبنى ثكنة عسكرية موقتة لقواته وأقام أبنية من الطين له ولأركان حربه (٣). فبدأ رجال العمل يتقاطرون على هذا المعسكر الحربي من جميع أنحاء العراق ووضعوا باستقرارهم هناك أساساً لبلدة سميت في البداية الأوردي أن المعسكر.

---

(1) H. J. Whigham , op. sit. P. 107.

(2) T. M. Lycklama Nijeholt: op. cist. T. III. Pp. 80. 227 - 231.

(3) V. Cuinet, op cit. T. III. P. 280.

وقد نما هذا الموضع المأهول الجديد الذي كان في البداية مجرد قاعدة عسكرية تستخدمها تركيا لإخضاع القبائل العربية في المنطقة، بسرعة وتحول إلى مدينة يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة وأصبح أسمها العمارة.

وتدين العمارة في تطورها لموقعها الممتاز ذلك أنها بسبب من وقوعها على بعد لا يزيد عن خمسين كيلومتراً عن قرى لورستان الحدودية ولا يتعدى بضعة ايام من سير القوافل عن المدن الفارسية شوستر ودزفول والحويزة، أصبحت المجهز لكل منطقة الحدود هذه بالبضائع الأوربية التي تنقلها إليها السفن الإنجليزية والعثمانية التي اقامت لها خطوطاً ملاحية منتظمة في دجلة. ولقد أصاب افتتاح الملاحة في نهر الكارون الأزدهار التجاري للعمارة بضرر كبير إذ اقتطع منها أسواق خوزستان ولم يبق لها إلا التجارة النشيطة مع لورستان ومع القبائل العربية المنتقلة في الجوار.

وتبدو العمارة للناظر من سطح السفينة جميلة وذلك بفضل كورنيشها الذي تمتد عليه في خط واحد بيوت تتالف من طابقين مبنية بالأجر وتقسمها إلى أحياء منفصلة عدة شوارع عريضة ومستقيمة انّ هذه الواجهة الجميلة تبدو كما لو أنها ديكور يخفي وراءه العمارة الحقيقية بأبنيتها الطينية وصرائفها وبساتينها وحقولها المحروثة.

ويتألف سنجق العمارة التي تكون المدينة التي وصفناها قبل قليل مركزه الإداري من قسمين أحدهما عبارة عن صحراء والآخر اهوار وتسكن في هذا الأخير قبائل عربية تشتغل بالأساس بتربية الماشية وزراعة الرز في الأهوار. لذا فليس هناك ما يدهش، في ظل مثل هذه الظروف، في إننا لا نجد في هذا السنجق مدناً أخرى إلى جانب العمارة، بل حتى عدد القرى والمدن الصغيرة محدود إلى درجة بحيث لا توجد في الأقضية

الثلاثة التي يتألف منها هذا السنجق وهي الزبير ودويريج وشطرة العمارة، نواحي وهي عادة تزداد كلما زاد عدد السكان الحضر في المنطقة. وهكذا فباستثناء قضاء شطرة العمارة التي تاسست في ثمانينات القرن السابق في الموضع الذي يقوم به الحصن العربي قلعة صالح وهو الحصن الذي كان مقراً لشيخ مشايخ البو محمد، وكذلك قرية مسيعيدة في قضاء الزبير فإن الأماكن الوحيدة التي تستحق الذكر هي المزارات التي يؤمها الناس للزيارة.

ومن بين هذه المزارات هناك إثنان خاصان بالشيعة الذين يؤلفون ثلاثة أرباع سكان العراق الجنوبي هما علي الشرقي وعلي الغربي [1] يقع الأول منهما على بعد ٤٠ كم إلى الشمال الغربي من مدينة العمارة على الضفة اليسرى لنهر دجلة وقد أطلق عليه إسم الشرقي تمييزاً له عن الثاني الواقع على الضفة اليمنى أي الغربية من النهر. ويدفن في علي الشرقي على ما تذكره الروايات المأثورة علي الشاكي إبن الإمام الكاظم وحفيد الإمام موسى [2]، وقد شيد على قبره ضريح ذو قبة. وتوجد بالقرب من الضريح

---

(١) ي. أيز تشيريكوف، سجل الطريق، بغشراف أز كمازوفو الجمعية الجغرافية الروسية، قسم غرب القفقاس، الكتاب التاسع ص٤٥ [بالروسية].

(٢) لقد اختلط الأمر على المؤلف فالإمام الكاظم هو نفسه الإمام موسى كما هو معروف. أما عن علي الشرقي فيذكر السيد محمد حرز الدين في الصفحات ٨٤ ـ ٨٧ من «مراقد المعارف، النجف ١٩٧١» بأنه علي بن محمد بن موسى بن عبد الله الصالح بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وأما علي الغربي فهو علي الغراب بن يحيى بن علي بن محمد بن أحمد بن زيد بن علي بن محمد بن أبي عبد الله جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «المصدر نفسه ص٨٢ ـ ٨٣» ـ المترجم.

قلعة صغيرة يحيطها سور من الطين وتتخذ مقراً للمسؤول التركي والقلة من الجندرمة التابعين له. وجميع أهل البلدة الذين يبلغ عددهم الفي نسمة يعيشون في بيوت من الطين منتشرة حول القلعة. أما مزار علي الغربي الذي تقول المآثر أن جثة علي الشاكي قد غسلت فيه بعد موته فإنه يقع على بعد ٤٥ كم تقريباً على الشمال الغربي من علي الشرقي. ويسكن في تلك البلدة الكثيرة النشاط حوالي الفي نسمة يشتغل أغلبهم بالتجارة الصغيرة أو كوكلاء لتجار بغداد لمبادلة المنتجات الحيوانية التي يجلبها إلى هناك عرب بني لام بمنتجات الصناعة الأوربية التي أصبح الرحّل المذكورون يستخدمونها في اقتصادهم البسيط.

والمزار الثالث الذي يستحق الذكر هو ضريح النبي عزرا (العزير) الواقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة في منتصف الطريق تقريباً بين القرنة وشطرة العمارة. والعزير لا يحظى بتقديس اليهود فقط بل والمسلمين أيضاً. وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين اليهود يؤكدون بأن قبر النبي عزرا هو في القدس، إلا أن اليهود العراقيين لا يشكون في صحة القبر الموجود عندهم وهم يستندون في ذلك على التلمود الذي يذكر أن الموت داهم عزرا في بلدة زمزوم على دجلة وهو في طريقة إلى سوسة. وتذكر الرواية التي أوردها (W. Ainsworth) [1] أن النبي عزرا كان قد دفن في البداية في المحل الذي مات فيه قبل أوانه، وبعد أن أهمل قبره وتحول بالتدريج إلى تل من الخرائب فرض السلطان نفسه على الطائفة اليهودية في العراق أن تنقل رفاته إلى الموضع الذي يرقد فيه الآن وأن تبني له ضريحاً فيه. وعندما أخذ هذا الضريح يتهدم، أهتم والي بغداد أحمد باشا

---

(1) A personal Narrative Of the Enphrates expedition. London 1888 Vol. II. P. 455.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بإعادة بناء القبر وأقام عليه ضريحاً جديداً يتألف من قبة من القاشاني الأزرق. ولكن الضريح تهدم في ١٩٠٤ فأعيد بناؤه مرة أخرى. وقد ألحقت بالضريح بناية تتألف من طابقين تحوي أماكن للنزلاء، وخلف السياج الذي يحيط بالضريح وبالبناية المخصصة لاستقبال الغرباء قامت بلدة كاملة تعيش بشكل كلي على الزوار الذين يؤمون الضريح.

ومع ذلك فإن عدد الزوار لا يتناسب مع المكانة التي يحتلها النبي عزرا عند اليهود الذين يدينون له بالمحافظة على كيانهم. فقانون موسى كان قد وحد كما هو معروف اليهود آنذاك ومنع تفككهم ولكن هذه الرابطة بدأت تضعف بالتدريج نتيجة لتراجع اليهود المتزايد عن الالتزام الدقيق بتعاليم التوراة، وإلى عزرا يعود شرف إعادة قانون موسى في نقائه الأول بين اليهود الموجودين في بابل أولاً ثم بين شركائه في العقيدة في القدس بعد ذلك حيث حرم التزاوج مع الكنعانيين فتلافى بذلك في الوقت المناسب ما كان قد بدأ قبل ذلك من تمثيل اليهود من قبل هؤلاء الأخيرين (١).

ولم يبق، لكي ننتهي من وصف سنجق العمارة، إلا أن نقول بأن قيام «إدارة الضياع السلطانية» أو ما يسمى بـ «الأراضي السنية» هناك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهي المؤسسة التي احتكرت أراضي مزروعة واسعة في السنجق، يمكن اعتباره بداية لتهدئة المنطقة. فالقبائل المحلية القليلة التحضر والحربية النزعة جذبتها الإدارة المذكورة إلى الاشتغال بالعمل الزراعي وذلك بفضل تأجير الضياع السلطانية إلى شيوخها الذين أصبحوا في الوقت نفسه موظفين حكوميين عثمانيين أي قائمقامين

(1) Lenormant, Histoire ancenne de I, orient T. VI. P. 322 FF.

ومـديرين ومـا أشـبه فأخـذوا علـى عـاتقهم بحكـم ذلـك مسـؤولية المحافظـة على الهدوء والنظام.

ويتـأخم سـنجق المنتفـك سـنجق العمـارة وهـو يشـمل كـلّ المجـرى الأسـفل لنهـر الفـرات مـن بلـدة المدينـة الواقعـة بـالقرب مـن القرنـة إلى حصـن قلعـة الـدراج الواقعـة علـى حـدود ولايـة بغـداد حيـث يتوغـل السـنجق المـذكور في هـذه الأخـير عميقـاً ممتـداً علـى طـول قنـاة شـط الحـي حـتى مصـبها (١) في نهـر دجلـة عنـد كـوت الأمـارة. وهكـذا يشـمل سـنجق المنتفـك جميـع الأراضـي الـتي يقطنهـا عـرب المنتفـك الـذين أصـبحت الزراعـة عنـدهم، بالمقارنـة مـع القبائـل العربيـة الأخـرى في العـراق أول حقـوق المواطنـة وذلـك لأن التربـة السـوداء تغلـب في المنطقـة الـتي يقطنونهـا علـى الأهـوار والصـحراء، فهـذه الأخـيرة أي الصـحراء لا تلاحـظ إلا علـى ضـفة الفـرات اليمـنى حيـث تتصـل حـدود سـنجق المنتفـك بالصـحراء السـورية، في حـين لا تشـغل الأهـوار والمسـتنقعات، إذا اسـتثنينا مسـتنقعات لملـون (٢) الواقعـة خـارج حـدود السـنجق، منـاطق واسـعة إلّا في القسـم الجنـوبي مـن السـنجق المـذكور ابتـداءً مـن سـوق الشـيوخ. لـذا فـإن ظـروف الاشـتغال بالزراعـة تكـون في جميـع أنحـاء سـنجق المنتفـك الأخـرى مناسـبة جـداً بحيـث ان انتقـال سـكان المنتفـك مـن حالة التنقل إلى التحضر يحصل أسرع منه عند القبائل العراقية الأخرى.

والناصـرية هـي المدينـة الرئيسـية في السـنجق (٣)، وتقـع علـى الضـفة اليسـرى للفـرات عنـد مصـب شـط الحـي فيـه. علـى بعـد ١٤٠ كـم تقريبـاً كخـط

---

(١) لا يصب شط الحي أو الغراف في دجلة بل يأخذ مياهه منه. المترجم.

(٢) الصحيح لملوم. المترجم.

(3) Demis de Eivoyre Les veais arabst et leur pays Pays Paris 1884. P. 167. FF.

مستقيم إلى الجنوب الغربي من العمارة و ١٧٠ كم إلى الغرب من البصرة. والناصرية كالعمارة مدينة حديثة.

وهي تدين بقيامها في سبعينيات القرن التاسع عشر لناصر باشا الشيخ المشهور من عائلة السعدون، فلقد حصل مدحت باشا وإلى بغداد آنذاك رغبة منه في استمالة الشيخ المذكور وتهدئة المنطقة نهائياً وترسيخ سلطته عن طريقه، على موافقة اسطنبول على فصل الأراضي التي يقطنها المنتفكيون وجعلها منطقة قائمة بذاتها يوضع على رأسها الشيخ ناصر الذي في الوقت نفسه على لقب باشا ورتبة متصرف عثماني. وقد قرر المدير الجديد أن يؤسس مدينة جديدة لتكون مقراً له فحاول أن يجد لها موضعاً ملائماً للمحافظة على طاعة المنطقة التابعة له وكذلك لصد هجمات القبائل المعادية للمنتفكين وخصوصاً الشمريين الذين كانوا يتنقلون في اطراف المناطق الشمالية لولاية بغداد. وبعد أن بنى ناصر باشا في المكان الذي اختاره قلعة واسعة وحصينة وألحق بها ثكنات بدأ بتشييد مدينة جديدة حولها سميت «الناصرية» نسبة لمؤسسها. أن تخطيط المدينة بل وحتى بناء الكثير من عماراتها كما تشير الشائعات، هو من عمل مهندس بلجيكي وذلك ما جعل الناصرية بسوقها الواسع وبيوتها وشوارعها العريضة أحسن من أية مدينة أخرى على الفرات فهي تعطي للأوروبي أجود أنطباع.

وتقارن هذه المدينة التي بلغ عدد القاطنين فيها بعد سنتين من تأسيسها أربعة آلاف نسمة، حالياً بالعمارة من حيث عدد سكانها الذين يتألفون إضافة إلى العرب والصابئة أو المسيحيين من أتباع يوحنا المعمدان [1] من جالية يهودية كثيرة العدد، الأمر الذي يشير إلى أهمية الناصرية من الناحية

---

(١) أنظر عنهم الفصل الخامس من هذا الكتاب.

التجارية. فالواقع أن كثافة اليهود تزداد في مدن ولاية البصرة ومناطقها المأهولة بمقدار ما تزداد أهمية هذه المدن أو المناطق من الناحية التجارية ولهذا فإننا نجد الطائفة اليهودية في العمارة وشطرة العمارة وسوق الشيوخ وشطرة المنتفك والحي والكويت إلى جانب البصرة نفسها والناصرية. وتحتل الناصرية مكانة بارزة في التجارة باعتبارها مركزاً لشراء الخامات من جميع أنحاء السنجق وعلى الأخص الحبوب التي تكثر في المنطقة التي يرويها شط الحي.

أما عن القلعة التي بناها ناصر باشا فإنها ظلت غير مأهولة لوقت طويل ذلك أن الشيخ نفسه في زياراته للناصرية كان يتجنب التوقف فيها مفضلاً العيش في خيمة تُضرب له خارج سور القلعة. أما ابنه فالح الذي عُيّن متصرفاً لسنجق المنتفك فقد سكن في الناصرية واختار القلعة لتكون مقراً له حيث أقام فيها دون أن يتركها حتى ثورته على الحكومة العثمانية عام ١٨٨٢ واضطراره للهرب. ومنذ ذلك الوقت تقلص نفوذ أل سعدون كثيراً وتحولت الناصرية من مقر لشيخ مشايخ المنتفك إلى مدينة عربية عادية يديرها الأتراك.

لقد تزامن ازدهار الناصرية مع تضاؤل المركز التجاري السابق سوق الشيوخ التي ظل البدو حتى ذلك الوقت يتقاطرون عليها لا من مناطق العراق العربي المجاورة فحسب وإنما من البلدان البعيدة أيضاً كالكويت ونجد وصحراء شمال شبه جزيرة العرب.

لقد قام أحد شيوخ المنتفك قبل مائتي سنة ببناء سوق الشيوخ على الضفة اليمنى أي الغربية من الفرات في منتصف الطريق تقريباً بين القرنة ومصب شط الحي في الفرات. ثم أخذت المدينة بالنمو بسرعة فامتدت وأصبح محيطها خمسة أميال وعدد سكانها يزيد على ١٠،٠٠٠ نسمة.

وعنـدما اجتـاح الطـاعون في ١٨٣١ العـراق بأجمعـه وجـه أول ضـربة لرفاهيـة هـذا المركـز التجـاري العـربي الصـرف. ومنـذ ذلـك الوقـت بـدأت المدينـة بالتـدهور إلى أن حولتهـا منافسـة الناصـرية إلى وضـعها الحـالى كبلـدة فقـيرة ذات شـوارع ضـيقة متعرجـة تغطيهـا الـبرك النتنـة ومختلـف أنـواع القـاذورات يقل عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة.

ومـا سـوق الشـيوخ حاليـاً إلا شـبيه تافـه للسـوق المزدهـر السـابق الـذي كـان البـدوي يسـتطيع أن يجـد فيـه كـل مـا هـو ضـروري ابتـداءاً مـن السـلاح الأبـيض والأسـلحة الناريـة والبـارود والسـروج، وانتهـاءاً بـالرز والشـعير والـدخن والمصـنوعات الأوربيـة والـبن ومختلـف الأواني البسـيطة ومـا شـابه ذلـك مـن البضـائع. وكانـت التجـارة هنـاك تجـري عـن طريـق المقايضـة أي أن البـدو كـانوا، في مقابـل البضـائع الـتي يحتاجونهـا، يقـدمون الماشـية والخيـل والمنتجـات الحيوانيـة كالصـوف والجـبن والجلـود ومـا أشـبه. وكـان شـراء المسـروقات والأشـياء الـتي تقـع في أيـدي البـدو عنـد سـلبهم للقوافـل التجاريـة أو للمسـافرين الانفـراديين بشـكل عـام فرعـاً مزدهـراً مـن فـروع التجـارة المحليـة بحيـث أن أي أوروبي يسـلبه العـرب في الصـحراء كـان يسـتطيع وبشـكل مؤكـد تقريبـاً أن يعيـد شـراء أغلبيـة أشـيائه الـتي فقـدها في دكـاكين سوق الشيخ.

وتشـتهر سـوق الشـيخ، بالإضـافة لتجارتهـا المزدهـرة مـع البـدو، بكونهـا أيضـاً مقـراً للـرئيس الـديني لطائفـة تسـكن بعـض مـدن العـراق العـربي وتعـرف باسم الصائبة [1].

وقـد سـكنت بضـع مئـات مـن عـوائلهم حـول مسـكن أسـقفهم فكونـوا

---

(١) أنظر تفاصيل عنها في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

قرية خاصة على ضفة الفرات المقابلة لسوق الشيوخ.

وتقع سوق الشيوخ وضواحيها وسط بساتين النخيل التي تغطي بشكل كلي تقريباً ضفتي نهر الفرات كلتيهما ضمن حدود سنجق المنتفك وتتحول إلى غابات نخيل حقيقية حول القرى العربية الكثيرة المنتشرة على جانبي النهر. وتقطع أحراج النخيل هذه إلى الشمال من سوق الشيوخ من حين لآخر شرائط من الأراضي الصحراوية. أما إلى الجنوب منها فإن تلك الأحراج تتداخل مع أدغال القصب التي تكون سوراً عالياً يخفي وراءه المناطق المتاخمة للنهر. وفي الأماكن التي تقطع فيها هذا السياج الطبيعي بعض القنوات كبيرة كانت أو صغيرة ينفتح من خلال الفجوات التي تكونها هذه القنوات مشهد تتراءى فيه قرى عربية صغيرة بيوتها من الصرائف أو أكواخ القصب، يحيطها سياج مشترك من القصب.

وتعتبر كوت الشيخ أو قلعة الشيوخ [1]، قرية من القصب من هذا النوع وإن كانت أكبر في حجمها، وهي تقع على بعد عشرة أميال إلى الأعلى من سوق الشيوخ صعوداً مع الفرات، وهي تقع على بعد عشرة أميال إلى الأعلى من سوق الشيوخ صعوداً مع الفرات. وكانت هذه القرية قبل تأسيس الناصرية وبناء قصر آل السعدون الواسع فيها، مقراً لشيخ المشايخ أو الزعيم الرئيس لعشائر المنتفك وحاشيته كثيرة العدد والمقربين منه وكذلك لزعماء جميع القبائل الداخلة في هذا الاتحاد القبلي وهكذا كانت كوت الشيوخ تبدو كمعسكر ضخم للبدو الذين يأوون إلى أكواخ من القصب بدلاً من الخيام وذلك على الرغم من أن تفاعل الألوان في الصورة يخل به منظر بعض الأبنية الطينية التي أنشأت للوقاية من الحرائق

(1) K. Ritter. Op. cit. T. VII Abt. 2. S.1000.

أو لكي تستخدم كمخازن للحبوب ولمختلف الاحتياجات.

وتقع سوق الشيوخ على بعد ٤٠ كم إلى الأسفل من الناصرية وهذه بدورها تقع على نفس المسافة من العبد إلى الجنوب من مدينة شطرة المنتفك الواقعة على شط الحي ومعناه «النهر الثعباني» وهو اسم أطلق عليه بسبب كثرة التعرجات في مجراه [1].

وتدين شطرة المنتفك بقيامها لضريح أحد الأولياء المسلمين الذي يقع غير بعيد عن المدينة الحالية، فقد كان هذا الضريح يجذب منذ القدم الكثير من الزوار فنمت بسبب ذلك بالقرب من المزار قرية صغيرة. ولم يكن لهذه القرية الواقعة على بعد بضعة كيلومترات عن شط الحي على فرع شبه جاف منه، أهمية تجارية كبيرة وظلت تحيا حياة تعسة إلى أن كلف ناصر باشا في نفس الوقت الذي بنيت فيه الناصرية، واحداً من الذين يثق بهم وهو مسيحي من بغداد اسمه نعوم سركيس بنقل بلدة شطرة المنتفك إلى شط الحي نفسه. وقد وضع للمدينة الجديدة مخطط بني بموجبة على ضفة شط الحي نفسها سوق وشقت شوارع واقيمت كل البنايات العامة الضرورية كالثكنة والقوناق وما أشبه. وقد استوطنت المدينة الجديدة التي تشبه في مظهرها الخارجي الناصرية كثيراً بسرعة حيث لم يسكنها سكان القرية السابقة فقط وإنما استقر فيها ايضاً ناس من خارج المنطقة بحيث بلغ عدد سكانها بعد عشرين سنة خمسة آلاف نسمة. ويفسر هذا النمو السريع بالنسبة للعراق العربي، الذي أصاب شطرة المنتفك بالأفضليات التي يتمتع بها موقعها الجديد الكائن على قناة صالحة للملاحة تجري في واحد من أكثر اجزاء العراق العربي خصوبة وتصب في

(1) Denis de Rivoyre, op cit. p. 239.

نهـر الفـرات وهـو الشـريان الرئيسـي الـذي تنقـل بواسـطته إلى البصـرة جميـع الغلال المعدة للتصدير إلى الخارج.

وهنـاك مـدينتان آخريتـان تنافسـان شـطرة المنتفـك في المجـال التجـاري تقعـان علـى شـط الحـي أيضـاً ولكـن إلى الشـرق قلـيلاً همـا مدينـة الحـي الـتي يبلـغ عـدد سـكانها ٥٠٠٠ نسـمة وبلـدة قلعـة سـكر الصـغيرة الـتي تلعـب دوراً بـارزاً في التجـارة المحليـة علـى الـرغم مـن أن عـدد سـكانها لا يزيـد عـن ٢٠٠٠ نسمة وذلك بفضل وقوعها في منتصف الطريق بين الشطرة والحي.

ويوجـد علـى بعـد ٧٠ فرسـتاً إلى الجنـوب الشـرقي مـن مدينـة الحـي ضـريح السـيد أحمـد الرفـاعي [1] المتـوفى في عـام ١١٨٢م والـذي يعتـبر مؤسـس الطريقـة الدرويشـية الـتي تعـرف باسمـه. فـأفراد الطريقـة الرفاعيـة يقيمـون حلقـات ذكـر علنيـة يعمـدون في أثنائهـا وبعـد أن يصـلوا إلى حالـة النشـوة الروحيـة بسـبب الـدوران الـذي يـدير الـرأس، علـى ضـرب أنفسـهم بالخنـاجر والسـكاكين والسـلاح الأبـيض عمومـاً. وتؤكـد المـآثر السـائدة بيـنهم بـأن عليـاً نفسـه صـهر النـبي محمـد قـد حصـن السـيد أحمـد الرفـاعي مـن ضـرر كـل الأدوات الـتي تسـتخدم للقطـع أو الطعـن. وقـد نقـل هـذا الأخـير بـدوره هـذه القـوة الخارقـة إلى أتباعـه. وكـان مـن بـين أتبـاع هـذه الطريقـة السـلطان عبد الحميد الذي توارى حالياً عن مسرح التاريخ.

ويظـل وصـف سـنجق المنتفـك ناقصـاً إذا لم نشـر ولـو بكلمـات عـابرة علـى أطـلال المـدن القديمـة الموجـودة فيـه، فـأطلال واسـط القديمـة الـتي أسسـت في نهايـة القـرن السـابع المـيلادي تقـوم علـى شـط الحـي في منتصـف المسـافة تقريبـاً بـين قلعـة سـكر والحـي، كمـا تقـع بـالقرب مـن شـطرة المنتفـك

---

(1) K. Ritter, op. cit. T. VII Abt. I. S. 279.

أطلال سرتيلا أو سيبورلا [١] السابقة على بابل ونينوى التي اكتشفها القنصل الفرنسي في البصرة السيد (de SarZec) في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وأخيراً ينتصب شامخاً على ضفة الفرات المقابلة لمدينة الناصرية على مسافة لا تزيد عن ساعي سفر ركوباً تل يسميه العرب المقير يضم بقايا مدينة أور موطن إبراهيم. وتشير المعلومات التي اودها كارل رتر [٢] إلى أن المثلث المحصور بين سوق الشيوخ وشط الحي والديوانية هو أغنى منطقة في العراق العربي والغني أصلاً بالآثار القديمة، بالتلال التي تخفي في باطنها آثار العالم القديم، الأمر الذي يشير إلى التطور الحضاري السابق الرفيع لهذه المنطقة وإلى كثرة سكانها.

ولا يمتد سنجقا العمارة والمنتفك اللذان جرى وصفهما أعلاه واللذان يشملان كل المجرى الأدنى لنهري الفرات ودجلة، إلى الموضع الذي يلتقي فيه هذان النهران ذلك أن اللسان الأرضي الذي يتكون هناك يحتله قضاء القرنة وهو أبعد أقضية سنجق البصرة باتجاه الشمال بحيث يدخل كالأسفين في السنجقين المذكورين.

وقضاء القرنة عبارة عن مستنقع واسع يحوي مساحات صغيرة من اليابسة يسكنها الأعراب الذين يربون الجاموس ولا توجد فيه أماكن تستحق الذكر فيما عدا القرنة نفسها. وهذه الأخيرة تقع على بعد ٧٠ فرستاً إلى الأعلى من البصرة وعلى نفس البعد تقريباً من كل من سوق الشيوخ على الفرات والعمارة على دجلة تبدو كقرية كبيرة لكنها رغم ذلك شهدت في السابق أوقاتاً أفضل، فقد تأسست القرنة حسب المعلومات التي أوردها

---

(١) هي مدينة لكش القديمة ـ المترجم.

(2) K. Ritter: op. cit. T. VI Abt. 2. S. 963 FF.

نيبور [١] في بداية القرن الثامن عشر [٢] كحصن ضد الفرس ولذا فإنها أحيطت بسور مزدوج وترابط فيها باستمرار حامية لا يستهان بها. وهكذا نرى أن الموقع الستراتيجي للقرنة قد جرى تقييمه منذ ذلك الوقت ذلك أنها تسيطر على وادي دجلة والفرات فتكوّن بذلك خطاً دفاعياً جديداً يضاف إلى دلتا شط العرب ولكنه يتميز عنها في أن جناحه لا تهدده أية محمرة كما هي الحالة بالنسبة لحصن الفاو.

لقد دمر طاعون ١٨٣١ المخيف وفيضان الفرات غير المعتاد بحيث ارتفع مستوى المياه في النهر في السنة نفسها بمقدار ٢٧ قدماً أكثر من مستواها الاعتيادي، كل المنطقة الواقعة بين البصرة وبغداد فتخربت القرنة تماماً بحيث لم يجد فيها (J. R. Wellsted) [٣] في عام ١٨٣٦ إلّا أكواخاً من القصب لا يزيد عددها عن ٣٠ ـ ٤٠ كوخاً يسكنها جميعاً أناس غرباء هم بالدرجة الأولى الموظفون الأتراك. ومنذ ذلك الوقت أخذت القرنة تعود بعض الشيء على حالتها الأولى إلى أن أصبح يسكنها حالياً ما بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ نسمة كما قامت فيها إلى جانب أكواخ القصب أو الصرائف بنايات من الأجر يشغلها «القوناق» أي مكتب القائمقام ومحطة التلغراف ودائرة الكمارك وغيرها من المؤسسات العامة.

---

(1) Reisebes Chribung nach Arabien und undern umliegenden Iandern. Kopenhagen. 1778. T. II. S. 248.

(٢) لقد ورد ذكر القرنة على لسان السواح في القرن السادس عشر، ويؤكد المؤلف نفسه بشكل غير مباشر بأن القرنة كانت موجودة قبل هذا التاريخ عندما يذكر في الصفحة القادمة بأن البرتغاليين فيها محطة تجارية في القرن السابع عشر ــ المترجم.

(3) Teavels To The City of Caliphs. London. 1840. Vol. l. pp. 156. 157.

وللقرنة إلى جانب موقعها الستراتيجي الجيد أهمية تجارية وذلك بفضل صلاحية شط العرب لسير السفن البحرية الكبيرة حتى نقطة التقاء دجلة والفرات.

ولهذا فبمجرد أن تاسست القرنة اتخذت دور المركز الذي تتجمع فيه البضائع القادمة عن طريق الخليج ومنه تتوزع على المناطق المتاخمة لضفاف أعظم نهرين في مقدمة آسيا، وذلك كما كان الحال تماماً في منتصف القرن السابع عشر عندما أقام البرتغاليون هناك محطة تجارية لهم ظلت أطلالها قائمة حتى بداية القرن السابق [١].

ولا يمكننا أن نصف القرنة وصفاً كاملاً دون أن نذكر الأسطورة التي تقول بأنها تقع في الموضع الذي كانت تقوم به جنة أجدادنا. ولتأكيد ذلك يقوم سكان القرنة باطلاع الرحالة المحبين للاستطلاع على «شجرة إدراك الخير والشر» [٢] وهي عبارة عن شجرة طلح عربية قديمة تقوم على الضفة اليمنى لنهر دجلة بعيداً بعض الشيء عن بساتين النخيل المحلية [٣].

وتقطع ضفتي شط العرب كلتيهما من القرنة حتى الفاو قنوات متوازية تأخذ مياهها من النهر وتتوغل في داخل البلد لمسافة تتراوح بين فرستين وثلاث فرستات.

ويصل عدد هذه القنوات إلى ستين قناة لكل منها اسم خاص وتقوم كل منها بدوره بتوزيع المياه على عدد كبير من القنوات والسواقي الصغيرة التي تتفرع من كلا جانبيها فتغطي المنطقة المتاخمة للنهر بأجمعها كالشبكة

---

(1) Description du Paghalik de Baghdad Par M. (Rousseau). Paris 1809 P. 40.

(٢) لابد أن المؤلف يقصد ما يسمى بـ "شجرة آدم" . المترجم.

(3) Denis de Rivoyre: Op. Cit. P. 117.

الكثيفة ولا يبقى في ظل هذا النظام أي جزء من اليابسة دون إرواء، لذلك إنتشرت بساتين النخيل التي تحتاج إلى تربة رطبة على شكل غابات واسعة وكثيفة على طول هذ القنوات. وبفضل هذه النبتة الرائعة أصبحت ضفاف شط العرب وقنواته جميلة جداً فأخذ الأغنياء من سكان البصرة العرب يشيدون فيها بشكل متزايد بيوتاً ريفية يقضون فيها أشهر الصيف الحارة. وتعتبر أبو الخصيب موضعاً ريفياً مفضلاً وهي تقع على قناة تحمل نفس الاسم ويقطنها ما يزيد عن ٦٠٠٠ نسمة يعيش أغلبهم عيشة هانئة من دخل بساتين النخيل التي يمتلكونها وبسبب من الموقع الستراتيجي المعروف الذي تتمتع به أبو الخصيب لكونها تظل تقريباً على قناة الحفار التي يصب بواسطتها الكارون في شط العرب عمدت الحكومة العثمانية إلى تقوية هذا الموضع حتى إنها أقامت هناك بطارية أرضية.

وعلى بعد ستين فرستاً أسفل أبي الخصيب تقع الفاو التي هي في الحقيقة عبارة عن قرية صغيرة من أكواخ القصب ولكنها تثير الأنتباه لأسباب أخرى تماماً فهي أولاً: المحطة الأخيرة لخط التلغراف البري الممتد من اسطنبول عن طريق سكوتاري [1] وسيواس وديار بكر إلى بغداد والبصرة، ونقطة البداية للكابل الإنجليزي البحري الممتد إلى بندر بوشهر ومنها إلى كراجي عن طريق جاسك وهيثانياً: تتوغل في البحر بفضل موقعها على لسان ضيق وواطئ تكونه ضفة شط العرب اليمنى فتسيطر على مدخل مصب هذا النهر من الجنوب ولهذا السبب اشترطت الدولة

---

(١) كانت توجد في الدولة العثمانية مدينتان إسم كل منهما سكوتاري تقع الأولى على الضفة الأسيوية للبسفور وهي المقصودة هنا أما الثانية فإنها في البانيا ـــ المترجم.

العثمانية وفارس اللتان وقعتا بوساطة روسيا وبريطانيا معاهدة وهي المادة التي تنازلت الدولة العثمانية بموجبها عن منطقة المحمرة والضفة اليسرى لشط العرب [١] وكان افتتاح الملاحة في نهر الكارون في ١٨٨٨ بفضل إصرار بريطانيا العظمى يبشر بزيادة أهمية المحمرة بشكل يفوق العادة ويهدد في الوقت نفسه بفقدان البصرة وبغداد لجزء لا يستهان به من تجارتهما المزدهرة مع الجارة فارس، الأمر الذي اضطر الحكومة العثمانية إلى أن تتخذ عدداً من الاجراءات التي اعتبرتها فعالة لحماية مصالحها. فبنت في الفاو طابية جهزتها بأحدث الأسلحة وكان ذلك على حد قول اللورد كرزن يشكل « خطراً جدياً يهدد جيران تركيا الفرس ومصالح التجارة والملاحة البريطانية على السواء » [٢] ولهذا أصبح مفهوماً لماذا لم تكن بريطانيا العظمى تترك أية فرصة ملائمة للاحتجاج على وجود الطابية المذكورة ولماذا كانت تحاول بكل جهدها أن تعيق الدولة العثمانية عن تعزيزها في المستقبل. وقد قامت بسبب ذلك حادثة سياسية جدية عندما أطلقت الحامية العثمانية المحلية في شهر أيار ١٨٩٠ النار على الكابتن بولديرو قائد اليخت الحربي الإنجليزي (Sphinx) عندما حاول النزول إلى الفاو لاستطلاع التحصينات [٣]. وقد سوي هذا الحادث سلمياً بفضل إقالة

---

(١) كانت توجد في الدولة العثمانية مدينتان إسم كل منهما سكوتاري تقع الأولى على الضفة الأسيوية للبسفور وهي المقصودة هنا أما الثانية فإنها في البانيا ــ المترجم.

(2) Persia and The Persian Question. London. 1892 Vol. II p. 335

(3) C. U. Aitchison A colleetion of Teraties Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Counties. Calcutta. 1892. Vol. XI. P. 9.

قائد الطابية فوراً والحكم عليه بالسجن ستة أشهر. أما الكابتن بولديرو نفسه فقد حصل على ترضية شخصية جاءت على شكل سماح خاص من السلطان بأن يستطلع بشكل تفصيلي الطابية التي اقامتها الأتراك على بعد يبلغ حوالى ربع فرست من بلدة الفاو.

وناحية الفاو بأجمعها غارقة في أحراج النخيل التي يعود أغلبها إلى شيخ الكويت الحالي مبارك بن صباح انتقلت إليه بالوراثة من أخيه الأكبر محمد. ذلك إن السلطان كان قد أهدى الأحراج لمحمد المذكور مكافأة له عن المساندة التي أبداها للقوات العثمانية في أثناء الحملة العسكرية التي أرسلت على الحسا عام ١٨٧٠.

وتمتد بساتين النخيل إلى خور عبدالله تقريباً وهو الفرع الشرقي الذي تكونه جزيرة بوبيان.

وهذه الجزيرة نفسها ظهرت حديثاً بفضل ما يجلبه تيار الخليج من الحاجز الغريني القائم عند مصب شط العرب. أما الفرع الذي يحيط بجزيرة بوبيان من الغرب والذي يعرف باسم خور الصبية فإنه يحادد الزاوية الشمالية الشرقية من خليج الكويت.

ويعتبر خليج الكويت المجاور لناحية الفاو أحسن خلجان الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب، وقد أجبر الصحافة الأوربية بأجمعها في بداية القرن الحالى على أن تتحدث عنه نظراً لأن المانيا اختارت أن تجعله المحطة التي تنتهي عندها سكة حديد بغداد. ولقد اقتفى المهندسون الألمان في هذا الشأن أثر بناة السكك الحديد الأنكليز من أمثال الجنرال (Chesney) والسير (W. F. Andrew) وغيرهم الذين كانوا منذ ١٨٧٢ قد اختاروا هذا الميناء العربي ليكون نقطة النهاية للخط الحديدي الذي فكروا بمده من الاسكندرية إلى الخليج عن طريق حلب وبغداد رغم أن هذا

المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ [١]. هكذا كانت بريطانيا قد قيمت تقييماً عالياً أفضليات السيطرة على خليج الكويت الذي يعتبر، إلى جانب أرخبيل البحرين الذي يبعد مسافة لا يستهان بها باتجاه الجنوب الشرقي، البوابة الوحيدة التي تربط الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب بمركزها، كما إنه، وهذا هو الأهم، يسيطر على مدخل شط العرب ذلك إنه يقع في موضع لا يبعد أكثر من ٨٢ كم إلى الجنوب الغربي من الفاو.

ويبلغ طول هذا الخليج ٢٠ ميلاً انجليزياً من الشرق إلى الغرب وعرضه ١٠ أميال. أما أقصى عمق له فيبلغ ٨٤ قدماً يتناقض تدريجياً بمقدار ما تقترب من الساحل حتى يصبح على بعد ميل ونصف منه غير صالح لسير السفن البحرية الكبيرة. ولهذا فإن المرسى الوحيد لهذه السفن الكبيرة هو بندر سويني أو ثويني الواقع على مقربة من النهاية الشمالية لمدينة الكويت، حيث يصل العمق فيه إلى ٢٤ قدماً وحيث تستطيع السفن، حتى عند هبوب الرياح الشمالية التي لا يصدها شيء عن خليج الكويت، القيام بعمليات التحميل بهدوء. وتعرف الضفة الشمالية للخليج باسم الأقطي وهي عبارة عن هضبة يبلغ ارتفاعها عدة مئات من الأقدام تبدأ من خليج صغير يسمى كاظمة وتمتد مكونة على طول امتدادها منحدرات وعرة وشديدة الانحدار حتى خور الصبية وهو الفرع الغربي الذي تكونه جزيرة بوبيان والذي سبقت الإشارة إليه.

وتقع مدينة الكويت في الجزء الجنوبي من الخليج الذي مر وصفه حيث تمتد على ضفته لمسافته لا تقل عن ميل. وعند الاقتراب منها من البحر تظل لفترة طويلة محجوبة عن النظر خلف لسان رملي طويل يسمى

---

(1) Curzon. Op. Cit. Vol. P. 632.

رأس العجوزة يقع عند مدخل الخليج.

وعندما ندور حول اللسان يصبح بإمكاننا أن نتبين على خلفية من الصحراء الرمادية الضاربة إلى الصفرة أبنية رمادية ضاربة إلى الصفرة أيضاً تبدو من بعيد.

أشبه بأبنية النمل الأبيض الضخم منها ببيوت البشر. ويشدد من كآبة مظهر الكويت انعدام النباتات فحتى النخلة الواسعة الإنتشار في منطقة شط العرب المجاورة ينعدم وجودها هناك بشكل كلي تقريباً.

ويلفت بيت القنصل البريطاني المطلي بالجص من الخارج، النظر بواجهته البيضاء ولذلك فإن ملاحظته أسهل من ملاحظة قصر الشيخ نفسه الذي لا يتميز عن بقية البيوت البسيطة إلا بصارية العلم وبضعة خيول مسرجة مرابطة بشكل دائم عند بوابته كانت قد جلبت إليه الضيوف.. ويقع قصر الشيخ على الساحل الذي يرتفع بعض الشيء في هذا الموضع والذي جرى تعزيزه بسد بني بلا إتقان. أما المدينة نفسها فتقع خلف صف البيوت الواقعة على الكورنيش البدائي. وشوارع المدينة واسعة وتتميز بالمقارنة مع مدن الخليج الأخرى بالنظافة. وأما السوق الذي يقع في الجانب الآخر من المدينة فإنه واسع جداً يزخر بالبضائع الأوروبية كمصنوعات مانجستر والسلاح الناري والأبيض وما شابه ذلك، وكذلك بالخامات المستوردة وعلى الأخص الغلال ومنتجات الحليب وغير ذلك. وتستخدم الساحة الواسعة المتاخمة للسوق هي الأخرى سوقاً حيث تمتد حتى سور المدينة الذي بعده الصحراء الحقيقية لشبه جزيرة العرب. وتحتل هذه الساحة اعتباراً من سور المدينة ولمسافة فرستات كاملة مرابض البدو الذين قدموا إلى هناك خصيصاً لكي يحصلوا على منتجات الصناعة الأوروبية عن طريق مبادلتها بماشيتهم أو بالمنتجات الحيوانية التي

تعتبر الغذاء الرئيسي لسكان الكويت ذلك لأن التربة هناك لا تنتج شيئاً. بل حتى الماء العذب يعتبر هناك شيئاً ثميناً جداً لأنه يتحتم الحصول عليه من آبار تحفر في الصحراء ثم ينقل في قرب على ظهور الحمير إلى ساحة السوق في المدينة حيث يقوم السكان بشرائه. وقد أثيرت قضية تجهيز الكويت بمياه الشرب أكثر من مرة في الصحافة الإنجليزية ـ الهندية التي لم تجد وسيلة لحل هذه القضية أفضل من نقل المياه من شط العرب في خزانات عائمة خاصة (١).

وعدد سكان الكويت ليس ثابتاً على الدوام وذلك بسبب زيادة ونقصان الرحّل وفي أغلب الأحيان يتجمع داخل أسوار المدينة أفراد يصل عددهم إلى ٤٠٠٠٠ نسمة رغم أن عدد السكان الأصليين ينبغي أن لا يتجاوز بشكل عام ٢٥ ألف نسمة. ويعيش الكويتيون بالدرجة الأولى على البحر حيث يعتبرون من أشجع البحارة في الخليج كله، سفنهم يمكن أن تصادف حتى في بومباي وكراجي إذ إنهم يذهبون إلى هناك طلباً للرز وغيره من المؤن وبالأخص طلباً لخشب الساج اللازم لصناعة السفن في ترساناتهم في الكويت. وتقوم السفن الشراعية الكويتية بممارسة التجارة الساحلية وصيد الأسماك كما تشارك عدة مئات منها بنشاط في استخراج اللؤلؤ في أرخبيل البحرين ويذهب بعضها بحثاً عن اللؤلؤ إلى جزيرة سيلان أو إلى البحر الأحمر علماً بأن هؤلاء تطول غيبتهم عن بيوتهم سنوات كاملة.

وللكويت أهمية تجارية ليست قليلة فهي الميناء الوحيد لدواخل شبه جزيرة العرب ومنها تتجه يومياً تقريباً القوافل المحملة بمختلف

---

(1) The Times of India IIIustrated Weekly No. 3. January 16. 1907.

البضائع إلى نجد وحائل.

وفضلاً عن ذلك فإنها المورد لبضائع التهريب المختلفة وبالدرجة الأولى طبعاً الأسلحة المخصصة للقبائل التي تسكن العراق العربي والتي تنقل إليها عن طريق الزبير. كما إن نقل البضائع التجارية المختلفة التي تمنع الحكومة العثمانية تصديرها مؤقتاً من العراق العربي إلى الخارج، كالحبوب والخيل مثلاً يتجه أيضاً إلى الزبير فالكويت ذلك أن الكمارك التركية لا تمتلك في هذه الأخيرة فرعاً خاصاً أو حتى وكيلاً.

ولقد أثارت الجولة التي قامت بها في ما بين النهرين في ١٩٠٠ لجنة من المهندسين الألمان برئاسة السيد شتيمريخ الذي كان آنذاك قنصلاً عاماً لألمانيا في اسطنبول ضجة كبيرة في الصحافة الإنجليزية التي كانت تحاول عن طريق انهماكها بمناقشة الشائعات التي تشير إلى نية المانيا في إيصال سكة حديد بغداد إلى الكويت، إن تقرر سلفاً أن يكون موضع محطة السكة الحديد المقبلة في خليج الكويت. ولقد اعتبر خليج «كاظمة» في بداية الأمر أكثر ملائمة لهذا الغرض لأن متوسط عمقه ملائم تماماً للسفن البحرية غير ان الصحافة الانجليزية ـ الهندية ركزت فيما بعد، بسبب كون خليج كاظمة مفتوحاً للرياح الشمالية التي تعرقل عمليات التحميل، على موضع آخر يقع على ساحل الخليج خارج خليج الكويت ويبعد بمقدار ستة أميال إلى الجنوب من رأس الأرض. وقد كان لهذا الموضع الجديد أفضليات منها أن العمق يبدأ من الشاطئ تماماً تقريباً كما إن الرياح الشمالية لا تعرقل التفريغ والتحميل وذلك بفضل الكثبان الرملية التي تحمي ذلك الموضع منها.

غير إن أياً من هذه الاقتراحات لم يتحقق بسبب من أن قضية تعيين المحطة النهائية لسكة حديد بغداد لم يجر حلها نهائياً إذ لا تزال حتى

الوقت الحاضر موضوعاً للمفاوضات بين الدول ذات المصلحة والدولة العثمانية.

وبإتمامنا لوصف الكويت نكون قد انتهينا من العرض الجغرافي للسناجق الثلاث التي يتألف منها العراق الجنوبي وهي سنجق العمارة وسنجق المنتفك وسنجق البصرة ولم يبقى أمامنا إلا الانتقال إلى استعراض القسم الأخير من ولاية البصرة وهو الحسا الذي يختلف في ظروفه بدرجة لا يستهان بها عن العراق الجنوبي.

يطلق إسم الحسا أو «الأحساء» بصيغة الجمع ومعناه باللغة العربية «التربة الرملية التي تمتص المياه» [1] على كل الشريط الساحلي الذي يمتد من خليج الكويت محتضناً منطقة القطيف الساحلية وواحة الحسا وشبه جزيرة قطر. وتؤلف هذه المناطق الثلاث جميعها سنجقاً واحداً يطلق عليه الأهالي هناك إسم «سنجق الحسا» علماً بأن اسمه في الوثائق التركية الرسمية وكذلك في الحوليات الخاصة بولاية البصرة «سنجق نجد» وهو أمر يبدو معه كما لو أن السنجق المذكور يشمل هضبة نجد الواقعة في وسط شبه جزيرة العرب يفصلها عن الحسا سلسلة جبلية عالية وصحراء رملية واسعة.

ويتعذر تعيين حدود سنجق نجد أو الحسا بدقة ذلك أن حدوده غير معينة إلّا من جهة الخليج أما في الجهات الثلاث الأخرى فإنها تضيع في الصحراء لذا فإن حدود الحسا لا يمكن معرفتها إلّا بشك تقريبي وعلى هذا الأساس نستطيع القول أن السنجق المذكور يحده من الشمال الصحراء

---

(١) لكلمة الحس العربية معنيان الأول مص والثاني سهل من الأرض يستنقع فيه الماء وجمعها أحساء وحساء. المترجم.

السورية ومن الغرب رمال صحراء «النفوذ».

ومن الشرق الخليج. أما في الجنوب فإنه يتاخم ما يسمى بـ «ساحل القرصنة» أو «السِّر» بالعربية وهو الساحل الذي يبدأ من نقطة تبعد ١٥٠ ميلاً أسفل رأس مسندم ويمتد حتى شبه جزيرة قطر تقريباً.

ويمكن تقسيم سنجق نجد الذي تبلغ مساحته ٥٠٠٠٠ كم من حيث تكوينات سطحه إلى ثلاثة أوسام تبعاً للمناطق الداخلة ضمنه وهذه الأقسام هي: الشريط الساحلي الضيق الذي يطلق عليه اسم القطيف وهو عبارة عن منخفض تغطيه الأهوار والمستنقعات، والحسا وهو عبارة عن صحراء حجرية في بعض المناطق ورملية في بعضها الآخر وفيها واحة واسعة هي الهفوف. ثم شبه جزيرة قطر التي تتألف من عدد لا يحصى من التلال الواطئة التي تحرقها الشمس يحل محلها بالقرب من الساحل عدد من المضاحل الرملية والمستنقعات.

وتحيط الجبال التي لا تتميز بارتفاعها الشديد حيث لا يصل ارتفاعها إلى ١٤٠٠ قدم فوق سطح البحر إلّا في مواضع قليلة، بسنجق نجد من ثلاث جهات كما لو إنها تحميه من كثبان «النفوذ» الرملية الصغيرة المتحركة التي تطوق الحسا من الجنوب والغرب وتتحول في الشمال إلى تربة حجرية وهي التربة التي تميز الصحراء السورية. وتقترب الجبال المذكورة في القطيف من شاطئ الخليج جداً بحيث لا تترك بينها وبين المياه سوى شريط ضيق لا يتعدى عرضه ١،١/٤ ميل.

أما في قطر فإنها تتحول إلى تلال واطئة تنتشر في أرجاء شبه الجزيرة كافة وتصل حتى الساحل تقريباً. وعلى العموم ينبغي القول بأن ضفة الخليج الغربية أو ساحل الأحساء هي ساحل صخري يشكل العديد من الجزر والأماكن الضحلة والشعاب الأمر الذي يجعله غير صالح للسفن

الكبيرة في كل المنطقة الواقعة بين خليج الكويت وارخبيل البحرين.

ورغم أن الحسا خال من أي نهر أو أي مجرى مائي يستحق الذكر لا يمكن اعتبارها مع ذلك من البلدان غير المؤهلة للحياة الحضرية وذلك لوجود فيض المياه الجوفية التي تظهر في الحسا نفسه إلى سطح الأرض على شكل ينابيع كثيرة وفي القطيف على شكل أهوار واسعة. أما في ارخبيل البحرين فإن المياه العذبة تنفجر من قاع البحر نفسه. وتفسر هذه الظاهرة بأن السيول الجبلية التي تنحدر من هضبة نجد الوسطى تختفي بعد ذلك تحت التربة وتجري على شكل أنهار تحت سطح الأرض في سجق نجد كله متجهه نحو ساحل الخليج.

وينبغي أن نعتبر ينابيع الحسا [1] عيوناً معدنية نظراً لأن المياه فيها دافئة ومذاقها كبريتي كما إن لها خصائص علاجية وذلك ما تشتهر به على وجه الخصوص عين نجم [2] الواقعة على الطريق المؤدي إلى الهفوف وهي المدينة الرئيسية في الحسا، وأم سبعة التي تقع على مسافة ثمانية أميال إلى الشمال من الهفوف والتي تكونها سبعة جداول تنبع من حوض طبيعي بهيئة حفرة مستديرة وعميقة يبلغ قطرها ٥٠ قدماً. ولم يتعرض تكوين هذه الينابيع وكذلك درجة حرارتها إلى البحث الدقيق لحد الآن غير إن مياهها على اية حال ليست مضرة للمزروعات وبساتين النخيل التي تعيش على مياه هذه الينابيع وحدها.

وتتكون تربة شبه جزيرة العرب عموماً والحسا خصوصاً بشهادة

.(1) W. Palgrave: Narrativ of a Year,s Journey Centeal and Eastern Arabia Vol. II London 1865. P. 150.

(٢) الصحيح عين نجمة. المترجم.

الباحث الانجليزي المعروف الكابتن سادلير (Sadleir) [1] الذي درس شبه جزيرة العرب من الصلصال الخالص أو من الصلصال المختلط بالحصباء باستثناء المناطق التي تسود فيها الرمال أو الأحجار. وربما استطاعت تربة الحسا الصلصالية، بوجود الارواء الجيد، أن تؤمن للمزارع، مثل العراق العربي، ليس فقط محصولاً شتوياً فحسب وإنما صيفياً أيضاً لو بذل العرب اهتماماً أكبر للمحافظة على المياه الثمينة التي تكون الآن مستنقعات في شمال مدينة الهفوف وشرقها.

ومناخ الهفوف يشبه نظيره في بغداد مع اختلاف واحد هو أن حرارة الصيف هناك أعلى بكثير والليالي التي لا تختلف عن النهار بشدة حرارتها لا تنعش الأحياء التي أعياها القيظ كما هي الحالة في مدينة الخلفاء. أما القطيف بمناخها الخانق المشبع بالأبخرة المتصاعدة من المستنقعات والخليج فيمكن اعتبارها مشابهة للبصرة، وتزيد من شبهها بهذه الأخيرة الحميات التي تجتاح القطيف والتي تذهب سنوياً بالكثير من الضحايا من بين أفراد الحامية التركية المرابطة في المدينة التي اعتاد ضباطها ومراتبها الدنيا النظر إلى وجودهم هناك على أنّه نفي لهم. وينعكس مناخ القطيف غير الصحي بشكل مضر أيضاً على الأهالي الذين يتميزون حتى بالقياس على سكان ضفاف الخليج المرضى المنهكين، بضعف بناء أجسامهم وصفرة امتقاع وجوههم.

ويتفوق سنجق نجد على العراق الجنوبي في قلة أمطاره ذلك إن فصل الأمطار الذي يأتي متوافقاً مع الرياح الجنوبية الشرقية والذي يمتد من شهر كانون الأول لغاية آذار يكون فيه أقصر بكثير منه في العراق

(1) R. R. Chesney: Cit Vol. II. P. 580 FF.

الجنوبي. أما الرياح الغالبة في سنجق الغالبة الحسا فهي الرياح الشمالية الغربية التي تهب في أثناء الأشهر الحارة أي في الفترة من نيسان حتى تشرين الأول وتجلب معها سحباً من الرمال بحيث إنها بدلاً من تقضي إلى انخفاض الحرارة تؤدي إلى زيادة معاناه الناس بأن تملأ رئاتهم بالغبار الناعم الخانق.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن نباتات الحسا فينبغي علينا أن نذكر بأنها تتكاثف في القطيف التي نجدها غارقة في الخضرة بفضل مناخها الرطب وكثرة الأهوار والمستنقعات فيها. أما الحسا فالنباتات التي تغطيه أقل من ذلك لأن المزارع وبساتين النخيل تتركز في ضواحي الهفوف القريبة فقط أما خارج حدود الواحة فتسود الصحراء التي ترعب بقحولتها. ولا يتحتم علينا أن نتحدث عن نباتات شبه جزيرة قطر ذلك إنها تقتصر فقط على الأعشاب المائية القائمة على ضفة البحر وعلى الاشواك علماً بأنه يوجد مقابل كل عود من العشب عشرون حجراً على حد تعبير بالكريف (١).

وتحتل النخلة، كما هي الحالة في العراق، المركز الأول بين نباتات سنجق الحسا لكنها هناك تختلف بعض الشيء عن النخلة العراقية ويكمن هدا الأختلاف في أن جذعها أرفع وأوراقها أقل كثافة ولحاؤها أكثر نعومة وثمرها بلون الكهرب الضارب إلى الحمرة ويكاد يكون شفافاً كما إن طعمه يفوق طعم كل الأنواع العراقية إلى درجة بحيث أطلق عليه إسم «خلاص» أي «الخلاصة واللب». ويوجد في بساتين الحسا إضافة إلى النخلة أشجار فاكهة أخرى كالرمان والتين شجرة البطيخ (٢). أما الاشجار

---

(1) W. Palgrave: Op. Cit. Vol. II. P. 228.

(٢) يقصد الشجرة التي يطلق عليها إسم البابايا أو البوبوي. المترجم.

غير المثمرة فيوجد منها بويوبا الجزيرة العربية والسنط وغيرها. وشجرة البطيخ تشبه النخلة في شكلها وتعطي ثمراً يشبه البطيخ بيضوي الشكل لونه أصفر ضارب إلى البرتقالي يؤكل نيئاً أو مطبوخاً وهو يساعد جداً على الهضم لاحتوائة على مادة «البابائين» (١).

وتزرع في سنجق الحسا الحنطة والذرة والدخن من الحبوب والفجل والبصل والثوم من الخضروات وتغلب زراعة الرز في القطيف التي تكثر فيها المياه والمستنقعات.

أما عن النباتات التي تستخدم محصولاتها في الصناعة فيمكن الإشارة إلى القطن والنيلة ولكنها تزرع هناك بكميات لا تكفي حتى لسد الحاجة المحلية، كذلك تعتبر زراعة قصب السكر في الحسا ناجحة ولكن الهدف من زراعته هناك متواضع جداً هو أن تصنع منه حلويات بسيطة.

أما عن الحيوانات التي تعيش في سنجق الحسا فأهمها الغزال والضبع وابن آوى والفهد والوشق (٢) والذئب والثعلب والنيص إلى جانب حيوانات الصحراء الأصغر كاليربوع وابن عرس والجرذ وما أشبه، والطيور التي تكثر فيها يشكل خاص الطيور الجارحة كالنسور والباشق وغيرها.

وأما الحشرات فأكثرها انتشاراً الجراد الذي تكثر غاراته على واحة الحسا لكن السكان هناك وخصوصاً البدو استطاعوا تحويله من حشرة ضارة إلى سند مفيد لمعيشتهم (٣) وذلك بأن يستخدموه كغذاء بعد أن

---

(١) ايللوستريروف؛ قاموس المعلومات ذات الفائدة العامة بإشراف البي نشر سوفورين، سانت بطرسبورغ ١٨٩٣ ص٣٥٠ وما بعدها. [بالروسية].

(٢) الوشق حيوان من فصيلة السنانير أصغر من النمر - المترجم.

(٣) أجازت الشريعة الإسلامية اكله فالامر لا يختص بالبدو او بسكان الاحساء كما يصوّره المؤلف او يتصوره. حميد الدراجي

يعدوه لهذا الغرض على النحو التالى: يوضع في ماء مالح ويغلي فيه ثم يجفف في الشمس وبعد ذلك يفصل عنه الرأس والأطراف والأجنحة وبعد أن ينظف الجسم من الملح يعرض مرة أخرى لأشعة الشمس المحرقة في شبه الجزيرة العربية. ويستخدم الجراد المحضر بهذه الطريقة للأكل وتجري المتاجرة به في أسواق سنجق الحسا كبقية المواد الغذائية. علماً بأن طعمه يكون الذ إذا ما قلي بالسمن.

ويتغذى سكان سنجق الحسا، إلى جانب التمر وقليل من الخبز وبعض المأكولات ذات الطابع البدوي الصرف كالجراد، على السمك الذي يقدمه لهم الخليج الذي يعتبر مع بحر عمان على ما يذكره (E. Revlus)[1]، من أغنى بحار العالم بالأحياء المائية. وهكذا ينتشر السمك المحلي المجفف في كل الساحل العربي من الخليج كما ينقل إلى داخل شبه جزيرة العرب وإلى هند وزنجبار وسواحل أفريقيا الشرقية.

أما الثروات الطبيعية فهي في سنجق الحسا أقل منها في العراق العربي فهي تقتصر هناك على الملاحات. وهذه الأخير كثيرة جداً هناك غير إن استغلاله ينحصر بشكل كلي في أيدي البدو الذين يبيعون حمل الجمل الواحد من الملح، بسبب وفرة إنتاجه، بقرش واحد أو ما يعادل ثمانية كوبيكات ونصف.

ولا يمكننا ونحن نتحدث عن الثروات الطبيعية في سنجق الحسا أن نغفل اللؤلؤ الذي يستخرج من محار ملتصق بالشعب المرجانية القائمة في قاع البحر على أعماق مختلفة تتراوح بين أربعة وعشرين ومائة وعشرين قدماً، حيث يغطس الصيادون بعد أن يغلقوا أنوفهم بأداة خاصة مصنوعة

---

(1) Novelle Geographie Yniver sell. Paris. 1884. T. IX. P. 860.

من العظام [1] ويسدون آذانهم بالشمع تحت الماء إلى عمق لا يتجاوز ثمانية وعشرين قدماً ويبدأون بجمع المحار في سلال مشدودة إلى خصورهم. ويوجد محار اللؤلؤ على طول شاطئ الحسا كله ابتداء من خليج الكويت تقريباً لكن الشعاب المحيطة بمجموعة جزر البحرين التي تبعد عن الساحل بمقدار عشرة أميال تقريباً تعتبر أكثر المناطق غنىً باللؤلؤ كماً ونوعاً. ويبدأ فصل استخراج اللؤلؤ اعتباراً من شهر حزيران ويستمر حتى أكتوبر وفيه تتجمع في تلك المياه سفن يصل عددها إلى أربعة آلاف وخمسمائة سفينة يعمل عليها ما لا يقل عن ثلاثين ألف ملاح. وتكون حصة الكويت وقطر والقطيف من هذا العدد ما يقرب من ألف سفينة ملاحيها [2].

واستخراج اللؤلؤ مباح لجميع سكان الساحل ولا تؤخذ ممن يمارسه أية ضريبة عدا تعريفة صغيرة يدفعها لشيخ البحرين كل قارب يقوم باستخراج اللؤلؤ :

السنة	قيمة صادرات اللؤلؤ بالروبية
١٨٨٩	٤،٣٠٠،٠٠٠
١٨٩٦	٣،٠٣٩،٤١٠
١٩٠١	٤١٠،٧٥٣،٤

(١) تسمى هذه الأدارة «الفطام» وهي المشبك الذي يضعه الغائص على أنفه حتى لا يدخل فيه الماء أثناء الغوص وحتى يساعده في الاحتفاظ بالهواء الذي ملأ به رئتيه قبل الغوص. أنظر :

«عبد الله خليفة الشملان، صناعة الغوص، د. ت، ص٥٣». ويتضمن هذا الكتاب معلومات وافية وشاملة حول ما يتعلق بصناعة الغوص واستخراج اللؤلؤ. المترجم.

(2) G. N. Curzon: Op. Vit. Vol. II. P. 456 FF.

من الشعاب التي تحيط بذلك الأرخبيل. وهكذا يؤلف اللؤلؤ المصدر الأساس للرزق بالنسبة لسكان ساحل الحسا بأجمعهم غير إن حصة الغواصين والبحارة لا تتعدى جزءاً صغيراً من الربح الذي يذهب بكليته إلى جيوب محتكري اللؤلؤ الذين يستعبدون بكل معنى الكلمة شغيلة البحر هؤلاء عن طريق تسليفهم النقود والبضائع مسبقاً.

ويمكننا بالاطلاع على الجدول الخاص بالتقسيم الاداري لسنجق الحسا إلى أقضية ونواحي الذي ذكرناه سابقاً أن نتبين بأن قضاء الهفوف وحده تتبعه أربع نواحٍ هي؛ العجير والمبرز والجفر والعيون في حين ليس للقضائين الآخرين القطيف وقطر أية نواحٍ تابعة لهما وهذا يعني أنه لا توجد في ذينيك القضائين نقاط مأهولة دائمة عدا المدينتين الرئيستين القطيف والبدع. وقد لاحظ (Zwemer) [1] جميع المدن والنقاط المأهولة في الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب تقع في المثلث المحصور بين المنامة وهي المدينة الرئيسة في البحرين والقطيف والهفوف، أما خارج هذا المثلث فتسود صحراء قاسية رتيبة: فإلى الشمال حتى خليج الكويت تقع بلاد بني حجار الموحشة الخالية من النباتات والقليلة السكان وإلى الجنوب توجد شبه جزيرة قطر التي لا تقل جدباً أما إلى الغرب فتمتد رمال «النفود» لمسافة خمسة أيام حتى الرياض.

والهفوف التي تعرف لدى بسطاء الناس باسم الحسا هي المدينة الرئيسة في سنجق نجد وهي مقر للحاكم التركي الذي يحمل رتبة متصرف. وتقع الهفوف على مسيرة يومين من شاطئ البحر تقريباً وهي تتألف من قسمين هي المدينة نفسها والضواحي، يبلغ قطر الأول منهما أي

(1) Zwemer. Op. Cit. P. 110

المدينة ميلاً ونصف وهو محاط بسور قديم تقوم في زواياه أبراج غير إن هذا السور نصف متهدم منذ وقت طويل وقد طمرت بقاياه الخندق المتاخم له. وراء السور ضاحية تتألف من ثمانين قرية ومستوطنة غارقة في البساتين والحقول التي تحتضن المدينة من الشمال والشرق والغرب في حين تمتد الصحراء في الجنوب بحيث تصل حتى سور المدينة تقريباً.

وتنقسم المدينة إلى ثلاثة أحياء هي الشمالى الشرقي واسمه كوت والشمالى الغربي ويسمى رفاعة وأخيراً حي نصل الذي يشغل كل الجزئين الجنوبي والشرقي من المدينة. ولكل من هذه الأحياء طابعه الخاص وتفصلها عن بعضها ساحة واسعة تحتل موقعاً وسطاً فالكوت مثلاً هو إذا توخينا الدقة عبارة عن حصن المدينة يحيط به خندق عميق وسور عالٍ جداً فيه أبراج وكوّات ويتخذه المتصرف التركي مقراً له. أما حي رفاعة فهو محل سكن الأغنياء والناس الذي ينتمون إلى الفئات العليا من السكان الأمر الذي يبدو واضحاً في اتساع شوارعه ونظافتها وفي مظهر بيوته الحسن فهي مطلية بالجص ومزينة بالزخارف المصورة فوق الأبواب والشبابيك. وتقع في هذا الحي السوق الرئيسة في الهفوف واسمها «قيصرية» وهي تشبه رواقاً مسقوفاً تقع الدكاكين على جانبيه وتجري فيه المتاجرة بالتمر والجراد والسمك المجفف والمنتجات المحلية إلى جانب البضائع الأوروبية كالمنتوجات الصناعية. والسكر والأسلحة النارية والأواني وما أشبه. ونذكر من المنتجات المحلية العباءة الحساوية المعروفة جيداً في العالم العربي كله وتصنع من الصوف الرفيع مخلوطاً بالحرير وتوشى بخيوط من الذهب والفضة. وقوارير البارود والدلال ومختلف الأواني المصنوعة من النحاس.

أما ثالث أحياء المدينة وهي حي نصل فإنه يفوق الحيين الأخرين بحجمه فهو يشمل القسم الأغلب من المدينة ويسكن فيه الحياك ومختلف فئات الحرفيين والفقراء عموماً.

ولم يكن عدد السكان في الهفوف على ما ذكره (Palgrave) الذي زار تلك الواحة في ١٨٦٣ ليتعدى آنذاك خمسة وعشرين ألف نسمة، أما الآن فإن عددهم ازداد فأصبح استناداً إلى حولية عام ١٩٠١ التركية الرسمية الخاصة بولاية البصرة أربعين ألف نسمة. ويعتنق سكان الهفوف من الناحية الرسمية المذهب الإسلامي السني لكنهم تأثروا في واقع الأمر تأثراً شديداً بالوهابيين وهم اتباع المصلح الإسلامي [١] المشهور محمد بن عبد الوهاب. لقد وضع محمد بن عبد الوهاب هذا لنفسه هدفاً محدداً هو إعادة الإسلام إلى بساطته الأولى وتنقيته من الشوائب التي تراكمت فيه على مر العصور الأمر الذي أعطى تعاليمه طابعاً شديد التزمت إلى جانب التعصب بل وحتى القسوة تجاه كل المسلمين الذين لا يرغبون في اعتناق تعاليمه.

والوهابيون لا يتعرفون لا بقدسية الأولياء ابتداءاً من النبي العربي محمد نفسه ولا بتقديس أضرحتهم ويرفضون كل مظاهر الزينة في المساجد بما في ذلك المنائر التي يدعى منها للصلاة في البلدان الإسلامية ويدينون بلا رحمة كل مظاهر الترف كالملابس المصنوعة من الحرير أو الديباج وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب والفضة والتبغ والموسيقي وما

---

(١) كلمة المصلح الإسلامي لا يليق إطلاقها على مثل محمد بن عبد الوهاب فأي إصلاح كان باستباحة دماء المسلمين عبر تكفيرهم وحملهم على اتبعته بالقوة القسوة والا فمصيرهم القتل وتعاني الامة إلى يومنا هذا من اتباعه. حميد الدراجي.

أشـبه [١]. لقـد انتشـرت التعـاليم الأوليـة بالدرجـة الأولى بـين البـدو في شـبه جزيـرة العـرب والحسـا الـذين جـذبهم إلى الإسـلام في شـكله الـذي يـدعو لـه الوهابيون بساطته وسهولته.

لكـن أثـر الوهابيـة كـان أقـل علـى الحضـر [٢] وبـالأخص سـكان المـدن في الحسـا وذلـك بفضـل التـأثير القـوى الـذي تمارسـه كـل مـن الهنـد وفـارس اللتـان تـرتبط بهمـا هـذه المنطقـة بعلاقـات تجاريـة منـذ القـدم، حـتى إن هـذا التـأثير لم يقتصـر علـى الأدوات واللـوازم البيتيـة وعلـى طـراز البنـاء متمـثلاً باسـتخدام العقـادات الـتي ينعـدم وجودهـا في أواسـط شـبه الجزيـرة العربيـة فقـط وإنمـا تعـدى ذلـك إلى اللغـة الـتي هـي هنـاك بعيـدة عـن النقـاء الـذي تتميـز بـه في داخليـة شـبه الجزيـرة. بـل وحـتى الملابـس انعكـس عليهـا الطـراز الفارسـي والهنـدي لـذا فإننـا نجـد أن القمـيص البـدوي الأبـيض اسـتبدل في الهفـوف وضـواحيها بدراعـة ملونـة في حـين اسـتعيض عـن غطـاء الـرأس البـدوي الكلاسـيكي «الكوفيـة» أي المنـديل الـذي يثبـت علـى الـرأس بعقـال مـن وبـر الجمل، بعمامة كبيرة بيضاء أو ملونة.

وفي الهفـوف يمكـن أن نجـد أيضـاً أثـراً طريفـاً مـن آثـار الماضـي متمـثلاً

---

(1) Historie des Wahabis Par L. A. Paris 1810 Chap. II.

(٢) لا يخفـى ان هـذين التبريـرين السـابق والآتي لا يصـمدان عنـد أدنى تأمـل حيـث ان سـهولة الحصـول علـى الغنـائم الغـزو كانـت سـبب انضـمامهم البـدو إلى الوهابيـة لانـه أبـاح لهـم كـل حرمـة عـبر التكفـير وبهـذا يتضـح لمـاذا كـان تـأثيره علـى الحضـر اقـل كمـا ان الخـوف مـن سـيوفه المسـلطة علـى رقـابهم جعلـت الكثـير مـن البـدو ينضـمون إليـه ونـراهم عنـد الامـن مـن سـطوته واتباعـه يعـودون إلى حـالهم الأول. حميد الدراجي.

في عملة خاصة أسمها «الطويلة» ليس لها شكل العملة الحالية وإنما هي عبارة عن قطعة مسطحة مستطيلة الشكل من النحاس المخلوط بقليل من الفضة مكونة من نصفين وتكون إحدى نهايتها مخرومة ويذكر (Zwemer) [١] بأن أحد حكام الحسا القرامطة قام بسك هذه العملة عام ٩٢٠ وإن على جانبيها مكتوب بالخط الكوفي عبارة تكاد تكون ممسوحة هي: «محمد السعود».

أما العجير فهي ميناء للهفوف وتقع على ساحل البحر مقابل النهاية الجنوبية لجزيرة البحرين تقريباً لكن المياه في خليج العجير غير عميقة بما يكفي لمرور البواخر البحرية ولذلك فإن هذه البواخر البحرية ولذلك فإن هذه البواخر تقوم بتفريغ البضائع المخصصة للهفوف ولجنوب نجد في المنامة الواقعة في جزيرة البحرين ومن هناك تنقل إلى العجير بواسطة السفن الشراعية العربية المحلية. ويبلغ مقدار الحمولة المعتادة للقوافل التي تتوجه أسبوعياً من العجير إلى داخلية البلد ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جمل تضم مصنوعات مانجستر والقهوة العربية والرز الهندي وسكر مرسيليا ومصنوعات برمنكهام الفولاذية علماً بأنه من غير النادر أن تتعرض هذه القوافل للنهب من قبل عصابات البدو قبل أن تصل إلى الهفوف.

تستغرق المسافة من الهفوف إلى الرياض عاصمة نجد سبعة أيام من سير القوافل في حين يصل المسافرون من الرياض إلى مكة بعد أن يقطعوا ثماني عشرة مرحلة. وكان الحجاج القادمون من الساحل الفارسي في الخليج يستخدمون هذا الطريق على نطاق واسع عند ذهابهم لأداء فريضة الحج حيث كانوا يتوجهون من بوشهر أو بندر عباس إلى البحرين ومنها

---

(1) Zwemer; op. cit. P. 115.

ينتقلون إلى العجير حيث يكونون هناك قوافل لمواصلة السفر الذي يكون هذه المرة سفراً برياً بشكل كلي وتستغرق سفرتهم بأجمعها بما في ذلك انتقالهم بالبحر ما يقرب من شهرين.

ولا يوجد في العجير سكان حضر لذلك فإن بنايات هذا الميناء بأجمعها تقتصر على طابية طينية يعيش فيها المدير التركي وحامية صغيرة وبناية الكمارك التي تتميز بحجمها الكبير وبضعة خانات للقوافل يبيت فيها المسافرون والجمال.

وعلى الطريق بين العجير والهفوف وبالقرب من هذه الأخيرة تقع بلدة الجفر الصغيرة التي تؤلف المركز الأداري لناحية تحمل نفس الأسم وتكون مقراً لمديرها التركي. ويبلغ عدد السكان في هذه البلدة ألف نسمة ونظراً لأنها تقع على طريق كبير فإن التجارة المحلية تزدهر فيها بفضل مرور القوافل فيها باستمرار ينعكس أثر ذلك حتى على سوق البلدة الذي لا يتناسب في سعته مطلقاً مع حجم البلدة نفسها. أما المركز الاداري لناحية العيون فهو بلدة تحمل نفس الاسم وتشبه تماماً الجفر التي مر وصفها وتقع مثلها ايضاً على بعد لا يتجاوز بضعة أميال عن الهفوف غير إن المبرز التي تقع إلى الشمال من الهفوف بمسافة ثلاثة أميال فقط تعتبر بلدة كبيرة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة وتكمن أهميتها بالدرجة الأولى في السوق الدوري الذي يقام فيها اسبوعياً ويتقاطر عليه السكان من أنحاء الواحة كافة. ويجد الأهالي في هذا السوق كل ما هو ضروري لسد احتياجاتهم ابتداءاً من المنتجات الأوربية كالمرايا والقلائد والأسورة وانتهاءً بالمنتجات والمعدات المحلية المختلفة. وهذا السوق هو أيضاً السوق الرئيسي للمتاجرة بالماشية ومنها الحمار الحساوي الذي يقدرونه عالياً في بغداد وفارس بسبب ارتفاعه وتحمله وسرعة عدوه والأنواع المحلية من

الخيل التي تتميز على صغر حجمها بالقوة وجمال الشكل.

وهناك طريق آخر للقوافل يربط الهفوف بالقطيف قطعة بللگريف (Palgrave) في عام ١٨٦٣ فوصفه على النحو التالي: «يجري الطريق في البداية سهلاً على تربة رملية خفيفة تقطعها من حين لآخر مرتفعات من البازلت والأحجار الرملية. وتوجد في كل أنحاء الطريق آثار المياه الجوفية الغزيرة على عمق قليل تحت سطح الأرض ولذلك تكثر في الطريق النخيل القصيرة والشجيرات بل وحتى القصب الذي يحيط بمستنقع صغير ما مختف في إحدى الوهاد. وفي اليوم الثاني من خروجنا من الهفوف باتجاه الشمال الشرقي شاهدنا قمة هرمية الشكل ارتفاعها ٧٠٠ قدم هي جبل مشقر الذي يقع على بعد عشرة أميال إلى الجنوب من القطيف، ثم يرتفع الطريق بعد ذلك إلى هضبة تلال القطيف الواسعة والقليلة الارتفاع فتحل الأرض الصخرية السوداء اللون محل الرمال. وتقترب هذه التلال من القطيف اقتراباً شديداً ثم تنقطع فجأة عند ساحل البحر تقريباً حيث تقع المدينة المحاطة بالبساتين والغارقة بالخضرة» [1].

والقطيف مدينة قليلة العرض لكنها تحتل بالطول مسافة لا يستهان بها وهي محاطة بسور فيه أبراج ويكاد سورها يصل إلى المياه إذ أنه لا يترك بينه وبينها إلا شريطاً ضيقاً يختلط بالتدريج بمضاحل رملية طويلة يغطيها السعد والقصب.

وتتحول هذه المضاحل أثناء المد إلى أهوار غير صحية تسمم الهواء عند الجزر بالأبخرة الخانقة المتصاعدة من الوحل والأعشاب المائية.

وخليج القطيف الذي تحميه الجزر والرؤوس البحرية من الرياح

---

(1) W. Palgrave: Op. Cit. P. 190.

الشمالية والجنوبية غير صالح لسير السفن الكبيرة. والسفن الشراعية الصغيرة وحدها تستطيع بصعوبة أن تصل إلى الميناء في أثناء المد الذي تغمر مياهه الأماكن الرملية الضحلة الكثيرة العدد. وتقع على الشاطئ الداخلي للخليج قلعة تتجه واجهتها نحو الشرق وينسب الأهالي بناءها إلى ايام حكم القرامطة أي إلى القرن العاشر الميلادي وتتخذ حالياً مقراً للحامية والقائم مقام التركي.

ويبلغ سكان مدينة القطيف وحدها عدا سكان القرى المجاورة بموجب المعلومات الأحصائية التي أوردها (Cuinet) [1] عدداً كبيراً هو ١٨٣٠٠ نسمة في حين تذكر النشرة السنوية التركية الرسمية الخاصة بولاية البصرة لسنة ١٩٠١ إن عدد سكان المدينة لا يتجاوز ستة الآف نسمة. وشكل سكان القطيف قليل الشبه بالشكل العربي النقي وذلك لأن الدم الفارسي اختلط بهم بكثرة بحيث انعكس ذلك حتى على المعتقدات الدينية للأهالي الذين يعتنقون في أغلبيتهم المذهب الشيعي.

وتقع مدينة القطيف على ما يذكره التاريخ في الموضع الذي كانت تقع فيه الجرعاء القديمة وهي ميناء أسسه الكلدانيون في فترة قديمة جداً لم تتحدد بدقة بعد.

وقد وصل هذا الميناء إلى مرحلة الأزدهار الكامل في عهد الملك الأشوري أسرحدون في ٦٧٥ ق.م عندما أصبحت السفن الهندية تجلب إليه البضائع التي تنقل منه على سفن شراعية أصغر لإرسالها إلى بابل وتقوم هذه الأخيرة بإرسال البضائع المخصصة لآسيا بواسطة الفرات إلى ثوباكوس في حين ترسل البضائع المخصصة لفارس وأرمينيا بواسطة دجلة

(1) F. R. Lenormant. Op. Cit. T. VI. P. 379 FF.

حتى مدينة أوبيس [(١)] [(٢)]. وهكذا كانت الجرعاء بمثابة الميناء لمدينة بابل التي تقع بعيداً بعض الشيء عن الخليج.

وساحل الخليج الذي يمتد إلى الشمال من القطيف لمسافة ٣٦٣ كم حتى أراضي الكويت هو عبارة عن صحراء جرداء خالية من أي مركز حضري بسبب من أن جميع سكانه ينتمون إلى قبائل بني حجار المتنقلة المشهورة بالقسوة وممارسة قطع الطرق.

أما شبه جزيرة قطر التي يبلغ طولها مائة ميل وعرضها خمسين ميلاً فإنها تبدو كما لو إنها تؤلف نهاية الشريط الساحلي لسنجق نجد أوالحسا وهي تتكون من سلاسل من التلال الجرداء الواطئة تحرقها الشمس وتختفي بالقرب من البحر لتحل محلها رمال متحركة غرينية بعض الشيء يختلط فيها الوحل والأعشاب المائية.

ويوجد في الجهة الأخرى من التلال سهل أجرد يمتد حتى واحة الهفوف تنتقل فيه قبيلتان معروفتان بالقسوة وممارسة النهب هما آل مرة والمناصير.

والقرى في شبة جزيرة قطر [(٣)] عبارة عن مجموعات صغيرة متناثرة ومتباعدة عن بعضها من المساكن الحقيرة المحفورة في الأرض ومن الأكواخ الأكثر حقارة تصنع من سقف النخيل وتحاط حتماً بأسوار لحمايتها من هجمات البدو. وتبنى فضلاً عن ذلك على التلال التي تحيط

---

(١) ينقسم الباحثون إلى فريقين في تحديد الموقع الذي كانت تشغله هذه المدينة فريق يعتقد بأنها كانت توجد في موقع سلوقية على دجلة والآخر يرى إنها كانت تقع عند مصب العظيم في دجلة. المترجم.

(2) F. R. Lenormant. Op. Cit. T. VI. P. 379 FF.

(3) Palgrave. Op. Cit. Vol II. P. 225 FF.

بكل قرية أبراج خاصة محصنة يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدماً يلجأ إليها السكان عندما تباغتهم إحدى الهجمات البدوية، إذ يصعدون بواسطة سلم من الحبال إلى منتصف البرج حيث توجد فتحة يدخلون منها ثم يواصلون صعودهم بواسطة الدرج فيقطعون بذلك على مطاريدهم سبيل الوصول إلى ملجئهم ويتركون لهم كغنائم مواشيهم ودوابهم وجميع الأمتعة التي لم يتمكنوا من أخذها معهم إلى البرج.

وتبدو البدع عاصمة شبه جزيرة قطر كواحدة من هذه القرى وإن كانت أكثر حجماً حيث يقطنها ٦٠٠٠ نسمة. ويقوم في وسط المدينة بناء يشبه برج السجن هو قلعة حاكم البدع وشيخ قطر الذي يحمل اعتباراً من ١٨٧١ لقب قائمقام ويرفع على قلعته العلم العثماني ويحتفظ في العاصمة بفصيل من القوات النظامية العثمانية يبلغ تعداده ٢٥٠ شخصاً.

وبسبب من أن شبه جزيرة قطر قاحلة كلياً فإن سكانها يعيشون على البحر الذي يقدم لهم السمك كغذاء ويوفر لهم وسيلة للعيش الرغيد ونعني الرزق الذي يتأتى من استخراج اللؤلؤ. ويقضي القطريون نصف عامهم في صيد اللؤلؤ في حين يصرفون النصف الآخر في صيد السمك بحيث إنهم إذا توخينا الدقة يقضون كل وقتهم تقريباً على ظهور سفنهم ولا يعيش على الساحل إلّا النساء والأطفال والشيوخ.

الفصل الثاني

إن النظام الأداري للولايات العثمانية بشكل عام ولولاية البصرة باعتبارها إنها تكونت في وقت متأخر عن بقية الولايات، بشكل خاص متشابه تماماً. لقد كان تغيير نظام الإدارة الإقليمية واحداً من سلسلة طويلة من الأصلاحات الداخلية التي قامت الدولة العثمانية تحت ضغط أوروبا منذ أربعينيات القرن التاسع عشر. وقد اتخذ تنظيم الدوائر الفرنسية نموذجاً اقتدى به عند إعادة تكوين الولايات، وبعد أن أقيم على أسس تركية أتخذ شكله النهائي في ١٨٦٧ بعد أن تعرض مشروع ١٨٦٤ الأولي إلى تغييرات كبيرة حتمها تطبيقه عملياً في ولاية الدانوب السابقة [1] وكان التقسيم الإداري للولايات العثمانية الذي اقتبس من فرنسا على النحو التالي: كل ولاية تخضع لحكم الوالي وتنقسم إلى «سناجق» يديرها متصرفون وتنقسم السناجق إلى «أقضية» يقوم على رأس كل منها قائمقام ويتألف «القضاء» من نواحي تخضع لإدارة المديرين.

ويتبع حاكم الولاية أو الوالي ملاك كامل من المساعدين الذين يدير كل منهم فرعاً من فروع الادارة وهم :

١ ـ المعاون أو نائب الوالي.

---

(1) Ed. Engelhardt. La Turquie La Tanzimat, Paris 1882, T, 1P, 191.FF.

٢ . الدفتر دار الذي يشرف على مالية الولاية.

٣ . المكتوبجي أو مدير مكتب الولاية.

٤ ــ مترجم الولاية الذي يقوم بشؤون العلاقات مع القناصل الأجانب وهناك إضافة إلى هؤلاء موظفون من الدرجة الثانية كالموظفين الذين يشرفون على «الأوقاف» (وهي الأملاك غير المنقولة العائدة للمساجد) [1] وعلى طرق المواصلات والعقارات ومدراء البريد والتلغراف والبوليس..إلخ وكذلك مفتشي التجارة والزراعة.

ومن بين الموظفين المذكورين يستحق المعاون والدفتر دار اهتماماً خاصاً وذلك للطابع الاستثنائي الذي يرتديه عملهما. لقد استحدث منصب المعاون بإلحاح من الدول المشرقة على الدولة العثمانية في قضية الأصلاحات وذلك لإيجاد منفذ يستطيع رعايا السلطان المسيحيون من خلاله أن يشاركوا في الإدارة بشكل غير مباشر ولهذا كان يفترض أن لا يشغل هذا المنصب إلّا المسيحيون. غير إن هذا الإجراء لم يعط كل النتائج المرجوة منه لأن الباب العالي كان يتجنب إناطة الإدارة المستقلة بالمعاونين المسيحين في أوقات غياب الوالي ويعين بدلاً منهم الدفتر دار الذي يقف في مرتبة أعلى من حيث التدرج الوظيفي وتعطيه مرتبته هذه حق الأفضلية في أن ينوب عن حاكم الولاية، هذا فضلاً عن أن اختيار المعاون لم يكن

---

(١) يطلق مصطلح «أراضي الوقف» على الأراضي التي أوقفتها الدولة أو الأفراد لغرض الصرف من ريعها على الخدمات الدينية والخيرية. وينقسم الوقف إلى نوعين: نوع رسمي، والآخر خاص (ذري) الأول أو الرسمي: هو الذي توقفه الدولة والثاني أو الخاص: هو الذي يوقفه الأفراد. كذلك أوقفت عقارات من أبنية وحوانيت للأغراض ذاتها. ومن الجدير بالذكر أن الوقف لا يباع ولا يصادر. المترجم.

يجري ـ وذلك على الرغم مما خططت له فرنسا وبريطانيا ـ من بين أفراد الطائفة المسيحية السائدة في الولاية المعنية وإنما من بين أفراد الطائفة المنافسة لها الأمر الذي كان يقلل بدرجة كبيرة من دور هذا الإداري غير المسلم.

أما الدفتر دار فإنه كان يمثل وزارة المالية ويلعب دوراً كبيراً في حياة الولاية ذلك إنه لا يمكن أن تصرف أية وثيقة مالية ما لم تكن مختومة من قبله بكلمة «فيرليه» أي (يصرف) وتظهر تبعية هذا الوكيل المالي للوالي في أن كل المخصصات والحوالات المالية الواردة إلى الدفتر دار يجب أن تقترن بإمضاء هذا الأخير وبدونه تعتبر باطلة. وفيما عدا ذلك يكون الدفتردار مستقلاً تماماً في عمله ذلك إن كل مسؤولية الوالى في المجال المالي تقتصر على حرصه على أن ترد الضرائب والأتاوات بشكل صحيح ومراقبته لأعمال موظفي المالية واهتمامه بأن لا يقوم هؤلاء بأية تجاوزات. وفي حالة وجود فرع للبنك العثماني الامبراطوري الذي أنيطت به كما سنرى فيما بعد مهمة تنفيذ مسؤوليات بنك الدولة، يكون عمل الدفتردار الوظيفي بسيطاً إلى حد كبير إذ لا يبقى أمامه من العقبات الكبيرة إلّا ما يطلق عليه اسم «حوالة». وتعرف بهذا الأسم الكمبيالات المسحوبة على خزينة الأقاليم من قبل الوزارات العثمانية التي تكون مضطرة، لأجل صرف الفروض التي طرحتها على أساس الكشوف التقديرية التي أعدتها مسبقاً، إلى اللجوء إلى هذه الطريقة في الدفع لدائنها وللموردين الذين تتعامل معهم. وعلى الدفتردار في هذه الحالة أن يبذل جهوداً غير قليلة لإيجاد المبالغ الواجب دفعها لحاملي مثل هذا «الحوالات» [1].

(1) Odysseus: Turkey in Erope, London 1990, PP. 154. 155.

ويتبع الوالي إلى جانب الأفراد من الموظفين مجلس يضم بالإضافة إلى المعاون والدفتردار والمكتوبجي كلاً من المفتي او ممثل رجال الدين المسلمين والنائب أي رئيس المحكمة الشرعية وكذلك الرؤساء الروحانيين للطوائف غير الإسلامية وأربعة أعضاء يختارهم السكان إثنين عن المسلمين وإثنين عن غير المسلمين (المسيحيون واليهود) ويقوم هذا المجلس مقام الهيئة الاستشارية ويشترك في مناقشة جميع القضايا والدعاوي الجنائية منها والمدينة بسبب من أن ممارسة القضاء لا تدخل في دائرة اختصاصات الوالى. وإلى جانب المجلس الدائم المذكور يقضي قانون الولايات بدعوة ما يمسى بالمجلس العام عدة مرات في السنة. وهذا الأخير هو مجلس يتألف من ممثلين عن السناجق حيث يضم أربعة أشخاص عن كل سنجق يختارهم سكان ذلك السنجق إثنان عن المسلمين وإثنان عن غير المسلمين. ويفترض أن يناقش هذا المجلس الذي يرأسه الوالي نفس القضايا التي تعرض على المجلس الأول ولكن على نطاق أوسع. وعلى الرغم من إنه لم يعترف لهذا المجلس العام إلّا بحقوق المؤسسة الإستشارية فإنه في الواقع لا يؤدي عمله بسبب من أن جميع الولاة في الأقاليم يسعون جاهدين إلى تجنب الاستفادة من خدمات مؤسسة الرقابة المحلية العليا هذه (1).

وتتركز السلطة التنفيذية بأكملها بيد حاكم الولاية الذي لم يكن مسؤولاً إلّا أمام اسطنبول فقط، كما تظهر السيطرة المباشرة لهذه الأخيرة على الولاية في تبديل جميع موظفي الولاية المعنية ابتداءً من الوالي وانتهاء برؤساء الأقضية والنواحي وكذلك في حل جيمع القضايا المتعلقة

---

(1) A. Du Velay: Essai Sur L, Histoire Financiere de le Turquie, Paris. 1903. P.

بالحوادث التي تخرج عن حدود مجرى الحياة المحلية العادي في الولاية.

والوالى باعتباره سيد المنطقة التي عهد بها إليه يكون مسؤولاً عن الاهتمام بالاصلاحات والتحسينات في حقول التعليم والتجارة والزراعة وطرق المواصلات والصحة وأعمال الخير العام، غير إن حرية التصريف الممنوحة للوالي بهذا الشأن يحددها في الواقع بدرجة كبيرة النقص الدائم في الأموال، ذلك إن جميع الفائض من دخل الولاية إن وجد، يوجه فوراً لتغطية تبذيرها الهيئات الحكومية المركزية.

ويكون الوالي في الولايات التي يجري اختيار ولاتها من بين العسكريين كما هي الحال في البصرة، قائداً للقوات المحلية أيضاً، أما في الولايات الأخرى مثل بغداد فإن السلطة العسكرية تكون قائمة بذاتها في حين يتولى منصب الوالي موظفون مدنيون.

ويوضع تحت أمره الولاة الذين تناط بهم مسؤولية الحفاظ على أمن طرق المواصلات والمحافظة على الأمن والهدوء العالم في الولاية، قوات من الشرطة والجندرمة. وتتألف الجندرمة في ولاية البصرة من خيالة ومشاة وجندرمة نهرية (١) أنيطت بها مهمة خاصة هي مراقبة ما تزخر به الولاية من قنوات ونهيرات كثيرة وكذلك الأهوار والمستنقعات التي كانت تستخدم أوكاراً لقراصنة الأنهار. ويقوم أفراد الجندرمة هنا بدور شرطة الحدود وذلك في الأصقاع المتاخمة لفارس، بالإضافة على واجباتهم البوليسية البحتة ويحرسون طرق البريد والقوافل، ويتوزع أفراد الجندرمة النهرية الذين يؤلفون حرس الكمارك النهرية على مواقع متفرقة يعمل في

---

(١) يبلغ عدد الجندرمة الخيالة في ولاية البصرة ٥٥٤ شخصاً بينما يبلغ عدد المشاة ٢٨٣ شخصاً والجندرمة النهرية ١٧٥ شخصاً.

كل منها ما بين أربعة إلى خمسة أشخاص في جميع المراكز الكمركية على جانبي شط العرب ودجلة والفرات.

ويماثل تكوين السناجق والأقضية تكوين الولايات كما إن للمتصرفين والقائمقامين الذين يحكمونهما نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات التي للوالي في ولايته ولكن في حدود سناجقهم وأقضيتهم فقط. ويخضع المتصرفون للوالي مباشرة ويتسلمون منه الأوامر والتعليمات اللازمة في حين يخضع القائم مقامون للمتصرفون بنفس الدرجة التي يخضع بها هؤلاء للوالي. ويتبع هؤلاء وأولئك ملاك من الموظفين يشابه الملاك الذي يتبع الوالي ولكنهم يحملون مراتب أقل ولهذا فإنهم يحملون تسميات مغايرة فالشخص يدير الشؤون المالية يسمى في السنجق «محاسبجي» وفي القضاء «مال مديري». أما مدير مكتب المتصرف فيحمل الأسم نفسه أي «مكتوبجي» في حين يسمى في القضاء «كاتب». وتوجد في السناجق والأقضية، كما هي الحال في الولايات، مجالس تناقش القضايا المتعلقة بشؤون الإدارة جميعها ولكنها مثل مجالس الولاية تحمل صفة استشارية فقط.

وينقسم كل قضاء، كما ذكرنا سابقاً، إلى عدد من النواحي أو الوحدات تغطي جميع القرى والمستوطنات في المنطقة المعنية بحيث تكون أكبرها مقراً لرئيس الناحية أي المدير. وهذا الأخير يخضع للقائمقام ويحتل مرتبة وسطاً بينه وبين المختارين الذين ينتخبون بمعدل إثنين عن كل قرية إذا زاد عدد بيوتها عن عشرين و واحداً إذا قل عدد البيوت عن ذلك. وتقع على المدير مسؤولية تنفيذ أوامر وتعليمات الحكومة والتأكد من صحة المعلومات الواردة من المختارين حول عدد الولادات والوفيات وإيصال شكاوى السكان التي يعرضها المختارون إلى القائمقامين وترؤس

مجلس الناحية الذي يتألف من ممثلي رجال الدين المسلمين وغير المسلمين ومن أشخاص منتخبين من قبل السكان.

ويهتم المختار بالدرجة الأولى بجمع الضرائب والأتاوات ويؤلف الحلقة الأخيرة في السلسلة الطويلة من الموظفين الذين تتألف منهم إدارة الولاية.

والهيئة الاستشارية لدى المختار هي مجلس يتألف من وجهاء ينتخبهم السكان بحيث لا يقل عددهم عن ثلاثة أشخاص ولا يزيد عن إثني عشر شخصاً، ويتحتم أن يضم هذا المجلس إضافة إلى ذلك ممثلين عن رجال الدين المسلمين وغير المسلمين.

وتدخل في أختصاص هذه المجالس نفس الأمور التي تختص بها مجالس النواحي وهي توزيع الاتاوات بين الطوائف الدينية في القرية المعنية ومناقشة القضايا المتعلقة بالهدوء والأمن العام وحل المنازعات سلمياً. والمختار وأعضاء المجلس ينتخبون لمدة سنة ومن حقهم أن يعاد انتخابهم لعدد غير محدود من المرات.

وقد استحدثت في ١٨٩٣ وظيفة جديدة هي «التحصلداريون» أو المحصلون الذين تنتخبهم في القضاء لجنة خاصة تتألف من القائمقام والمال مديري ومدير العقار وآمر الجندرمة المحلية. وقد أنيطت بالتحصلداريين مهمة الاشراف على المختارين ومراقبة صحة ورود الأتاوات كما إن من واجبهم اتخاذ كل الاجراءات القانونية لجباية الضرائب المتأخرة ابتداء من بيع الممتلكات المنقولة وغير المنقولة الخاصة بالأفراد الذين يتهربون من دفع الضرائب وانتهاءً باعتقال هؤلاء المتهربين.

وقد أضيف إلى التحصلداريين فيما بعد مراقبو ضرائب وشكلت في السناجق والأقضية لجان خاصة لخدمة نفس أهداف الرقابة المالية تلك بشكل أفضل.

ولن يكون وصفنا للتكوين الإداري للولاية كاملاً إذا لم نشر إلى «البلدية» ويقصد بها المجلس البلدي في المدينة حيث يوجد مثل هذا المجلس في ولاية البصرة في كل من العمارة والناصرية والهفوف أي في المدن الرئيسية في سناجق العمارة والمنفك والحسا إضافة إلى البصرة نفسها.

ويتألف المجلس البلدي من سبعة أعضاء ينتخبون لمدة أربع سنوات يختار الوالي من بينهم رئيساً للمجلس القائم في مركز الولاية في حين يجري اختيار الرئيس في السناجق من قبل متصرفي تلك السناجق. وهناك شرط معين ينبغي أن يتوفر لدى كل من الناخب والمنتخب لهذا المجلس وهو أن لا يقل ما يدفعه الشخص المنتخب (بفتح الخاء) من أتاوات والتزامات للدولة عن مائة قرش (ثمانية روبلات) وأن لا يقل هذا المبلغ بالنسبة للنائب عن أربعين قرشاً (ثلاثة روبلات وعشرين كوبيكاً) [1].

والمجالس البلدية تابعة لمجلس الولاية ولمجالس السناجق ولهذا فلا يمكن أن ينفذ أي قرار من قراراتها دون أن تقرة مسبقاً تلك المجالس. ولا تقتصر صلاحية المجالس البلدية على الاهتمام بتدبير شؤون المدينة فقط وإنما هي تهتم إضافة إلى ذلك بتنظيم وشق طرق جديدة وبمراقبة النظافة والصحة والمحافظة على طرق المواصلات وتحسينها. وقد منحت المجالس البلدية، لكي تتمكن من تغطية المصاريف التي يتطلبها تنفيذ هذه الواجبات، الحق في أن تجبي من السكان أتاوات وضرائب مختلفة كالمبالغ التي تأخذها منهم في مقابل الحراسة الليلية وفي مقابل استخدامهم للموازين واستخدامهم للجسور أو بيعهم للمأكولات في

---

(1) A. Du Velay: Op. Cit. P. 222. FF.

ساحات المدينة أو في خزن الكيروسين والكحول في مخازن خاصة قائمة خارج المدن.

ومن ذلك أيضاً الضرائب التي تؤخذ على المركبات والسفن والحمامات والمقاهي ... الخ. ويجبى القسم الأغلب من هذه الضرائب بطريق الالتزام حيث تؤجر لأشخاص يقومون، بعد أن يدفعوا للبلدية المبلغ المقرر، بجباية الضرائب التي أخذوها بالالتزام، من الناس مباشرة.

ونورد فيما يلي مثلاً على مقدار الضرائب الرئيسية التي يجيبها مجلس بلدية مدينة البصرة :

١ ـ يؤخذ من كل دكان أربعة قروش أي اثنين وثلاثين كوبيكاً في الشهر للانفاق على الحراس الليلين

٢ ـ يفرض على كل حمار مع حمله يعبر الجسر نصف قرش أي أربعة كوبيكات ويكون المبلغ بالنسبة للفرس أو الجمل ثمانية كوبيكات كما يفرض على الزوارق الصغيرة أربعون أو ستون أو ثمانون كوبيكا حسب حجم الزورق أما الصنادل الكبيرة فتبلغ الضريبة المفروضة عليها روبلين وأربعين كوبيكا لكل منها.

٣ ـ تؤخذ على الحيوانات والفواكه والخضر المجلوبة للبيع ضريبة مقدارها ٢،١/٢ من قيمتها.

٤ ـ يفرض على كل علبة كيروسين ثمانية كوبيكات في الشهر وعلى كل علبة كحول أربعة كوبيكات في الشهر مقابل الخزن.

٥ ـ يفرض على كل مركبة أربعون كوبيكاً في الشهر وعلى كل مقهى أو خان أو حمام ثمانون كوبيكا عن [1] كل كبش أو تيس يجلب للذبح

---

(١) هنا سقط في الترجمة أو الطباعة لم يذكر القيمة. حميد الدراجي

وأربعة وعشرون كوبيكا عن كل خروف أو جدي.. إلخ.

ويشكل الجانب القضائي دائرة مستقلة تخرج عن سلطة الوالي. وتنقسم المحاكم العثمانية من حيث تكوينها إلى: «محكمي شريعي» و «محكمي نظامي» الأولى هي محاكم ما قبل الاصلاحات التي تحل فيها القضايا استناداً إلى «الشريعة» أي تعاليم الإسلام [١]، أما الثانية فهي المحاكم الجديدة التي أقيمت على أسس أوروبية وهي من ثمار النشاط الاصلاحي الذي شمل الدولة العثمانية منذ أن أصدر السطان عبد المجيد في ١٨٣٩ مرسومه الشهير خطي شريف كلخانة.

لقد أمن السطان في هذا المرسوم لرعاياه كافة دون تفريق في الدين، حصانة حياتهم وشرفهم وممتلكاتهم. لقد اتبع المصلحون الأتراك آنذاك الذين كانوا واقعين تحت تأثير فرنسا الشديد نظاماً سهلاً وذلك بإصدار قوانين مدنية وجنائية مكتملة مقتبسة من القوانين الفرنسية. وهكذا ففي خلال أربعين سنة اعتباراً من ١٨٤٠ صدرت سلسلة طويلة من المراسيم والقوانين تتعلق بجميع فروع القضاء تقريباً [٢].

وفي الوقت نفسه جرى إصلاح المحاكم ذاته على النمط الفرنسي أيضاً، غير إن تكوينها لم يتكامل نهائياً إلّا بعد ١٨٧٩. وتنقسم المحاكم العثمانية الجديدة، من غير محاكم الصلح، إلى ثلاثة أنواع هي :

١ . محاكم البداءة.

٢ . محاكم الاستئناف.

---

(١) هل سبب احتياج تلك المحاكم إلى إصلاح هو اتباعها لتعاليم الإسلام أو بسبب ابتعادها عن تعاليم الإسلام. أن الكاتب وامثاله ينظرون إلى الإسلام من زاوية أخرى تختلط منها الأوراق والمفاهيم. حميد الدراجي.

(2) Ch. Morawitz: les Finances de la Turquie, Paris. 1902 PP. 162. 163.

٣ ـ محكمة التمييز في اسطنبول.

وتعتبر المجالس الإدارية في النواحي ومجالس الوجهاء التي تعمل على إنهاء القضايا بالتصالح من قبيل محاكم الصلح. وهي تنظر في الدعاوى الصغيرة وتفرض غرامات صغيرة وتحكم بالسجن لمدة لا تزيد على يوم واحد كما إن من حقها أن تجري التحري في البيوت. ولكن قرارات هذه المحاكم ليست ملزمة للمتخاصمين حيث إن بإمكان هؤلاء أن ينقلوا دعاواهم إلى محاكم البداءة الموجودة في كل قضاء [1].

وتتألف محاكم البداءة أو «بدايت محكمة سي» من رئيس هو «النائب» أو القائم بمهمة القضاء الشرعي وإثنين من الأعضاء المنتخبين أحدهما عن المسلمين والآخر عن غير المسلمين وفي الحالات التي تشتمل فيها الدعوة على جناية أو جنحة ذات طابع بوليسي يضاف إلى الهيئة المذكورة مدير الجندرمة الذي يقوم بمهمة نائب المدعي العام كما يضاف لها أيضاً محقق قضائي وأمين للسر. وأحكام هذه المحاكم غير قابلة للاستئناف في القضايا التي تحول إليها من محاكم الصلح وكذلك في الدعاوي المدنية التي لا تزيد على الخمسائة قرش أو ما يعادل أربعمائة روبل وفي الدعاوي الخاصة بالأملاك غير المنقولة التي لا يزيد ما تدره من دخل على خمسمائة قرش أي أربعمائة روبل. وتقوم هذه المحاكم مقام محاكم البداءة التجارية في الأماكن التي لا توجد فيها مثل تلك المحاكم وفي هذه الحالة يضاف إلى عضويها المذكورين أعلاه واللذين ينتخبان عادة لمدة سنتين ويتسلم كل منهما مقابل القيام بمهامه مائتي قرش في الشهر، عضو ثالث ينتخبه تجار القضاء ويقوم بمهمته مجاناً.

وتعتبر محاكم السنجق محاكم استئناف بالنسبة لمحاكم القضاء وهي

---

(1) A. Du Velay: Op. Cit. P. 216. FF.

تنقسم إلى أربعة فروع: مدنية وتجارية ومحاكم البوليس الاصلاحية وجنائية وتعتبر قرارات محاكم السنجق نهائية في الدعاوى المدنية التي يتعدى حجمها العشرة آلاف قرش أو ما يعادل ثمانمائة روبل وفي الدعاوي الخاصة بالأملاك غير المنقولة التي لا يزيد ما تدره من دخل على الألف قرش أو يعادل ثمانين روبلاً. ويتألف الفرع المدني من هذه المحاكم من رئيس هو القائم بأمور القضاء الشرعي وعضوين منتخبين أحدهما عن المسلمين والآخر عن المسلمين. أما بالنسبة للفرع التجاري فإن الرئيس يعينه وزير العدل في حين ينتخب العضوان من قبل التجار. أما محاكم البوليس الاصلاحية فإنها تتألف من نفس الهيئة التي يتألف منها الفرع المدني في حين تتألف المحكمة الجنائية في السنجق من الهيئة نفسها مضافاً إليها عضوان منتخبان فضلاً عن المدعي العام ومحقق وأمين للسر.

ويتماثل التنظيم القضائي في مركز الولاية مع ما وصفناه أعلاه عدا أن محكمة البوليس الاصلاحية تتميز هناك بميزة خاصة هي إنها تقوم ايضاً بمهمة دائرة الأتهام. والمحكمة في مركز الولاية، هي في الوقت نفسه محاكم استئناف لمحاكم السناجق. أما محكمة التمييز فإنها موجودة في اسطنبول حيث تردها إلى هناك جميع القضايا من محاكم الولايات (1).

ولا يوجد في ولاية البصرة فيما عدا مدينة البصرة محاكم تجارية قائمة بذاتها إذ يستعاض عنها كما أشرنا إلى ذلك أعلاه بمحاكم مدنية اعتيادية بعد أن يضاف إلى هيئتها أعضاء ينتخبهم التجار. أما محكمة البصرة التجارية فتتألف من رئيس وأربعة أعضاء ينتخبون بالتساوي من المسلمين وغير المسلمين يضاف إليهم عند النظر في القضايا المختلطة وهي القضايا التي يكون فيها أحد الجانبين المتخاصمين من رعايا دولة

---

(1) Ed. Engelhard: Op. Cit. T. II, PP.24, 288 – 295.

أجنبية عضوان آخران ينتميان إلى قومية ذلك الأجنبي. وأصبحت مثل هذه المحاكم المختلطة تستخدم اعتباراً من ١٨٧٩ للنظر في القضايا الجنائية التي يشترك فيها أجانب علماً بأن النظر في مثل هذه القضايا في المحاكم العثمانية لا يتم إلّا بحضور مترجم القنصلية ذات العلاقة.

وتوجد في الامبراطورية العثمانية، إلى جانب المحاكم العثمانية، محاكم قنصلية يجري فيها، على أساس نظام الامتيازات، النظر في جميع القضايا المدنية والجنائية التي تمس هؤلاء أو أولئك من الرعايا الأجانب دون أي تدخل من جانب السلطات القضائية العثمانية.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى محاكم الطوائف غير الإسلامية التي كان السلاطين العثمانيون في البداية قد اعترفوا لرؤسائها الروحيين باختصاصات واسعة. لكن هذه الاختصاصات تقلصت مع الوقت وهي في الوقت الحاضر تقتصر على الشؤون العائلية وحقوق الإرث التي سنتحدث عنها بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

وإلى جانب المحاكم الجديدة التي جرى وصفها أعلاه لا تزال قائمة في الدولة المحاكم الشرعية القديمة أي محكمي شريعي التي تحسم فيها القضايا على أساس القرآن وسنة محمد وتفسيراتهما الكثيرة التي كتبها رجال الدين المسلمون في الفترة من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر.

وتختص المحاكم الشرعية في جميع القضايا المتعلقة بالخصومات العائلية ودعاوى الإرث الخاصة بالمسلمين التي تتعلق بشؤون الأوقاف (الأملاك غير المنقولة التي جري التنازل عنها لصالح المساجد والشؤون الخيرية) كما أن اختصاصها يمتد أيضاً، حسب رغبة المتخاصمين، إلى الجوانب الأخرى من حياة المسلمين. كما يتحتم على غير المسلمين أن يلجأوا إلى المحاكم الشرعية في حالة كون الورثاء صغيري السن وفي كون

الخصومة بين أشخاص بالغين هم ورثة لشخص لم يترك وصية، كذلك فإن الأجناب الذين لهم أملاك غير منقولة في الامبراطورية العثمانية والذين جرت مساواتهم بموجب قانون ١٨٦٧ بالرعايا العثمانيين لا يستطيعون الاستغناء في كثير من القضايا المتعلقة بالملكية غير المنقولة عن أحكام الشريعة.

والمحاكم الشرعية لا تعرف المرافعة المعقدة وقراراتها يتخذها ممثل رجال الدين المسلمين المحليين منفرداً ويعتبر شيخ الإسلام في اسطنبول هو الاستئناف بالنسبة لها. ومن الخصائص الأخرى للمحاكم الشرعية عدم أخذها بشهادة المسيحيين ضد المسلمين وقد الغي هذا الأمر في المحاكم العثمانية بعد إصلاحها وذلك بإصرار من الدول الأوروبية.

ويضطرنا الوضع الخاص الذي يشغله شيخ الإسلام والدور المزودج الذي يقوم به رجال الدين المسلمون في الدولة العثمانية إلى التعرض لهذه القضايا بشيء من التفصيل.

إستولى السلطان العثماني سليم الأول على مصر ١٥١٧ وأجبر المتوكل أمريل حكيم [١] آخر خلفاء العباسيين الذي كان مقيماً هناك على ان يتنازل له عن حقوقه بالخلافة فأصبح سلاطين الامبراطورية العثمانية منذ ذلك الوقت يحملون لقب خليفة [٢] مركزين في أيديهم السلطتين

---

(١) لا ندري من أين جاء المؤلف بهذا الأسم فآخر الخلفاء العباسيين في مصر هو المتوكل الثالث وأبوه هو أبو البصير يعقوب المستمسك وجده هو أبو الأعز عبد العزيز المتوكل الثاني ـ المترجم.

(٢) هناك من الباحثين من يشك في تنازل المتوكل للسطان سليم الأول عن لقب خليفة وفي اتخاذ سليم لهذا اللقب. أنظر حول هذا الموضوع: عبد العزيز محمد الشناوي؛ أوروبا في مطلع العصور الحديثة الجزء الأول القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٨٨ ـ ٥٩٢.

الدينية والدنيوية على رعاياهم المسلمين.

وإذ لم يكـن بمقـدور السـلاطين بسـبب التعقـد التـدريجي لجهـاز الدولـة أن يقومـوا بأنفسـهم بشـؤون الجانـب الروحـي لرعايـاهم فـإنهم نقلـوا الإدارة المباشـرة للقضـايا الدينيـة إلى شـخص خـاص يختارونـه هـم بأنفسـهم مـن بـين أكثـر رجـال الـدين السـنة تضـلعاً. وشـيخ الإسـلام وهـو اللقـب الـذي يطلـق علـى هـذه الشخصـية الدينيـة العليـا في الإمبراطوريـة العثمانيـة يعـين ويقـال بمراسـيم سـلطانية ولهـذا فإنـه لـيس أكثـر مـن وزيـر للشـؤون الدينيـة يشـغل وظيفـة هـي في العادة أقل مرتبة من وظيفة الصدر الأعظم.

وعلـى ذلـك فـإن كـل قـوة وأهميـة شـيخ الإسـلام لا تكمـن في مقامـه الـديني وإنمـا فيمـا يـرتبط بهـذا الأخـير مباشـرة وحسـب تعـاليم الإسـلام مـن سـلطة قضـائية ذلـك إنـه يعتـبر المرجـع الأعلـى في جميـع القضـايا الـتي تحـل بموجـب أحكـام الشـريعة ومـا يصـدره مـن قـرارات يعتـبر نهائيـاً لا رجعـة فيـه وتكتـب هـذه القـرارات أو «الفتـاوي» كمـا كانـت تسـمى علـى شـكل أسـئلة مجـردة يعطـي لهـا شـيخ الإسـلام جوابـاً مقتضـباً هـو: «أولـور» أي يجـوز أو «أولمـاز» أي لا يجـوز. ولا يمكـن لأي مسـلم أن يخـالف الفتـوى الصـادرة بمـن في ذلـك السـلطان نفسـه الـذي يملـك وسـيلة واحـدة فقـط لتعطيـل الفتـوى الـتي لا يرغـب فيهـا وهـي عـزل شـيخ الإسـلام مسـبقاً (١). لقـد كانـت مثـل هـذه الفتـاوي أساسـاً اسـتند عليـه في عـزل السـلطان عبـد العزيـز في ايـار ١٨٧٦ ثم ابـن أخيـه السـلطان مـراد بعـد ذلـك بثلاثـة أشـهر واخـيراً السـلطان عبـد الحميـد الأخ الأصغر لهذا الأخير وخليفته في نيسان ١٩٠٩.

ومـن الضـروري أن نتـذكر ونحـن نتحـدث عـن وضـع رجـال الـدين

---

(1) Odysseus: Op. Cit. P. 131 FF.

المسلمين في الدولة العثمانية بأنه من غير الممكن باي شكل من الاشكلال أن نطبق عليهم مفهومنا نحن عن رجال الدين. إن قادة المسلمين الدينيين لا يعرفون الارتسام وليس عندهم تدرج ديني وهم لا يخضعون إلا لشيخ الإسلام ويتمتعون باستقلال تام بعضهم عن البعض الآخر. والفرق الوحيد بين رجل الدين والشخص العادي يمكن في سعة علم الأول واطلاعه في القضايا الدينية.

وبسبب ضرورة التأهيل العلمي كان يتحتم على الراغبين في ان يكونوا من فئة رجال الدين أن يصرفوا وقتاً غير قليل في دراسة جميع فروع الفقه الإسلامي.

وبمقدور الشخص الذي ينهي تعليمه في المدرسة الأولية التابعة للمسجد حيث يؤلف حفظ القرآن استظهاراً، المادة الرئيسية أن يدخل، بموافقة شيخ الإسلام، كمستمع في إحدى المدارس الدينية حيث يدرس الطالب أو الـ «سوفتا» كما كان يسمى، طيلة عشر سنوات النحو العربي والمنطق والميتافيزيقيا والأدب والبلاغة والفلسفة والشرع الإسلامي والهندسة وعلم الفلك. ويحصل من ينهي هذه المرحلة على لقب «ملازم» أي مرشح وعليه من أجل أن يحصل على اللقب السامي «مدرس» أي أستاذ أن يقضي سبع سنوات أخرى في دراسة العقيدة والتفاسير المتعددة للقواعد المكتوبة والتقاليد المأثورة. إن لقب مدرس كما هي الحالة بالنسبة للقب ملازم أيضاً يمنح من قبل شيخ الإسلام وهو يعطي لصاحبه الحق في أن ينسب إلى فئة «العلماء» وهم الطبقة العليا من رجال الدين المسلمين.

والمدارس الدينية التي يتلقى فيها رجال الدين المسلمون تعليمهم تكون عادة ملحقة بالمساجد ولا يقل عددها في الدولة العثمانية عن ٢٥٠٠ مدرسة علماً بأن الصرف على المساجد وكذلك المدارس التابعة لها يكون

مـن مـدخولات الأوقـاف وهـي الأمـلاك الـتي يوصـي بهـا المحسـنون محبـو الخير على اختلافهم بمن فيهم السلاطين أنفسهم. ورجال الدين المسلمون لا يتسلمون من الحكومة أي مبلغ لإعالتهم فهم يعيشون من مدخولات الأوقاف ومن الهدايا الاختيارية التي يقدمها الاتباع.

وتبعاً للدور المزدوج الذي يقوم به رجال الدين المسلمون في الدولة العثمانية الذين يمارسون التزامات قضائية في المحاكم الشرعية من جهة ويطمّنون الحاجات الدينية للسكان من جهة أخرى فإنهم ينقسمون إلى طائفتين تشمل الأولى :

١ . « الملالي » [1].

٢ . المفتون أي مفسرو الشريعة.

٣ ـــ المفتشون الذين يصدرون القرارات في الشؤون الخاصة بالأوقاف.

٤ . القضاة أي الحكام.

٥ ـ النواب أي مساعدوا القضاة. وينبغي لمن يشغل المنصبين الأولين أن يكون حائزاً على لقب «مدرس» أما المناصب الأخرى فيشغلها «الملازمون».

أما الطائفة الثانية أي القائمون على شؤون المساجد فإنها تشمل :

١ . الشيوخ أو الوعاظ.

٢ ـــ الخطباء الذين يقومون أسبوعياً في كل يوم جمعة، بالدعاء للسلطان الحاكم [2].

٣ . الأئمة الذين يقومون بالخدمة الدينية المعتادة في المساجد.

---

(١) «الملالي» جمع «ملا» وهي كلمة عامية تعني أصحاب الكتاتيب . المترجم.

(٢) لا تقتصر خطبة الجمعة كما هو معروف على الدعاء للحاكم وإنما تتناول شتى الموضوعات التي تهم المسلمين . المترجم.

٤ . المؤذنين الذين يدعون المؤمنين إلى الصلاة من على المأذن.

٥ ــ القيمين الذين يقومون بعمل النظار في المساجد. ويتحتم على الشيوخ والخطباء أن يكونوا من العلماء أي يجب أن يكونوا حائزين على لقب «مدرس». أما الباقون فيمكن أن يكونوا من الحائزين على لقب «ملازم».

وكان يوجد لدى شيخ الإسلام في اسطنبول كل من :

١ ــ شيخ الإسلام كيخيه سي وهو المساعد الأقرب والمستشار في جميع القضايا غير الدينية.

٢ . تليجيسجي. أي ممثل شيخ الإسلام لدى الباب العالي.

٣ . مكتوبجي أي مدير الشؤون الكتابية.

٤ . فتوى أميني أي رئيس المكتب الذي تضاغ فيه الفتاوى.

على إن عمل رجال الدين المسلمين في الدولة العثمانية لا يقتصر على تحمل مسؤولية القضاء الشرعي والرعايا الدينية وإنما يمس فرعاً مهماً آخر من فروع التنوير الشعبي، ذلك إن شؤون المدارس كانت في عصر ما قبل الإصلاح تتركز كلياً في أيدي رجال الدين وكانت المؤسسات التعليمية الوحيدة هي المدارس الابتدائية (مكتب) والمدارس الملحقة بالمساجد. وكانت الدراسة في هذه وتلك تقتصر على دارسة القرآن والعلوم التي لها علاقة بالفقه الإسلامي وهي تسد بدرجة كبيرة أو صغيرة حاجة الحكومة إلى أن بدأت هذه الأخيرة بالسير في طريق الإصلاحات الجذرية التي تمس جميع نواحي الحياة الرسمية.

فالسلطان عبد المجيد الذي أعلن من على [1] كرسي العرش حلول

---

(١) هذا الاستخدام لا يصح فعلى المترجم أن يقول (مِنْ فَوْق) بدل (مِنْ عَلى). حميد الدراجي.

عهد جديد لم يهمل الوضع غير المرضي من وجهة نظر النزعات الأوروبية. الذي كان يعانيه التعليم الشعبي فأصدر في ١٨٤٥ أمراً إلى الصدر الأعظم إشار فيه إلى ضرورة فتح مدارس يستطيع فيها الشعب أن يتلقى المعارف الحقيقية وأن يدرس العلوم والفن ذلك أن السطان كان يعتبر أن جهل الشعب هو السبب الرئيسي في إخفاق ما أجري من إصلاحات.

ولتنفيذ خطط عبد المجيد هذه عقد في اسطنبول مؤتمر لمندوبي الأقاليم وعندما لم يتمخض هذا التدبير عن شيء نقلت قضية إصلاح المدارس إلى لجنة حكومية خاصة توصلت إلى ضرورة إعطاء مسألة التعليم الشعبي طابعاً أكثر علمانية ووضعت برنامجاً متكاملاً أصبح مع التغييرات والاضافات التي أوردها قانون ١٨٦٩ أساساً للوضع الحالي للشؤون المدرسية في الامبراطورية العثمانية [١].

وتنقسم المدارس إلى حكومية (مكتبي عمومية) وخاصة (مكتبي خصوصية) تقوم بالصرف عليها طوائف دينية منفردة وتخضع لرقابة الدولة.

وتنقسم المعاهد الدراسية الحكومية بدورها إلى ابتدائية ومتوسطة وعليا :

١ . تكون المدارس الابتدائية على نوعين عما :

٢ ـ إبتدائي مكتبي ويتعلم فيها القراءة والكتابة الأولاد ما بين السادسة والحادية عشرة من العمر وكذلك البنات ما بين السادسة والعاشرة من العمر ولكن بشكل منفصل عن الأولاد [٢].

---

(1) Ed. Engelhradt: Op. Cit. T. 1. PP. 75. 77. Chap II and PP. 296 – 298.

(٢) لا تعني كلمة الاولاد في اللغة العربية الفصحى الذكور فقط وإنما تشمل الذكور والإناث نعم هي في العامية تستخدم بهذا المعنى ولذا وقع المترجم في تلك الهفوة وهي من الأخطاء الشائعة. حميد الدراجي

ب ــ رشدي مكتبي ومدتها أربع سنوات يتعلم التلميذ خلالها أسس العقيدة الإسلامية والحساب والمساحة والتاريخ العام والوطني والنحو التركي والعربي والفارسي وكذلك لغة القومية غير المسلمة التي تؤلف أغلبية السكان في المنطقة المعينة.

٢ ــ تتألف المدارس المتوسطة من «إعدادية» أي تحضيرية و «سلطانية» تقابل مدارسنا الثانوية، وكلا النوعين يقبل الطلاب من جميع الأديان دون تفريق لذا فإن تدريس الدين فيها يقوم به معلمون منفردون لكل طائفة معلموها الذين ينتمون إليها. أما عن مناهج الدراسة فإن «الإعدادية» يمكن أن تعتبر إستمراراً لمدارس «الرشدي» مع بعض التوسع في المنهج فضلاً عن إدخال مواد إضافية كالعلوم الطبيعية وتاريخ الأدب التركي ومبادئ الاقتصاد السياسي. والهدف من هذه المدارس في إعتقاد رجال الإصلاح هو إعداد المعلمين والمعلمات للمدارس الإبتدائية وإعداد الأولاد للدخول في المدارس الثانوية أي «السلطانية». لقد كان على هذه الأخيرة أن تشكل على غرار (Lycee Imperial de Galata Serai) التي افتتحت في اسطنبول عام ١٨٦٨ والتي تدين في قيامها إلى علي باشا الصدر الأعظم آنذاك وإلى الاسناد الفعال الذي أبداه له في هذه القضية السفير الفرنسي لدى لباب العالي السيد (Bourec) وإلى جانب اللغات التي يكون تدريسها الزامياً في الليسية وهي التركية والعربية والفارسية والفرنسية تدرس في تلك اللغات أيضاً اللاتينية واليونانية والانجليزية والايطالية والألمانية والبلغارية والأرمنية. ويحوى منهاجها إلى جانب مواد الثقافة العامة كالتاريخ والرياضيات والتاريخ الطبيعي. علم المعادن والفيزياء والمحاسبة والرسم ومبادئ الحقوق أيضاً.

٣ ــ وتنتمي إلى مدارس «العالية» أي المعاهد الدراسية العليا كل

من مدرسة الحقوق ومدرسة الطب والمدرسة العليا للعلوم السياسة والأدارية والمدرسة البحرية والمعهد الحربي والمدفعي ومدرسة التعدين والمعهد الصناعي ومعهد الفنون الجميلة والمعهد التجاري والمعهد البيطري والزراعي. وكل هذه المعاهد العليا وكذلك الليسية التي سبق ذكرها لا توجد إلا في اسطنبول ولم نذكرها هنا إلّا ليأتي وصفنا كاملاً [١].

لقد وضعت اللجنة التي كانت تعني بإصلاح المدارس برنامجاً متكاملاً يهدف إلى رفع مستوى التعليم. فتقرر أن يكون تعلم القراءة والكتابة مجانياً والزامياً وفرضت على الآباء الذين يمانعون في تعليم أبنائهم غرامة تتراوح ما بين خمسة ومائة قرش (ما بين أربعين كوبيكا وثمانية روبلات) وأتخذت اللجنة قراراً يقضي بأن كل مدينة يزيد عدد بيوتها على الخمسمائة بيت ملزمة بأن تكون فيها مدرسة «رشدي».

أما إذا كان سكان المدينة ينتمون إلى أكثر من قومية فقد اعترف لكل قومية يزيد عدد بيوت أبنائها على المائة بيت بالحق في أن يكون لها مثل هذه المدرسة على أن تقوم الحكومة بالصرف عليها. وفي المدن التي يزيد عدد بيوتها عن الألف بيت افترض أن تفتح فيها مدرسة «إعدادية» واحدة على الأقل فضلاً عن مدرسة «سلطانية» أي ثانوية واحدة في مركز كل ولاية [٢].

غير إن القسم الأغلب من هذه النوايا الطيبة لم يتحقق بسبب نقص المال اللازم. وإذا ما كان وضع الشؤون المدرسية في الأقاليم العثمانية في

(١) مجموعة التقارير القنصلية لعام ١٩٠٣، الأصدار الأول مادة: الشؤون المدرسية في تركيا، قنصلية السيد يترياييف السرية في خربوط.

(2) Ch. Morawitz: Op. Cit. P. 173.

أوروبا وهي الأقاليم التي خصص لها أهتمام أكبر، يترك المجال لتمني وضع أفضل بكثير، فإن التعليم في الأقاليم الأسيوية وعلى الأخص في البعيدة منها كالبصرة يقتصر على المرحلة الابتدائية فقط. وبالفعل لا يوجد في ولاية البصرة ولا مدرسة ثانوية واحدة بل ولا حتى مدرسة واحدة من نوع «إعدادية»، كما إن عدد المدارس من نوع «مكتبي رشدي» و «مكتبي ابتدائي» لا يطابق البتة العدد الذي أقره القانون. ففي مدينة البصرة مثلاً التي تضم مع ضاحيتها مقام علي أكثر من ستة آلاف بيت عدا أكواخ القصب التي يعيش فيها الفقراء، لا توجد إلّا مدرسة «رشدي» واحدة بدلاً من ١٢ مدرسة وهو العدد الذي أقره القانون في حين أن عدد المدارس الـ «إبتدائي» هو خمسة للأولاد وإثنتين للبنات. ولم تكن حالة مدن الولاية الأخرى بأفضل من ذلك كما يتضح من الجدول التالي الذي وضع اعتماداً على النشرة التركية الرسمية (سالنامة) لسنة ١٣٢٠ هـ :

غير إن المدارس والمعاهد الدينية العليا الملحقة بالمساجد والكثيرة العدد بحيث يزيد عددها في مدينة البصرة وحدها على العشرين تعوض عن النقص في المعاهد الدراسية الحكومية في ولاية البصرة.

وأما عن «مكتبي خصوصية» أي المدارس الخاصة التي تنفق عليها الطوائف غير الإسلامية والتي تخضع لرقابة الدولة تمارسها وزارة المعارف فإن القارئ يجد عنها تفصيلات أكثر في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

المدينة	عدد البيوت	مدارس الرشدي	مدارس ابتدائي
البصرة	٦٠٠٠	١	٧
الزبير	١٥٠٠	لا يوجد	١
أبو الخصيب	٤٠٠	١	١

القرنة	١٦٠	لا يوجد	١
الناصرية	٥٠٠	١	١
سوق الشيوخ	٥٠٠	لا يوجد	١
شطرة المنتفك	٣٠٠	لا يوجد	١
الحي	٦٠٠	١	١
العمارة	١٠٠٠	١	١
شطرة العمارة	٣٠٠	لا يوجد	١
الهفوف	٣٠٠٠	١	١
القطيف	٦٠٠٠	لا يوجد	١

وإذا انتقلنـــا إلى الحـــديث عـــن المؤسســـات الماليـــة العاملـــة في العـــراق ونعني:

Bamque Imperiale Ottomane. (1)

وكذلك:

Administration de la Dette Publique Ottomane (2)

و: (Societe de la Pegie Cointeressee des Tabacs de I,Empire Ottoman) (٣).

التابعــة لهــا فإنــه يتحــتم علينــا أن نوضــح الأســباب الــتي أدت إلى قيــام هــذه المؤسســات الدوليــة علــى أســاس عثمــاني ذلــك أننــا لــن نســتطيع، مــن دون هذا التوضيح أن نقيّم دورها وأهميتها بدرجة كافية.

---

(١) البنك الامبراطوري العثماني ـ المترجم.

(٢) إدارة الدين العثماني العام ـ المترجم.

(٣) شركة الريجي لانحصار التبغ في الامبراطورية العثمانية ـ المترجم.

يعتبر البنك الامبراطوري العثماني [١] الذي افتتح رسمياً في ١ حزيران عام ١٨٦٣ من حيث الجوهر وريثاً للبنك العثماني الذي تأسس في ١٨٥٦ برؤوس أموال انجليزية فقط والذي كان الهدف من إنشائه تشجيع تجارة الشرق الأدنى حيث تركز الجزء الأغلب من نشاطه. لذا فمن غير الممكن اعتبار البنك العثماني بنكاً عثمانياً للدولة خصوصاً بعد أن فشل في تبرير الآمال التي علقها عليه الباب العالي لتحسين وضع العملة التي أشاع فيها الاضطراب تداول النقود الذهبية والفضية القليلة القيمة والتوسع اعتباراً من ١٨٣٩ في إصدار النقود الورقية المعروفة باسم «قائمة» [٢].

هذا في حين أن إنشاء بنك للدولة كان ضرورة ملحة بالنسبة لبلد زراعي مثل الدولة العثمانية حيث تجمع إيرادات الضرائب والاتاوات، من جراء الانعدام التام تقريباً للضرائب غير المباشرة، في أوقات معينة من السنة تتطابق مع مواسم حصاد أو جمع مختلف أنواع المحاصيل الزراعية. لذا لم يكن بمقدور الخزينة في مثل هذه الظروف أن تستغني عن القروض قصيرة الأجل لتغطية المصاريف الآتية الملحة فكان يتحتم عليها اللجوء إما إلى بيع المدخولات مسبقاً وإما على عقد القروض الداخلية.

وكلا الأمرين كان يؤدي إلى خسارة الحكومة بسبب الارتفاع غير الاعتيادي في نسبة الفائدة التي يتقاضاها مصرفيو گلطة [٣] الذين كان يتحتم

---

(١) لقد إلتزمنا في جميع الحالات التي أوردنا فيها المسميات الفرنسية للدلالة على المؤسسات العثمانية بتعبير «عثماني» الذي دخل في الاستعمال دولياً والذي هو تحريف للكلمة التركية «عصماني».

(2) A. du Veley. Op. cit. p. 189 FF: Ch. Morawitz: op. cit. p. 41 FF.

(٣) گلطة أسم لأحد أحياء مدينة اسطنبول. المترجم.

الاقتراض منهم. وكان بالإمكان التخلص من كل هذه المساؤى لو أنشئ بنك للدولة يلزم بأن يفتح لصالح الحكومة حساباً جارياً دائماً يؤمن لها المبالغ الضرورية لتغطية المصاريف المعتادة طيلة الموسم الذي تتوقف فيه إيرادات الخزينة.

يضاف إلى كل هذه الإعتبارات الاخفاق الذي أصاب رجال المال العثمانيين عندما زاروا في ١٨٦٠ العاصمة الفرنسية لعقد قرض خارجي، الأمر الذي أقنع الحكومة نهائياً بضرورة أن يكون لها في محادثاتها مع الرأسماليين الأوروبيين وسيط يتمتع بثقة وتقدير أوروبا. وطبيعي أن بنكاً عثمانياً للدولة كان بإمكانه أن يلعب هذا الدور بنجاح.

وبعد أن قررت الحكومة تحويل (١) (Ottoman) الانجليزي إلى بنك دولة رأت بأن من الضروري أن تجذب إلى هذه القضية الرأسماليين الفرنسيين بحيث تكون حصتهم مساوية لحصة الانجليز، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد استفادت في قروضها السابقة من خدمات لندن وباريس على السواء. بيد أن نسبة مشاركة الرأسماليين الفرنسيين في البنك الأمبراطوري العثماني عند تأسيسه كانت بمقدار ٥:٨ بالمقارنة مع نسبة مشاركة الانجليز. ولم يتساو مساهمو باريس مع زملائهم مساهمي لندن في الحصص إلا في ١٨٦٥ عندما زيد الرأسمال الأساس للبنك المذكور بدرجة ملحوظة.

وفي ١٨٧٥ إنضم إلى هذه المجموعة الأساسية من الرأسماليين الانجلو ـ فرنسيين، النمساويون أيضاً وذلك بفضل اندماج ما يسمى بـ (Banque Anstro- Ottomane) مع البنك الامبراطوري. وكانت مؤسستا

---

(١) البنك العثماني ـ المترجم.

الاعتماد (Creditanstalt) و (Bankverein) في فيّنا قد انشأتا ذلك البنك النمساوي في ١٨٧١ أي عندما وصلت المشاريع النمساوية ذروتها في الدولة العثمانية بعد الحرب الفرنسية ـ البروسية غير أن هذا البنك تحتم عليه أن يتخلى عن وجوده المستقل بسبب الأزمة الصناعية الحادة التي أصابت النمسا في ١٨٣٧.

وقد زاد رأسمال البنك الامبراطوري بعد الأندماج زيادة كبيرة بحيث بلغ ٢٥٠ مليون فرنك كما مددت الامتياز من ثلاثين سنة كما كانت في البداية إلى خمسين سنة ثم مددت مرة أخرى لذا فإن عقد البنك مع الحكومة العثمانية ليس من المقدر أن ينتهي إلا في عام ١٩٢٥ هذا إذا لم يمدد مرة أخرى.

وفي الوقت نفسه توسعت بشكل ملحوظ حقوق البنك الامبراطوري نفسها بحيث تحول من مجرد مؤسسة أقراض فأصبح الخزينة الحكومية للامبراطورية العثمانية. لقد ارتأت الحكومة أن تحول إليه جميع إيراداتها وفي الوقت نفسه ألقت على عاتقه مسؤولية دفع جميع ما تنفقه من أموال في أوجه الصرف المختلفة ضمن الكشوفات وإيرادات الميزانية. وقد زيد في مقابل ذلك الحساب الجاري الذي فتحه البنك للحكومة من ٥و٢ مليون فرنك إلى ٥و٦٧ مليون فرنك.

وقد تأكدت مرة أخرى امتيازات البنك السابقة وهي حقه في احتكار إصدار النقود الورقية وإعفاء البنك وفروعه من أي نوع من أنواع الضرائب وحقه في أن تخصص له مجاناً الأراضي اللازمة لإقامة ما يلزمة من منشآت. وفضلاً عن ذلك سمح للبنك بأن يفتح له فروعاً داخل الامبراطورية وخارجها على حد سواء حسب رغبته هو مع الاستمرار في اعتباره الوسيط الرسمي الوحيد في عقد وإطفاء القروض العثمانية

الخارجية والداخلية. وقد منح البنك في مقابل قيامه بالتزامات خزينة الدولة عمولة مقدارها ١٥% من جميع المبالغ الواردة والمصروفة. هذا وقد استحدثت في البنك وظيفة خاصة باسم المراقب الحكومي وذلك لمراقبة صحة الحسابات.

وتتألف إدارة البنك الامبراطوري في اسطنبول من مدير وإثنين من المساعدين ومجلس من ثلاثة أعضاء تعينهم لجان خاصة من مساهمي البنك العشرين. وهناك لجنة خاصة تتألف من أربعة من الماليين الانجليز وأربعة من الفرنسيين مهمتها تنفيذ قرارات الادارة. وكان للبنك الامبراطوري في الدولة العثمانية حتى بداية القرن العشرين ستة وعشرون فرعاً إضافة إلى مركزه في اسطنبول. أما في الخارج فإن له فرعاً في كل من باريس ولندن إضافة إلى فروعه في كل من بورسعيد والاسكندرية والقاهرة.

وقد أفلح البنك الامبراطوري منذ افتتاحه في ١٨٦٣ في أن يصبح ضرورياً للحكومة العثمانية إلى درجة بحيث أن أياً من مشاريع هذه الحكومة لم يكن من الممكن أن يتم دون مشاركته. وقد عقد الجزء الأغلب من قروض الدولة العثمانية الخارجية اعتباراً من ١٨٦٣ بمساعدة منه. ولم يكن البنك يرفض إنجاد الحكومة في جميع الأوضاع الحرجة التي كانت تتعرض لها كما حدث مثلاً في ١٨٧٧ في ذروة الحرب مع روسيا عندما لم يتسن للحكومة الحصول على النقود في الخارج حيث بادر البنك فأقرض الباب العالي المبالغ اللازمة لمواصلة الحرب. كما أن إدارة (Dette Publique) التي تعلب حالياً كما سنرى دوراً مهماً في الاقتصاد الحكومى العثماني تدين بقيامها لمبادرة البنك نفسه.

وإلى جانب مشاريع الامبراطورية العثمانية ذات الصفة المالية البحتة

تلك المشاريع التي لم يكن بمقدورها الاستغناء عن مساعدة البنك المذكور فإن هذا الأخير شارك بنشاط حتى في قضية بناء السكك الحديد في الدولة العثمانية فقد أنهى في ١٨٨٨ بمساعدة (Comptoir d , Esvompte) خطين فرعيين مخصصين لربط السكك الحديد التركية، مع البلغارية والصربية عن طريق بيلوف وأسكوب. وفي ١٨٩٢ هب هذا البنك لمساعدة المصرفي الفرنسي (Rene Bandony) الذي كان قد حصل على امتياز لبناء سكة حديد « سالونيك ـ اسطنبول ». وأخيراً كان للبنك في بداية القرن العشرين يد بشكل غير مباشر في سكة حديد بغداد حيث أخذ على عاتقه مهمة تمثيل مساهمة شركة سكك الحديد سميرنا [١] ـ كسبة الفرنسيين في المحادثات التي جرت مع شركة سكك حديد الأنضول تلك المحادثات التي انتهت في أيار ١٨٩٨ بالاتفاق على توحيد هاتين المؤسستين. وعلى أساس هذا الاتفاق جرى في ١٩٠١ في أفيون قره حصار اتصال قضبان خطوط السكك الحديد المذكورة الأمر الذي جعل من الممكن اعتبار الطريق الفرنسي مقدمة لسكة حديد بغداد نظراً للأفضليات الأكيدة التي تتمتع بها سميرنا من وجهة نظر التجارة الأوروبية بالمقارنة مع حيدر باشا نقطة الانطلاق السابقة لسكة حديد بغداد [٢].

وإذا أضفنا إلى كل ما تقدم أن البنك الامبراطوري عمد ابتداء من ١٨٩١ إلى إنشاء صناديق للتوفير في فروعه كافة داخل الدولة العثمانية نكون قد صورنا بدرجة كافية النشاط المتعدد الجوانب لهذه المؤسسة المصرفية.

---

(١) سميرنا هو الاسم القديم لمدينة أزمير التركية ـ المترجم.

(2) A. Cheradame, Le Chemin de Fer de Bagdad Paris. 1903 PP. 44. 48.

كان البنك الامبراطوري العثماني قد افتتح فروعه في العراق الجنوبي منذ وقت قريب نسبياً وكان ذلك في آب ١٨٩٣ بالنسبة لبغداد وفي بداية ١٨٩٤ بالنسبة للبصرة، فحل بذلك محل بنك فارس الشاهنشاهي هناك [1]. لقد كان البنك العثماني ينوي في البداية أن ينقل منافسته للبنك الشاهنشاهي إلى داخل فارس نفسها، لكن هذا الأخير تناول فأغلق فروعه في العراق العربي وألزم البنك العثماني بالتخلي عن مد نشاطه إلى فارس. ومنذ ذلك الوقت يقوم البنك العثماني بكل عملياته مع فارس من خلال البنك الشاهنشاهي كما يقوم البنك الشاهنشاهي بعملياته في العراق العربي من خلال البنك العثماني وفي كلا الحالتين لا تتعدى العمولة المتفق عليها ١/٨%.

كان فرع البنك العثماني في البصرة كما هي الحال بالنسبة لفرعه في بغداد يدار من قبل شخص اوروبي لكنه مات في سنة ١٨٩٤ نفسها ولم يكن هناك، بسبب المناخ القاتل، من يرغب في اشغال هذا المنصب فاضطر البنك إلى إغلاق فرعه وأبقى في البصرة مراسلاً بسيطاً من الأهالي. وأعيد فتح فرع البصرة في ١٩٠٤ فسدت بذلك الحاجة الملحة التي كان التجار والبيوت التجارية الملحية يستشعرونها لمؤسسة مصرفية.

لقد انعكس ظهور البنك العثماني في العراق الجنوبي بشكل حسن على التجارة بالدرجة الأولى حيث قلل من شهية المصرفيين المحليين أي الصرافين الذين استغلوا فرصة عدم وجود منافسة أجنبية فاتفقوا فيما بينهم وأخذوا يفرضون فائدة عالية جداً على الأشخاص الذين يلجأون إلى مساعدتهم المالية. ويمكن أن نأخذ مثلاً على ذلك كبار المزارعين

---

(١) كان فرع البنك الشاهنشاهي في البصرة قد افتتح في ١٨٩١.

البصريين الذين كانوا بسبب حياتهم الباذخة يحسون بالحاجة إلى النقود في أغلب الأحيان فيقترضون من الصرّافين بفائدة لا تقل عن ٢٤% في السنة. لقد أناخت الفوائد العالية التي يأخذها الصرافون بثقلها على مصدري الخامات المحليين بشكل خاص. فهؤلاء لا يملكون رأسمال متداولاً كبيراً لذا فإنهم يقومون بكل تجارتهم بالدين فيكون والحالة هذه انخفاض نسبة الفائدة على القروض التي ياخذونها من الصرافيين بكفالة وثائق شحن البضائع التي أرسلوها إلى الخارج قضية حيوية بالنسبة لهم. إن تلك القروض ضرورية لهم لكي يستطيعوا أن يفوا بديونهم لمجهزيهم. وقد أبدى البنك العثماني في هذا المجال خدمة كبيرة لرجال الأعمال المحليين هؤلاء.

ويمكننا أن نكون لأنفسنا تصوراً معيناً حول حجم النشاط الذي يمارسه البنك الامبراطوري في العراق الجنوبي، باعتباره خزينة للدولة العثمانية يقوم بعمليات الايراد والصرف لجميع واردات الخزينة في هذه المنطقة إذا علمنا بأنه يرد إلى الخزينة في كل سنة ما يقرب من ٤،٣٠٠،٠٠٠ روبل بالمعدل في ولاية بغداد وما يقرب من ١،٦٣٠،٠٠٠ روبل في ولاية البصرة وبأن البنك يدفع مثل هذا المبلغ في مجموعه العام لتغطية مصاريف المؤسسات الحكومية في كلا الولايتين المذكورتين [١].

أما المؤسسة الأوروبية الثانية من حيث الأهمية بعد هذا البنك في الدولة العثمانية فهي: "Administration de la Dette Publique" التي تتألف

---

(١) لقد استخلصنا أرقام الايرادات والمصروفات هذه على أساس المعطيات الواردة في السالنامات أي الحوليات العثمانية الرسمية الخاصة بولايتي بغداد والبصرة في سنوات مختلفة.

من ممثلين عن سديكاتات دائني الامبراطورية العثمانية من مختلف الجنسيات والتي تتصرف بربع إيرادات الحكومة العثمانية. وينظر رجال المال الأتراك إلى هذه المؤسسة على أنها وصاية دولية مقنعة على ماليات دولتهم ولهذا فإنها تستحق لهذا السبب أن نتعرف عليها بشكل مفصل.

لقد قامت هذه الوصاية نتيجة للافلاس الذي أصاب الدولة العثمانية بسبب عدم استعدادها للقروض الخارجية وهو عدم استعداد حتمته نواقص التنظيم المالي السابق في الامبراطورية العثمانية. فالدولة التي لا يوجد فيها كشف رسمي للإيرادات والمصروفات وتنعدم فيها بالتالي السيطرة على أوجه الصرف والتي تكون كل وزارة فيها غير مقيدة باعتمادات معينة وتقوم بالصرف دون اعتبار للحالة المالية ولواقع ورود المدخولات تكون محكوماً عليها بالعجز الدائم. لم تكن الدولة تستطيع أن توازن بين الدخل والمصروف وقد ارتبكت حساباتها النقدية نهائياً بعد أن أثقلت ميزانيتها بالقروض الخارجية الكثيرة العدد [1].

لقد لجأت الدولة العثمانية إلى مساعدة أوروبا المالية لأول مرة في ١٨٥٤ بسبب حرب القرم، حيث عمدت فرنسا وبدرجة أكبر انجلترا اللتان كانتا قد عقدتا حلفاً هجومياً ودفاعياً مع السلطان إلى مساعدته على عقد أول قرض بمبلغ ٥،٠٠٠،٠٠٠ جنيه إسترليني مضموناً بما كان على مصر أن تدفعه للدولة العثمانية.

غير أن النقود المقترضة كانت بعيدة عن أن تكفي لتغطية مصاريف الحرب لذا وفرت الدولتان الحليفتان نفساهما للدولة العثمانية إمكانية عقد قرض جديد في ١٨٥٥ بمبلغ مماثل وذلك بأن تعهدتا بدفع النسبة المئوية

(1) A. du velay: op. cit. p. 134 FF.

علـى أن يكـون ضـمان القـرض الجديـد مـدخولات كمـارك سميرنـا وسـوريا الـتي استعيض عنهـا بعـد أن استولت بريطانيـا علـى قـبرص بمـدخولات هـذه الأخيرة.

ولم يسـاعد القـرض الجديـد الخزينـة العثمانيـة علـى الـتخلص مـن المصـاعب الـتي كانـت تعانيهـا لأن المصـاريف الهائلـة الـتي تطلبتهـا الحـرب مـع روسـيا أضـرت بماليـة البلـد، تلـك الماليـة الـتي كانـت مرتبكـة أصـلاً، كمـا أن الاسـراف في إصـدار النقـود الورقيـة خـرق هـو الآخـر أي تـوازن في الميزانيـة. في مثـل هـذا الظـرف الحـرج رأى كبـار المـاليين العثمـانيين آنـذاك أن إنقـاذ الحالـة يكمـن في عقـد قـرض خـارجي جديـد بمبلـغ ٥،٠٠٠،٠٠٠ جنيـه إسـترليني وقـد عقـد القـرض بالفعـل في ١٨٥٨. لقـد عقـدت الصـفقة هـذه المـرة دون مشـاركة مـن حكـومتي بريطانيـا وفرنسـا وإنمـا اسـندها فقـط البيـت المصـرفي الانجليـزي (Dent Palmer and C) الـذي أمـن لنفسـه كضـمان للقـرض إيـرادات كمـارك اسـطنبول الـتي اشـترط العقـد أن تجـبى بإشـراف مباشر من يفوضهم المكتتبون في القرض.

ومنـذ ذلـك الوقـت أصـبح إعطـاء هـذا المرفـق أو ذاك مـن مرافـق إيـرادات الدولـة كضـمان للقـروض الـتي تعقـدها الدولـة العثمانيـة في الخـارج ظـاهرة معتـادة. وكانـت الحكومـة العثمانيـة بموافقتهـا علـى مـنح مثـل هـذه الضـمانات لـدائنيها الأوروبيـين، كمـا لـو أنهـا تـدعو بنفسـها هـؤلاء لأن يعتـبروا أن أي وسـيلة لأقـراض الدولـة العثمانيـة المـال ليسـت مضـمونة بمـا فيـه الكفاية.

ولقـد اعتـاد رجـال المـال العثمـانيين بلجـوئهم إلى القـروض الخارجيـة عنـد أول فرصـة تسـنح لـذلك، علـى هـذه الوسـيلة السـهلة لتغطيـة العجـز المـالي وأصـبحوا يلجـأون إلى الاقـتراض مـن أوروبـا حـتى في عمليـات بسـيطة مثـل

دفع فوائد القروض السابقة.

وكانت الخزينة التركية في حالة فشلها في الحصول على الأموال في الخارج تلجأ إلى مصرفي گلطة فتستدين منهم ما تحتاجه من نقود بشروط مجحفة جداً بالنسبة لها.

كان وزراء المالية في الامبراطورية العثمانية في بحثهم عن النقود يسعون إلى البحث عن مصادر جديدة باستمرار للقروض التي يحتاجونها. فلقد استغلوا مثلاً حقيقة أن الدولة العثمانية التي بدأت تسير في طريق الاصلاحات أصبحت تجذب مختلف رجال الأعمال الأوروبيين فأخذوا يمنحونهم امتيازات لبناء سكك حديدية أو موانئ أو ما أشبه بشرط أن يعقد معهم من يأخذ الأمتياز مسبقاً قرضاً كبيراً كان أو صغيراً ودخل رجال الأعمال من مختلف الأمم الذين جذبهم إلى الدولة العثمانية التعطش للربح، بدورهم، في منافسة حامية فيما بينهم فكانوا يوافقون عن طيب خاطر على أقراض الخزينة العثمانية الأموال لمجرد أن يختطفوا من منافسيهم إمتيازاً ما يتوقعون الريح من وارئه.

وكان أصحاب الامتياز من مختلف الأمم يتفوقون في هذا المجال تبعاً للوضع الذي تحتله في اللحظة المعنية هذه الدولة الأوروبية أو تلك عند الباب العالي.

وهكذا ففي العقد الأول الذي تلا حرب القرم كان الانجليز في مقدمة رجال الأعمال هؤلاء فهم الذين ساندوا الدولة العثمانية في إصدارها لأولى قروضها وهم الذين أسسوا أولى البنوك الأوروبية في اسطنبول وهم الذين حصلوا على أولى الامتيازات لبناء السكك الحديد. ومع موت اللورد بالمرستون في ١٨٥٦ ضعف نفوذ بريطانيا وانتقلت الأولوية إلى فرنسا التي احتفظت بدورها السائد في هذا المجال حتى الحرب الفرنسية ــ البروسية

في ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ عندها ظهر على المسرح الراسماليون النمساويون والألمان ومعهم عدد كامل من المشاريع المصرفية ومشاريع السكك الحديدية [1].

تميز تدفق رؤوس الأموال الأجنبية الجديدة بازدهار المشاريع والامتيازات من مختلف الأنواع وأدى إلى أن تفتتح في عاصمة الامبراطورية العثمانية بنوك كثيرة العدد أهلية وأجنبية. وقد بدا كما لو أنه قد حان وقت انبعاث مالية الدولة العثمانية وتجارتها وصناعتها. غير أن الواقع كان غير ذلك فقد ظل كل شئ على حاله فالحكومة ظلت كالسابق تعاني الحاجة إلى النقود وتقترض المبالغ التي تحتاجها بفوائد عالية في الوقت الذي كانت فيه مؤسسات الأقراض المختلفة تعطي لمساهميها فوائد لم يسبق لها مثيل علماً بأن أرباحها لم تكن تأتي من المشاريع التجارية أو الصناعية وإنما وبشكل كلي من القروض التي كانت تمد بها الخزينة العثمانية بشكل مكثف.

ولم يعد لدى الحكومة في نهاية المطاف من مرافق إيرادات الدولة ما هو حر لضمان القروض الجديدة، وذلك نتيجة لنظام الضمان المعمول به. وبسبب من توزيع تلك المرافق على المقرضين القدماء تحتم الدخول مع هؤلاء في اتفاقية تقضي باقتطاع جزء معين من الايرادات التي سبق التنازل عنها لهم لمصلحة المقرضين الجدد.

وطبيعي أن فرص الدولة العثمانية للاقتراض من أوروبا كانت في ظل مثل هذه الأوضاع تتقلص باستمرار، خصوصاً بعد أن أخذت الصحافة الأجنبية التي كانت منذ نهاية الستينيات تقرع ناقوس الخطر مشيرة إلى

---

(1) A. du velay. Op. cit. p. 293 FF.

وضع مالية الدولة العثمانية الميؤوس منه، تشن حملة جديدة وتتنبأ لجميع دائني الباب العالي بحتمية الافلاس.

ولم تستطع حتى لجنة خاصة تشكلت في اسطنبول، قبل أن تحل الأزمة، من الماليين الفرنسيين والانجليز والنمساويين أن تقضي على المصاعب المالية التي وقعت فيها الحكومة العثمانية نتيجة لشغفها المفرط بالقروض الخارجية. لقد كانت اللجنة ترمي إلى إعادة تنظيم مالية الدولة العثمانية على أسس أوروبية، غير أنها اصطدمت منذ خطواتها الأولى بسوء ظن ظاهر من جانب الأدارات التركية المختلفة. الأمر الذي اضطرها لان تغلق أبوابها دون أن تتمكن من عمل شيء باستثناء توصلها لوضع الخطوط العامة لأول ميزانية حكومية عثمانية، غير أن أياً من الوزارات العثمانية لم تر ضرورة العمل بهذه الميزانية (١).

وهكذا كانت اللحظة الحرجة بالنسبة للدولة العثمانية تقترب بخطى حثيثة. ففي بداية ١٨٧٤ احتج اصحاب السندات المالية الفرنسيون أمام حكومتهم بسبب امتناع الباب العالي عن دفع القسيمة الدورية الأمر الذي أدى إلى أن يفرض حجز موقت على جميع مبالغ الحكومة العثمانية المودعة في فرع البنك العثماني في باريس.

لقد كانت هذه الحادثة نذيراً للزوبعة التي هبت في السنة التالية عندما تبين أن دخل الحكومة الذي كان مقدراً له أن يصل في السنة المالية ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥ إلى ٥٧٠،٥ مليون فرنك لم يتجاوز في واقع الأمر ٣٨٠ مليون فرنك، في حين كان يتوجب أن يدفع كأقساط للقروض الخارجية فقط ما لا يقل عن ٣٠٠ مليون فرنك ذلك أن دين الدولة الخارجي كان قد بلغ

(1) Ch. Morawitz. Op. cit/ p/26 FF.

حتى ذلك الوقت ٤ مليارات و ٨١١ مليون فرنك إضافة إلى ١٨٥ مليون أخرى كانت الحكومة قد اقترضتها من البنك العثماني ومن المصرفين المحليين في اسطنبول (١).

ولم تنجح محاولات الباب العالي لحل المشكلة باللجوء إلى قرض خارجي جديد لذا وجدت الحكومة نفسها مضطرة لأن تعلن إفلاسها في بلاغ رسمي صدر في ٦ تشرين الاول ١٨٧٥. فبحجة ضرورة إعادة التوازن إلى الميزانية أعلن الباب العالي على رؤوس الأشهاد قراره القاضي بأنه سيعمد طيلة السنوات الخمس القادمة إلى دفع نصف ما كان يدفعه سابقاً كفوائد وأقساط للقروض و وعد بأن يطرح في المستقبل القريب مقابل النصف الذي لم يدفع سندات بفائدة مقدارها ٥% (٢).

أن الانتفاضة التي اشتعلت في البوسنة والهرسك في تلك السنة ذاتها والحرب التي أعقبت ذلك مع صربيا والجبل الأسود أعاقت الدولة العثمانية عن أن تدفع لدائنيها حتى النصف الذي وعدت به، وكانت النتيجة أن الدائنين الأجانب لم يتسلموا اعتباراً من نيسان ١٨٧٦ ولا كبيكاً واحداً في مقابل الأموال التي كانوا قد اقرضوها للحكومة العثمانية.

في هذا الوقت بالذات اعلنت روسيا على الدولة العثمانية الحرب التي انتهت في غير صالح هذه الأخيرة وأضافت إلى ديونها الكثيرة السابقة غرامة حربية مقدارها ٣٠٠ مليون روبل. وقد أثار ذلك لدى دائني الباب العالي الوطنيين الأجانب مخاوف غاية في الجدية حيث خشوا أن توجه الحكومة جميع مصادرها المالية لدفع هذه الغرامة متخلية عن ديونها

(1) A. du Velay. Op. cit. p. 324 FF. Ch. Morawitz, op. cit p. 51 FF.

(2) A. du Velay: op. cit. p. 316 FF.

السابقة. وهكذا نسي الدائنون الانجليز والفرنسيون تنافسهم الدائم وأسرعوا بالإتحاد في سنديكات واحد ووجهوا إلى ممثلي الدول الأوروبية المجتمعين في مؤتمر برلين مذكرة طلبوا فيها حماية مصالح حملة السندات العثمانية الأجانب. وحذا مصرفيو اسطنبول حذوهم فأرسلوا إلى برلين مندوبين عنهم للغرض نفسه.

وقد لاقت الالتماسات المشار إليها اهتماماً وعطفاً من جانب المؤتمرين فأعلن الكونت كورتي ممثل ايطاليا بتخويل من زملائه بأن «الدول الممثلة في المؤتمر ترى بأن من الضروري أن تنصح الباب العالي بأن يؤلف في اسطنبول لجنة مالية من المختصين الذين تعينهم الدول المعينة تناط بها مهمة النظر في مطالب دائني الدولة العثمانية والبحث عن أكثر الاجراءات فعالية لتطمين هذه المطالب بما يتفق وحالة مالية الدولة العثمانية، وقد أيد ممثلو الدولة كافة اقتراح المندوب الايطالى هذا بما في ذلك ممثل روسيا لكن ممثل الدولة العثمانية اعتبر تأليف لجنة دولية أمراً مهينا لكرامة الامبراطورية فأسرع وقد باسم حكومته وعداً مهيباً بأن الباب العالي لن يتوانى عن الاتفاق مباشرة مع دائنيه وسيبذل جهده لإرضائهم بالقدر الذي تسمح به حالته المالية.

ومنذ ذلك الوقت أخذ شبح السيطرة الدولية يطارد بإلحاح الماليين العثمانيين الذين كانوا يجهدون بالبحث عن وسائل لإنقاذ الدولة العثمانية من مهانة كهذه.

وانبرى البنك الامبراطوري العثماني لساعدتهم فتزعم مصرفيي گلطه وقدم للحكومة مشروعاً بدا كما لو أنه يدرأ الخطر المذكور [1].

---

(1) A. du Velay. Op. cit. p 397 FF: Morawitz. Op. cit. p. 55 FF.

وهكذا قضت الاتفاقية التي وقعت في ١٠ تشرين الثاني ١٨٧٩ بأن تؤجر الحكومة لهذه البيوت المصرفية لمدة عشر سنوات، احتكاري التبغ والملح ورسوم الدمغة وإيرادات الضرائب المفروضة على المشروبات الروحية وصيد الأسماك في مياه اسطنبول وضريبة العشر المفروضة على الحرير في ادرنه وبروصة وسامسون.

وقد خصص مبلغ ١،١٠٠،٠٠٠ ليرة عثمانية أي ٩،٣٥٠،٠٠٠ روبل من هذه المدخولات لإطفاء الدين المستحق للبنك نفسه ولمصرفي كلطة، أما الباقي فكان يجب أن يدفع للدائنين الأجانب. وقد سارع المتعهدون بالمباشرة في إدارة الايرادات التي تنازلت لهم الدولة العثمانية عنها وشكلوا لهذا الغرض:

"Administration des six Contributions indirectes"[1].

الذي كان الشكل الأولي لـ (Dette Publique) الذي قام فيما بعد.

غير أن آمال الحكومة العثمانية في أن تقضي التدابير المذكورة على كل سوء تفاهم كانت سابقة لأوانها. فقد اعتبر دائنو الامبراطورية العثمانية الأجانب أنها قد تخطتهم، فتوجهوا إلى الحكومات المعنية يطلبون حماية مصالحهم الأمر الذي أدى إلى عدة اتصالات رسمية قام بها مع الباب العالي سفيرا بريطانيا وفرنسا. وقد رأت الحكومة العثمانية في هذه الخطوة تهديداً جديداً بالتدخل الدولي في شؤون الدولة المالية فأسرعت بإصدار مذكرة خاصة في ٣ تشرين الأول ١٨٨٠ دعت فيها ممثلين عن دائنيها الأجانب للمجيئ إلى اسطنبول لوضع اتفاقية نهائية ووعدت بأن تخصص لهم بعض الموارد الأخرى عددتها في المذكرة إضافة إلى الفائض من

---

(١) إدارة الاسهامات الستة غير المباشرة. المترجم.

الايرادات التي كان قد جرى التنازل عنها لصالح مصرفيي گلطة المحليين.

وانصاع الدائنون الأجانب لإلحاح البنك الامبراطوري العثماني فإتحدوا في سنديكاتات شكلوها على أساس قومي وأسرعوا بالاستجابة لهذه الدعوة، وهكذا افتتحت لجنة مالية مؤلفة من ممثلين عن سنديكاتات فرنسا وبريطانيا والنسما ــ المجر وايطاليا ومن خسمة مندوبين عثمانيين جلساتها في ايلول ١٨٨١ في عاصمة الامبراطورية العثمانية. وقد توصلت اللجنة إلى عقد اتفاقية مع الباب العالي أكدها مرسوم ٢٨ محرم ١٢٩٩ هـ (٨ كانون الأول ١٨٨١م)، نصت على تأليف إدارة (Dette Publique Ottomane) على أن يقتصر نشاط وحقوق هذه المؤسسة المالية الدولية الدائمة على الأراضي العثمانية فقط (1).

وقد جابهت اللجنة أثناء وضعها لبنود الإتفاقية أكبر المصاعب من جانب «إدارة الضرائب الست غير المباشرة» التي سبق ذكرها ذلك أن مصرفي گلطة رفضوا أن يتنازلوا عن الإمتيازات التي منحتها لهم الحكومة وأصروا على ما أعترف لهم به من حق بالتقدم على غيرهم من الدائنين. وبعد محادثات طويلة جرى الإتفاق على أن يأخذ البنك العثماني على عاتقه تطمين جميع مطالب الأشخاص الموقعين على اتفاقية ١٨٧٩ من الحكومة على أن توضع تحت تصرف البنك لتغطية هذه الديون التي اعتبرت ديوناً ممتازة ٥٩٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (٥،٠٥١،٠٠٠ روبل) فقط وليس ١،١٠٠،٠٠٠ ليرة (٩،٣٥٠،٠٠٠ روبل) كما كان مقرراً في البداية.

وقد حصل البنك إضافة إلى ذلك على أن يكون من حقه أن يمثله

---

(1) A. du Velay. Op. cit. p. 421 FF.

في مجلس (Dette Publique) مندوب واحد بهيئة مفوض من قبل حملة السندات المالية العثمانية الممتازة. وقد أقر الباب العالي من جانبه بهذه الاتفاقية وألغى اتفاقه مع البنك ومصرفيي گلطة وبذلك انتقلت «إدارة الضرائب الستة غير المباشرة» إلى يد: "Administration de la Dette Publique Ottomane" وبعد أن انتهت اللجنة من هذه القضية الصعبة انهمكت بتوزيع قروض الدولة العثمانية الداخلية والخارجية على أساس القوة التي توفرها الضمانات التي أعطيت لكل منها. ونتيجة لذلك استثنيت قروض ١٨٥٤ و ١٨٧١ من دائرة نشاط إدارة (Dette publique) باعتبار أنها ضمنت بالإيرادات المتأتية من مصر، وكذلك فرض ١٨٥٥ الذي ضمنته بريطانيا وفرنسا إلى (Dette Flottmane)[١] والغرامة الحربية التي ينبغي دفعها لروسيا، علماً بأن البندين الأخرين قد فصلا عن دين الإمبراطورية العام رغم إرادة وإصرار الأعضاء العثمانيين في اللجنة.

ونتيجة لفصل الغرامة الحربية عن الدين العام أبعدت روسيا عن المشاركة في إدارة (Dette Publique Ottonane) ذلك أن الدولة العثمانية لم تلجأ إلى الأقتراض منها عند عقدها لأي من قروضها الخارجية. وهكذا تألف مجلس إدارة (Dette Publique) من مندوبي بريطانيا وفرنسا والمانيا وإيطاليا والنمسا ــ المجر علماً بأن المندوب الإنجليزي يعتبر ممثلاً للأراضي المنخفضة وبلجيكا، إضافة إلى مندوب عن دائني الدولة العثمانية المحليين وأحد أعضاء إدارة البنك العثماني الذي كان كما أشرنا يمثل حمل السندات المالية العثمانية الممتازة.

ولم يكن بإستطاعة أعضاء المجلس هؤلاء أن يشغلوا في الوقت نفسه أي منصب دبلوماسي أو قنصلي ولا أية وظيفة رسمية أخرى في

---

(١) الدين العائم ـ المترجم.

الدولـة العثمانيـة وهـم لا يعينـون مـن قبـل حكومـات الـدول المعنيـة بالقضـية وإنمـا ينتخـبهم لمـدة خمـس سـنوات قابلـة للتجديـد حملـة الأوراق العثمانيـة أنفسهم ممثلين بالبيوتات المصرفية ومؤسسات الأقراض [١] من أمثال :

"Council of foreign Bondholders" [٢] في بريطانيـا والسـتديكات المؤلف من: [٣] "Banque de Paris et des Pays Bas" و [٤] "Credit Luonnais " و [٥] "Comptoir Natinal d, Escompte" و "Generale [6] Societe" و "Credit Ansalt" واتحـاد Bamque Lmperiale Ottomane" في فرنسـا و Foncier "Credit و "Banque anglo – antrichienne" في النمسـا ـ المجـر والسـنديكات المؤلـف مـن البيـت المصـرفي "Bleichtoder" و "Deutsche Bank" والمؤسسـة الحكوميـة "Deehamdlung" في المانيـا وأخـيراً مجلـس رومـا التجـاري في ايطاليـا. أمـا في الدولـة العثمانيـة فـإن الجهـة الـتي تضـطلع بهـذه القضـية هـي مجلـس الـدائنين العـام في حـين يعـين البنـك العثمـاني كمـا ذكرنا مندوباً عن حملة السندات الحكومية العثمانية الممتازة.

ويقـوم مجلـس إدارة (Dette Publique) بجمـع الإيـرادات بواسـطة المـوظفين التـابعين لـه ويراقـب صـحة دفـع الفوائـد والـديون ويضـع قبـل بدايـة السـنة الماليـة كشـفاً خاصـاً يصـبح بعـد أن تصـادق عليـه الحكومـة عامـاً لكـل الأمبراطوريـة. هـذا إضـافة إلى أنـه يقـدم للبـاب العـالي تقـارير شـهرية عـن

---

(1) Ch Morawitz. Op. cit. p. 225FF.

(٢) مجلس حاملي السندات الأجانب ـ المترجم.

(٣) بنك باريس والأراضي المنخفضة ـ المترجم.

(٤) اعتماد ليون ـ المترجم.

(٥) المؤسسة الوطنية للحسم ـ المترجم.

(٦) الجمعية العامة وهو اسم لبنك فرنسي ما زال قائماً ـ المترجم.

عملياتـه الماليـة. وللمجلس سلطة غير محدودة في مجال تحسين إدارة الإيرادات الموضوعة تحت أو إدخال الجديد فيها بشرط أن لا تتعارض التغييرات والتحسينات التي يدخلها مع القوانين النافذة ولا تؤدي إلى فرض ضرائب جديدة وإلا فيتحتم عليه في هذه الحالة أن يحصل على موافقة الحكومة مسبقاً.

وتتحقق سيطرة الحكومة على نشاط إدارة (Dette Publique) بأسلوبين: بمساعدة المفتشين وبواسطة مفوض خاص من قبلها. يخول المفتشون بفحص السجلات وتفتيش الخزائن أو استجواب الموظفين وعموماً جميع الأعمال التي تساعد على معرفة الوضع دون أن يكون لها طابع التدخل المباشر في شؤون الإدارة. أما عن المفوض الحكومي فإنه يحضر اجتماعات المجلس بصفة إستشارية فضلاً عن أنه يقوم بدور الوسيط خلال الاتصالات المباشرة بين الحكومة وإدارة (Dette Publique).

والمجلس مستقل تماماً في جميع النواحي الأخرى فهو يعين وينقل ويفصل الموظفين كافة بمن فيهم المدير دون أي تدخل من جانب الحكومة. وتتجسد السلطة المطلقة. التي يتمتع فيها المجلس فيما يتعلق بملاك الإدارة بشكل أكثر وضوحاً إذا علمنا بأن موظفي مؤسسة (Dette Publique) يعتبرون موظفين حكوميين عثمانيين يصل عددهم إلى ٥٠٠٠ شخص موزعين على فروع إدارة الدين البالغ عددها ٧٢٠ فرعاً وأغلبيتهم الساحقة مسلمون. ومما يزيد من تأكيد الوضع المتميز الذي تشغله إدارة (Dette Publique) في الإمبراطورية العثمانية أن المادة التاسعة عشرة من مرسوم محرم نصت على أن جميع المنازعات والخلافات بين الإدارة المذكورة والحكومة تحل عن طريق مجلس تحكيمي قراراته غير قابلة للاستئناف.

وقبل أن ننتقل على الحديث عن الإيرادات الحكومية التي وضعت تحت تصرف إدارة (de la dette Publique Ottomane) ينبغي أن نتعرض باختصار للاجراءات وضعتها اللجنة المالية الدولية التي سبقي ذكرها بهدف تسهيل تسديد ديون الدائنين العثمانين.

لقد رأت اللجنة قبل أي شيء بأن العدل يقضي بتخفيض حجم الدين العثماني الحكومي إلى النصف تقريباً آخذه بالحسبان لا القيمة الأسمية لكل قرض وإنما المبلغ الحقيقي الذي استلم من الاكتتاب فيه. إن الفرق الكبير بين الدين الاسمي والحقيقي يفضح الشروط المجحفة التي تحتم على الباب العالي أن يستفيد في ظلها من المساعدة المالية للمصرفين الأجانب.

وبعد أن توصلت اللجنة إلى تعيين مقدار الدين عملت على تحديد أسلوب إطفاء القروض المختلفة فقسمتها إلى المجموعات الأربع التالية :

١ ــ المجموعة (أ) وتضم قروض ١٨٥٨ و١٨٦٢ ومقدارها ٧،٩٠٢،٢٦٠ ليرة عثمانية (٦٧،١٦٩،٢١٠ روبل).

٢ ــ المجموعة (ب) وتضم قروض ١٨٦٠ و ١٨٦٣ ــ ومقدارها ٢٦٠ و ١٨٧٣ ومقدارها ١١،٢٦٥،١٥١ ليرة عثمانية (٩٥،٧٥٣،٧٨٣ روبل).

٣ ــ المجموعة (ج) وتشمل قروض ١٨٦٥ و ١٨٦٣ ــ ١٨٦٤ ــ ١٨٧٢ ومقدارها ٣٣،٩٠٥،٧٦٢ ليرة عثمانية (٢٨٨،١٩٨،٩٧٧ روبل).

٤ . المجموعة (د) وتشمل :

١ . الدين المدور ومقداره ٤٨،٣٦٥،٢٣٦ ليرة عثمانية.

٢ . القرض الداخلي مع الفوائد ومقداره ١٥،٦٣٢،٥٤٨ ليرة عثمانية.

وبذلك يكون مقدار هذه المجموعة ٦٣،٩٩٧،٧٨٤ ليرة عثمانية (٥٤٣،٩٨١،١٦٤ روبل).

المجموع: ١١٧،٠٧٠،٩٥٧ ليرة عثمانية (٤/٢ ،١٣،١٠٣،١٩٩٥ روبل).

وكـــان إطفـــاء هـــذه المجموعـــات يجـــري في بدايـــة الأمـــر علـــى النحـــو التـالي: بعـد أن يحسـم مـن إيـرادات السـنة المعينـة مبلـغ ٥٩٠،٠٠٠ لـيرة عثمانيـة (و٥٠١٥،٠٠٠ روبــل) وهــو المبلــغ المســتحق للبنــك العثمــاني يدفعــه لحملــة الســندات الممتــازة تخصــص أربعــة أخمــاس المبلــغ المســتحق للبنــك العثمــاني يدفعـــه لحملـــة الســـندات الممتـــازة تخصـــص أربعـــة أخمـــاس المبلـــغ المتبقـــي لــدفع الفوائــد في حــين يخصــص الخمــس الأخــير علــى أن لا تزيــد قيمتــه علــى ١% مـــن رأس المـــال لإطفـــاء مجموعـــات الـــديون المـــذكورة أعـــلا. وعنـــدما رأت إدارة (Dette Publique) بــأن المبلــغ المخصــص لإطفــاء هــذه المجموعــات كــان قلــيلاً علــى الــدوام بحيــث يــذهب كلــه تقريبــاً لإطفــاء المجموعــة الأولى عمــدت في ١٨٩٠ وبالاتفـاق مـع البنـك العثمـاني إلى تغيـير قائـدة السـندات الممتـازة مـن ٥% إلى ٤% وخصـص المبلـغ الـذي تـوفر مـن هـذه العمليـة ومقـداره ١٥٩،٥٠٠ لــيرة عثمانيــة ٧٥٠ و ١،٣٥٥ روبــل) ســنوياً لإطفــاء المجموعــات المــذكورة بواقــع ١١،٠٠٠ لـــيرة عثمانيـــة (٩٣،٥٠٠ روبـــل) للمجموعـــة الأولى و ٤٩،٥٠٠ لـــيرة عثمانية (٤٢٠،٧٥٠ روبل) لكل من المجموعات الثلاث الأخرى.

وقـــد أطفـــأت المجموعـــة الأولى نهائيـــاً في خـــلال الســـنة الماليـــة ١٧٩٨ ــــ ١٨٩٩.

أمـــا المجموعـــة الثانيـــة فكـــان يفـــترض أن تطفـــأ في فـــترة لا تتعـــدى عـــام ١٩١١ في حـــين مـــن المؤمـــل أن تطفـــأ الثلاثـــة عـــام ١٩٣٦. أمـــا الرابعـــة فلـــم يكن من المؤمل أن تنتهي قبل عام ١٩٤٥.

وعلــى هــذا الأســاس كــان مــن الممكــن لإدارة (Dette Publique) الــتي بــدأت عملهــا في الدولــة العثمانيــة اعتبــاراً مــن ١٨٨٢ أن تســتمر ثلاثــاً وســتين ســنة لــو لم يــزدد طــول هــذه المــدة كمــا ســنرى بســبب التوســع الجديــد الــذي

طرأ على دائرة نشاط تلك الإدارة.

وهناك إيرادات لا توجد حتى الآن إلا على الورق وهي :

١ ــ الفائض من إيراد الزيادة المنوي إدخالها على ضريبة الدخل وهي الضريبة التي بإمكانها أن تعوض عن «التيميتو» القائمة حالياً أي ضريبة الخمسة بالمائة المفروضة على إيرادات التجار والحرفيين والموظفين وكذلك العمال باليومية.

وبما أن سكان العاصمة وكذلك جميع الأجانب معفوون من هذه الضريبة فقد بدأ الباب العالي يعمل، بدفع من إدارة (Dette Publique) للحصول على موافقة ممثلي الدول في اسطنبول على أن تفرض ضريبة الدخل على الرعايا الأجانب كافة. غير أن الحاج الحكومة العثمانية في هذا المجال لا يصادف عطفاً من جانب السفراء الذين يعتبرون البدعة التي يجري التخطيط لها خرقاً مباشراً لنظام الامتيازات.

٢ ــ فائص إيرادات الكمارك الذي سيتأتى من الضريبة الكمركية الجديدة المزمع فرضها على البضائع المستوردة بنسبة تتراوح بين ٣% و ٢٠% بدلاً من الضريبة الموحدة القائمة حالياً. وتشير الحسابات التقديرية إلى أن هذا الفائض سيبلغ ٥٠٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (٤،٢٥٠،٠٠٠ روبل) في السنة، ومن المستبعد أن يذهب الفائض المذكور إلى صندوق الإدارة حتى لو وافقت الدول على الزيادة المنوي إدخالها على التعريفة الكمركية وذلك بسبب المصاعب التي تجابهها الحكومة في قضية منح ضمانات كيلومترية [1]

---

(١) كانت الضمانات الكيلومترية إحدى الوسائل التي لجأت إليها الشركات الأجنبية لاستغلال الدولة العثمانية ومفادها أن الحكومية العثمانية كانت تضمن للشركات الأجنبية التي تبني السكك الحديدية في الدولة العثمانية دخلاً ثابتاً عن كل كيلومتر من خطوط السكك تقوم ببنائها في الأراضي العثمانية. المترجم.

لشركة سكة حديد بغداد.

٣ ــ المبالغ المستحقة للدولة العثمانية من صربيا والجبل الأسود وبلغاريا واليونان وهي الدول التي وافقت بموجب قرارات مؤتمر برلين على أن تأخذ على عاتقها جزءاً من الدين العثماني الحكومي يتناسب مع سعة الأرض العثمانية التي ذهبت إلى كل من هذه الدول. غير أن حجم هذه المشاركة لم يجر تحديده لا في معاهدة برلين ولا في القرارات الدولية تبعت ذلك، وإذا ما كان ينبغي علينا أن نشير إليها الآن فإننا، بسبب من تقادمها، نفعل ذلك لا لشيء إلا لكي يكون عرضنا للموضع شاملاً.

أما عن المبالغ التي تدفعها الحكومة نفسها فهي :

١ ــ ١٠٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (٨٥٠،٠٠٠ روبل) مقابل الأتاوة التي لم تدفعها بلغاريا.

٢ ــ ١٠٢،٥٩٦ ليرة عثمانية (٨٧٢،٠٦٦ روبل) تعويضاً عن إيرادات جزيرة قبرص ذلك أن بريطانيا التي احتلت هذه الجزيرة في ١٨٧٨ والتزمت بموجب اتفاقية عقدتها مع الباب العالي. بأن تدفع إلى الخزينة العثمانية كل الفائض من مدخولات الجزيرة بعد ان تقتطع منها مصاريف إدارتها، قامت في نهاية المطاف بتخصيص جميع إيرادات قبرص لإطفاء قرض ١٨٥٥ الذي فصل عن إشراف إدارة (Dette Publique).

٣ ــ ٥٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (٤٢٥،٠٠٠ روبل) تدفع ممن ما تدره الضريبة الكمركية «تمبكية» أي تبغ النرجيلة المستوردة من فارس.

٤ ــ الجزية التي كان على الروميلي الشرقية أن تدفعها والتي نص ميثاق ١٨٧٩ على إنها ينبغي أن تؤلف ٣/١٠ مدخولات ذلك الأقليم أي ما يقارب ٢،٠٤٠،٠٠٠ روبل كما أشارت التقديرات الأولية، غير إن مجلس الشعب في ذلك الأقليم وهو أقليم يتمتع باستقلال ذاتي قلص هذا المبلغ

بمقدار الثلث، بحيث أصبح مليون روبل تقريباً. وبسبب الخلل الذي كان يعتري ورود هذه المبالغ وصلت المبالغ المتأخرة حتى بداية القرن العشرين إلى خمسة ملايين فرنك وهو مبلغ كبير اعتبرته إدارة (Dette Publique) ديناً على الحكومة العثمانية.

وأما الصنف الثالث من الايرادات فهو فروع الاقتصاد الحكومي التي تستغلها إدارة (Dette Publique) نفسها بشكل مباشر ونعني احتكاري التبغ والملح ورسوم الدمغة والضريبة المفروضة على المشروبات الروحية والعشر المفروض على الحرير وضريبة صيد الأسماك. وبما إننا سنتحدث عن احتكار التبغ الذي أعطي بالإلتزام إلى شركة خاصة هي: "Regie Cointeressr des Tabacs de I,Empire Ottoman" بشكل منفرد، فإننا سننتقل إلى الحديث عن احتكار الملح مباشرة، لقد قام الإحتكار المذكور في ١٨٦٢ ويشكل استغلاله مصاعب غير قليلة بسبب وفرة الملاحات المنتشرة في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية وبسبب النقص الواضح في طرق المواصلات الجيدة الأمر الذي يؤدي إلى زيادة التكاليف زيادة غير معتادة علماً بأن التكاليف مرتفعة أصلاً بسبب ضرورة مكافحة التهريب الواسع الأنتشار وكثرة الملاحات التي يتحتم استغلالها والتي تبلغ ١١٧ ملاحة. وتقوم السلطات التركية الملزمة بمساعدة الإدارة ضد المهربين بقوة السلاح، بتنفيذ واجبها هذا على كره منها.

وتجابه الإدارة المذكورة عقبات كثيرة أخرى لا يمكن تذليلها عند ممارستها لحقوقها في العراق الجنوبي حيث تقع مكامن ملح في اغلب الأحيان في المناطق التي تقطنها القبائل العربية الرحالة أو شبه الرحالة التي تقوم باستغلالها لمحصلحتها الخاصة دون أن تحسب حساباً بالطبع لأي احتكار. ولذلك فإن إدارة (Dette Publique) لا تستغل في ولاية البصرة إلا

ثمـان مكـامن للملـح هـي حمـدان والكبريـت في سـنجق البصـرة وسـيروت وأبـو رويـة وبـني مالـك في سـنجق العمـارة والمنتفـك والجزائـر ودوكـا في سـنجق المنتفـك [1]. ويبـاع الملـح المسـتخرج مـن هـذه المكـامن ١/٢ كوبيكـاً للباونـد الواحـد بـدلا مـن السـعر المعتـاد وهـو ١،١/٢ كوبيـك وذلـك لكـي يستطيع منافسة الملح الذي يبيعه المهربون.

وعلـى الـرغم مـن كـل مصـاعب الأسـتغلال كانـت إيـرادات (Dette Publique Ottomane) مـن احتكـار الملـح تـزداد مـن سـنة لأخـرى فقـد ارتفـع إيـراد هـذا الاحتكـار مـن ٦١٨،٠٢٩ لـيرة عثمانيـة (٥،٢٥٣،٢٤٦ روبـل و ٥٠ كوبيكـاً) في ١٨٨٢ إلى ٩٤٩،١٦٩ لـيرة عثمانيـة (٨،٠٦٧،٩٣٦ روبـل و ٥٠ كوبيكاً) في ١٩٠٠.

إمـا عـن ضـريبة الدمغـة فإنهـا لا زالـت حـتى الآن مثـاراً لسـوء التفـاهم باسـتمرار بـين مجلـس إدارة (Dette Publique) والحكومـة العثمانيـة مثلمـا كـان شـأنها قبـل ١٨٩٤ أي قبـل تعميمهـا علـى الرعايـة الأجـاب عنـدما كانـت تثـير نزاعـات مسـتمرة بـين البـاب العـالي وممثلـي الـدول. لقـد تحـتم علـى إدارة (Dette Publique) منـذ بدايـة نشـاطها في الدولـة العثمانيـة تقريبـاً أن تكـافح ضـد ادعـاءات الحكومـة العثمانيـة، في امـتلاك هـذه الضـريبة أو تلـك مـن ضـرائب الدمغـة: ففـي ١٨٨٤ انتزعـت مـن أشـراف الإدارة ضـريبة الدمغـة المفروضـة علـى جـوازات السـفر وشـهادات المـرور، وفي ١٨٨٨ اسـتطاعت إدارة (Dette Publique) أن تـدفع البـاب العـالي إلى أن يفـرض ضـريبة الطـابع علـى انـواع جيـدة كثـيرة مـن النشـاطات والوثـائق وغيرهـا ولكـن بشـرط أن تتنـازل الإدارة للخزينـة العثمانيـة عـن نصـف المبـالغ الـتي تحصـل عليهـا مـن

---

(1) V.Cuinet: Op.Cit. T. III. P.228.

هـذا الطريـق، وفي ١٨٨٩ طرحـت الحكومـة للاسـتعمال طوابـع خاصـة لا يـدخل إيرادهـا في خزينـة (Dette Publique) علـى اعتبـار إنـه مخصـص لغايـة معينـة هـي إعانـة المسـلمين الـذين ينزحـون إلى الدولـة العثمانيـة مـن الأقطـار الأخرى مادياً.

وعلـى الـرغم مـن كـل مـا تأخـذه الحكومـة مـن إيـراد ضـريبة الدمغـة ممـا ذكـر أعـلاه فـإن هـذا الإيـراد يتجـه اتجاهـاً واضـحاً نحـو الزيـادة فقـد ازداد مـن ١٣٨،٣٩٢ لـيرة عثمانيـة (١،١٧٦،٣٣٢ روبـل) في ١٨٨٢ إلى ٢٢٥،٩٢٦ لـيرة عثمانية (١،٩٢٠،٣٧١ روبل) في ١٩٠٠.

أمـا الضـريبة المفروضـة علـى المشـروبات الروحيـة فإنهـا تنقسـم إلى ثلاثة أصناف هي :

١ . الضريبة المفروضة على النبيذ والجعة والعرق.

٢ . الضريبة المفروضة على الكحول الأجنبي والمحلي.

٣ ــ الـ «بيئـي» وهـي الضـريبة الـتي تفـرض علـى مـن يحصـل علـى ترخيص بالمتاجرة بالمشروبات الروحية.

وإلى جانـب ضـريبة العشـر وضـريبة الأرض الـتي يـذهب إيرادهـا إلى الخزينـة مباشـرة تفـرض علـى صـانعي الخمـور ضـريبة أخـرى تسـمى «رسمـي مـبري» مقـدارها ١٥% مـن قيمـة جميـع مـا يصـنعونه مـن الخمـر. ويجـري تحديـد كميـة الخمـر هـذه بواسـطة تحديـدها سـنوياً مـن قبـل المجـالس الإداريـة القائمـة في الأقضـية والسـناجق. وتخفـض هـذه الضـريبة علـى الخمـور الـتي تصـدر إلى خـارج الدولـة العثمانيـة بمقـدار النصـف في حـين لا تخضـع الخمـور المسـتوردة مـن الخـارج لهـذه الضـريبة وإنمـا تـدفع عنهـا الضـريبة الكمركيـة فقـط. وتنطبـق هـذه القواعـد نفسـها علـى العـرق والجعـة المنتجـة محلياً وتؤخذ منها أيضاً نفس النسبة أي ١٥% من القيمة الكلية.

وينبغي أن نلاحظ بأن إدارة (Dette Publique) لا تكتفي بجباية الضرائب المذكورة فقط وإنما كانت تتخذ الاجراءات اللازمة لتوسيع صناعة الخمور المحلية وذلك بمساعدتها مثلاً في مكافحة الفيلوكسيرا [(١)]. فقد وزعت لهذا الغرض مجاناً كرمات أمريكية محسنة وافتتحت مدرسة خاصة في أيرنكوب لتعلم كيفية تطعيمها [(٢)].

كان مقدار الضريبة المفروضة على الكحول المحلي والمستورد ٣٢ بارة (٦،٤ كوبيك) على الحقة التي تعادل ٣،١ باوند، إضافة إلى الضريبة الكمركية، وقد زيدت في ١٨٩٧ فأصبحت ٤٨ بارة (٩،٦ كوبيك) على الحقة وهي إما أن تأخذ راساً على جميع كمية الكحول الموجود عند الشخص المعني وإما تدريجياً على كل كمية من الكحول تخرج من المستودع الذي يحفظ مفتاحه عند وكيل إدارة (Drtte Publique). وقد أرادت الإرادة المذكورة أن تزيد دخلها من هذا المرفق فحاولت أن تدفع الحكومة إلى زيادة الضريبة المفروضة على الكحول الأجنبي أو السماح بانشاء مصلحة خاصة لتقطير الكحول بهدف إقامة احتكار خفي في الدولة العثمانية ولكنها لمن تنجح لا في هذا ولا في ذلك.

أما عن الـ «بيئي» أي الضريبة المفروضة على رخص المتاجرة بالمشروبات الكحولية فإنها كانت تعادل ٢٥% من قيمة الإيجار السنوي للمحل الذي يقتصر على بيع المشروبات الكحولية ونصف هذا المبلغ من المحلات التجارية التي لا تتجاوز كمية المشروبات الكحولية نصف

(١) الفيلوكسيرا هي نوع من الحشرات تتضرر منها النباتات وخصوصاً العنب ــ المترجم.

(2) Ch. Morawitz. Op Cit. PP. 311 - 312.

البضاعة المعروضة فيها.

لقد وصل إجمالي الدخل من جميع أوجه الضريبة المفروضة على المشروبات الروحية في ١٩٠٠ إلى ٢٧٧،١٢١ ليرة عثمانية (١/٢، ٢،٣٥٥،٥٢٨ روبل) وبذلك يكون قد ازداد بالمقارنة مع ١٨٨٢ بمقدار ١٠٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (٨٥٠،٠٠٠ روبل).

وتقتصر ضريبة صيد الأسماك التي وضعت تحت تصرف إدارة (Dette Publique) على ما يصاد من البسفور وبحر مرمرة فقط. وقد بلغ إيراد هذه الضريبة في ١٨٨٢ ــ ٢٢،٦٣٦ ليرة عثمانية (١٩٢،٤٠٦ روبل) ازداد في ١٩٠٠ إلى ٥٠،٥٠٤ ليرة عثمانية (٤٢٩،٢٨٤ روبل). ولكي لا يعمد صياد والاسماك إلى سوء الاستغلال قامت الإدارة بالزامهم بجلب كل ما يصطادونه إلى مكان معين تباع فيه الأسماك بالمزاد العلني، حيث تأخذ الإدارة ٢٠% من الثمن إضافة على ٣% أخرى لتغطية مصاريف تنظيم المزاد المذكور. وفي ١٨٨٨ تنازل (Drutdche Bank) لإدارة (Dette Publique) عن جميع الضرائب المفروضة على بقية مصائد الأسماك في الامبراطورية والتي كان قد حصل عليها كضمان للقرض الذي قدمه للدولة العثمانية في العام المذكور.

ولا تقل ضريبة العشر المفروضة على الحرير عن ١/٢، ١٢% من قيمة الشرانق تذهب ١٠% منها لمصلحة إدارة (Dette Publique) أما الـ ١/٢، ٢% الباقية فتقوم الإدارة المذكورة ايضاً بجبايتها بتخويل من الحكومة ويخصص إيرادها للصرف على المؤسسات الحكومية المختلفة كالبنك الزراعي و وزارة المعارف ... إلخ. وتقوم الإدارة بجباية ضريبة العشر هذه بإعطائها بالإلتزام في بعض الولايات، ومباشرة بنفسها في بعضها الآخر. ويلزم مربو دود القز الحاصلون على ترخيص رسمي بممارسة هذه المهنة

بـأن يقـدموا جميـع الشـرانق الـتي يحصـلون عليهـا لكـي يفحصـها وكـلاء (Dette Publique) الـذين يقيمـون بعـد إجـراء هـذا الفحـص مـزاداً علنيـاً للشـرانق الجافـة ويتركـون الشـرانق الرطبـة لكـي تبـاع عـن طريـق الصـفقات الخاصـة الـتي ينبغي أن لا تتم إلّا تحت إشراف السلطات العثمانية المختصة.

واهتمامـاً منهـا بتوسـيع تربيـة دود القـز وهـي الحـرف الـتي كانـت في الماضـي مزدهـرة في الدولـة العثمانيـة استصـدرت إدارة (Dette Publique) قـراراً يمنـع بيـع جميـع أصـناف بـيض دود القـز فيمـا عـدا النـوع الباسـتيري في الامبراطوريـة العثمانيـة وأنشـأت في بروصـة مختـبراً خاصـاً لدراسـة البيـوض المحليـة تحـول فيمـا بعـد إلى معهـد لتربيـة دود القـز وزرعـت مشـتلاً خاصـاً لأشـجار التـوت وأسسـت بمسـاعدة الحكومـة معمـلاً لغـزل الحريـر بـالقرب مـن سالونيك [1].

لقـد بلغـت الايـرادات الـتي تحصـل عليهـا إدارة (Dette Publique) مـن ضـريبة العشـر المفروضـة علـى الحريـر والـتي تنازلـت لهـا عنهـا الحكومـة في ١٨٨٢ في أقـاليم بروصـة وأدرنـة وسامسـون ١٨،٩٥٢ لـيرة عثمانيـة (١٦١،٩٠٢ روبـل) ازدادت في ١٩٠٠ بفضـل الاجـراءات الـتي أشـرنا إليهـا فبلغـت ٦٩،٨٤٢ لـيرة عثمانيـة (٥٩٣،٦٩١ روبـل) هـذا إضـافة إلى أن الضـريبة المفروضـة علـى الحريـر في الولايـات الأخـرى والـتي جـرى التنـازل عنهـا عـام ١٨٨٨ لـ (Deulsche Bank). أمـا في العـراق الجنـوبي فـإن تربيـة دود القـز مهملـة تمامـاً ولهـذا السـبب فـإن ضـريبة العشـر المفروضـة علـى الحريـر لا تـدخل في عـداد الايـرادات الـتي تـذهب إلى إدارة (Dette Publique) مـن هذه المنطقة.

---

(1) Ch.Morawitz. Op. cit. P. 230.

يبرز من كل ما تقدم بوضوح الدور الكبير تلعبه هذه المؤسسة المالية العالمية لا باعتبارها حامياً لمصالح دائني الدولة العثمانية فحسب وإنما باعتبارها هيئة تستغل الثروات الطبيعية في الامبراطورية العثمانية أيضاً.

لقد عززت إدارة مجلس (Dette Publique) الناجحة للمرافق الاقتصادية الحكومية الموضوعة تحت تصرفه الثقة بالأمبراطورية العثمانية إلى درجة استأنفت فيها المؤسسات المصرفية ومؤسسات الأقراض في أوروبا الغربية صفقاتها المالية مع تلك الدولة بعد أن كانت قد أوقفتها بعد أزمة ١٨٧٥. وقد أدى ذلك بدوره إلى توسيع دائرة نشاط ونفوذ إدارة (Dette Publique).

وهكذا عقدت الحكومة العثمانية ابتداء من ١٨٨٨ سلسلة من القروض تضمنها كالعادة بنود جديدة من الايرادات الحكومية. في حين رافقت الامتيازات الستة التي منحت لبناء سكك حديدية ضمانات كيلومترية [1] أي ضمان حد إجمالي أدنى للدخل على كل كيلومتر من السكة وذلك عن طريق الاستحواذ على ضريبة العشر من السناجق التي تمر بها السكة. ولم تؤثر هذه الضمانات كلها على إدارة (Dette Publique) ذلك إن الجهات التي عقدت هذه الصفقات مع الحكومة ضمنت اتفاقياتها

---

(١) كانت الطرق التي حصلت على ضمانات كيلومترية هي: سكة حديد الأناضول، وخط سالونيك ــ موناستير، وخط سالونيك ــ اسطنبول وخط سميرنا ــ كسبة وخط بيروت ــ دمشق، برجك على الفرات وسكة حديد بغداد، وكانت ثلاثة منها وهي خط سالونيك ــ اسطنبول وخط بيروت ــ دمشق ــ برجك وخط سميرنا ـ كسبة، مشاريع فرنسية، أما الثلاثة الأخرى فهي المائية.

شروطاً القيت بموجبها إدارة الايرادات التي جري التنازل عنها لهم، على عاتق الادارة المذكورة، فامتد بهذا الشكل نشاط هذا الأخيرة إلى أقاليم كانت حتى ذلك الوقت خارج حدود نفوذها وأخذت تستحوذ باستمرار على فروع جديدة من الاقتصاد العثماني لم تكن حتى ذلك الحين تابعة لها. كانت النتيجة أن غطت إلإدارة (Dette Publique Ottamane) جميع الامبراطورية العمانية إشراكها في مشاريع حكومية مهمة كبناء السكك الحديدية، على أن تترسخ أكثر في الأرض العثمانية.

وتشير حسابات [1] (du Velay) إلى إنه من أصل ١٧،٦٤٤،٥٥٥ ليرة عثمانية (١٤٩،٩٧٨،٧١٧ روبل و ٥٠ كوبيكاً). و مجموع إيرادات الدولة العثمانية في ١٩٠٢ ذهب إلى مجلس (Dette Publique) ٤،٦٥٦،٣٩٨ ليرة عثمانية (٣٩،٥٧٩،٣٨٣ روبل) أي ما يؤلف ربع مجموع الايرادات كلها، ولم يذهب ولا كوبيكاً واحداً من هذا المبلغ الضخم إلى الخزينة العثمانية. وهكذا لم تكن الحكومة لها مصلحة في النجاحات التي تحققها إدارة (Dette Publique) خصوصاً وإنه حدث أكثر من مرة أن كانت تعاني الحاجة إلى النقود في الوقت الذي كانت فيه خزائن تلك الادارة الممتلئة مغلقة في وجهها وهذا ما يفسر موقف الحكومة الذي يتسم باللامبالاة من الادارة المذكورة ذلك الموقف الذي كان يظهر بالأساس في عدم إبداء المساعدة والاسناد الواجبين لمشاريع ووكلاء هذه الأخيرة.

كان استمرار هذا الوضع الشاذ يهدد بالقطعية المكشوفة بين الباب العالي ومجلس (Dette Publique)، وقد استشعر المجلس المذكور هذا الخطر في الوقت المناسب وقرر أن يقتسم الفائض من إيراداته مع الباب

---

(1) A. Du. Velay: o. Cit. P. 649.

العالي، وكان من السهل تنظيم هذه القسمة ذلك أن الديون من المجموعة (أ) كانت قد أطفأت بمجموعها في حين أطفأت المجموعات الأخرى جزئياً في الوقت الذي ظلت فيه إيرادات إدارة (Dette Publique) على حالها لم تتغير ذلك لأن مرسوم محرم قضد بعدم جواز أخذ الإيرادات منها إلى أن يتم إطفاء الديون بأجمعها.

وبينما كان مجلس (Dette Publique) يبحث عن أفضل الطرق لاقتسام إيرادته مع الخزينة العثمانية كان مشروع سكة حديد بغداد يقترب من التحقيق أكثر فأكثر، لذا فإن جل اهتمام الحكومة العثمانية أخذ يتركز الآن على محاولة إيجاد الأموال اللازمة لكي تتمكن من دفع الضمانات الكيلومترية التي وعدت بها رجال الأعمال الألمان ذلك أن شركة سكك حديد الأنضول كانت ترفض أن تباشر في الخط من قونية إلى بغداد دون أن تأخذ تلك الضمانات. وبسبب معارضة الدول لم تثمر حتى الآن محاولات الباب العالي لسد حاجته الملحة للأموال عن طريق زيادة الضرائب الكمركية أو عن طريق إقامة احتكارات حكومية جديدة (على الكيروسين والكحول والثقاب وورق اللعب وورق السكاير) [1]، لذا كان من الضروري إيجاد مصادر أخرى. وقد قدم وزير المالية الفرنسي السابق (M. Rouvier) إلى الباب العالي في ١٩٠٢ مشروعاً لتوحيد الديون الحكومية العثمانية أخذاً بنظر الاعتبار وضع الفائض المتبقي من هذه العملية بأكمله تحت تصرف الخزينة العثمانية. غير إن الباب العالي لم يوافق على هذا المشروع كما لم يوافق على أي مشروع اقترح عليه ومن شأنه أن يحدث تغييراً في شروط القروض الممنوحة له. ولهذا السبب تحتم اللجوء إلى

(1) A. Cheradame. La Question D,orient Paris. 1903. P. 149 FF.

مساعدة إدارة (Dette Publique) وقد وافقت هذه الأخيرة على أن تخصص للخزينة اعتباراً من ١٩١٣ مبلغ ٥٧٢،٠٠٠ ليرة عثمانية (٤،٨٦٢،٠٠٠ روبل) سنوياً تقتطعه من الإيرادات الموضوعة تحت تصرفها، فاستطاعت بذلك أن تجعل الحكومة ذات مصلحة مادية في استمرار وجودها.

ويمكننا أن نحكم على نشاط إدارة الدين العثماني العام في العراق الجنوبي على اساس المعطيات التالية التي استقينا من الحوليات العثمانية الرسمية الخاصة بولايتي بغداد والبصرة لسنة ١٣٢١ هـ.

للادارة في ولاية بغداد اربعة عشر فرعاً إضافة إلى الادارة الرئيسية في مدينة بغداد ولها في البصرة ستة فروع بما فيها فرع البصرة الخاضع للمركز في بغداد. وقد بلغت مصروفات الادارة في السنة المذكورة ١،٨٣٠،٩٩٣ قرشاً (١٥٧،٤٦٥ روبل) أما إيراداتها فقد بلغت في السنة نفسها ٤،٣٨٣،٤٠٨ قرشاً (٣٧٦،٩٧٣ روبل) أي إن زيادة الإيرادات على المصروفات بلغت ٢١٩،٥٠٧ روبل. [(١)].

ولن يكون وصفنا لنشاط (Administration de la Dette Publique) كاملاً إذا لم تتعرض لذكر احتكار التبغ الذي وضع مع إيرادات أخرى تحت إدارة المؤسسة المذكورة التي تنازلت عنه بدورها لشركة مساهمة تعرف باسم :

(Docirte de Regie Cointereressee des tabacs de L,Empire Ottaman)

كانت هذه الشركة مؤلفة من المؤسسة الفينية (Credit – Anstalt) والبنك العثماني التي توسطت منذ ١٨٨١ أي قبل المصرفي البرليني (

(١) السالنامة الخاصة بولاية بغداد لسنة ١٣٢١ هـ، ص٤٠٧.

Bleichroder) والبنك العثماني التي توسطت منذ ١٨٨١ آي قبل آن تتشكل إدارة (Dette Publique) بأحد مصرفيي اسطنبول هو ليوبولد بالتاتسي لكي تمنحها الحكومة حق استثمار احتكار التبغ. وقد ساندت إدارة Dette) (Publique التي بدأت عملها في ١٨٨٢ مطلب هذه المجموعة من البيوت المصرفية واستطاعت الحصول على موافقة الحكومة عليه بشرط أن يخصص للخزينة العثمانية جزء معين من الربح الصافي.

وقد بدأت الشركة التي تألفت على هذا النحو والتي تعرف اختصاراً باسم ريجي باستثمار احتكار التبغ اعتباراً من شهر أيار ١٨٨٣ بعد أن التزمت بأن تدفع لإدارة (Dette Publique) طيلة ثلاثين سنة وهي مدة نفاذ الامتياز مبلغاً مقداره ٧٥٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (٦،٣٧٥،٠٠٠ روبل) في السنة، أما باقي الايراد فقد تقرر أن يقتسم بأجمعه باستثناء فائدة مقدارها ٨% تدفع لرأس المال الأصلي، بين مساهمي ريجي وإدارة (Dette Publique) والحكومة بنسبة تتزايد لصالح الأخيرة أي الحكومة بمقدار تزايد أرباح ريجي.

كانت صعوبة مكافحة التهريب الذي كان واسع الانتشار نتيجة لان زراعة التبغ كانت منتشرة في الدولة العثمانية في كل مكان تقريباً، أحد الأسباب التي دفعت إدارة (Dette Publique) لأن تتخلى عن استثمار احتكار التبغ استثماراً مباشراً، إن الـ «ريجي» وقد تسلمت احتكار شراء وتصنيع وبيع التبغ والسكاير المخصصة للاستهلاك المحلي والتصدير إلى الخارج جردت رعايا السلطان من الحق في الاشتغال بزراعة التبغ بشكل حر. وهكذا منعت زراعة التبغ دون الحصول على موافقة الـ «ريجي» مسبقاً وذلك بهدف حماية مصالح تلك الشركة. كما إنّ التبغ الذي يجري جمعه من الحقول كان يجب أن يرسل بأجمعه إلى مخازن الشركة لكي يخزن

فيها إلى أن يقوم أصحابه بتصديره إلى الخارج أو إلى أن تشتريه الـ «ريجي» نفسها.

وطبيعي أن يزداد في ظل مثل هذه الشروط المجحفة تكرار خرق الحقوق الاحتكارية التي كانت تتمتع بها الـ «ريجي» وقد اضطر ذلك الشركة، ونظراً لزيادة التهريب بدرجة كبيرة للغاية، إلى أن تنشئ جيشاً كاملاً من الـ «قولجي» أي الحرس وإلى أن تشغل لحسابها في المياه العثمانية الساحلية طرادات خاصة وقد أضيفت إلى هذه المصروفات التي لا يستهان بها منذ أن ظهرت «الريجي» مصروفات كثيرة أخرى سببها الشروط التي وضعتها الحكومة عند منحها الاحتكار والتي يكاد يكون أخفها الطلب من الـ «ريجي» أن تجهز خلال تسعة أشهر فقط وإلّا فقدت الامتياز، كل ما هو ضروري لاستثمار احتكار التبغ أي شراء المكائن اللازمة وبناء المخازن والورشات وأخيراً استئجار العمال والمستخدمين ليس فقط في الأماكن القريبة من العاصمة وإنما في الأقاليم الأسيوية النائية أيضاً.

ولم يكن أقل من ذلك صعوبة بالنسبة للـ «ريجي» التزامها بتسليف مزارعي التبغ بدون فائدة بهدف التشجيع، دون أن يكون لها الحق في تقليص زراعة هذا المحصول لغرض إقامة التوازن بين العرض والطلب. ومما زاد خسارة الـ «ريجي» اضطرارها لأن تلغي فوراً بإلحاح من الحكومة، ٤٥٠ مصنعاً للتبغ كان أصحابها قد زادوا اسعار مخزونهم من التبغ والسكاير. وإتماماً للإخفاق نزح أغلبية أصحاب مصانع التبغ هؤلاء إلى مصر واستطاعوا أن يدفعوا حكومة الخديوي إلى أن تلغي الحظر المفروض على استيراد التبوغ غير التركية، الأمر الذي سبب للـ «ريجي» سيئة الحظ ضرراً محسوساً آخر، ذلك إنها أي الـ «ريجي» كانت تأخذ عن كل كيلو من التبغ التركي الذي يصدر إلى مصر مباشرة ضريبة تسمى

«رفتية» مقدارها ١٠ قروش (٨٠ كوبيكا) وكان ذلك يدر عليها ما يقرب من ١٥٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (ما يقرب من ١،٢٧٥،٠٠٠ روبل) من الايراد الصافي، الذي فقدته الآن نتيجة لأن التبغ لم يعد يرسل إلى مصر مباشرة وإنما كان يذهب إليها عن طريق اليونان وغيرها من البلدان المجاورة الأخرى التي تكن تدفع الـ «رفتية».

وقد أدت هذه الشروط الثقلية كلها إلى أن تخسر الـ «ريجي» في السنوات الثلاث الأولى من وجودها مبلغاً مقداره ٣٦٤،٥٤٨ ليرة عثمانية (٣،٠٩٨،٦٥٨ روبل) فاضطر مجلس (Dette Publique) أن يهب لنجدة هذه الشركة الاحتكارية وأعطاها سلفاً نقدية لتغطية العجز السنوي. وبدأت أحوال الـ «ريجي» تتحسن بفضل هذه المساندة فحققت في السنة المالية ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ ربحاً صافياً مقداره ٦٣،٩٧٥ ليرة عثمانية (٥٤٣،٧٨٧ روبل و ٥٠ كوبيك) ارتفع في ١٩٠٠ ـــ ١٩٠١ إلى ٢٧٩،٩٤٦ ليرة عثمانية (٢،٣٧٩،٥٤١ روبل).

لقد أفرزت الـ «ريجي» في فترة وجودها شركة مساهمة جديدة أطلق عليها اسم: [1] (Turkish Regie Export Company) وقد حصلت الشركة الجديدة على احتكار أعداد التبغ والسكاير للتصدير إلى الخارج مقابل دفعها لمبلغ معين سنوياً.

يتحتم علينا ونحن ننتقل إلى الحديث عن نشاط الـ «ريجي» في العراق الجنوبي أن نلاحظ مسبقاً بأن حقوقها في هذه المنطقة كما في بقية ما بين النهرين محدودة بمعنى إنها تقوم فقط بجمع الضرائب التي كانت في السابق تذهب إلى الحكومة.

---

(١) شركة الريجي التركية للتصدير ـ المترجم.

ومن هذه الضرائب: الـ «مرورية» ومقدارها خمسة قروش (٤٠ كوبيكاً) على الحقة وضريبة الاستيراد المفروضة على السيكار وعلى السعوط وتبغ المضغ والضرورية المفروضة على التبغ العثماني المصدر إلى الخارج وأخيراً الـ «بيئي» أي الرسوم المفروضة على رخص المتاجرة بالتبغ ومقدارها ٣٠% من قيمة الايجار السنوي للحانوت الذي تجري فيه تلك المتاجرة. ولكي تتمكن الـ «ريجي» من جمع كل هذه الإيرادات فإنها عينت لها وكيلاً رئيسياً في بغداد يكون أوروبياً ويتبعه وكيلان أخران أحدهما في الموصل والآخر في البصرة وهما من الأهالي. ولل «ريجي» إثنا عشر فرعاً في ولاية بغداد وثلاثة فروع في ولاية البصرة. أما الموصل مركز زراعة التبغ والسكاير المخصصة للاستهلاك المحلي وذلك أمر كان له انعكاسات أيجابية على زراعة التبغ المحلية. إن زراعة التبغ في العراق لا يعتد بها وذلك بسبب الظروف المناخية وظروف التربة وهي تقتصر على أقضية كربلاء والحلة والديوانية في ولاية بغداد حيث ينتج سنوياً ما يقرب من ١٥،٠٠٠ بود [1] وعلى قضائي المنتفك والعمارة في ولاية البصرة حيث الكمية المنتجة لا تزيد على ٦٠٠ بود. أما في ضواحي الموصل والسليمانية وكذلك في سنجق شهر زور فإن زراعة التبغ هي الحرفة الرئيسية للسكان حيث يبلغ الانتاج السنوي للتبغ ١٠٠،٠٠٠ بود. إن أفضل أنواع التبغ هي «شاور» و «كورد» اللذان يزرعان في شهر زور والسليمانية، يتخلف عنهما تبغ الموصل بعض الشيء. أما تبغ ولاية بغداد فإنه من الأنواع الرديئة. أما عن أسعار الجملة فإنها ٧٠ كوبيكاً للباوند بالنسبة للـ «شاور» و ٥٠ كوبيكاً بالنسبة للـ «كورد». أما الأنواع الرديئة فإن سعرها يصل إلى ٣٠ كوبياً

---

(١) البود مقياس روسي للوزن يعادل ١٦،٣٨ كيلو غراماً. المترجم.

للباونـد الواحـد [١]. ولـيس هنـاک مـا يـدهش في ظـل أسـعار التبـغ المحلـي الواطئـة هـذه، في أن تكـون إيـرادات الـ «ريجـي» مـن بيـع منتجاتها في العـراق الجنوبي زهيدة جداً.

تعتـبر دائـرة الحجـر الصـحي واحـدة مـن المؤسسـات الدوليـة الأخـرى الـتي يسـتحيل تجاوزهـا في الامبراطوريـة العثمانيـة بشـكل عـام وفي مدينـة البصـرة بشـكل خـاص، فقضـية الوقايـة الصـحية في الخلـيج وفي العـراق الجنـوبي هـي قضـية ذات أهميـة كبـيرة بالنسـبة لروسـيا نفسـها وذلـک لسـهولة انتقـال عـدوى الطـاعون والكـوليرا إلى سـواحل بحـر قـزوين عـن طريـق فـارس او بواسـطة طريـق: البصـرة ــ بغـداد ــ كرمانشـاه وهـو الطريـق الـذي يسـلكه الـزوار الشـيعة مـن سـكان مـا وراء القفقـاس. ولهـذا السـبب فإننـا لا نعتقـد بأنـه مـن الممكـن الاكتفـاء بوصـف دائـرة الحجـر الصـحي في البصـرة فقـط وإنمـا سنسمح لأنفسنا بالتعرض لقضية الحجر الصحي في الخليج نفسه ايضاً.

لقـد أثـيرت قضـية إنشـاء مراكـز للحجـر الصـحي في مـوانئ الخلـيج بالارتبـاط مـع قضـية الوقايـة الصـحية في ذلـک الخلـيج في مـؤتمر الصـحة الـدولي الـذي انعقـد في بـاريس عـام ١٨٩٤، لكنهـا جوبهـت بمقاومـة عنيفـة مـن جانـب المنـدوب الانجليـزي الـذي كـان يؤكـد بـأن بريطانيـا الـتي كانـت تحتكـر كـل الملاحـة في الخلـيج تقريبـاً، لا يمكـن أن تسـمح بإقامـة مراكـز للحجـر الصـحي فيـه، لأن عـبء الضـرائب الصـحية المختلفـة سـوف ينـيخ بثقلـة علـى السفن الانجليزية وعلى التجارة الانجليزية بالدرجة الأولى [٢].

---

(١) مجموعـة التقـارير القنصـلية لعـام ١٩٠٥، الأصـدار الأول مـادة: «الزراعـة في العـراق الجنوبي» الكسنادر أداموف.

(2) Proust L,orientation nouvelle de la Politique Sanitaire, Paris 1896 P.250

ونتيجة لهذه المعارضة ظلت قرارات مؤتمر باريس التي قضت بإنشاء مراكز للحجر الصحي في كل من المحمرة والكويت والمنامة في جزيرة البحرين وبوشهر وبندر عباس وكوادر ومسقط إلى جانب المستوصف الرئيس في الفاو والمركز الصحي في البصرة مجرد حبر على ورق. غير إن بريطانيا [1] لم تكن هي وحدها التي رفضت المصادقة على هذه القرارات وإنما انضمت إليها في ذلك الدولة العثمانية أيضاً مدفوعة إلى ذلك باعتبارات مالية ذلك إن المؤتمر كان قد قرر توزيع نفقات الصرف على المراكز المذكورة كلها بين الحكومة العثمانية والمجلس الصحي الدولي الأعلى في اسطنبول.

وعقدت بريطانيا في الوقت نفسه إتفاقية مع المجلس الصحي في طهران فاضطلعت في ١٨٩٦ وبترخيص من الشاه بشؤون الحجر الصحي في الساحل الفارسي من الخليج.

وقد بحث مؤتمر الصحة الدولي الجديد الذي انعقد في البندقية في ١٨٩٧ الوضع في الخليج مرة أخرى وقرر إنشاء مركز للحجر الصحي في جزيرة هرمز أو قشم وآخر في ضواحي البصرة في موضع ملائم لذلك. لقد قصد من ذلك أن تتعرض السفن المتوجهة إلى الخليج للرقابة الصحية

---

(١) لم يكن دافع المعارضة البريطانية اقتصادها فقط وأنما وراء ذلك دافع القضاء على اكبر عدد من سكان العراق والمنطقة حتى يتسن لها الاحتلال بسهولة واقل تكلفة ثم لتحصل على ثراوتها المتنوعة هذا ما كان وراء تلك المعارضة التي عبر عنها المؤلف انها كانت مقاومة عنيفة من جانب المندوب الانجليزي على اننا لا نستبعد انها كانت وراء نشر بعض الأوبئة في العراق والمنطقة في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين للاسباب التي المعنا اليها آنفاً. حميد الدراجي

في المركز الأول على أن لا يسمح لها بالإبحار في موانى الخليج إلّا بعد الانتهاء من جميع شكليات الحجر الصحي. أما السفن المتجهة إلى شط العرب فكان سيسمح لها وهي في وضع سيرها إلى البصرة حيث ينبغي أن تتعرض مرة أخرى للكشف الطبي والتطهير اللازم.

كان مؤتمر باريس وكذلك مؤتمر البندقية قد قررا أن تخضع المؤسستان الصحيتان في هرمز والبصرة للمجلس الصحي الأعلى القائم في اسطنبول وإن كانا قد اشترطا أن تعقد اتفاقية خاصة بين الحكومتين العثمانية والفارسية بالنسبة للأولى منهما. غير إن خطأ كلا المؤتمرين يكمن في أنهما لم يأخذا بالحسبان ما كان قائماً في الخليج من مصالح سياسية متنوعة خاصة بثلاث دول هي الأكثر اهتماماً بالملاحة في الخليج ونعني الدولة العثمانية وفارس وبريطانيا. فإذا ما اعترفت جميع هذه الدول الثلاث للمجلس الصحي في اسطنبول بالدور القيادي في قضية الحماية الصحية للخليج فإنه ستبقي مع ذلك القضية الأصعب دون حل وهي إلى من ينبغي من بين هذه الدول الثلاث، أن تفوض قضية إجبار شيوخ مسقط والبحرين والكويت وغيرها من الممتلكات العربية الساحلية الصغيرة المستقلين وشبه المستقلين على الخضوع لقواعد الحجر الصحي المقررة ذلك إن من السذاجة أن نتوقع بأن هؤلاء الشيوخ سينفذون هذه القواعد طوعاً، علماً بأن الحصول على موافقة الدولة العثمانية على أن تمنح بريطانيا مثل هذه السلطة على شيخ الكويت كان أمراً غير ممكن بدرجة مشابهة للحصول على موافقة بريطانيا على خضوع حكام البحرين في القضية المذكورة، للدولة العثمانية كما عن تخويل بريطانيا احتكار إدارة مؤسسات الحجر الصحي في امامة مسقط يمكن أن تنظر إليه الدول الأخرى ذات المصلحة على أنه اعتراف رسمي بفرض حمياتها على أئمة تلك المنطقة

في حين أن سيطرة الدولة العثمانية أو فارس على أولئك الأئمة سوف لن يعترف بها لا حاكم مسقط ولا بريطانيا العظمى نفسها. وهكذا تكونت حلقة مفرغة يصعب إيجاد مخرج منها.

يضاف إلى ذلك أن قرار مؤتمر البندقية الصحي الذي يقضي بإقامة مركز واحد للحجر الصحي في جزيرة هرمز عام لكل الخليج كان سيؤدي إلى خسائر كبيرة للسفن التي ستضطر للتوقف وهدر الكثير من وقتها في حين كان بإمكانها لو وجدت مراكز صحية في كل ميناء أن تقوم بعمليات الشحن والتفريغ وهي في حالة الحجر دون أن يصادفها عائق ما.

وعلى هذا الأساس يعتقد الدكتور بوريل [(١)] بأن الحل الوحيد الممكن لمسألة الحماية الصحية الدولية للخليج يكمن في إخضاع المسافرين وعلى الأخص الحجاج المسلمين بالطبع لرقابة صحية صارمة تقوم بها محطة حجر صحي واحدة تقام في جزيرة هرمز مثلاً، على أن يكتفي، تجنباً للتضييق على حرية الملاحة، بعزل السفن في كل ميناء ومنحها حق القيام بعمليات الشحن والتفريغ وهي في وضع الحجر.

غير إن الدكتورين (Compo San Piero) و (Tjerepis) اللذين أرسلهما مجلس الصحة في السطنبول في ١٨٩٨ للبحث في جزر خليج هرمز عن مكان ملائم لإقامة محطة للحجر الصحي أقرا بعدم إمكانية تنفيذ هذا المشروع بسبب رداءة الظروف المناخية ورشحا بندر بوشهر باعتباره مكاناً يستجيب من جميع النواحي لكل متطلبات الحجر الصحي.

أما بشأن محطة الحجر الصحي في البصرة فإنها افتتحت في ١٨٩٥ في النهاية الشمالية لجزيرة صلاحية الواقعة في شط العرب على بعد

---

(١) كراس الدكتور (Borel) الموسوم بـ.

La Defense Sanitaire Du Golfe Persique et du Chai-el-arah.

ساعتين من البصرة تقريباً. فإن جميع السفن القادمة من هناك بما في ذلك سفن البريد تتعرض للحجر والمراقبة لمدة عشرة أيام ويعزل ركابها في مركز الحجر الصحي ويجري تعقيم أمتعتهم في الغرف التابعة للمحطة. أما السفن القادمة من أوروبا فإنها تتعرض أيضاً للحجز والمراقبة غير إنها لا تبقى في مركز الحجر إلّا وقتاً لا يصل إلى عشرة أيام كاملة اعتباراً من يوم مغادرتها لأخر ميناء من موانيء الخليج (١).

ومع ذلك لا يسعنا إلّا أن نلاحظ بأن إقامة مركز للحجز الصحي في البصرة لا يحقق إلا جزئياً الهدف المقصود وهو منع انتشار الطاعون من الهند والكوليرا من موانئ الخليج إلى ما بين النهرين. فالبصرة تقع على بعد مائة فرست تقريباً من الخليج وبامكان السفن القادمة إليها من البحر أن تتصل بكل حرية بميناء المحمرة الواقع في منتصف المسافة بين مصب شط العرب والبصرة لذا فإن ركاب السفن يستطيعون إذا أرادوا، وخصوصاً ركاب السطح الذين تكون مراقبتهم أصعب من ركاب القمرات، أن يتجنبوا المكوث في مركز الحجر في البصرة وذلك بأن ينزلوا في المحمرة حيث يكون الطريق إلى البصرة بواسطة النهر أو في اليابسة مفتوحاً أمامهم (٢).

---

(١) لقد تغيرت هذه القواعد في ١٩٠٩ بحيث أصبح بإمكان السفن القادمة من الهند مواصلة السير رأساً بعد إجراء الكشف الطبي، إذا كان قد قضى عليها في الطريق أكثر من عشرة أيام. أما السفن التي مضى عليها أقل من عشرة أيام فإنها تظل في مركز الحجر الصحي حتى تكمل الأيام العشرة، كما إن السفن التي تحمل الحجاج الهنود تكون مدة حجزها خمسة أيام.

(٢) بخصوص تجنب اللورد كرزن لمركز الحجر الصحي في البصرة وذلك بنزوله في المحمرة أنظر كتابه :

Persia and the Persiam Questimn London 1892 Vol II. P. 337 FF.

إن من غير الممكن وضع حد لمثل هذا الالتفاف على مركز الحجر الصحي في البصرة طالما انّ مدينة المحمرة الفارسية الموجودة على الجوار والواقعة على شط العرب أيضاً لا تقيم هي أيضاً مركزاً مماثلاً للحجر الصحي، وإلّا فإنه يتحتم أن يقام على جانبي النهر وفي الصحراء المحيطة بالبصرة نطاق صحي دائم لا يقل عدد المشتغلين فيه عن ١٠٠٠ ــ ١٥٠٠ شخص، وطبيعي أن دائرة الحجر الصحي ليس في طاقتها إقامة مثل هذا النطاق.

إن مركز الحجر في الصحي الرئيسي الذي قضي بإقامته مؤتمر باريس الصحي في الفاو كان يمكن أن يكون أكثر فعالية على ما يبدو وذلك لأنه سيكون من الأصعب على ركاب السفن التجارية والشراعية أن يتسللوا إلى البصرة خفية لان الفاو تقع عند مدخل شط العرب مباشرة وهو موقع تسهل منه مراقبة الصحراء. بيد أن محطة الحجر الصحي هذه لا تحقق هدفها بشكل تام إلّا إذا اقترنت بإقامة حماية صحية دولية للخليج نفسه. هذا ويوجد في الفاو في الوقت الحاضر مركز للمراقبة الصحية يتألف من ناظر وإثنين من الحراس.

إن محطة الحجر الصحي في البصرة والكادر الطبي الذي يديرها تقع، شأنها في ذلك شأن كل مؤسسات الحجر الصحي في الامبراطورية العثمانية تحت إدارة «المجلس الصحي الدولي الأعلى» الموجود في اسطنبول وفي تبعية مباشرة له. ويتألف المجلس المذكور من ثمانية ممثلين عن الدولة العثمانية وممثل واحد عن كل من روسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا ــ المجر وبريطانيا العظمى وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا وهولندا واليونان والسويد والنرويج وفارس والولايات المتحدة الأمريكية.

ويعود تأسيس هذا المجلس إلى سنة ١٨٣٨ عندما قرر السلطان

محمود متأثراً بالطاعون الذي كان قد اجتاح اسطنبول في السنة السابقة فأعاد إلى الذاكرة الأوبئة المخفية السابقة التي محقت سكان عاصمة الامبراطورية أكثر من مرة، اللجوء إلى مساعدة ممثلي الصحة العالميين لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع انتشار الأمراض الوبائية في الدولة العثمانية (1). ومنذ ذلك الوقت ظلت هذه المؤسسة الدولية قائمة حتي إنها اصبحت واحدة من أكثر مؤسسات الامبراطورية العثمانية ازدهاراً. ويعود السبب في هذه الظاهرة إلى أن الادارة الصحية لا تكلف الدولة مصاريف كبيرة ذلك إن جميع إيرادات مراكز الحجر الصحي في الامبراطورية تذهب إلى تلك الادارة.

وتتألف الايرادات المذكورة من الضرائب التالية :

١ ـ من الرخص الصحية التي تمنح للسفن حيث تدفع كل سفينة ٢٠ بارة (٤ كوبيكات) عن الطن الواحد إذا لم تكن حمولتها تزيد على ٥٠٠ طن و١٢ بارة (٢،٤ كوبيك) إذ كانت الحمولة ما بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ طن و ٨ بارات (١،٦ كوبيك) إذا زادت عن الألف طن.

٢ ـ الضرائب التي تؤخذ من السفن مقابل مكوثها في مركز الحجر الصحي ويتراوح مقدارها ما بين ١٠،٤٠ قرشاً (ما بين ٨٠ كوبيكا وثلاثة روبلات و ٢٠ كوبيكاً) لليوم الواحد تبعاً لمقدار حمولة السفينة، فضلاً عن ٢٥ قرشاً أخرى (روبلان) في اليوم تذهب لصالح حرس مركز الحجر الصحي وضريبة خاصة أخرى تؤخذ مقابل تعقيم البضائع.

٣ ـ ضريبة مقدارها ثمانية قروش (٦٤ كوبيكاً) في اليوم تؤخذ من كل حاج يقضي مدة الحجر الإلزامية في مركز الحجر الصحي.

---

(1) Ch. Morawitz: Op. Cit. P. 218.

ويمكننا ان نحكم على قيمة المبلغ الاجمالي لإيرادات دائرة الصحة إذا ما علمنا بأن هذا الإيراد وصل في السنة المالية ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥ إلى ٣٨،٣٥٦ ليرة عثمانية (٠٢٦ . ٣٢٦ روبل) وارتفع في ١٩٠٠ ــ ١٩٠١ إلى ٨٠،٠٠٠ ليرة عثمانية (٦٨٠،٠٠٠) وتسهم مصلحة الحجر الصحي في البصرة في هذه الايرادات بالدرجة الأولى عن طريق الضرائب التي تفرضها على السفن والركاب وقد بلغ المعدل السنوي للحمولة المسجلة للسفن في الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ كما يلي :

٤١،٩٩٤ طن بالنسبة للسفن الشراعية و ١٤٩،٩٦٣ طن بالنسبة للسفن البخارية كما بلغ العدد الاجمالي للمسافرين ما يقرب من ٩،٠٠٠ شخص.

أما في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٠١ فقد كان المعدل السنوي لحمولة السفن ٢٩،٤٧٠ طناً بالسنبة للسفن الشراعية و ١٩١،٠٧٠ بالنسبة للسفن التجارية في حين بلغ معدل عدد الركاب ١١،٠٠٠ شخص في السنة، وإذا ما أضفنا إلى الضرائب التي تؤخذ على حمولة السفن والضرائب التي تؤخذ مقابل السفن والركاب في مركز الحجر الصحي في ميناء البصرة إيرادات مركز الحجر الصحي في خانقين، الذي يمر من خلاله سنوياً ما بين ٥٠ إلى ٦٠ ألف حاج بالمعدل يدفع كل منهم عشرة قروش (٨٠ كوبيكاً) إضافة إلى ما لا يقل عن ٥٠٠٠ جثة يدفع عن كل منها خمسون قرشاً (٤ روبلات)، فإننا نستطيع أن نستنتج بأن ما يقرب من نصف إيرادات مصلحة الدولية في اسطنبول يأتي من مراكز الحجر الصحي في العراق الجنوبي.

ولا يسعنا ونحن نختتم هذا الفصل إلّا أن نتحدث باختصار عن إحدى المؤسسات التي تعمل، على الرغم من إنها لا تتمتع بصفة دولي، بشكل مستقل عن إدارة العراق الجنوبي كما لو أنها تتمتع بنفس الحقوق

التي يتمتع بها في الدولة العثمانية السفارات والبعثات والمؤسسات الأخرى التابعة للدول الأوروبية. إن هذه المؤسسة التي تعرف باسم «أراضي السنية» أي إدارة ضياع السلطان تستحق اهتماماً خاصاً باعتبارها حامل لواء الاعمار في هذه الأصقاع.

لم تبدأ أراضي السنية بالتوسع في شراء الأراضي البور والمتروكة أو التي قلت خصوبتها سواء كانت أميرية أو مملوكة ملكاً خاصاً في العراق الجنوبي إلّا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وبعد أن تحصل الادارة المذكورة على مثل تلك الأراضي العقيمة الفائدة بثمن بخس تكرس لها جهوداً ورؤوس أموال غير قليلة وذلك لتعميرها ورفع إنتاجيتها ولا يعيقها عن ذلك شيء حتى لو اضطرت لاتخاذ إجراءات غالية التكاليف كفتح قنوات ري جديدة أو تعمير القنوات القديمة. هذا وقد ازدادت قيمة الضياع السلطانية زيادة هائلة كما حدث مثلاً بالنسبة لضيعة جحلة في سنجق العمارة التي ارتفع ثمنها من ٥،٠٠٠ إلى ٥٠،٠٠٠ ليرة عثمانية. إن طرق الاستثمار النموذجية المستخدمة في هذا الضياع أصبحت تقلد من قبل الملاكين المحليين ومن قبل الجهات التي تدير أراضي الوقف بل ومن قبل الزراع العاديين.

لقد استطاعت إدارة الأراضي السلطانية أن تحقق مثل هذه النتائج الباهرة بفضل ما تتمتع به من حرية العمل والاستقلال التام عن الادارة العثمانية المحلية بالدرجة الأولى. حيث لم يكن لهذه الأخيرة أي الادارة العثمانية المحلية أي إمكانية للتدخل في شؤون إدارة أراضي السنية ذلك إن الأراضي العائدة للسلطان لا تخضع لأي ضرائب أو فروض حكومية كما عن جميع الضرائب والاتاوات التي تؤخذ من القبائل الرحالة التي تنتقل فيها كالضريبة التي تؤخذ على الماشية أو التي تؤخذ على الخيام وما

أشبه تذهب مباشرة إلى خزينة إدارة أراضي السنية. هذا فضلاً عن إن موظفي هذه الادارة مشمولون بـ «حصانة» خاصة بحيث لا يستطيع البوليس ولا السلطات القضائية أن تتخذ ضدهم أي إجراء دون علم وموافقة الأشخاص الذين يقفون على رأس إدارة أراضي السنية. ولهذا فليس هناک ما يدهش في أن تكون ظروف الزراع البسطاء والفلاحين العاملين في خدمة تلک الادارة أفضل بما لا يقاس من ظروف نظرائهم العاملين لدى الملاک الخاصين بحيث تعتبر الطبقات العاملة من السكان المحلين الانضمام إلى مستخدمي هذه المؤسسة ذات الامتيازات نجاحاً خاصاً.

على إن إدارة الضياع السلطانية لم تقتصر على التوسع في شراء الأراضي الخالية والموجودة بالقرب من المدن والمراكز المأهولة وإنما تعدت ذلک إلى الأراضي التي تتنقل فيها أكثر القبائل وحشية وعدوانية في العراق الجنوبي حيث السبيل إليها مغلق تماماً بالنسبة للبسطاء من عامة الشعب. وهكذا قامت الادارة بشراء أراضي واسعة في سنجق العمارة، وعمدت من أجل أن تجذب الرحل المحليين إلى العمل بالزراعة ولكي تؤمن حماية الضياع السلطانية الجديدة من نهب عصابات البدو إلى اتخاذ إجراء ذكي حيث أجرت كل تلک الأراضي للشيوخ المحليين هناک. وبعد أن استأجر هؤلاء الشيوخ قطع الأرض بشروط ملائمة أصبحوا ذوي مصلحة مادية في زراعتها فأخذوا يسعون على استخدام قبائلهم لزراعتها ولقد منح هؤلاء الشيوخ مع الايجار الالقاب الرسمية المختلفة فأصبحوا مديرين أو قائمقامين وما اشبه فألقي ذلک على عاتقهم مسؤولية المحافظة على النظام والهدوء في المناطق الخاضعة لسلطتهم. وهكذا وضعت بفضل هذا الاجراء الناجح البداية لعملية انقراض الكثير من القبائل ذات النزعة الحربية المتنقلة في سنجق العمارة وللتوسع الكبير في مساحة الأرض المزروعة في

ذلک السنجق الذي لم يكن حتى ذلک الوقت قد استثمر إلّا قليلاً.

وقد انعكس نشاط إدارة أراضي السنية بشكل إيجابي في العراق الجنوبي في مجال آخر ايضا ونعني القضاء على المجاعات المتكررة التي كانت تحدث بسبب المضاربة. ذلک إن محتكري الحبوب في سباقهم من أجل الربح كانوا يتوسعون في تصدير الحبوب إلى الخارج الأمر الذي كان يؤدي رأساً وبسبب محدودية احتياطات الحبوب إلى ارتفاع أسعار هذه المادة الضرورية وإلى حدوث مجاعة مصطنعة بين الطبقات الفقيرة من السكان.

وكانت الوسيلة الوحيدة لمكافحة التهريب في السابق وهي منع تصدير الحبوب فيقوم مجلس الولاية بأخطار جميع المراكز الكمركية بذلک لكي تعمد تلک المراكز إلى إصدار التعليمات بهذا الشأن لكن مع قيام إدارة الأراضي السلطانية في العراق الجنوبي وتحولها في وقت قصير إلى أكبر مالک محلي للأرض ورفعها لإنتاجية الأرض بدرجة كبيرة، أصبحت المجاعات المذكورة من حكايات الماضي بحيث لم تظهر ضرورة لإيقاف تصدير الحبوب إلى الخارج خلال العشرين سنة الأخيرة.

ونظراً لعدم توفر أية معلومات عن مقدار الأراضي التي اشترتها إدارة أراضي السنية وعن إنتاجية هذه الأراضي ومقدار الايرادات المتأتية منها إلى خزينة السلطان ينبغي أن نكتفي بإحصاءات تقريبية يعود بموجبها إلى السلطان في ولاية البصرة ما لا يقل عن ٤٠% وفي ولاية بغداد ما لا يقل عن ٣٠% من جميع الأراضي المزروعة.

أما عن الجانب الآخر من نشاط إدارة أراضي السنية ونعني امتلاكها للملاحة العثمانية في نهر دجلة، فإننا سنتحدث عنه بالتفصيل في الفصل الأخير من هذا الكتاب وذلک عند حديثنا عن وسائل المواصلات في العراق الجنوبي.

الفصل الثالث

لا يمكن تحديد عدد سكان ولاية البصرة بدقة حتى ولو بشكل تقريبي وذلك لعدم وجود إحصائيات حول عدد أفراد بعض القبائل البدوية التي لا يمكن إحصاؤها بسبب حياة التنقل التي تحياها. أما عن السكان العرب الحضر فإن الولادات والوفيات تتميز حتى بالنسبة لهم بالقصور وذلك بسبب تهرب المسلمين من إعطاء المعلومات الصحيحة عن عدد أفراد عوائلهم لاعتقادهم بأن مثل هذا الاحصاء سيؤدي حتماً إلى موت أحد أفراد العائلة [1].

ولهذا فإن الأرقام الواردة التي تشير إلى عدد سكان بعض السناجق والمأخوذة من النشرة العثمانية الرسمية الخاصة بولاية البصرة لسنة ١٨٩٨ ــ ١٨٩٩ ينبغي اعتباره أرقاماً تقريبية وهي على أية حال أقل من الواقع [2].

---

(١) إن إمتناع السكان عن إعطاء المعلومات الصحيحة بهذا الخصوص مبعثه أيضاً رغبتهم في التهرب من الخدمة العسكرية بعد أن أقر التنجيد الالزامي ــ المترجم. لعل ما ذكره المترجم هو ما كان يرمي اليه المؤلف من قوله سيؤدي إلى موت أحد العائلة والا من أين للمؤلف هذا الاطلاق والتعميم في قوله بسبب تهرب المسلمين إلى قوله لاعتقادهم. حميد الدراجي

(٢) السالنامة الخاصة بالسنة المذكورة، ص١٧٠.

السنجق	عدد الرجال	عدد النساء	المجموع
البصرة	٦٠،٧٣٠	٩٩،٨٥٠	١٨٠،٥٨٠
المنتفك	١٢١،٢١٠	١٢٥،١٦٠	٢٤٦،٣٧٠
العمارة	١٠٩،٨١٠	١١٣،٢١٠	٢٢٣،٠٢٠
الحسا	١٣٨،١٨٥	١٤٧،٤٤٠	٢٨٥،٦٢٥
	٤٤٩،٩٣٥	٤٨٥،٦٦٠	٩٣٥،٥٩٥ [١]

أما من حيث المعتقد فإن السكان يتوزعون على النحو التالي تقريباً :

السنة ٢٦١،٨٥٠ نسمة.

الشيعة ٦٦٢،٨٤٥ نسمة.

الأرمن الكريكوريين ١٥٠٠ نسمة.

الكاثوليك ١٣٠٠ نسمة.

الصائبة ٣٠٠٠ نسمة.

اليهود ٥٠٠٠ نسمة.

ذوو معتقدات أخرى ١٠٠ نسمة.

وسكان الولاية المسلمون فيما عدا عشرة الآف من الموظفين والعسكريين الأتراك والأكراد والألبانيين وباستثناء بضعة آلاف من الفرس القاطنين في المدن هم بأجمعهم من العرب الذين يؤلفون لهذا السبب ما لا يقل عن ٨٥% من مجموع السكان.

وينقسم العرب إلى: «أهل البيت» و «أهل الحيط» أي ساكني الخيام أو الرحل وسكان الجدران أي الحضر. ولقد احتفظ عربي الصحراء المتنقل

---

(١) يذكر V Cuinet في كتابه :

“La Turquie d, Asie. Geographie Adminstrative. Paris 1894 T. III. P. 220.

أي البـدوي (مـأخوذة مـن كلمـة «باديـة» الـتي تعـني الصـحراء وقـد تحـرف نطقهـا لـدى الأوروبيـين فأصـبح بـدوين) بالعـادات والأعـراف العربيـة القديمـة بكمالهـا ونقائهـا الأول بحيـث أن حياتـه الحاليـة لا تكـاد تختلـف عـن حيـاة أسـلافه في عصـر التـوراة. أمـا العـربي الحضـري فقـد تخلـي بتـأثير الحضـارة وظـروف الحيـاة الأفضـل، عـن الكثـير مـن عـادات حيـاة التنقـل السـابقة وفقـد لدرجـة ملحوظـة الخصـائص المميـزة لعرقـه وهـذا هـو السـبب في كونـه قليـل الشبه بأصله البدوي.

والبـدو حـتى الآن هـم العنصـر الغالـب بـين العـرب مـن سـكان العـراق ولهـذا ينبغـي أن يفـرد «لأبنـاء الصـحراء هـؤلاء» المحـل الأول في الوصـف الاتنوغرافي لمدينة البصرة وأن تدرس حياتهم بشكل أكثر شمولاً.

يتميـز البـدو عـادة بطـول القامـة ورشـاقة الجسـم وشـدة النحافـة رغـم كـونهم ضـخمي العظـام مفتـولي العضـل. والبدانـة بيـنهم ظـاهرة نـادرة إلى درجـة حيـث تعتـبر مـن صـفات القـبح وتصـبح مثـاراً للسـخرية. إن الشـعر الطويـل الكثيـف الـذي يكـون أسـوداً في العـادة وأشـقراً أو أحمـراً في حـالات نـادرة والمجـدول في بضـعة ضـفائر تنسـدل علـى جـانبي الوجـه يعطـي البـدوي مـع اللحيـة الطويلـة علـى وطـراز الملبـوس الفضـفاض المتـدلي حـتى الأقـدام والمهابـة الهادئـة هيئـة شـيخ مـن شـيوخ التـوراة وعيـون البـدو في الغالـب سمـراء داكنـة تقـرب مـن السـواد وزرقـاء في أعيـان نـادرة ونظـرتهم نفـاذة فاحصـة وتعبير وجوههم صارم وجاد يشوبه الكثير من الدهاء.

والبـدو علـى العمـوم يتميـزون دون شـك بجمـال الطلعـة لكـنهم يشـيخون بسـرعة حـتى أن الواحـد مـنهم عنـدما يصـل الثلاثـين مـن العمـر يعتـبر أن شـبابه قـد ولي منـذ زمـين طويـل، ففـي مثـل هـذا العمـر تكـون عيـونهم قـد أحاطتهـا تجاعيـد عميقـة نظـراً لأنهـم مضـطرون لأن يضـيقوا عيـونهم باسـتمرار حمايـة

لها من تأثير أشعة الشمس الساطعة، كما أن خدودهم تكون قد غارت ولون وجوههم قد علته مسحة بنية داكنة بتأثير الشمس التي لا ترحم. وعندما يبلغ البدوي الـ ٤٠ ـ ٤٥ من العمر تشيب لحيته نهائياً وفي سن الخامسة والخمسين يكون قد أصبح شيخاً طاعناً على الرغم من أنه يحتفظ في العادة بحركتة وبانتصاب قامته وتناسقها حتى نهاية حياته.

وملابس البدوي غاية في البساطة فهي تتألف من قميص طويل حتى الكعب ويكون لونه أبيض في الغالب يلبس فوقه الموسورن منهم كاستثناء رداءً مخططاً تركماني الطراز. ويلقي أبناء الصحراء على أكتافهم، اتقاءً للبرد والمطر، «عباءة» وهي رداء من الصوف يستخدم أثناء النوم أيضاً بدلاً من اللحاف. والبدو لا يلبسون السراويل فهي تعيق الحركة وأقدامهم عارية وإن كانوا يلبسون النعال في بعض الأحيان، ورؤوسهم تغطي بمنديل قطني أو حريري مطوي على شكل مثلث بحيث تحيط قاعدته بالوجه ويتدلى جانباه على الكتفين ورأسه على الظهر. ويثبت هذا المنديل أو «الكوفية» على الرأس بواسطة «العقال» وهو عبارة عن ضفيرة طويلة من وبر الجمال يلف حول الرأس على شكل دائرتين. وغالباً ما يتمنطق البدوي فوق القميص بحزام من الجلد بسيط الصنع أما عرب المدن فإن الرداء والسروال يعتبران عندهم من لوازم البدلة الضرورية، كما أنهم يستعملون الستر من الطراز الأوروبي على نطاق واسع كلباس خارجي في الشتاء.

ويؤلف السلاح الذي لا يفارقه البدوي الحقيقي تتمة لا غنى عنها للمظهر الخارجي لابن الصحراء بحيث لا يكون تصور مظهره الخارجي كاملاً من دونه وشغف البدوي بالسلاح الأوروبي الحديث عظيم إلى درجة بحيث انه يعاني العوز ويحرم نفسه طوعاً من الكثير لا لشيء إلا لكي

يمتلك بندقية جيدة أو قربينة [١] مارتيني، من التي بكميات كبيرة إلى بلاد العرب عن طريق مسقط والكويت وإذا ما كان الرحالة الأوروبيون القليلون الذين تغلغلوا في أعماق شبه جزيرة العرب قد لا حظوا في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن وجود البنادق الشطف [٢] عند البدو يعتبر ظاهرة غير إعتيادية فإن مثل هذا السلاح يعتبر الإن حتى في الصحراء سلاحاً قديماً فقد نصف قيمته السابقة.

وتنتشر بين البدو على نطاق واسع، إلى جانب الأسلحة النارية الحديثة، أسلحتهم القديمة ومنها رمح من القصب يتراوح طوله ما بين ١،١/٢ و٢ ساجين [٣] يثبت في نهايته العليا رأس مدبب من الحديد على شكل مثلث وتكون نهايته الدنيا مدببة ليسهل غرزه في الأرض. ويستخدم هذا الرمح لرمي العدو الهارب عند الاقتراب منه أثناء تعقبه وكذلك لاضاقة حصان العدو في حالة كون العدو هو الذي يتعقبهم. وذلك بتوجيه الرماح الحادة إلى وجهه. ومن الأسلحة العربية القديمة الأخرى السيف والخنجر وأخيراً ترس بدائي مصنوع من وبر الجمل. ويكتفي الفقراء جداً من البدو بهراوة (دبوس) أو مجرد مقلاع وهذا الأخير يكون أيضاً في سن الطفولة اللعبة المفضلة لصبيان البدو.

والنساء بوجه عام أقل جمالاً من الرجال على الرغم من حسن تكوينهن وسلامة ملامح وجوهن. فالقوة الرجولية البحتة التي تعبر عنها ملامح وجوهن وحركاتهن التي تتسم بالخشونة ومشيتهن الثابتة تجردهن

---

(١) بندقية قصيرة ـ المترجم.

(٢) تسمي بالعامية «أم جداحةً» ـ المترجم.

(٣) الساجين مقياس روسي للطول مقداره متر واحد و ١٣ سنتمتراً ـ المترجم.

من كل أنوثة. إضافة إلى أنهن، من وجهة النظر الأوروبية، يشوهن أنفسهن بالوشم الذي يرسمنه على وجوهن وصدورهن وأيديهن وأرجلهن وكذلك بتعليقهن لحلقات خاصة في الأنف ولبسهن لعقود وما أشبه ذلك من الحلي. وفوق ذلك كله تكاد البدويات يذوين أسرع من الرجال وذلك أمر تحتمه ظروف حياتهن الصعبة. فإذا ما كان ممثلو الجنس الخشن في الصحراء محكوم عليهما منذ أن يولدوا إلى أن يموتوا بالعوز الدائم والمصائب المستمرة فإن الجنس اللطيف يتحتم عليه أن يعيش حياة أصعب وذلك لأن جميع أشغال البيت وأعمال تدبيره ملقاة كما سنرى على عاتق النساء البدويات.

وسنحاول في السطور التالية أن نرسم صورة تقريبية للحياة البدوية بكل ما تمتاز به من سوء ابتداء من طعام العربي المتنقل الثقيل العسر الهضم وانتهاء بكفاحه المستمر من أجل البقاء وهو الكفاح الذي يتحتم عليه أن يخوضه لا ضد الطبيعة التي يعيش فيها فقط وإنما ضد أبناء جلدته أيضاً.

يتألف طعام العربي المتنقل من التمر والرز والدخن والشعير أو الحنطة وهو يحصل على هذه المنتجات مرة أو مرتين في السنة من المدن حيث يستبدلها بالمنتجات الحيوانية.

ويحضر العجين من الحبوب بعد طحنها برحى يدوية ثم يخبز إما على أحجار محمية أو بإلصاقه على جدران حفر خاصة تحفر بالأرض بعد أن يشعل فيها الشوك اليابس أو روث الجمال المجفف. والخبز الذي يحضر بهذه الطريقة هو عبارة عن أرغفة نصف ناضجة يصعب مضغها. وتكون مائدة البدوي في القبائل التي تمتلك الماشية غنية بالكثير من حليب النوق إضافة إلى حليب الغنم والماعز والزبدة المستخرجة منهما. ويصنع

البدو للشتاء الذي يعتبرونه «فصل الجوع» كرات صغيرة من حليب النوق تنشف جيداً وتكبس ثم تجفف في الشمس [1] ويحتفظون بها أشهراً.

وتعطي هذه الكرات بعد أن تذاب بالماء شراباً أشبه بالحليب الحامض وإذا ما كان التمر يؤلف الغذاء الرئيسي بل والوحيد في بعض الأحيان بالنسبة للأعراب في جنوب العراق الجنوبي. فإن استهلاك ثمار النخيل هذه إذا زاد عن الحد يعتبر في ولاية بغداد أي إلى الشمال أكثر أمراً مضراً بالصحة بحيث أن السكان هناك يعمدون من أجل القضاء على الدزانتري الذي تسببه تلك الثمار إلى شرب القهوة سوداء قوية بدون سكر.

ويستهلك هذا المشروب أي القهوة على نطاق واسع بين سكان المدن العرب وكذلك لدى البدو الذين يقدمونه لضيوفهم قبل أي شيء آخر كما أن رفض الضيف لتناوله يعتبر إهانة مقصودة لصاحب الخيمة. وإلى جانب هذا الأثر النافع للقهوة يعتقد البدو أن لها خصائص علاجية أخرى كتحسين النظر وتقوية الذاكرة وما أشبه ولهذا فإنها تتمتع بالاكبار بين البدو، حتى أن تحضيرها يحاط بطقوس خاصة. حيث يقوم بذلك خادم خاص لهذا العمل أو رب الدار نفسه بأن يغلي الماء في الدلة ثم يبدأ بتحميص البن وهو أمر يجري دوماً قبل تقديم القهوة مباشرة. تحمص حبوب البن في مغرفة حديدية كبيرة على نار هادئة إلى أن تحمر ثم تبرد وتطحن في جرن خاص ويوضع المسحوق في الدلة التي يكون الماء فيها آخذ بالغليان. ويضيف البدو إلى القهوة في العادة قليلاً من الزعفران أو جوز الطيب ويشربون هذا الشراب العطر بلا سكر لأنهم يعتقدون بأن

(١) بقصد المؤلف ما يسمى بالعامية بـ «الجثي» ـ المترجم. يسميه البدو بلهجتهم (المِكُل)

السكر يفسد مذاقة.

ويأكل البدو بين الحين والآخر لحم الغنم أو الابل لكن مثل هذا الطعام يعتبر ترفاً لا يقدمون عليه إلا في المناسبات المهمة وبالأخص أثناء المناسبات العائلية الزواج والختان وكذلک عند استقبال كبار الضيوف. ويعتبر لحم الابل وعلى الأخص الصغيرة منها طعاماً شهياً جداً بحيث أنهم بمجرد أن تكسر رجل حيوان منها في الطريق يبادرون إلى نحره رأساً ويقيمون منه وليمة حقيقية. ويأكل البدو مرتين في اليوم حيث يتناولون طعاماً خفيفاً في الصباح ووجبة أدسم في المساء بعد غروب الشمس. ولا بد أن تدخل في الوجبة المسائية الأكلة التي يطلق عليها اسم «عيش» وهي عبارة عن عجينة تصنع من الطحين وحليب النوق الحامض بعد أن تغلي سوية ودون أن تضاف اليها أية توابل أخرى.

وإذا ما كان مثل هذا الغذاء مضراً للبالغين بحيث أن من النادر أن نجد بدوياً في سن الأربعين أو الخمسين لا يعاني من سوء الهضم، فإنّ تاثيره على الأطفال وبيل أيضاً، وكل من تأتّى له أن يزور مضارب البدو أدهشته رغماً عنه بطون الأطفال المنتفخة انتفاخاً مرضياً ونسبة الوفيات بين الأطفال كبيرة إلى درجة بحيث يمكننا القول دون مبالغة بأنه لا يعيش منهم إلا شديد والقوة الذين يستطيعون التكليف لظروف الحياة القاسية في الصحراء.

وينشأ أطفال البدو على الحرية التامة يمنحونها لأنفسهم كلياً دون أي إشراف او عناية من جانب الكبار، ففي أي من مضارب البدو يمكن أن نلاحظ أطفالاً عراة يمرحون حول الخيام مختلطين بالخيل والكلاب والماشية البيتية، حيث نجد الأولاد دون السادسة والبنات دون الخامسة من العمر يتراكضون عراة حاسري الرؤئس. إذ أنهم لا يرتدون القمصان إلا

بعد أن يتعدوا هذا السن.

وفي ظل غياب التربية من أي نوع كان تأخذ جميع صفات الطفل وميوله الفردية سواء كانت حسنة أم سيئة بالتطور والترسخ دون عائق فتكون في نهاية المطاف مجمل السجايا التي يتميز بها البدوي الذي تتوائم فيه بشكل لا ينفصل متناقضات متعارضة. فلكي نصف أخلاق البدوي يتحتم علينا أن نضيف إلى صفاته الايجابية كالطيبة واللياقة في المعاملة والكرم والشهامة غير قليل من الصفات السلبية ونعني الريبة والجشع والمكر والغطرسة والشهوانية.

ورغم أن الأب لا يعني بتربية أولاده فإنه يعتبر الطفل الجرئ الفطن والشاطر إبناً مثالياً ويفتخر به. والبدوي يحب الأطفال ولكنه لا يظهر في تعامله معهم أي رقة ولا يتنازل للطفل مهما كان لمجرد كونه طفلاً. لذا يتحتم على الأطفال في ظل معاملة الكبار هذه أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى شطارتهم فقط في كل شيء ولهذا السبب يترك أطفال البدو في سن مبكرة حياة الطفولة الخلية وهم لا يكادون يعرفون العاب الطفولة الحقيقية. وبفضل الحياة المشتركة مع الكبار في خيمة واحدة يتعرف أطفال البدو في وقت مبكر عن طريق أحاديث أولئك على كل الجوانب القبيحة للحياة البشرية بحيث أنهم يبدون وهم في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر وكأنهم أناس ناضجون، حيث يكون البدوي حتى هذه السن قد أتقن فهم العلاقات البشرية بكل تفاصيلها وأدرك كلياً قوانين الكفاح من أجل البقاء ودرس بشكل ممتاز الصحراء بعاداتها ودسائسها وسياستها مع بقائه في كل ما عدا ذلك ابتداء من القراءة والكتابة جاهلاً جهلاً مطلقاً.

وبمجرد أن ينهي الغلام البدوي مدرسة الحياة هذه ويتقن أساليب الحصول على رزقه اليومي ويتعلم مختلف أساليب الدفاع عن الذات يعتبر

الأب أن التزاماته تجاه ابنه قد انتهت فيحمله على أن ينفصل عنه بعد أن يعطيه جملاً أو حصاناً ليبدأ حياته بهما وليصبحا منذ تلك اللحظة المرافقين الأمينين لعضو القبيلة الجديد الكامل الحقوق في بنائه لحياته المستقلة اللاحقة.

ولا يعيش من أطفال البدو كما سبق أن ذكرنا ألا أقواهم وأكثرهم تحملاً وهذا هو السبب في أن البدو يتميزون بشكل عام بالصحة الجيدة ولا يمرضون إلا نادراً ولكنهم عندما يصابون بالمرض جدياً فإنهم لا يتماثلون للشفاء لأنهم في الصحراء لا يعرفون أساليب الطب المعقدة لذا فإنهم يتركون الجسم يصارع المرض وحده. إن كل ما تعرفه بلاد العرب بهذا الشان يقتصر على تحضير عقاقير بسيطة من بعض الأعشاب لا يمكن أن يكون لها أي تأثير على سير المرض أما الجراحة اليدوية فإنها ليست أفضل من علاج الأمراض الباطنية فهي لا تسمح بإجراء أية عمليات جراحية فيما عدا إخراج الدم بواسطة سكين اعتيادية [١] أو وخز أعضاء الجسم المصابة بالروماتيزم أو عرق النسا بإبرة محمية أو إحراق الجروح التي يسببها السلاح الأبيض والناري بدهن مغلي.

ونادراً ما يتمتع المريض بالهدوء الذي يحتاجه ذلك أنه يتحتم عليه بالرغم من إرادته أن يتبع قبيلته في كل تحركاتها حيث لا أحد يفكر براحته، في تلك الحالة. فبعد أن يضعه أهله على الجمل لا يعودون يهتمون إلا بالحرص على أن لا يقع من جمله المنهك أثناء السير. وهكذا يستمر هيكل المريض نصف الميت بالتأرجح على «سفينة الصحراء» تغذيه الريح والغبار والقيظ إلى أن يصل إلى المحل المنشود.

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى الحجامة. المترجم.

ويأخذ الجدري والطاعون الذي ينتشر أحياناً في الصحراء أكبر عدد من الضحايا. أما الأمراض الجلدية كالدمل والقرح المختلفة فإنها ظاهرة اعتيادية تسببها القذارة التي تشيع بين البدو الذين لا يغسلون ملابسهم وإنما يستمرون على لبسها إلى أن تتهرأ، وذلك بسبب ندرة المياة وقيمتها العالية. وأمراض العيون واسعة الانتشار في الصحراء وفي المدن على السواء فهناك في البصرة مثلاً ما بين عشرين إلى ثلاثين أعور أو أعمى أو يشوب عينيه نقص ما من بين كل مائة شخص. ويجدر بنا أن نضيف إلى الأمراض المذكورة أمراضاً أخرى كالحمى ومرض الاستسقاء وتكون الحصا في الكبد أو الكلي أو المثانة وكذلك بفضل ما يتمتع به البدو من عفة كبيرة بالمقارنة مع أبناء جلدتهم في المدن كما أن ظروف حياة التنقل نفسها لا تساعد على الفساد لأنها تحتم على النساء أن يكن على الدوام على مرأى من الجميع وان يعشن في محيط قبيلتهن الضيق حيث يصعب إخفاه أي شيء عن ساكني الخيمة الآخرين.

لكن ظروف حياة التنقل تحتم أن تتمتع البدويات بحرية كبيرة بالمقارنة مع نساء المدن، ذلك أن أنعدام البيوت الدائمة يؤدي إلى انعدام الحياة المغلقة حيث يكون من المفهوم تماماً أن يتعذر في ظل العيش تحت الخيام إفراد جزء خاص للنساء منفصل تمام الانفصال كما تصعب اكثر من مراعاة الصرامة المطلقة في حجز الحريم في ظل حياة التنقل الدائم ومع وجود المناوشات الحربية بين القبائل المعتادية.

وبسبب هذه الظروف الاستثنائية يحتل حريم البدوي عادة نصف الخيمة الواقع إلى يمين المدخل ولا يفصله عن الجزء الخاص بالرجال إلا ستارة خفيفة من وبر الابل.

هذا ولا يمكن للبدوي أن يخفي زوجته عن أعين رجال قبيلته

بسبب من أن النساء يضطلعن بجميع الاهتمامات المادية ويقمن بأصعب وأثقل الأعمال البيتية فهن ينصبن الخيام ويرفعنها ويجلبن المياه ويجمعن الشوك الجاف للوقود ويجلبن الماشية ويسقنها إلى المرعى والمورد ويستخرجن الزبدة ويطهين الطعام ويغزلن، وباختصار ترتكز عليهن بشكل كلي حياة العائلة بأجمعها. وفي ظل مثل هذه الحياة الحافلة بالعمل والنشاط لا يمكن إطلاقاً تحويل البدويات كما جرى بالنسبة للعربيات من سكان المدن إلى مخلوقات عاجزة لا تكاد تستطيع تحريك أرجلها تحت عدد لا يحصى من الحجب والأغطية.

إن ملابس البدويات ملائمة تماماً لنمط حياتهن وهي تتألف من قمصان عريضة واسعة الأكمام وطويلة تصل حتى أخمص القدمين تلبس النساء فوقها «عبا» كتلك التي يلبسها الرجال. أما الأرجل فتبقى حافية في حين يغطى الرأس بمنديل من القطن أو الحرير من ألوان مختلفة بما فيها الأحمر والأسود علماً بأن الصارخة تفضل بالنسبة للفتيات والمعتمة بالنسبة للعجائز. والبدويات شأنهن في ذلك شأن النساء الشرقيات كافة يحببن جداً. أن يتزين بالأشياء التافهة كالأسورة والحجول التي تكون إما زجاجية بسيطة أو فضية وذهبية تحيط بأيديهن وأرجلهن في حين تتدلى على جباههن شنوف من العملة أو قطع من القصدير إذا كن فقيرات، وتحيط العقود بأعناقهن. ولا تفترق النساء في الصحراء عن هذه الحلي كلها أبداً وهن يتنافسن مع صديقاتهن وقريباتهن بعدد هذه الحلي ونوعيتها، ولهذا يعتبر كل بدوي أن من واجبه أن يشتري لزوجته أكثر ما يمكن من الحلي حيث يجد في ذلك إرضاءً لغروره لأنه هو نفسه قليل الاهتمام بمظهره ولباسه.

ونساء القبائل المتنقلة في شبه جزيرة العرب أقل من الرجال من

حيث المستوى العقلي وذلك أمر لا يعيقهن عن التمتع بنفوذ كبير في العائلة وعن أن يكون للبعض منهن من خلال ازواجهن تأثير على قبيلتهن بأجمعها. على أننا يجب أن لا نستنتج مما ورد أعلاه بأن حرية البدويات غير محدودة فعلى الرغم من أنهن يتواجدن مع الرجال في نفس الخيمة إلا أنهن يعشن بصورة منفصلة تماماً عنهم ولا يسمح لهن أن يخالطن أو يلتقين إلا بأقاربهن المقربين أما أكلهن مع الرجال حتى ولو كانوا من أفراد عائلتهن فإنه يعتبر من أعلى درجات التبذل.

وبعد أن ألقى الرجال بكل ثقل الأعمال اليومية على عاتق النساء بحجة أن العمل البدني والسلمي بما فيه الزراعة مهين للبدوي الحر، لم يبقوا لأنفسهم إلا الغارات الوحشية والأعمال الحربية والصيد. وما حياة البدوي خارج نطاق هذه الاعمال التي يعتبرونها أعمالاً شريفة إلا خمول تام وبطالة، حيث يقضي الرجال الجزء الأغلب من النهار متمددين على أرض الخيمة يتجاذبون مع بعضهم احاديث لا تنتهي. أما في الأمسيات فيجتمعون في خيمة الشيخ التي تكون مفتوحة للجميع وهناك يناقشون بحرارة كل القضايا المتعلقة بالصحراء وسكانها وكذلك الشؤون الخاصة بالأقطار المجاورة فيظهرون خلال ذلك دراية بحوداث العالم الخارجي مدهشة بالنسبة لأناس منعزلين في الصحراء. إن جميع ما يحدث في الصحراء كالصلح أو القطيعة بين القبائل والعلاقات القائمة بين مختلف الشيوخ والوضع في هذا الجزء أو ذاك من بلاد العرب وكذلك في المدن المجاورة حيث يوجد لكل شيخ عين موثوق.

كل ذلك معروف للجميع بأدق تفاصيله. إن أي خبر أو إشاعة ينقل على الفور من فم إلى فم وينتشر بسرعة في المضارب المجاورة ولهذا السبب يمكن التأكيد بشكل قاطع بأنه لا وجود للأسرار في الصحراء.

وغالباً ما يصل الأمر إلى حد أن خبر عزم إحدى القبائل على شن هجوم مباغت على الأعداء يصل إلى أولئك الأعداء قبل أن تنتهي الاستعدادت للحملة وهي استعدادات تجري في غاية السرية.

إن ولع العرب بمثل هذه الأخبار والنمائم والاشاعات كبير إلى درجة بحيث أنهم لا يستطيعون التخلي عن هذه العادات حتى في المدن حيث يجتمعون مرة عند هذا ومرة عند ذاك لكي ينهمكوا في الحديث والاستماع إلى مختلف الأخبار وهم يتناولون القهوة. وتكون هذه الاجتماعات عادة مملة في الصحراء ولا تخرج عن رتابتها إلا نادراً عندما يغني موسيقي بدائي على آلة الصحراء الموسيقية «الربابة» (نوع من الكيتار) يصاحبها الطبل «الدمام» أو عند رمي الكعاب وهي لعبة يحرص عليها البدو الشغوفون باللعب بفطرتهم.

إن قدوم ضيف أو عابر سبيل وهو أمر يدخل بعض التسلية على حياة البدوي الرتيبة والكئيبة بشكل عام، يقابل دائماً بالترحيب الحار ويبادر الجميع إلى استضافته من صميم قلوبهم. وبالإضافة إلى ذلك فإن الحفاوة الدائمة التي يصادفها القادم أو عابر السبيل لدى البدو تفسر أيضاً بحقيقة أن البدو لو لم يرفعوا الضيافة إلى مرتبة القانون فإنه لا أحد منهم يستطيع أن يتنقل منفرداً أو على شكل جماعات صغيرة في الصحراء حيث لا يوجد منزل بشري غير المخيمات وحيث يحكم على الانسان بالموت المحتم إذا لم يستطع أن يلجأ إلى ضيافة الآخرين. ولهذا السبب يفرض العرف الاعتيادي للصحراء على كل واحد التزاماً مقدساً هو أن يؤوي ويطعم الغريب بدون أي مقابل على الاطلاق.

وقد تغلغل هذا العرف الذي كونته قرون طويلة من الزمن في لحم البدوي ودمه إلى درجة بحيث أن أعظم الاهانات التي يمكن أن يصاب بها

الشخص هي وصمه بالتقصير في أكرام الضيف وحسن معاملته فالضيوف يعتبرون بمثابة أفراد العائلة التي استضافتهم بل من أفراد القبيلة ككل. غير أن مثل هذه النظرة للضيف خصوصاً إذاً لم يكن عربياً لم تبق سائدة إلا لدى القبائل الكبيرة والقوية مثل عنزة وشمر فمثل هذه القبائل ترى أن سرقة الغريب الذي يتمتع بضيافتها أو الاساءة إليه عار. لكن مثل هذه المعاملة السيئة للأوروبيين تعتبر عند بعض القبائل الصغيرة ظاهرة عادية نوعاً ما. تؤكد ذلك الحادثة التي رواها الرحالة الروسي البارون نولده وهو أحد القلائل الذين زاروا نجد وقد ترك لنا وصفاً شيقاً لرحلته باللغة الالمانية.

يحدثنا البارون نولده في كتابه [1] بأنه لم يصادف بعد وصوله إلى حائل (عاصمة نجد) استقبالاً بارداً من جانب السكان فحسب وإنما قابلوه بعداء صريح. ولم يتأخر عن أبناء جلدته في ذلك حتى حمود ابن عم محمد بن رشيد أمير نجد آنذاك الذي كان يحكم حائل في غياب أميرها المذكور. فقد أرسل إلى القادم صورة الرحالة الفرنسي (Hunert) الذي كان قد ذُبح في نجد. ولكن من حسن حظ نولده أن المطر بدأ بالسقوط بعد وصوله مباشرة واستمر لمدة ست وثلاثين ساعة ثم أصيب حمود ربما بسبب تبدل الطقس بسعال ظل يعذبه طيلة ثمانية اشهر وفي أثناء ذلك وصل إلى حائل خبر النصر الباهر الذي أحرزه محمد بن رشيد على قبيلتي عتيبة ومطير حيث ظهر أن العدو بادر إلى الفرار في اللحظة التي دخل فيها صاحبنا إلى المدينة بالضبط. إن توافق كل هذه الظروف المواتية صدفة دفع النجديين

---

(1) Baron Eduard Nolde Reise nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien 1892, S. 46-47.

إلى أن ينظروا إلى ضيفهم نظرتهم إلى شخص يجلب السعد الأمر الذي غير موقفهم منه وهو الموقف الذي كان حتى ذلك الوقت معادياً (١) (٢).

إن هذا المثل يمكن أن يكون أيضاً شهادة بليغة على مدى إيمان البدو بالخرافات على الرغم مما تؤكده الرحالة الانجليزية المشهورة (Lady Anne Blunt) التي تحاول في الصفحة ٢٢٣ من الجزء الثاني من كتابها: "Bedouin Tribes of the Enphrates" أن تبرز لهم ذلك، فجميع الأوروبيين الذين تعاملوا مع البدو بهذا الشكل او ذاك يمكنهم التأكيد بأنهم يؤمنون باللقاء المشؤوم وأيام النحس وعين الشؤم وما شابه ذلك. فمصادقة الضبع أو الأرنب على العكس علامة شؤم. كما أن البدو يعتبرون الثلاثاء والأحد من أيام النحس بعكس الخميس والسبت اللذين هما في رأيهم ملائمان للشروع بأي عمل، كذلك تحمل البدويات ويقلدن أطفالهن بل ويقلدن الحيوانات أيضاً تمائم تقيهم من إصابة العين. وأخيراً فإن من الحقائق المعروفة للجميع أن البدوي مستعد لأن يبيع بثمن بخس أحسن مهر لديه إذا ما ظهرت عليه علائم تشير في اعتقاده إلى النحس كالنجمة تظهر على عنق الفرس أو قوائمه مثلاً أو ما شابه ذلك (٣).

---

(١) يثبت الرحالة الفرنسي Dennis de Rivoyre حقيقة مماثلة في الصفحة ١٩٥ ـ ١٩٦ من كتابه: "Les Vrais arabebes et leur Pays"

(٢) غير بعيد أن هذا التعامل مع هؤلاء كان نابعاً من اعتبارهم جواسيس فهم ينظرون اليهم بعين الريبة وكانت ظاهرة الجاسوسية قد تمادت يشكل كبير في القرن التاسع عشر علماً ان عدداً منهم كان يحتمي ببعض الامراء والشيوخ في تلك المنطقة. حميد الدراجي

(3) J. L. Burckhardt. Notes on the Bedouins and Wahabys, London, 1831, Vol. 1. PP. 213-214.

وبالإضافة إلى الضيوف يجلب إلى المخيم الكثير من الانتعاش أيضاً قدوم بائع متجول حيث يقوم أثناء تجواله ببضائعه بين القبائل بجمع الأخبار المختلفة ونشرها في أنحاء الصحراء فيلعب بذلك دور الجريدة البدوية الواسعة الانتشار. و « المحدث » يعتبر هو الآخر زائراً مرغوباً فيه فهو يشد انتباه مستمعيه بقصائد رائعة ينشدها حول هذا البطل البدوي أو ذاك يختمها بمديح يرتجله بحق القبيلة المضيفة له وشيخها، أو أنه يثير إعجاب «إبناء الصحراء» بأنغام عربية فريدة في حزنها تؤثر ألحانها بشكل لا يمكن مقاومته حتى على الأوروبي.

وبعد أن بينا بوجه عام كيف يقضي البدوي وقته في أيام السلم سننتقل إلى وصف لحظات حياته المترعة بالخطر والحرمان والمليئة بالقلق والاضطراب التي تجعل من عربي الصحراء مقاتلاً شجاعاً صبوراً لا يعرف الخوف.

والواقع البدوي يعي وحشيته التي يولدها موطنه الموحش القاسي المفقر حتى أنه يتباهى بها. أنه على أية حال يفخر بأنه الوحيد الذي يستطيع العيش في الصحراء ويتوائم معها ولا يخافها. وبوعي تام بتفوقه في هذا المجال هو يعمد إلى إخافة الغرباء مصوراً الصحراء وسكانها أكثر رعباً وقبحاً وقساوة مما هم في الواقع. وتظهر في هذا التخويف خشية البدوي الخفية الدائمة من العدوان الأجنبي خشيته على حريته وعلى كل نمط حياته التي لم يستطع مرور آلاف السنين أن يغيره.

والبدو الذين يعيشون نمط حياة رعوي يتنقلون في بحثهم عن العشب لماشيتهم، من مكان إلى آخر باستمرار. والبدو الرحل لا يتحركون من أماكنهم طالما أن ماشيتهم تجد العشب ولا تشعر بالنقص في الماء ولكنك لا تجد بعد أن يرفع مخيم البدو لا عشباً ولا حتى شوكاً كما لو أن

الجراد قد اكتسح المكان، فكل شيء أجرداً وكل شيء يكون قد أكل وأتلف وأبيد. وبمجرد أن تظهر الحاجة للبحث عن مرعى جديد يجتمع وجهاء القبيلة في خيمة الشيخ للتداول فيتفقوا على تعيين يوم يرفع فيه المخيم ويحددوا محل نزولهم الجديد. وبمجرد أن يتم ذلك تبدأ القبيلة بالاستعداد بنشاط للانتقال حيث يقتصر دور الرجال على نقل أوامر الشيخ إلى النساء اللواتي تقع بعد ذلك على عاتقهن كل أعباء العمل في إعداد عوائلهن للمسير.

وقبل أن تبدأ القبيلة تحركها ببضع ساعات ترسل في البدء الأغنام إن وجدت يرافقها الرعاة وعدد كبير من الكلاب وكذلك النوق وأبناؤها وضعاف الابل. وتلافياً لأي عارض يقوم فرسان مسلحون بحراسة جناحي القطيع ومؤخرته، أما في المقدمة فيسير بضعة أشخاص من الأدلاء. وبعد القطيع ترسل الجمال بأحمالها الثقلية التي تتألف من متاع البيت وأكياس الطعام ثم الخيام التي كانت النساء قد طوينها، ثم بعد ذلك تسير القبيلة نفسها حيث تحمل النساء على الجمال أيضاً علماً بأن نساء الشيخ وأغنياء البدو يجلس أحياناً فيما يسمى بـ «شبراي» [1] وهي محفات تغطيها الستائر لكن الأغلبية يكتفين بـ «شكدوف» [2] وهي عبارة عن سلال كبيرة معلقة على جانبي الجمل يجلس فيها أيضاً الاماء والأطفال، أما الفقيرات جداً فيجلسن مباشرة فوق الحمل على الجمل بعد أن يجلسن أطفالهن في أقفاص صغيرة مجدولة من الأغصان ومثبتة على جل الجمال. ولا تبدأ القبيلة بالمسير دفعة واحدة في العادة وإنما تنفصل عنها حسب انتهاء

(١) الصحيح «شوداي» وهي لفظة يطلقها البدو على الهودج. المترجم.

(٢) اسمها عند البدو هو «لبيد». المترجم :

استعداداتها للمسير مجموعات صغيرة تتألف الواحدة منها من بضع عوائل معها عدد من الراجلين يسوقون الابل.

وتحاول هذه المجموعات أن تسير إلى يمين أو إلى شمال الطريق الذي اتبعه من سبقوها في السير وذلك لكي تؤمن لحيواناتها أثناء السير العشب الذي ترعاه والذي لا يمكن توفره طبعاً في حالة السير على نفس هذا الأسلوب في الحركة تنتشر القبيلة من مكان إلى آخر في مسافة تمتد لعدة فرستات طولاً وعرضاً وترحف ببطء نحو محل النزول الذي كان قد حدد سلفاً بالقرب من المياه أو أحد الأبار.

وتحدد المسيرة اليومية عادة بـ١٠ . ١٢ فرستاً وتأخذ القبيلة من حين لآخر فترة راحة تستغرق من يومين إلى ثلاثة ولكن الأمر في كلا الحالين يعتمد مباشرة على مكان وجود الماء. لذا يتحتم في بعض الأحيان استمرار السير لأكثر من يوم قبل الوصول إلى مكان الماء. وفي مثل هذه الحالة يسبق قسم من الفرسان المسلحين على جمال أو خيول سريعة. القبيلة ويحتلون مورد المياه لكي يؤمنوا الماء لذويهم. إن ضرورة البقاء بدون ماء لعدة أيام لا تقلق البدو ذلك أن البشر والحيوانات في الصحراء قد اعتادوا على الصبر على العطش. وهم يكتفون أثناء الأسفار الطويلة في مناطق معدومة المياه بحليب الابل ولهذا فإنهم لا يقومون برحلائهم الطويلة جداً الا في الربيع بعد أن تلد النوق والبدوي البالغ الصحيح الجسم يستطيع على ما يقوله البارون نولده [1]، أن يستغني عن الماء على الرغم من الحر اللافح لمدة ست وثلاثين ساعة على أن تحسب على أساس ليلتين ونهار واحد. وتعتبر الفرس جيدة إذا استطاعت أن تسير يومين بدون ماء. أما الجمل فلا

(1) Eduard Nolde. Op. cit. S. 30

ينبغي أن نتحدث عنه ذلك أن قوة تحمله معروفة للجميع.

وعندما تصل القبيلة أخيراً إلى الهدف الذي تقصده، يختار الشيخ مكاناً ليقام فيه المخيم ويعينه بأن يغرز رمحاً في الأرض ويربط به حصانه. ثم يعين كل بدوي موضع خيمته بالطريقة نفسها تاركاً للنساء تدبير الشؤون الأخرى. وأول عمل تقوم به البدويات في هذا المجال هو نصب الخيمة وإعداد الغذاء للعائلة ثم الاهتمام بعد ذلك بالحيوانات كسقيها الماء و وضعها في محل تبيت فيه إلى جوار الخيمة. وبعد الانتهاء من هذه الواجبات تشرع البدويات بترتيب الأمتعة التي تمتاز بالبساطة فيضعن في القسم الخاص بالرجال البنادق والسروج وفي هذا القسم تبيت أيضاً الحيوانات الضعيفة. أما الجزء الخاص بالنساء فإنه يكون محلاً للنوم وللأطفال ومطبخ ومستودع في الوقت نفسه. ولهذا تخزن فيه أكياس المؤونة وتوضع فيه كل لوازم البيت وهي: جرن خشبي للقهوة وبضعة دلال وعدة فناجين وعدد من الملاعق وأواني خشبية وطست نحاسي ورحى يدوية ومجمرة صغيرة وقرب للماء والحليب ولمخاض الزبدة. وهكذا فإن أثاث البدوي، كما يظهر من هذا التعداد بسيط ومتواضع كحياته نفسها.

إن الانتقال بالطريقة التي وصفناها تقوم به القبائل الكبيرة في وقت محدد من السنة وباتجاهات معلومة. فعنزة مثلاً تهبط في الشتاء إلى الجنوب فتصل إلى جبل شمر تقريباً وتتجه مع الربيع بحثاً عن المرعى إلى الشمال مرة أخرى فتقترب من حلب. ويقطع هؤلاء البدو بهذا الشكل على ما تذكره الرحالة الجريئة السيدة (Anne Blunt) حفيدة اللورد بايرون، سنوياً فيما بين تشرين الثاني وأيار ما يقرب من ألفي ميل. أن مثل هذه المسيرات الطويلة تقوم بها القبائل التي تشتغل بتربية الابل بالدرجة الأولى ،

أما القبائل التي تربي الأغنام فإنها لا تستطيع الاستغناء عن الماء، ولهذا فإنها لا تقطع مسافات كبيرة في تنقلاتها.

وهكذا فإن المراعي بالنسبة للبدو هي قضية حياة أو موت لذا فمن الطبيعي تماماً ان يعادي بعضهم بعضاً من أجل امتلاكها وإن تستمر عداوتهم سنين طويلة حتى يفقرهم ذلك الصراع إفقاراً تاماً. ويبدأ النزاع عادة عندما تعمد إحدى القبائل بعد أن تعجز عن إطعام ماشيتها التي ازدادت أعدادها كثيراً بتأثير جملة من العوامل الملائمة في الأماكن المعتاد لها. إلى احتلال مراعي تعود إلى قبيلة اخرى تحاول هذه الأخير أن تستعيد حقوقها بقوة السلاح فيقوم صراع دموي يتسع بالتدريج فيشمل قبائل متزايدة باستمرار لأن الجانب المنكسر يعمد فوراً إلى طلب المساعدة والاسناد من القبائل الصديقة التي ترى ضرورة الاستجابة للطلب على اساس قانون المبادلة بالمثل.

وإذا ما اندحرت القبيلة التي امتلكت مراعي الغير بالقوة اندحاراً تاماً لا يبقى أمامها إلا الهرب وذلك لكي لا تفقد كل ما تملك. إن تراجعاً مثل هذا يجري تحت ضغط الخصم وملاحقته، لا يشبه بالطبع الانتقال السلمي ذلك أن النجاة في مثل هذه الحالات تكمن في سرعة الحركة فقط.

وتحمي القبيلة المتراجعة نفسها من الخصم بفصيل من الـ «مردوف» وهي جمال سريعة الحركة يركب على كل منها إثنان من المحاربين (١) (٢)

---

(١) المعروف ان «المردوف» كلمة تطلق على الراكب الثاني الذي «يردفه» الراكب الأصلي خلفه على الحصان أو الجمل. المترجم.

(٢) المردوف هو الدابة التي يركب عليها والراكب الاول هو المردوف يضم الميم وفتح الدال ويمكن تسميته مردوفاً إذا كان خلفه راكب آخر هذا الراكب الأخر يسمى الردف والرادف والرديف والمرتدف لا ما ذكره المترجم. حميد الدراجي.

وتستمر بالهرب تخلصاً من المطاردة، دون أن تعرف الراحة ودون أن تتوقف لإعداد الطعام أو للمبيت فهم ينامون أثناء السير وذلك بأن يتمددوا على طول ظهر الجمل ويدخلوا أرجلهم في أكياس مثبتة في عنقه كي لا يسقطوا أثناء النوم. وقد أوجدت الممارسة أيضاً وسيلة للطهي لا تتطلب التوقف وتقوم على مبدأ تقسيم العمل بين عدة نساء حيث تقوم واحدة منهن بطحن الحنطه المعدة سلفاً برحى يدوية دون أن تترجل عن جملها ثم تعطي الطحين إلى أمراة أخرى تقوم وهي على الجمل أيضاً بتحضير العجين منه وذلك بأن تسكب عليه الماء من قرب معلقة بجل الجمل. وأخيراً تقوم راكبة أخرى بخبز العجين على مجمرة [1] منقولة صغيرة بعد إحمائها بروث الابل المجفف. ثم تخلط الأرغفة نصف الناضجة التي تحضر بهذه الطريقة بحليب الابل الذي يستحضره الرجال أثناء السير أيضاً.

وحتى مثل هذا التراجع السريع لا يؤدي في بعض الأحيان إلى النجاة من أيدي العدو الذي يلحق بالمؤخرة فيقضي عليها ويدرك الهاربين فيأخذ منهم جميع ما يملكون ابتداءً من الابل. وتعتبر الخيول من الغنائم المفضلة أكثر من غيرها حيث أن لها في نظر البدو قيمة كبيرة إلى درجة بحيث أن العرف السائد يقضي بأن يرجم المنتصر العدو الذي يعطيه إياها اختياراً. ويكون فقدان الحيوانات السبب الرئيسي في فقر وإملاق القبائل وذلك لأن حياة البدو الرحل برمتها تستند بشكل كلي كما رأينا على الماشية وعلى المنتجات الحيوانية.

وعلى الرغم من احتمال الوصول إلى مثل هذه الحالة فإن المنازعات الداخلية في الصحراء لا تتوقف تقريباً حتى أنه من المشكوك فيه أن تكون

---

(١) إن اسمها هو «تاوة» أو «صاج» . المترجم.

هنـاک اوقـات يسـود فيهـا بـين القبائـل البدويـة جميعـاً دون اسـتثناء السـلام والهـدوء والاطمئنـان. إن السـعي إلى الغنـائم والأمـل في الانتفـاع علـى حسـاب الأقربـاء يتغلبـان عـادة على التعقـل والحـذر فيلجـأ البـدو إلى السـلاح بمجـرد أن تسـنح لهـم الفرصـة. ويعتـبر الأخـذ بالثـأر والحسـابات القديمـة بـين قبيلتـين والكراهيـة الموروثـة بـين الشـيوخ وأخـيراً النـزاع بسـبب المراعـي أو الآبـار، حجة كافية لإعلان الحرب.

لقـد كـانوا في الماضـي يعلمـون العـدو بالقطيعـة لكـن هـذه العـادة أخـذ اسـتعمالها يبطـل في الوقـت الحاضـر أكثـر فـأكثر بحيـث أصـبحت الغـارات المفاجئـة الهادفـة إلى أخـذ العـدو علـى غـرة، التكتيـک المفضـل للبـدو في الوقت الحاضر، كما يلاحظ الرحالة المختلفون.

ويمكـن أن تقسـم الحـروب، تبعـاً للأسـباب الـتي تثيرهـا إلى سياسـية وغـير سياسـية؛ الأولى يكـون أساسـها صـراع بـين قبيلتـين أو تنـازع الشـيوخ علـى السـلطة ولا يتنهـي الصـراع إلا بعـد أن ينـدحر أحـد الخصـمين نهائيـاً ويتمـزق بحيـث يفقـد فـترة طويلـة أيـة قـوة أو أهميـة. إنهـم لا يلتفتـون في مثـل هـذه الحـروب إلى غـزارة الـدم المسـفوک فتسـقط آلاف الضـحايا مـن كـلا الجـانبين. ويمكـن أن يكـون مـثلاً علـى ذلـک النـزاع الأخـير بـين أمـير نجـد الراحـل عبـد العزيـز بـن متعـب مـن جهـة والأمـير الوهـابي عبـد الله بـن مسـعود [١] وشيخ الكويت مبارک بن صباح من جهة أخرى.

أمـا الحـروب غـير السياسـية وهـي الـتي لأي سـبب كـان فإنهـا أكثـر اعتـدالاً لأن هـدفها الرئيسـي يكـون الاسـتيلاء علـى ممتلكـات العـدو ولـيس

---

(١) الصـحيح انـه عبـد العزيـز آل سـعود وسـيأتي ذكـر احـداث النـزاع في الجـزء الثـاني من الكتاب. حميد الدراجي

القضاء على حياته.

ولهذا فإن سفك الدم يكون في هذه الحالة ظاهرة نادرة واستثنائية علماً بأن مثل هذه النزعة الانسانية غير المعتادة في أبناء الصحراء مع ما يتميزون به من مزاج حاد سريع التأثر واحتقار تام للحياة عموماً ولحياة الأغراب على وجه الخصوص مردها قانون انتقام الدم (الثأر) الصارم.

إن مبدأ «العين بالعين» الثابت يرجع في اصله إلى قرون طويلة سابقة. فقبل ظهور محمد بفترة طويلة كان من الحقائق الثابتة لدى الناس أن دم الضحية لا يغسله إلا دم القاتل الذي سقطت تلك الضحية بيده. وقد تغلغلت هذه العادة بين سكان شبه جزيرة العرب إلى درجة بحيث أنها وردت في القرآن [1] فجرت بذلك المحافظة عليها حتى وقتنا الحالي وتقضي الأعراف التي تكونت عبر القرون بأن لا يجري الانتقام من القاتل نفسه فقط وأنما يقع الثأر على أقاربه المقربين أيضاً. أما الذين يأخذون بالثأر فهم جميع أقارب المقتول. ولكي لا يفسر هذا المبدأ تفسيراً واسعاً وتلافياً للاستمرار في إراقة الدماء دون طائل يحدد العرف المعتاد في الصحراء بدقة درجة القرابة بالنسبة للذين يأخذون بالثأر وبالنسبة للذين يؤخذ منهم الثأر حيث يقضي بأن يشمل الثأر جميع أفراد العائلة الرجال حتى الجيل الخامس صعوداً ونزولاً. ويعبر البدو عن ذلك بصيغة مجازية قصيرة هي: «الثأر في الخمسة» ولأرقاب القاتل طبعاً الحق في الاتفاق مع

(١) ما ورد في القرآن الكريم من أحكام القصاص لا يلتزم بها البدو وهي أحكام في غاية الاتقان والعدالة إذ انها من لدن المولى عز وجل العلم والحكم والفقه الإسلامي تكفل ببيان ذلك يوجه تام اذ ان البون شاسع بين التعاليم القرآنيه وجاهلية الاعراب. حميد الدراجي

أقارب القتيل حول دفع ثمن الدم «الدّية» لكن أولئك قلما يوافقون على مثل هذه الصفقة ويفضلون في أغلب الأحيان تنفيذ قانون الثأر حرفياً. فيحل بذلك بالنسبة للقاتل وأقاربه وقت عصيب ويتحتم عليهم البحث عن النجاة بالهرب والانتقال إلى قبيلة أخرى حيث يستخدمون عرفاً مقدساً آخر عند البدو هو حق اللجوء (دخيل) (١).

والامتناع عن قبول الدخيل محرم حتى لو كان عدواً إذا استطاع أن يتسلل خفية إلى خيمة الشيخ ويتشبث بعمودها أو أن يصيب الشخص الذي يبحث عنده عن الحماية بحجر صغير يرميه عليه أو بلعاب ببصقة عليه (٢) أو بأن يعقد طرف كوفيته على أن يردد في كل حالة من هذه الحالات عبارة «أنا دخيلك» أي أنا تحت حمايتك. ولهذا بإمكاننا أن نجد في كل قبيلة تقريباً عوائل كاملة ملتجئة هرباً من الثأر وهناك اصطلاح خاص يطلق على مثل هؤلاء الهاربين هو «جيلاوي» (٣).

وحتى الذين يسقطون في ساحة المعركة يؤخذ بثأرهم إذا كان القاتل معروفاً بشكل مؤكد غير أن القضية في مثل هذه الحالات تنتهي بالصلح على أساس أن يدفع خسمون جملاً عن كل قتيل. وعندما تتصالح قبيلتان متعاديتان يحاول شيخاهما قبل كل شيء تصفية مثل هذه الحسابات ثم يحفران حفرة يدفنان فيها سبعة أحجار علامة على الصلح التام ونسيان الخلافات السابقة.

---

(١) تطلق كلمة «دخيل» على الشخص الذي يتمتع بحق اللجوء هذا ـ المترجم.

(٢) لا تستخدم البصقة في طلب اللجوء عند البدو على حد علمنا ـ المترجم.

(٣) اعتقد أن الكلمة التي تستخدم في هذه الحالة هي «مجلي» من «يتجلى» التي تعني يرحل. وتطلق على من يرحل عن عشيرته غضبها عليه ـ المترجم.

وتفسر لنا موضوعات قانون الثأر الأساسية السبب الحقيقي الذي يجعل الحروب البدوية العادية عديمة القتلى نسبياً. فالواقع أن المهاجمين يحاولون، بسبب المسؤولية التي أشرنا إليها والتي تترتب على كل قتيل، أن يتجنبوا قدر الامكان أن يسببوا جروحاً قاتلة لأعدائهم الذين يتبعونهم أيضاً الأعتبارات نفسها [1] لذا فإن القضية برمتها تحل في بعض الأحيان عن طريق المبارزة التي يقوم بها البعض والتي يحب البدو أن يظهروا فيها شجاعتهم وحذقهم وفطنتهم، وتختتم المبارزة في العادة باشتباك عام. وكل مقاتل يشعر بعدم مقدرته على مواصلة القتال ينطلق هارباً فيعمد المنتصر إلى تعقبه إلى أن تخور قوى الهارب فيترجل ويرتمي على الارض معلناً الاستسلام، فيلقي المنتصر عقاله، وهو ضفيرة من وبر الابل وظيفته تثبيت الكوفية فوق الرأس، على عنقه ويجعل منه أسيراً له، وتصبح فرس الأسير وسلاحه ملكاً للمنتصر في حين يبقى هو في الأسر إلى أن يتسلم الاسر فدية عنه. ويعامل هؤلاء الأسرى في الوقت الحاضر معاملة إنسانية لكنهم كانوا في العصور السابقة يعرضونهم لكل أنواع التعذيب والآلام وذلك بهدف الحصول على الفدية بسرعة.

وبسبب الطابع الرياضي للمنازعات غير السياسية لا يعتبر الهرب عاراً وإنما مجرد وسيلة لأرجاء الاستسلام الذي ينظرون إليه بدوره نظرتهم إلى الاستسلام في جولة من اللعب اعتبرت خاسرة.

على أية لا تثير الحرب لدى البدوي ذلك الاهتمام الأخاذ الذي يثيره «الغزو» أي الغارات الوحشية على الجيران التي يستطيع البدوي فيها أن يظهر بسالته ويستخدم فائض قواه وطاقاته، ولهذا فإنهم ينصرفون إليها

---

(1) (denis de rivoyre. Op. cit. p. 176ff.)

بشغف خاص ويستعدون لها بعناية وبسرية تامة وذلك لكي يضمن تماماً نجاح الغزو. ويرسل في مثل هذه المهمات عادة شباب البدو على شكل عصابات تختلف في عدد أفرادها لكن الواحدة منها لا تقل بأية حال عن ثلاثة أشخاص لأن أحدهم يجب أن يجذب انتباه كلاب المخيم في حين يتولى الآخر الحراسة في مدخل الخيمة بينما يقوم الثالث بحل الابل والخيول الموجودة في تلك الخيمة. ويشترك في مثل هذه الحملات أحياناً جميع رجال القبيلة فلا يبقى في المخيم غير النساء والأطفال والشيوخ والعجزة، ويحدث أحياناً أن تعود القبيلة من الغزو فلا تجد من مخيمها إلّا آثاراً قليلة حيث يكون قد تعرض أثناء غياب أصحابه لهجوم مضاد من جيرانهم استولوا فيه على كل ما يسهل حمله واخذوه معهم ولم يرحموا إلّا النساء والأطفال والشيوخ والعبيد لأن هؤلاء لا تجيز قوانين الصحراء أسرهم.

ولا تسلم من هذا «الغزو» حتى المدن فالبصرة مثلاً تعرضت في الفترة التي بقيتها فيها للهجوم عدة مرات وتركزت الغارات في أغلب الحالات على ضواحي المدينة المتآخمة للصحراء حيث يستطيع المهاجمون أن يختفوا بسرعة وبدون عقاب قبل أن يطلق الانذار. فالغارات على مركز المدينة كان تقترن بخطر الصدام مع حاميتها التركية ولهذا فإنها كانت أندر حدوثاً ولكنها أكبر حجماً. حيث يحتل قسم من العصابة جميع مداخل ومخارج هذا الحي أو ذاك يحرسها بانتباه بينما تنهمك بقية المشاركين بالغزو في النهب حيث بتوجهون إلى الموسرين والتجار ويجبروهم عن طريق تهديدهم بالذبح على أن يتخلوا لهم عن نقودهم وحليهم. وقد دفع بعض العنيدين الذين لم يريدوا أن يتخلوا عن ممتلكاتهم حياتهم في حين كان المستطرقون الذين أوقعتهم الصدفة في

الحصار ينجون إلا من جروح بعضها خطير وبعضها الآخر بسيط وكانت العصابة في العادة تنسحب دون عقاب وتأخذ معها غنائم كانت تقدر في بعض الأحيان بعشرات الألوف من القروش.

ولا يرحم الشجعان الذين يخرجون إلى الغزو ويغيرون على المخيمات قوافل الحجاج والمسافرين المنفردين الذين يصادفونهم في الطريق ولهذا فإن مصادفة الناس في الصحراء تثير دائماً القلق فبمجرد أن تظهر من بعد مجموعة من الفرسان أو المشاة يتيقظ الجميع ويستعدون لكل الاحتمالات. ولهذا السبب أيضاً يرتاب العربي الذي يصادف في الصحراء دائماً في الأسئلة التي توجه له عن الطريق أو عن مكان هذه القبيلة أو تلك فيحتج عادة بالجهل أو يعطي متعمداً معلومات مغلوطة، وبسبب هذا الخوف من التعرض لهجوم عصابة تجوس الصحراء لأجل «الغزو» لا تبيت القبائل المتنقلة أبداً قرب الماء أو البئر أو في طريق الذي يؤدي إليهما وإنما تختبئ في موضع يمتاز بالتموج أو وراء رابية ويتجنب أفرادها إشعال النار في الليل. وبسبب ذلك يستحيل تقريباً معرفة مكان وجود أية قبيلة في الصحراء دون إدلاء وذلك على الرغم منت اتساع مدى الرؤية.

والصحراء جميعها يقطنها من وجهة نظرنا وحوش غير أن البدوي ينظر إلى هذا الاستنتاج على أنه إساءة كبيرة له. إنهم شديد والاحتقار للصوص (حرامي) أي الأشخاص الذين تثبت سرقتهم لذويهم، وهم يقطعون يد السارق اليمنى إذا لم يستطع أن يدفع خمسة من الابل كغرامة، ويطردون المجرمين من القبيلة دون أسف، ويتحد جميع هؤلاء المطرودين على ما تقوله (1) (Anne Blunt) فيشكلون قبائل قائمة بذاتها تتألف كلياً من

---

(1) Anne blunt: op. cit. vot. II. P. 225.

اللصوص.

أما الغزو أي نهب الجيران الذي تقوم به جماعة كبيرة فإنه لا يعتبر لصوصية وإنما على العكس ينظرون إليه على أنه عمل شريف كرسته القرون بل على أنه عمل شرعي ذلك أن الصحراء يسود فيها نظام كامل «للغزو» يقضي «بحق النهب» إذا صح التعبير. ويبرر البدو ذلك خصوصاً تجاه الأجانب بان اراضيهم قاحلة، الأمر الذي يعطيهم الحق في أن يكافئوا أنفسهم بالقوة على حساب سكان الأقطار الغنية.

وقد أدى «حق النهب» هذا بدوره إلى ظهور نظام الأفتداء من غارات النهب ومفاده أن يدفع الشخص الراغب في أن يؤمن لنفسه سفراً آمناً في الصحراء إلى شيوخ القبائل التي سيتحتم عليه المرور بالقرب من مخيماتها مكافأة معينة مقابل تخليهم عن ممارسة «حق النهب» هذا.

وبهذه الطريقة نفسها تكون عرف خاص يقضي أن تدفع القوافل التجارية السائرة خلال بلاد العرب جزية محددة للشيوخ الذين يمدونها بالادّلاء وبالحرس المسلمين لحمايتها من «الغزو» أو من غارات القبائل الأخرى التي لم تأخذ التعويض. وتعمد القوافل السائرة من حلب أو دمشق إلى بغداد وبالعكس إلى تسوية مثل هذه الحسابات مع جمعيات من وكلاء الشيوخ المعنيين تتألف في المدن المذكورة لضمان أمن الحركة التجارية. وتأخذ القبائل التي تقع مخيماتها على طريق سير القوافل المذكورة قسماً معلوماً من التعويض المدفوع. كما أن الجمعيات المذكورة تعين من بين أعضائها وكيلاً عنها يعرف باسم «كروان باشي» أي قاد القافلة يكون مسؤولاً عن أمن وسلامة هذه الأخيرة، وتقع على عاتقه مهمة اختيار طريق السير وإرسال الكشافة وتعيين موضع المبيت والحرص على الانتهاء من الأكل قبل مغيب الشمس وإطفاء النيران كلها تلافياً للتعرض لغارة ليلية.

وبسبب الحر الشديد الذي لا يحتمل تبدأ القوافل في الصيف سيرها مع المساء وتنتهي منه قبل منتصف الليل.

وقد أخبرني بعض المسافرين بأنهم لكي يسيروا إلى بغداد بأمان كانوا يدفعون في حلب جزية معينة لممثل الشيوخ البدو هناك فيعطيهم ذلك الممثل رسائل توصية خاصة ممهورة باسمه، وفي بعض الأحيان كان يعطيهم مجرد عصا عليها حزوز غامضة. لقد كانت هذه العصا السحرية بالنسبة لهم جواز مرور يكاد يكون أفضل من الرسالة نفسها.

وتفتدي نفسها من هجمات البدو، إلى جانب القوافل التجارية والمسافرين المنفردين كثير من المدن الصغيرة مثل هيت الواقعة على الفرات والفلوجة وغيرها.

فكل من هذه المدن تدخل مع القبيلة القوية المجاورة في أخوة (خوّة) لكي تحميها من هجمات ونهب القبائل الرحالة الأخرى مقابل مبلغ معين يفوق في أحيان كثيرة مجموع الضرائب الحكومية.

ولا تقل عن ذلك الفدية التي كانت تدفعها حتى وقت قريب قوافل الحجاج الفرس التي تتوجه سنوياً من بغداد إلى مكة والمدينة بعد زيارة مرقد الحسين في كربلاء وعلي في النجف، ويمر طريق هذه القوافل من خلال حائل عاصمة نجد حيث يأخذ أمير نجد منها مبلغاً كبيراً ثم يجعلها تواصل سيرها بعد أن يجهزها بتوصيات إلى شيوخ الحربيين الذين تربطهم به علاقات وديةز لقد كان الحجاج الفرس يستطيعون بفضل هذه الحماية أن يؤدوا حجهم بأمان نسبياً إلى أن قام منذ وقت قريب الصراع المستمر والقاسي بين أمير نجد وزعيم الوهابيين عبد الله بن سعود وحليفه مبارك شيخ الكويت فتوقفت حركة قوافل الحجاج على الطريق المذكور نهائياً. والآن ومع استقرار أبن سعود في حائل يصعب أن نأمل بعودة السفر إلى

الحج من طريق الصحراء ذلك أن الوهابيين كما هو معروف أعداء لدودين للحج [١].

أما بخصوص ما يسمى بـ «القافلة المقدسة» التي تتوجه سنوياً من دمشق وتنقل منها إلى مكة باسم السلطان «محمل» وهو ستارة من القطيفة الموشاة بالفضة للكعبة المقدسة فإن الحجاج السائرين معها يتعرضون عادة للغارات والنهب. فمع كثرة الحجاج المنضمين إلى هذه القافلة والذين ينتشرون بإهمال على مسافات كبيرة تكون الحراسة العسكرية غير كافية لحماية القافلة كلها ويستغل البدو ذلك وعلى الأخص أولئك الحربيون الذين سبق ذكرهم فيقومون بغارات ليلية مباغتة ويسلبون المتخلفين والمتوانين من الحجاج ثم يختفون في ظلام الليل بسرعة قبل أن تستطيع القوات التركية إنجاد من وقع عليهم الهجوم.

ويصيب المصير نفسه القوافل التجارية المسافرة من العجير ميناء الحسا إلى عاصمتها الهفوف، فرغم أن الجنود الأتراك يحمون هذه القوافل إلّا انها تتعرض بانتظام للنهب، كلياً أو جزئياً من قبل القبائل البدوية المجاورة التي تكون مثل هذه الغنيمة بالنسبة لها ثمينة إلى درجة بحيث تدفعها إلى أن تخاطر بتبادل النيران مع الحفنة من الجنود الأتراك.

وإذا ما كان حب «أبناء الصحراء» للسلب يبرر لحد معين غاراتهم على القوافل التجارية والمسافرين الانفراديين وعلى المجتمعات المجاورة

(١) الحقيقة إن الوهابيين ليسوا ضد الحج كفريضة من فرائض الإسلام ولكنهم لا يعتبرون زيارة قبل الرسول الكريم من متطلبات الحج كما أنهم منعوا المظاهر الاحتفالية التي كانت تصاحب مواكب الحجاج القادمة من مصر والشام مثلاً ــ المترجم.

فإن الحجاج المسلمين الذين يؤدون إحدى فرائض الإسلام الأساسية بصعوبات كبيرة وخسائر مادية ملحوظة كانوا يستطيعون على ما يبدو أن يأملوا باحترام كبير من جانب البدو إخوانهم في الدين. وحتى في عصور الوثنية قبل محمد بوقت طويل كانت هناك أربعة أشهر في السنة اعتبرت أشهراً مقدسة يمتنع العرب خلالها عن الغارات والعمليات الحربية وذلك لكي يستطيع من يرغب الحج بسلام إلى معبد الأصنام في مكة ويستطيع المشاركة في البيع والشراء في السوق المحلي.

أما سلب البدو في الوقت الحاضر لحجاج مكة فإن تفسيره يكمن في حقيقة أنّ إسلام هؤلاء البدو لا يمت بصلة إلّا قليلاً للدين الذي يعتنقه أتباع النبي محمد (1) فالبدوي يعترف بإله حقيقي واحد وهو الخالق القادر على كل شئ يملك مصير الانسانية كله ويجب أن تخضع له الخلائق بأجمعها.

إن هذا الإيمان المقتضب هو في واقع الأمر كل اعتقاد البدوي بالإسلام فالبدو لا يؤدون لا الصلوات الخمسة التي يجهد المسلمون في الاقطار الإسلامية كافة على تأديتها بعناية ولا الطقوس والالتزامات الدينية الأخرى فهم يتميزون على العموم بالكثير من اللامبالاة تجاه كل القضايا المتعلقة بالدين ولا يهتمون بالقضايا المجردة إلّا قليلاً. فليس لدى البدوي، في ظل عيشه الدائم على مرأى من الناس وتنقلاته المستمرة و وطيس منازعاته التي لا تنتهي، وقت لأن يستسلم للتفكير. إنه منهمك بكليته في الحاضر ويعيش ليومه هذا إضافة إلى أنه لا يوجد من بين سكان الصحراء إلّا القليل ممن يعرفون القراءة ولهذا ظل القرآن بالنسبة للأغلبية الساحقة

---

(1) Palgrave: op. cit. vol l. p. 9. FF.

بعيد المنال سيما وإنه لا يوجد رجال دين في الصحراء، فالسيدة (Anne Blunt) هي وحدها من بين الرحالة الذين نعرفهم، التي تذكر أنها رأت عند بدو شمر ملّا أنيطت به مهمة مراسلة السلطات التركية نيابة عن شيخ القبيلة الرئيس أكثر من مهمة قيامه بالشؤون الدينية.

أما في العراق الجنوبي فبإمكاننا أن نصادف ملّا في كل مخيم بدوي تقريباً، وهو هناك لا يتمتع بالتبجيل والاحترام فقط، إنما يتمتع أيضاً بسلطة معينة في قبيلته. وينبغي أن نبحث عن تفسير هذه الظاهرة في حقيقة إن أغلبية القبائل العربية التي تقطن العراق تعتنق المذهب الشيعي وتتميز عن أبناء جلدتها في صحراء الجزيرة العربية بالتدين الشديد والتنفيذ الصارم لتعاليم الإسلام الأساسية، وينعكس في ذلك دون شك أثر قرب مدينتي الشيعة المقدستين كربلاء والنجف.

وبسبب اللامبالاة التي يتميز بها موقف البدو من الإسلام فإن جميع العادات والطقوس التي ترتبط عندهم باللحظات المهمة في الحياة البشرية تختلف بعض الشئ عن تلك النافذة عند المسلمين عموماً حيث تحمل عندهم آثار العصور السحيقة القدم أكثر من كونها تحمل آثار تعاليم محمد الدينية.

وتكون ولادة الطفل وخصوصاً الذكر حادثاً سعيداً، فتدعو القابلة الأب على الستارة التي تفصل الجزء المخصص للنساء من الخيمة عن الجزء المخصص للرجال وتخبره بجنس الوليد فتتسلم عن الوليد هدية خاصة لا تدخل ضمن ما يدفع لها نظير ما قامت به من عمل. إن ولادة وريث للأب تكون فخراً له وتسبغ عليه اعتباراً بين العرب بحيث لا يدعونه منذ تلك اللحظة إلّا بأبي فلان (اسم الوالد). أما ولادة البنت فإنها لا تثير فرحاً خاصاً لأن الفتاة لا تعتبر إلّا عضواً مؤقتاً في العائلة أي إلى أن تتزوج.

لقد كانوا ينظرون إلى الفتيات في عصر الجاهلية نظرتهم إلى أفواه

زائدة ينبغي التخلص منها في اول فرصة حتى أنّ عادة بربرية كانت سائدة بين الأسر العربية الشديدة الفقر هي دفن البنات الوليدات وهن أحياء ولم تبطل هذه العادة إلّا بعد أن ترسخ الإسلام في شبه جزيرة العرب.

وبعد أن يعلم الأب بولادة الطفل يسرع بنقل هذا الحدث العائلي إلى الأقارب والأصدقاء المجتمعين خارج الخيمة أو في الخيمة المجاورة. وبعد التهاني والتبريكات تبدأ الوليمة علماً بأنهم يذبحون في بعض الأحيان خروفاً كان قد نذر مسبقاً ليوزع على الفقراء. وفي اليوم الثالث يسمح للأقارب المقربين الدخول على النفساء حيث تطلب الجدة بحضورهم أن يسمى الوليد. وغالباً ما يسمى الوليد باسم جده أو أبيه أما البنت فإن الجدة هي التي تختار لها اسمها [1] على اننا ينبغي أن نشير إلى أن الرحل العراقيين هم وحدهم الذين يلتزمون بدقة تزداد أو تقل بالأسماء الاسلامية مثل محمد وعلي وما أشبه أما بدو شبه جزيرة العرب فإنهم يطلقون العنان تماماً لخيالهم بهذه المناسبة وخصوصاً بالنسبة للبنات اللواتي يطلقون عليهن أسماء أبراج النجوم أو الطيور أو حيوانات الصحراء.

ولا تحظى كل البدويات بمثل هذه العناية أثناء الولادة، فأغلبيتهن وخصوصاً اللواتي ينتمين إلى عائلات فقيرة طبعاً يواصلن العمل حتى اللحظة الأخيرة ولهذا فإنهن غالباً ما يلدن وهن يجمعن الشوك الجاف للوقود بعيداً عن المخيم أو أثناء السير حيث تترجل المرأة التي يأتيها المخاض عن الجمل وتتخذ منه ستراً تحتمي خلفه. وتقوم الأم بنفسها بتنظيف الولد وغسلة بالتراب، وبعد ان تلفه بمنديل تنزعه من رأسها

---

(١) العادة الشائعة عند البدو هي عن اسم البنت الوليدة تختاره لها الجدة التي تولت ولادتها ـ المترجم.

تحملـه إلى الخيمـة أو تمتطـي معـه جملهـا وتسـرع للحـاق بأهلهـا. ويتغـذى الطفل بحليب الأم طيلة شهور ثلاث يحولونه بعدها إلى حليب الإبل.

وبعـد أن يبلـغ الطفـل السـابعة مـن عمـره يجـري لـه الختـان الـذي ترافقـه عـادة الاحتفـالات والـولائم المصـحوبة بالموسـيقي والـرقص. والـرقص عنـدهم هـو أن يمسـک البـدو بأيـدي بعضـهم فيكونـون حلقـة ويبـدأون بالحركـة بـبطء بمصـاحبة نغمـات رتيبـة يطلقهـا الراقصـون أنفسـهم. وبسـبب مـن أن الختـان يعتـبر أكـبر الاحتفـالات في الصـحراء فـإنّ الوالـدين يجهـدان لأن يجعـلا هـذا العيد العائلي أكثر بهاء قدر الامكان.

ومـن أجـل تـلافي المصـروفات الـتي تفـوق الطاقـة تتفـق عـدة عوائـل علـى جعـل ختـان أولادهـا في يـوم واحـد فتشـترک سـوياً بإستضـافة المـدعوين. ويعتـبر مـن الملـزم في مثـل هـذه الحـالات أن يـوزع علـى فقـراء القبيلـة خـروف أو حتى حوار مشوي.

والـزواج عنـد البـدو يكـون مبكـراً ويـأتي في الغالـب عـن حـب، فعـدم وجـود حيـاة الحـريم المغلقـة عنـدهم يمكـن الشـباب والشـابات مـن مشـاهدة بعضـهم بعضـاً. فيرتبطـون في بعـض الأحيـان ببعضـهم منـذ سـنوات الصـبا، والطريـف أن قـوانين الصـحراء تقضـي بـأن يكـون عـريس الفتـاة الحقيقـي أبـن عمهـا الـذي لـه حـق الأفضـلية في الـزواج منهـا، وابـن العـم هـذا غـير ملـزم بـأن يتزوجهـا بشـكل حتمـي لكـن الفتـاة لا تسـتطيع الـزواج مـن آخـر إلّا بموافقتـه أو بعـد أن يـرفض الـزواج منهـا رسميـاً. وقـد حافظـت هـذه العـادة علـى رسـوخها كـاملاً حـتى الوقـت الحاضـر وذلـک مـا يؤكـده الخـلاف الطريـف الـذي جـرى وصـفه في كتـاب [1] (Lady Anne Blunt) والـذي قـام بـين شـيخ عنـزة القـوي

(1) Anne Blunt: op. cit. vol. II. Pp. 105 - 106.

آنذاك جدعان وشاب مغمور تماماً من قبيلة سرحان، فقد جاهر الشاب بحقه في الزواج من ابنة عمه التي كانت قد تزوجت لتوها من الأول. انّ هذا الشاب لم يرفض الزواج من ابنة عمه رسمياً ولكنه كان يؤجل الزفاف من سنة إلى أخرى إلى أن بلغت الفتاة الثلاثين من عمرها فأصبحت بالنسبة للصحراء عانساً تماماً. ولذا فقد وافق والداها بسرور على تزويجها من جدعان الذي حصل، كما يقضي العرف، على موافقة أقارب العروسة بواسطة الخطاب ثم ذبح أمام خيمة صهره المقبل خروفاً بحضور الشهود ومهر بدمه المسفوح على الأرض عقد الزواج. وبعد غروب شمس هذا اليوم نفسه اقتيدت العروس، التي كانت تحاول حسب العرف السائد أن تختبئ عند إحدى صديقاتها، إلى خيمة العريس التي كانت قد ضربت على مبعدة من المخيم، ثم بدأت بعد ذلك الولائم المعتادة عند أقارب العروس. وقد حضرت (Anne Blunt) التي كانت قد وصلت إلى المخيم مع زوجها هذه الولائم. ولم تكد احتفالات الزواج هذه التي تستمر عند البدو سبعة ايام تنتهي، إلّا وظهر المطالب بيد العروس الذي سبقت الاشارة إليه. وقد رفض المطالب جميع الاقتراحات التي قدمها له العريس بما في ذلك استعداده لدفع التعويض واستمر يطالب بإصرار بيد ابنة عمه. وقد تحتم على جدعان أن يتنازل لمنافسه الذي كان يستند إلى العرف البدوي القديم، فأرسل عروسه إلى شيخ قبيلة سرحان على أن يحضر بعد مضي الوقت زفاف المرأة التي كانت زوجته منذ عهد قريب إلى ابن عمها.

وفي الوقت الذي يلاحظ فيه اختلاف في طقوس الزواج لحد معلوم فإن الخطبة تكون عند جميع قبائل البدو على نمط واحد. ويقضي العرف السائد في الصحراء بأن بنات الشيوخ هن وحدهن القادرات على اختيار عرسانهن أما بقية الفتيات البدويات فإن عليهن في هذه الحالة أن يخضعن

لإرادة الوالدين الذين يحسمون القضية عادة عن طريق المحادثات المباشرة مع خطاب العريس. ومع ذلك لا يخاطر العريس بطلب يد الفتاة التي راقته دون أن يحصل على موافقتها سلفاً، ولتحقيق ذلك يرسل إلى محبوبته إحدى قريباته الكبيرات السن او وهو الغالب، عجوزاً من مخيمه تعمل خاطبة. ويتفق الخطاب في حالة الموافقة مع والدي العروس على مقدار مهر الفتاة أو ما يسمى بـ «حق البنت» الذي يدفعه العريس لأبي العروس أو إلى كبير الأسرة أخاً كان أو عماً في حالة كون الأب متوفياً. ويكون المهر إما على شكل نقود تدفع نقداً أو ماشية علماً بأنه غالباً ما يدفع على أقساط وإذا لم يكن العريس في حالة تمكنه من دفع المبلغ كله أو في حالة كونه فقيراً يوافق والدا العروس أحياناً على أن يعوض صهرهما المقبل مهر البنت أو جزءاً منه عن طريق العمل لحسابهما.

ويتكون صداق الفتاة عادة من الملابس التي ترتديها والفراش وهو وسائد محشوة بالصوف وبساط من الصوف حاكته العروس بنفسها. وبنات الأغنياء هن وحدهن اللواتي يتسلمن صداقهن ملابس جديدة وجمل يقوم على سنامه هودج تنقل به العروس إلى خيمة خاصة تضرب للشابين خارج المخيم. وإلى تلك الخيمة يقاد بعد ذلك العريس الذي يقضي أسبوع الزفاف كله مع عروسه في تلك الخيمة المنفردة لا يخرجان منها إلا للمشاركة في الولائم والاحتفالات التي يقيمها لهما أقاربهما وأصدقائهما الشبان. ولا ينتقل المخيم الذي يجري فيه زواج من مكانه طيلة «اسبوع العسل» ذلك إن الانتقال قبل انقضاء أسبوع العسل، حتى ذلك الذي تحتمه الظروف الاضطرارية يعتبر علامة شؤم بالنسبة للمتزوجين حديثاً.

وإذا ما كان على العرائس من الفتيات على ما يقضي به العرف في الصحراء أن يظهرن عفتهن بأن يقاومن ويبكين وينتحبن ويحاولن الاختفاء

في مكان ما أو الهرب عندما يقودوهن إلى خيمة العريس، فإن مثل هذا التصنع يعتبر مبتذلاً تماماً بالنسبة للأرامل والمطلقات، حتى إن من تحاول منهن أن تقاوم تصبح مثاراً للضحك، هذا فضلاً عن أنّ احتفالات لا ينبغي أن تجري عندما تتزوج الأرملة أو المطلقة من جديد إلّا إذا كان العريس يتزوج للمرة الأولى. لقد تكونت عند البدو نظرة خاصة إلى الأرامل فهم يعتبروهن مجلبة للنحس ولذا فإن على زوجها الجديد أن يمتنع طيلة ثلاثين يوماً عن أن يمس الحاجيات التي تعتبر ملكاً خاصاً لها، كما أن الضيوف يأتون ومعهم فناجينهم لكي لا يشربوا القهوة في فناجين تعود لها.

وقوانين الصحراء لا تحرم تعدد الزوجات ولكن نادراً ما يكون لدى البدوي أكثر من زوجة واحدة في وقت واحد [1]. وبالمقابل فإن سهولة الطلاق عندهم تثير الدهشة فهو لا يتطلب أسباباً خاصة، يكفي أن يكرر الرجل، حتى ولو كان في سورة غضب، عبارة «أنت طالق» ثلاث مرات فلا يبقى أمام المرأة إلّا العودة إلى أهلها. ويعتبر عقم المرأة أو عدم إنجابها ذكوراً أحد الأسباب الشائعة والغالية لفسخ عرى الزواج. ولا يمكن للمطلقة أن تتزوج ثانية قبل مضي أربعين يوماً في حين لا يوجد ما يمنع الرجل من أن يتزوج ثانية حتى لو كان ذلك في نفس اليوم الذي حصل فيه الطلاق. وإذا كان للبدوي أطفال صغار السن من مطلقته فإنه يسمح لها أحياناً بأن

---

(١) تلاحظ بين قبائل العراق جنوبي ظاهرة معاكسة فكل بدوي موسر يجب أن تكون له عدة نساء. ويوصل الشيوخ المحليون في بعض الأحيان عدد حريمهم إلى أرقام خيالية، مثل شيخ البو محمد المشهور فيصل الذي نسجت حوله اسطورة مفادها أن في حريمه ٩٨٠ إمرأة.

تبقى معهم كمربية.

وإلى جانب سهولة الطلاق بالنسبة للرجل يبقى العرف البدوي للمرأة أيضاً الحق في ترك الرجل والعودة إلى أهلها ولكنها لا تستطيع أن تتزوج ثانية إلّا بعد أن يتفوه زوجها الأول بصيغة الطلاق. ولهذا فإن البدويات اللواتي يرغبن في تغيير أزواجهن يسعين إلى أن يحولن حياتهم إلى جحيم حقيقي وذلك لكي تفلت من شفاههم في لحظة غضب عبارة «أنت طالق» التي يردنها. ويحدث أحياناً أن يرغب الأزواج الذين فسخوا زواجهم بسبب انفعال طارئ في الارتباط مجدداً بهن، لكن ذلك لا يمكن أن يكون إلّا بعد أن يعقد الزوج مع امرأة أخرى ولو ليوم واحد [١].

والزنا عند البدو ظاهرة موجودة ولكنها نادرة للغاية وذلك بسبب عدم وجود أية صعوبات أمام الطلاق وبسبب طبيعة حياتهم المكشوفة. ولا يؤخذ بثأر شخص قتله زوج اهانه القتيل كذلك لا يؤخذ بثأر الشخص الذي يغوي فتاة إذا قتل في يوم إرتكابه للجريمة.

لم يبق إلّا نضيف إلى كل ما قلناه أعلاء عن الطلاق بأنه ليس من النادر، على ما يقوله بورخات [٢]، أن تصادف في الصحراء أعراباً بلغوا الخمسين من عمرهم واستطاعوا خلال حياتهم أن يتزوجوا ما لا يقل عن خمسين زوجة. وطالما أنه يكون للبدوي أطفال من كثير من زوجاته المطلقات فلنا أي نتصور أي علاقات تقوم بين الآباء وأطفالهم من أمهات

---

(١) يبدو الأمر التبس على المؤلف، فالصحيح في مثل هذه الحالات أن الزوجة السابقة هي التي يتحتم عليها أن تعقد زواجاً آخر مع رجل ثان ولو ليوم واحد وليس زوجها الذي يريد أن يستعيدها بعد أن طلقها. المترجم.

(2) J. L. Burckhardt. Op. cit. vol. 1. p. 112.

مختلفات والواقع أن الخلافات والمنازعات والخصومات هي ظاهرة اعتيادية في مثل تلك العوائل إن الأطفال وهم ملزمون باحترام الأب يتصرفون تجاه أمهم بحب واحترام كبيرين وغالباً ما ينضمون إليها ويأخذون جانبها في مواجهة الأب الأمر الذي غالباً ما يؤدي إلى تنافر عائلي تام.

ويحدث الكثير من المرارة بين الأب وأبنائه عند القسمة عندما يرى الأبناء أن أباهم قد أساء إليهم زاعمين أنه لم يعطهم جملاً أو فرساً. وعلى العموم لا تسود العلاقات الودية على الدوام بين أفراد العائلة الذكور ولذا يسرع البدوي الشاب بمجرد أن يشعر بالقدرة على أن يبدأ حياة مستقلة بالانفصال وامتلاك بيت خاص به. وعندما يمرض الأب أو يصبح شيخاً يعمد إبنه إلى مساعدته في العادة ولكن ذلك يعتمد كلياً على حسن ذاته إذ لا أحد يستطيع أن يجبره على مثل هذه المساعدة. ولهذا فمن غير النادر أن نجد أباً يعيش على إعانات القبيلة أو يتوسل بكل بساطة وله في الوقت نفسه أبناء موسرون.

وتقوم بين الأخوة في كثير من الأحيان أيضاً علاقات كتلك التي سادت بين هابيل وقابيل. ويعطي التاريخ غير قليل من الأمثلة على ذلك ابتداء من شيخ المحمرة الحالي الذي عبر إلى السلطة على جثة أخيه مزعل، ومروراً بشيخ الكويت مبارك الذي فعل الشيء نفسه، وانتهاء بأمير نجد محمد بن رشيد الذي أزاح عن طريقه ستة من أبناء أخيه قبل أن يصبح الأمير القوي في وسط شبه جزيرة العرب.

ولا يمكن أن نتحدث عن العائلة البدوية دون أن نتطرق إلى ذكر العبيد السود الموجودين في الصحراء بكثرة، إنهم يجلبون عادة من افريقيا ويقوم الشيوخ وكذلك الموسرون من البدو بشرائهم في المدن القريبة من

مضاربهم. ويعامل العبيد في الصحراء معاملة إنسانية حيث يعتبرون كأفراد العائلة ويعتقون عادة بعد بضعة سنين. ومع ذلک فلا أحد من البدو يتزوج من أمة كما إن أية بدوية لا توافق على الزواج من عبد حتى ولو كان قد أعتق. ولذا فإن العبيد والاماء لا يتزوجون إلّا من بعضهم. ويوجد الرقيق بأعداد كبيرة حتى في المدن فكل من زار البصرة مثلاً لابد وأن لفتت انتباهه حتماً كثرة الزنوج والزنجيات الذين يصادفون في كل خطوة.

ولم يبق في الختام إلّا أن نقول بضعة كلمات عن مراسيم الدفن. عندما يموت أحد سكان المخيم يعلن النساء من عائلته ذلک بأن يطلقن عويلاً عالياً فيؤدي ذلک إلى أن يبادر كل أفراد القبيلة بالاجتماع حول خيمة المتوفي. وإذا كان المتوفى قد سقط قتيلاً في معركة فإن النساء من أقاربه يشدن عند ندبهن له ببطولاته، أما عندما يموت البدوي حتف أنفه فإن رثاءه ياخذ طابع الأسف على إن الراحل لم يمت ميتة الشجعان. وتدفن الجثة بعد الوفاة مباشرة، حيث تتعلق النسوة خلال ذلک بالنعش الذي يضم الجثة وهن يطلقن عويلاً يمزق القلب، كما لو أنهن يسعين إلى منع المتوفى من مغادرة الخيمة، فيقوم الرجال بإبعادهن ويحملون النعش على أكتافهم إلى القبر الذي يحفر في مكان لا يبعد كثيراً عن المخيم فالبدو بالطبع ليس عندهم مثابر دائمة. ولا تسير النساء وراء الجثة بل يبقين في المخيم عادة لمواصلة الندب والعويل. وأغلبية القبائل البدوية لا تقيم حداداً، والبعض يدفنون مع الراحل سيفه في حين ينزل البعض الآخر الجثة إلى القبر وهي ملفوفة بعباءة بلا كفن أو أي غطاء آخر.

وبعد ن انتهينا من الحديث عن حياة البدو سنحاول أن نرسم ببضعة أسطر دور وأهمية الشيوخ البدو. لا بد أن نلاحظ ابتداءاً بأن سلطة هؤلاء الشيوخ تقيدها الحرية الفردية التي يعتز بها البدو والتي تدفع كل عربي

متنقل على انفراد إلى أن يحرص على المحافظة على مصالحة الشخصية من أن يتطاول عليها أبناء قبيلته وأن يجابه باستقلاليته الاستبداد العائلي أو العشائري. إن هذا النزوع إلى الحرية الشخصية سببه ضعف تطور الحياة الاجتماعية عند البدو أي ضعف الوعي الواضح لضرورة التخلي عن «الآنا» من أجل المنفعة الاجتماعية او المصلحة العامة.

في مثل هذه الظروف يكون من الطبيعي تماماً أن لا يعترف البدو بسلطة الشيخ عليهم إلا بالقدر الذي يكون فيه هذا الشيخ ممثلاً للقبيلة ومعبراً عن إرادتها وأحكامها. والشيخ الذي يخطر له أن ينفرد في تقرير مصير أبناء قبيلته لن يستمر في مشيخته طويلاً، ولا يستطيع أن يأمل بالاحتفاظ بالسلطة باستمرار إلا رئيس القبيلة الذي يرى بأن من الضروري التشاور في كل شيء مع الوجهاء ويتخذ القرارات بالاتفاق العام. والشيخ ملزم بأن يسترشد بقرار الأغلبية حتى في القضايا التافهة كاختيار المكان لإقامة المخيم مثلاً فضلاً عن قضايا السلم والحرب، وإلا فإن أفراد قبيلته لن يتوقفوا تاركين الشيخ وحيداً، بينما يقيمون هم مخيمهم على مسافة عدة ساعات من خيمته.

وتلعب شخصية الشيخ بالطبع الدور الحاسم في اتساع ورسوخ مكانته. فالشخص الذكي الحاذق الموفق في الغارات والذي يمتلك إرادة قوية وطبيعة صلبة وحازمة يستطيع بصفاته هذه أن يحصل على سلطة غير محدودة تقريباً تقوم على الثقة به والانجذاب إلى شخصيته، لكن ذلك لا يمتلكه إلا أشخاص قليلون يؤثرون على الجميع بقوة جاذبيتهم.

والالتزامات المفروضة على الشيخ باعتباره ممثلاً للقبيلة متنوعة جداً، فهو يقود القبيلة إلى الحرب، رغم أن ذلك ليس حتمياً كما سنرى فيما بعد، ويعقد الصلح وينظر في الدعاوي والمنازعات بين جميع الذين يتوجهون

طالبين حكمه وتتركز في يديه جميع خيوط سياسة القبيلة، وبفضل ذلك تكون خيمته مفتوحة للجميع حيث تلعب دور النادي السياسي. أما المطلب الرئيسي الذي يراد من كل شيخ فهو أن يكون مضيافاً جداً ويكون ذلك هو المقياس لسمعته وكلما كان الشيخ قوياً وشهيراً كلما كان يصرف أكثر على إطعام أفراد قبيلته وكلما كان يعيش بشكل أكثر انفتاحاً.

ويذكر الرحالة الروسي البارون نولده [١] الذي سبق ذكره، بأن ما يقرب من ٢٠٠٠ شخص كانوا يأكلون يومياً عند أمير نجد محمد بن رشيد، أما الضابط الأنجليزي (Wellsted) [٢] فيذكر بأن عدد الذين يستضافون يومياً في خيمة أحد شيوخ المنتفك وهو عجيل يصل إلى ٣٠٠ شخص.

وينبغي على الشيخ، إلى جانب الضيافة المعتادة أن يظهر كرمه باستمرار وذلك بمساعدة الفقراء أو بإهداء أصدقائه وأنصاره فرساً أو بعيراً أو مواد غذائية. وطبيعي أن مثل هذه الحياة الواسعة تتطلب أموالاً غير قليلة غير أن شيوخ القبائل الكبيرة والقوية مثل عنزة وشمر لا تعوزهم هذه النقود، أما صغار الشيوخ فلا يسمح لنفسه منهم بمثل هذا البذخ إلا أولئك الذين يتسلمون رواتب من السلطات التركية [٣]. أو الذين تمولهم حكومة بريطانيا العظمى. وتتألف إيرادات الشيخ بالإضافة إلى ذلك، من الجزية التي تفرض على القبائل الخاضعة ومن الاتاوات التي تدفعها القوافل والحجاج والرحالة في مقابل المرور في أراضيه بسلام وأخيراً من غنائم

(1) Eduard Nolde. Op. cit. S. 36.

(2) J. R. Wellsted. Op. cit. Vol. 1. p. 198.

(3) J. L. Burekhardt: op. cit. Vol. 1. pp. 119. 285.

الحرب التي يخصص منها للشيخ عند بعض القبائل جزء يصل إلى خمس المواشي والممتلكات التي جرى الاستيلاء عليها من الخصم.

ويعتبر الاحترام الظاهري هو الآخر من امتيازات الشيخ، فهو يترأس كل الاجتماعات والجلسات وعند قدومه ينهض الجميع ولا يجلسون إلا بعد أن يحتل مقعده. والشيوخ الأغنياء هم وحدهم الذين يتخذون لأنفسهم حرساً خاصاً أي حراساً شخصين، أما في العادة فيكتفي الشيخ بحاشية صغيرة من الأقارب والعبيد. وتوجد لدى شيوخ القبائل في العراق الجنوبي فصائل عديدة من الحرس الشخصيين يزداد عددهم كلما كان وضع الشيخ أرفع.

والقبيلة كلها تشترك في انتخاب الشيخ ولا يفرض على ذلك أية شروط لا على الناخبين ولا على المنتخبين وكل واحد حر في أن يختار الشخص الذي يفضله.

وهنا لابد أن نلاحظ بأن المشيخة تبقى في الغالب، على الرغم من ديموقراطية البدو، في أسرة واحدة تنتقل فيها من الأب إلى الابن أو الأخ أو العم. لكن عدم أهلية خلفاء هذا الشيخ أو ذاك هي وحدها التي يمكنها أن تدفع القبيلة إلى سحب الرئاسة من أسرته فتنتخب بدلاً منه شخصاً يمتاز بخصائص بارزة ويمتاز بالنجاح والموهبة. ويلعب نسب المرشح دوراً بارزاً في ذلك لأن عراقة الأسرة لها في أعين العرب أهمية كبيرة والكثير من العوائل التي تفخر بطول سلسلة أسلافها لا تخضع كرهاً لأول حشري دون أن تجرب مسبقاً كل الوسائل الممكنة لأن تحتل مكانه هي نفسها. إن هذا الخلق الارستوقراطي هو من القوة لدى البدو إلى درجة بحيث أن الأسرة العريقة لا توافق مطلقاً على مصاهرة عائلة متواضعة الأصل. وفضلاً عن ذلك فإنهم يعتبرون أن من العار التصاهر بين القبائل

التي تعد من الاشراف والقبائل التي تعد من غير الاشراف ويقصد البدو الأقحاح بهذه الأخيرة الفلاحين والمزارعين كافة.

وكما أن رأس العائلة هو أكبر أعضائها سناً، وأن رئيس الفخذ يقف على رأس الفخذ أي مجموع العوائل التي يتألف منها الفخذ كذلك فإن القبائل الصغيرة (عشائر) يسوس كلا منها شيخ خاص، ويقف على رأس القبيلة التي تضم جميع «العشائر» شيخ رئيس يحمل بخلاف الشيوخ الخاضعين له لقب «الشيخ الكبير» أو «شيخ المشايخ».

ولا تشمل المشيخة إطلاقاً مفهوم القيادة في وقت الحرب، ولهذا فإن البعض من الشوخ فقط يقودون قبائلهم في بعض الأحيان بأنفسهم ضد العدو. أما غالبية القبائل فيتزعمها في أثناء العمليات الحربية قائد خاص يسمى «عجيد»، يجري اختياره عن طريق الانتخاب كالشيخ ولكنه يمنح طيلة الوقت الذي تستغرقه العمليات الحربية سلطة أكبر بكثير من سلطة رئيس القبيلة الاعتيادي ذلك لأنه منح حق التصرف بحياة أو ممات الخاضعين له. ويجب أن يطاع «العجيد» دون أعتراض لا من قبل البدو فقط وإنما من قبل الشيخ نفسه أيضاً الذي أبعد عن القيادة بسبب المرض أو الشيخوخة. أو عدم الأهلية. ويصل الأمر إلى أن «العجيد» يمكن أن ينتخب حتى من قبيلة أخرى وذلك إذا لم يستطيعوا ان يجدوا بين أفراد قبيلتهم قائداً موهوباً بما فيه الكفاية (١).

وكما أن على الشيخ أن يقتسم سلطته في شؤون الحرب مع «العجيد» فإنه يستطيع أن يتفادى في الأحكام القضائية التعاون مع من يسمى بـ «قاضي الفرع» أو «العارفة» أي الملم بالأعراف المعتادة في

---

(1) Anne Blut. Op. cit. Vol. II. Pp. 236 – 237.

الصحراء ويعمد هؤلاء الأخيرون باعتبارهم. قضاة تحكيم على محاولة مصالحة المتخاصمين في القضايا الصغيرة. أما في القضايا والدعاوى الأكثر جدية فينبغي عليهم أن يشحذوا ضمائرهم وحكمتهم لإيجاد حل عادل يرضي المتضررين علماً بأن العرف المعتاد في الصحراء قد حدد بدقة لكل ذنب أو جريمة ابتداء من الاهانة بالكلام وانتهاء بالقتل غرامة معينة. أما إذا كان الذنب يقع على المتخاصمين كليهما فإن دور القضاة المذكورين يقتصر على تحديد الجانب الذي ارتكب الذنب الأكبر لكي يفرض عليه لصالح الجانب الذي ذنبه أقل غرامة يساوي مقدارها الفرق بين الغرامتين المفروضتين على الذنبين اللذين ارتكبهما هذا وذاك من المتخاصمين. ويحوز هؤلاء القضاة في بعض الأحيان شهرة واسعة بحيث يلجأ إلى حكمهم عدم قبولهم بحاكم قاضي أخرى ذلك أن المتخاصمين يعترف لهم في حالة عدم قبولهم بحاكم قاضي قبيلتهم بالحق في أن ينقلا القضية لينظر فيها «عارف آخر بالشرع المعتاد» لكن الأمر يتطلب في مثل هذه الحالات أن يعلن القاضي الذي أصدر الحكم السابق بطلان ذلك الحكم.

ويناط تنفيذ الأحكام التي يصدرها «قاضي الفرع» او «العارفة» بشيخ القبيلة التي ينتمي إليها المذنب، وإذا ما رفض هذا الأخير الخضوع لقرار القاضي اختياراً يلجأون عادة إلى تأثير الأقارب عليه فيعمد هؤلاء، تجنباً للنزاع مع عائلة المتضرر، وهو أمر يمكن أن يؤدي دوماً إلى إراقة الدماء، إلى إجبار قريبهم المتمرد عادة على تنفيذ الحكم. وإذا كانت الدعوى التي حسمها القاضي تمس قبيلتين فإن القبيلة التي تربحها هي التي تنفذ الحكم بقواها الخاصة دون أن تتردد حتى لو اقتضى الأمر إعلان الحرب على الجهة الأخرى إذا ما أصرت تلك الجهة على رفض ترضيتها :

وعند تلخيصنا لحصيلة ما ذكرناه أعلاه عن البدو لا يمكن إلا أن

نستنتج بأن حياتهم قاسية وخالية من المسرات كالصحراء المحيطة بهم التي لا تسمح ظروفها المناخية ولا ظروف التربة فيها بأي نمط آخر للحياة غير الترحال. لقد ظلت هذه الظروف منذ أقدم الأزمان ثابتة لا تتغير. ولم يتغير أيضاً نمط حياة العربي المتنقل الذي لم يستطع [١] حتى الاسلام أن يدخل فيه أي تحسينات ملحوظة. ومع ذلک فبمجرد أن يجد هذا البدوي نفسه في ظروف طبيعية أفضل، نجده يبدأ ببطء وبالتدريج وانصياعاً للقوانين الفيزيولوجية المشتركة بالنسبة لجميع الشعوب بالتخلي عن عاداته البدوية والتكليف لظروف الحياة الجديدة. ويمكن أن تؤلف قبائل البصرة تأكيداً واضحاً لذلک.

ويؤلف سنجق الحسا من حيث تكوينات سطحه استمراراً لصحراء شبه جزيرة العرب الكبرى ولهذا فإن الجزء الأغلب من سكانه باستثناء الحضر في الواحات النادرة الوجود، يعيشون نفس نمط الحياة الذي يعيشه أبناء جلدتهم البدو في وسط شبه الجزيرة العربية. وهكذا فإن قبائل سنجق الحسا مثل بني حجار والضفير وعتيبة وعجمان والمرة ومطير وبني خالد الذين يؤلفون في مجموعهم أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ نسمة احتفظوا كلياً بطابعهم البدوي البحث.

أما العراق الجنوبي فإنه على العكس من الحسا يرويه اكبر نهرين في مقدمة آسيا هما الفرات ودجلة ويتميز بكثرة مراعية وخصوبة تربته بدرجة غير معتادة الأمر الذي يخلق ظروفاً ملائمة تماماً لتربية الماشية والعمل الزراعي السلمي. وهكذا فإن القبائل العربية البدوية التي تسكن العراق الآن

---

(١) سبب هذا ان صحّ عدم التمسک بتعاليمه واحكامه حيث لُبِسَ لُبْسَ الفرو مقلوباً فصار أثره محجوباً. حميد الدراجي

والتي انتقلت إليه منذ عدة مئات من السنين خضعت في نهاية الأمر لتأثير الطبيعة المحيطة المهدئ فأخذت تنتقل بالتدريج إلى الحياة الحضرية.

ولكن هذا التطور لم ينته بعد ولم يشمل حتى الآن إلّا جزءاً صغيراً نسبياً من قبائل العراق العربي، الأمر الذي يحتم انقسام كل منها إلى أربع مراحل انتقالية هي كالآتي:

١ ــ البدو: أي الرحل الذين لا يختلفون إلا قليلاً عن أخوانهم في أواسط شبه جزيرة العرب ويشتغلون بتربية الجمال والخيول.

٢ ــ الشاوية: أي المشتتون الذين انصرفوا إلى تربية الماشية ينتقلون منها باستمرار من مكان إلى آخر ولكنهم يقتصرون في تنقلهم على منطقة صغيرة متأخمة للنهر،

٣ ــ الفلاحون: أي الزراع المستقرين في قطع من الأرض يزرعونها والذين يؤلفون المرحلة الانتقالية الأخيرة بين البدوي والعربي ساكن المدينة.

وتبعاً لتحول العربي المتنقل تدريجياً إلى حضري يتغير نوع المسكن نفسه. فإذا ما كان البدو والشاوية يكتفون بخيام الرحل العادية المصنوعة من شعر الماعز فإنّ «المعدان» انتقلوا لأنهم أقل حركة إلى أكواخ القصب. أما عن الفلاحين فإن بيوتهم هي عبارة عن «صرائف» وهي أبنية خفيفة من سعف النخيل والقصب والحصران يحل محلها عند المزارعين الأكثر يساراً بيوت من الطين نظراً لأن «الصريفة» قابلة للإشتعال بسرعة.

ينقسم العرب القاطنون في سناجق البصرة والمنتفق والعمارة، إذا تركنا القبائل الصغيرة، إلى اتحادين كبيرين هما المنتفق وبنو لام. وهذا القبائل بأجمعها ليست في أصلها من العراق الجنوبي، إنما هي تنحدر من أواسط شبه جزيرة العرب طوحت بها موجة الهجرة منذ مئات السنين إلى

الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية أولاً ثم اضطرت تحت ضغط النازحين من الجنوب إلى التوجه شرقاً فاحتلت مخيماتها العراق الجنوبي الحالي. وقد سكن المنتفقيون على جانبي شط الحي وعلى جانب الفرات الأيمن وبين الفرات ودجلة في المنطقة الواسعة الممتدة بين السماوة وكوت الامارة وحتى القرنة. ويمكن أن يعتبر هذا الاتحاد أقوى الاتحادات العراقية وأكثرها عدداً فهو يعد ما لا يقل عن ٢٥٠،٠٠٠ نسمة وفي مقدوره أن يقدم إلى ساحة المعركة ما يقرب من ٥٠،٠٠٠ مقاتل. وبسبب من عدم وجود إحصاءات للسكان في الدولة العثمانية ونظراً لتعذر جمع المعلومات الاحصائية الدقيقة عن القبائل الرحالة وشبه الرحالة في العراق الجنوبي، فإن التقديرات العددية التي ذكرناها عنهم أعلاه وكذلك التي سنذكرها أدناه ينبغي اعتبارها تقريبية فقط.

واسم «المنتفقيون» نفسه جاء كما يذكر خورشيد أفندي الذي اشترك في لجنة الحدود العثمانية ـ الفارسية في عام ١٨٤٩ في كتابه [١]. من الكلمة العربية «متفق» التي تعني «متحد» ذلك أن هذا الاتحاد تكون من اتحاد ثلاث قبائل رئيسية هي بنو مالك والأجود وبنو سعيد حيث توصلت هذه القبائل الثلاث بعد منازعات وخلافات طويلة إلى الاتفاق على انتخاب شيخ مشترك واحد. وقد وقع اختيارها على عائلة الشبيب التي كان جدها قد نزح من الحجاز قبل ما يقرب من مائتي سنة واستقر مع اسرته بين القبائل المذكورة ومنذ ذلك الوقت أصبح شيوخ المنتفقيين ينتخبون من الأسرة فقط. وبما أن هذه العائلة قد انقسمت إلى ثمانية أفخاذ [٢] فإن

---

(١) سياحت نامه حدود ترجمة كمازوف، سانت بطرسبوزغ ١٨٧٧ ص٤٧.

(٢) أسماء هذه الأفخاذ هي: السعدون. الرشيد، الذكير، العزيز، الصالح، العيسى، العلي، العثمان.

ممثلي كل منها كانوا يشغلون منصب الشيخ بالتتابع. وقد برز من بين هؤلاء بشكل خاص في نهاية القرن الثامن عشر كما سنرى في الفصل السابع من هذا الكتاب الشيخ معني، كذلك علت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مكانة الشيخ ناصر باشا من فخذ السعدون الذي استطاع أن يرسخ نفوذه بين المنتفقيين إلى درجة بحيث ظلت المشيخة منذ ذلك الوقت في أسرته. وينبغي أن نلاحظ بأن عائلة الشبيب التي ينتخب منها شيوخ المنتفك تعتنق بأجمعها المذهب السني في حين أن أغلبية المنتفقيين هم من الشيعة.

أما قبيلة بني لام التي تتألف أغلبيتها من الشيعة أيضاً والتي يبلغ تعدادها ما يقرب من ١٥٠،٠٠٠ نسمة منهم ما لا يقل عن ٣٠،٠٠٠ مقاتل فإنها تحتل كل الجانب الأيسر من نهر دجلة بين كوت الامارة والحويزة وحتى جبال بشتكوه، وتسكن أيضاً في الجانب الأيمن من النهر إلى الجنوب من قناة شط الحي وحتى العمارة. وأكبر القبائل الداخلة في هذا الاتحاد آل بلاسم والصرخة وآل كعب والبو جراد وغيرها.

وقد انتقل الكثير من قبائل بني لام ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى منطقة الحويزة داخل الحدود الفارسية. ثم ذهب بعدها إلى هناك أيضاً في بداية القرن التاسع عشر قسم من المنتفقيين.

وقد حدثت بين بني لام الذين ظلوا داخل الحدود العراقية وسكنوا على جانبي دجلة منازعات ومصادمات مستمرة سببها الشيوخ، الامر الذي دفع الحكومة العثمانية إلى أن تصر على انتخاب شيخين منفصلين واحد للقبائل التي تسكن الجانب الأيمن من دجلة والآخر للقبائل التي تقطن جانبه الأيسر. وينتمي بنو لام في أصلهم على ما يذكره (Lycklama a Nijeholt) [1] إلى قبيلة «الفصول» التي تقطن قرب مكة وقد

(1) Lycklama a Nijeholt: op. cit. T.III P. 225.

جاءهم اسمهم الحالي من واحد من شيوخهم اسمه فرج لام نزح أحفاده إلى العراق فأصبحوا يعرفون هناك بـ «بنو لام» أي «أبناء لام».

أما عن القبائل التي تنطوي تحت اسم عام مشترك هو «المعدان» فإنها تشمل القبائل التي تقطن في الأهوار والمستنقعات ضمن حدود ولاية البصرة والتي تشتغل بتربية الجاموس وزراعة الرز. ولا يزيد العدد الاجمالي لهذه المجموعة التي تعتنق غالبيتها المذهب الشيعي على المائة ألف نسمة وأكبر قبيلة فيها هي قبيلة البو محمد التي تقطن على جانبي نهر دجلة من العمارة حتى القرنة تقريباً. وتحتفظ قبائل المعدان باستقلالها الداخلي ولكنها تكون تابعة إلى المنتفقيين أو بني لام تبعاً لعائدة المنطقة التي تقطنها إلى أي من هذين الاتحادين القويين. وقد خضع البومحمد إلى بني لام حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما رأى والي العراق داود باشا بأن من الأنسب أن يتبع قسم من هذه القبيلة وهو القسم الذي يقطن إلى الجنوب من العزير أي مرقد النبي عزرا، المنتفقيين.

وإذا ما انتقلنا عن الحديث عن المهن التي تزاولها القبائل القاطنة في العراق الجنوبي فإننا نستطيع التأكيد بثقة بأن تربية الماشية تحتل عندهم المكان الأول حيث ينصرف إليها على حد سواء «المعدان» الذين يربون الجاموس في مستنقعاتهم و «الشاوية» الذين يمتلكون قطعاناً كبيرة من البقر والأغنام وكذلك «البدو» الذين تشيع بينهم تربية الابل والخيول. وطالما أن البدوي هو النموذج الأساس للعربي العراقي الذي لم يتحول إلى «شاوي» إلا تحت ظروف ملائمة بشكل استثنائي، أي أنه تحول من الاشتغال بتربية الجمال والخيول إلى تربية البقر والأغنام، فإننا سنبدأ وصفنا لأنواع الحيوانات الداجنة التي تربى في العراق العربي بالجمل باعتباره المرافق الذي لا غنى عنه لعربي الصحراء المتنقل في صراعه القاسي والصعب من

أجل البقاء.

لم يسم الجمل «سفينة الصحراء» عبثاً ذلك أنه لا يوجد حيوان قد أهلته الطبيعية للتنقل في مناطق لا يصادف فيها الماء إلا نادراً ويقتصر كل ما فيها من عشب على الأشواك، أكثر من الجمل. فالتكوين الخاص لمعدته المجهزة بأكياس لخزن المياه يمكنه من الاستغناء عن الشرب لمدة تصل إلى خمسة أيام، كما أن نسيج فمه الغضروفي يسمح له بأكل الأشواك دون أن يتأثر بها. إن تكوين هذا الحيوان الأخرق من ذوات الأربع، بأجمعه ابتداء من عنقه الطويل الذي يساعده في الوصول إلى الأشواك القصيرة وانتهاء بأخفافه التي تشبه الوسائد ولها نهايات متصلبة كالقرون والتي تجعله يتنقل بسهولة فوق الرمال الملتهبة، مكيف بشكل مدهش للحياة في الصحراء.

ولا تقل قيمة الجمل البدوي البيتية عنها في أثناء الانتقال في الصحراء فهو يقدم لصاحبه المأكل على شكل حليب ولحم والملبس والمأوى بهيئة وبر يحاك منه القماش وتصنع منه الخيام وأخيراً الوقود على شكل روث مجفف. وهكذا ينقذ الجمل العربي المتنقل من الجوع والعطش والبرد لذا فإن حياته في الصحراء تكون مستحيلة بدون هذا الحيوان المفيد. ولهذا فليس من الغريب أن نجد أن للجمل في اللغة العربية اسماء كثيرة يصل عددها إلى ٥٧٤٤ اسماً وأن مقياس الغنى والفقر في الصحراء هو عدد الابل علماً بأن البدوي الذي يمتلك عشرة ابل لا يعتبر غنياً وإنما يلزمه من أجل أن يصبح كذلك أن يمتلك ما بين ثلاثين إلى أربعين رأساً منها على الأقل.

والجمل الذي يربيه البدو في شبه الجزيرة العربية ذو سنام واحد وهو تبعاً للغرض الذي يؤديه على ثلاثة أنواع هي: ١ ـ «حواس» ٢ ـ

«دلول» ٣ . «هجين».

يستخدم الأول للحمل فقط وهو حيوان أخرق ثقيل الوزن. أما النوع الثاني فإنه يدرب منذ الصغر خصيصاً لكي يستخدم للركوب لذا فإنه أكثر خفة وحركة ويسهل عليه احتمال العطش أكثر من الأول. وأما النوع الثالث فهو جمل الجري الذي يتميز بسرعة مدهشة في الجري وهو لا يتعب ويستطيع أن يقطع بسهولة مسافة تصل إلى ثمانية أميال في الساعة وسبعين ميلاً في اليوم، حتى أن البريد بين دمشق وبغداد ينقل على مثل هذه الجمال السريعة. وتعتبر عمان موطناً لأحسن الجمال السريعة هذه ولهذا يطلق عليها العرب اسم «أم الأبل».

ويربى في العراق الجنوبي وبالشكل الرئيسي في ولاية بغداد الجمل ذو السنامين من النوع البكتيري الذي يتميز عن جمل شبه جزيرة العرب السريع بوبر أطول وقابلية أكثر على تحمل العطش وبطء أكثر في الحركة.

ويربي نوعا الابل العراقية كلاهما أي «الجودي» و «الحوار» لكي تكون حيوانات للحمل فقط ولتتكون منها القوافل التي تقوم عليها حتى الوقت الحاضر علاقات بغداد التجارية مع الموصول وغرب فارس ومع حلب عن طريق الصحراء.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار بأن الحكومة تفرض على الابل ضريبة مقدارها عشرة قروش أي ثمانية كوبيكا على الرأس الواحد وأن المبلغ الاجمالي المتآتي من هذه الضريبة في ولاية بغداد كان في سنة ١٣٢١ هـ . ٤٥٩،٨٠٠ قرش [١] فإننا يمكن أن نستنتج بأن عدد الأبل التي تمتلكها القبائل المتنقلة في ولاية بغداد يصل إلى ٤٥،٩٨٠ رأساً، واستناداً إلى

---

(١) السالنامة الخاصة ولاية بغداد للسنة المذكورة ص٤٠٦.

الأرقام [١] المتعلقة بضريبة الأبل في ولاية البصرة لسنة ١٣١٨ هـ يمكننا أن نتوصل بالطريقة نفسها إلى ان عدد الابل في تلك الولاية هو ١١،٥٣٩ رأساً.

والحيوان الآخر الذي لا يقل قيمة بالنسبة للبدوي هو الحصان، الرفيق الأمين للعربي المتنقل في غزواته الوحشية. وقد حيكت اساطير كثيرة حول جمال الخيول العربية وقوة احتمالها وذكائها النادر. لكن هذه الخصائص لا تلازم في الواقع إلا صحراء شبه جزيرة العرب والتي يصعب إيجادها عند القبائل البدوية من المنتفقيين وبني لام، ذلك أن هؤلاء في تكالبهم على الربح المتآتي من تجهيز الخيالة الهندية ــ الانجليزية بالخيول أفسدوا سلالة خيولهم وذلك بتلقيحها بالفحول الفارسية والتركية سعياً وراء زيادة طول قامتها. حيث يذكر الميجر [٢] (Yptony) الخبير بالخيول العربية بأنه لم يصادف في صحراء شبه الجزيرة العربية أي حصان أصيل يتعدى طول قامته الخمسة عشر كفاً. وترسل الخيول الهجينة الناتجة عن هذا التلقيح إلى الهند على أنها خيول «عربية» أصلية حتى أنها تقيم هناك بأغلى من هذه الأخيرة.

وطبيعي أن البدو العراقيين الذين يربون الخيول لغرض المتاجرة بها بالدرجة الأولى ينظرون إلى الخيل نظرة تغاير تماماً نظرة بدو صحراء شبه جزيرة العرب الذين يربون خيولهم للـ «غزو» وللأعمال الحربية. ويستخدم عربي الصحراء في مثل هذه الحالات الأفراس فقط لأنها لا تصهل وبذلك فإنها لا تكشف الفارس للخصم قبل الأوان ولهذا فإنه لا يفرط فيها إلا في

---

(١) السالنامة الخاصة بولاية البصرة لسنة ١٣٨١ هـ ص٢٩١.

(2) Upton. Gleanings from The desert ot Arabia. London 1881. p.343.

حالة الضرورة القصوى ولا يبيع إلا فحول الخيل الزائدة حيث يجلبها إلى المدن المتآخمة للصحراء مثل حلب والدير [١] والموصل وبغداد أو يبيعها لمشتري الجملة الذين يزورون مخيمات البدو في أثناء إقامتهم الصيفية في الحدود الشمالية للصحراءالسورية.

وتربية الخيل نفسها تجري عند القبائل البدوية في شبه جزيرة العرب بأسلوب خاص. فمنذ اللحظة التي يخرج فيها المهر إلى النور يحاط بالرعاية والاهتمام من قبل العائلة كلها فيصبح بفضل ذلك أليفاً ويتعلق بالانسان بسرعة. وبعد شهر يبدأون بتغذيته بحليب الابل الذي يعتقد البدو أنه يقوي المهر ويساعد على زيادة قابليته على التحمل. وهذه الخاصية الأخيرة يكون لها في الصحراء القاحلة وفي ظل التنقل المستمر أهمية أكبر حتى من سرعة العدو ولهذا يبدأ البدو تدريب الافلاء في وقت مبكر. فبعد أن يبلغ الفلو السنة من العمر يأخذ الأطفال بركوبه ثم يستبدلون بمقدار نمو الفلو بصبيان أكبر عمراً، وعندما يبلغ الحصان سنته الثالثة يأخذونه في مسيرات غير طويلة. وهكذا يتكون نوع من الخيول العربية الممتازة في قوة تحملها.

ودون أن ندخل في وصف تفصيلي لفضائل الحصان العربي الأصيل التي تكوّن القيمة الأساسية له ولذا فإنها تهم المختصمين وحدهم، نسمح لأنفسنا بالاشارة إلى الصفات الخارجية الأكثر وضوحاً لهذا الحيوان. وهذه الصفات هي في نظر البدو أنفسهم كالآتي :

١ . سعة وبروز عظام الجبهة واليافوخ باعتبارها دليلاً على الذكاء.

٢ ـ وضعية الرأس الخاصة مع سعة وتباعد عظام الوجنتين الأمر الذي

---

(١) المقصود مدينة دير الزور . المترجم.

يؤمن للفرس تنفساً حراً عميقاً.

٣ ــ الأذان مائلة بشكل جميل إلى الداخل بحيث تكاد نهايتهما تتلامسان ويتوصل البدو إلى ذلك بربط آذان الفلو الحديث الولادة ربطاً خاصاً [1].

وتدهش الأوروبي الذي يشاهد الفرس العربية لأول مرة، قبل كل شيء طريقتها في رفع ذيلها عالياً وعيونها الكبيرة اللامعة التي تعبر عن الذكاء والطيبة ثم عنقها القوي الذي ينثني بشكل جميل وقوائمها الرشيقة.

ومن بين الصفات التي تمتاز بها الخيول العربية يستحيل أن لا نذكر إلى جانب الذكاء والطيبة والجرأة. الانصياع غير المعتاد للانسان ولهذا السبب يركبه البدو بالرسن وحده بدون ركاب ويكتفون بدلاً من السرج بوسادة صغيرة تثبت على ظهر الفرس برباط بسيط من الجلد.

وأحسن الخيول العربية هي تلك التي تنتمي إلى «الخمسة» والمقصود بذلك هو السلالات الخمسة وهي «الكحيلان» و «الصقلاوي» و «العبيان» و «الحمداني» و «الغضبان» التي تذكر المآثر أنها تعود في أصلها إلى فرس النبي أو حتى إلى جد العرب اسماعيل نفسه. ويفخر البدو بأصالة هذه الخيول إلى درجة بحيث أن أي عائلة تمتلكها تحتفظ بسلسلة مفصلة لنسبها تعطى عادة إلى الشاري مع الحصان الذي يشتريه، ولا توجد مثل هذه الخيول الثمينة إلا عند القبائل القاطنة في جبل شمر في وسط شبه جزيرة العرب وعند القبائل البدوية المنطوية تحت التسمية العامة «عنزة» [2].

وتباع خيول العراق الجنوبي الهجينة في الهند على أنها خيول

(1) Upton. Op. cit. p. 336.

(2) Anne Blunt. Op. cit. Vol. II p. 271 FF.

«نجدية» أي على أنها خيول أصلية من وسط شبه جزيرة العرب وهذا أمر لا يطابق الحقيقة كما ذكرنا أعلاه، وينبغي أن ينسب كلياً إلى مهارة و وقاحة تجار الخيول الذين استطاعوا أن يرفعوا ثمن الخيل بهذا الشكل. وبالمناسبة يمكن أن يصبح العراق الجنوبي بمراعية الخصبة واحتياطيه الذي لا ينضب من مياه الأنهار، وطناً لأحسن الخيول العربية نظراً للصعوبة الفائقة التي تعترض تربية الخيول في صحارى شبه جزيرة العرب حيث لا تجد الخيل العشب إلا في أشهر الشتاء والربيع أما في فصول السنة الأخرى فيتحتم على البدو أن يطعموها التمر أو حليب الابل.

لقد بدأ تصدير الخيل من العراق الجنوبي إلى الهند منذ نهاية القرن الثامن عشر عندما كان (Manesty) مقيماً لشركة الهند الشرقية في البصرة. فقد كان هذا المقيم أول من أنتبه إلى أن من الملائم إصلاح الخيالة الهندية بواسطة الخيول العربية وحاول أن ينظم هذه القضية جدياً. ويمكن القول بأن تصدير الخيول العراقية لم يتوقف منذ ذلك الوقت حتى الآن، حيث يبلغ متوسط ما ينقل إلى الهند سنوياً ما بين ٢٥٠٠ و ٣٥٠٠ رأس يتراوح ثمنها بين ٤٠٠ و ١٠٠٠ روبل للرأس الواحد أو أكثر تبعاً لجودتها. وقد عمدت الحكومة العثمانية إلى منع تصدير الخيول إلى الخارج أكثر من مرة ولمدة قد تطول أو تقصر وهدفها من ذلك المحافظة على سلالات الخيل العربية الأصلية، لكن هذا المنع لم يحقق الغرض منه لأن تجار الخيول كانوا يعمدون طيلة فترة المنع إلى تهريبها. ولتحقيق ذلك كانوا ينقلون جميع الخيول التي يشتروها من بني لام ومن القبائل البدوية المتنقلة على ضفاف نهر دجلة إلى ميناء المحمرة، أما تلك التي يشتروها من المنتفقين ومن قبائل الزبير المتآخمة للفرات فينقلونها إلى الكويت، ومن هناك يرسلونها إلى الهند على سفن انجليزية بعد أن يدفعوا ضريبة بسيطة للشيخ

المحلّي. ولأن السلطات المحلية ليس في مقدورها أن توقف سوء الاستغلال، هذا فقد أقتنعت بضرورة التخلي من الآن فصاعداً عن فرض المنع على تصدير الخيول عن طريق ميناء البصرة ورفعت الضريبة الكمركية المفروضة عليها في ١٨٩٩ من ١% من قيمة البضاعة إلى ٤٣ روبل على كل رأس. ويقع فصل تصدير الخيول في الفترة من آب إلى تشرين الأول وتبلغ تكاليف نقل الرأس الواحد من الخيل مع مصروفات إطعامه في الطريق والمصاريف الأضافية الأخرى ما يقرب من ٦٠ إلى ٨٠ روبية (٣٨،١/٢ إلى ٥٢ روبلاً).

ومن حيوانات الركوب والحمل الأخرى التي تربى في العراق الجنوبي ينبغي أن نشير إلى الحمير والبغال. والحمير على نوعين الأول هو ما يسمى بالحمير النجدية [(١)] التي تتميز بشدة بياضها وطول قامتها ولهذا فإنها تستعمل للركوب فقط وتتراوح كلفة الواحد منها ما بين ٨٠ ، ٢٥٠ روبلاً، أما النوع الثاني فإنه لا يتميز بشئ غير عادي ويربيه بالدرجة الأولى الفلاحون أو القبائل المنصرفة إلى العمل الزراعي حيث تستعيض بهذا النوع من الحمير الواطئة والقوية عن حيوانات الحمل، كما أنها تستخدم في أعمال الحقول في بعض الأحيان.

أما البغال فإنها تأتي بالدرجة الأولى من كردستان وفارس أما في العراق فإنها تربى بأعداد محدودة. وقد أنشأ مدحت باشا [(٢)] المشهور في تاريخ العراق الجنوبي، أو رؤوف باشا الذي خلفه في ولاية بغداد على ما

---

(١) يقصد الحمير التي يطلق عليها بالعامي اسم «الحساوية» ومفردها «حساوي» ـ المترجم.

(٢) أنظر تفاصيل عن مدحت باشا في الفصل التاسع الخاص بالتاريخ.

تذكر معلومات أخرى، جندرمة خاصة تستخدم البغال في سبعينيات القرن التاسع عشر كانت تسمى «أستر ساور» وكانت مخصصة لحراسة القوافل والمسافرين أثناء سيرهم عبر الصحراء من بغداد إلى حلب. ولا تزال هذه الخيالة التي تستخدم البغال قائمة حتى الوقت الحاضر ويبلغ عدد أفرادها ٦٥٣ فرداً من الرتب الدنيا إلى جانب أحد عشر ضابطاً.

وليست هناك إحصائيات حتى ولو تقريبية عن عدد الحمير والبغال في العراق الجنوبي وذلك لان الحكومة لا تفرض عليها ضرائب يمكن أن نحكم على اساس ما يتجمع منها، على عدد هذه الحيوانات. ويحدد (V. cuinet) في كتابه [1] عدد الحمير والبغال في ولاية بغداد بـ ١٠٤،٠٠٠ رأس وفي ولاية البصرة بـ ١١٠،٠٠٠ رأس أي أن عددها الاجمالي في العراق الجنوبي كله يبلغ ٢١٤،٠٠٠ رأس، لكن هذا المؤلف لا يوضح لنا في كتابه مع الأسف المصدر الذي استقى منه هذه الأرقام خصوصاً وإنه لا يوجد تسجيل لهذين النوعين من الحيوانات كما تتسم النظرة إلى قضية جمع المعلومات الاحصائية عموماً في الامبراطورية العثمانية بعدم الجدية.

وإذا كانت تربية الابل والخيول تجري في العراق الجنوبي على نطاق واسع نوعما فإن تربية الأغنام والبقر هي أوسع من ذلك انتشاراً. فقد انصرفت القبائل العربية بعد أن تهيأ لها كل ما هو ضروري لازدهار تربية الماشية، إلى هذا العمل بحماس كبير. إنّ قرب المدن والمستوطنات يؤمن لهم بيع حليب الماشية وزبدتها ولحمها بشكل ملائم وباستمرار، كما أن استهلاك الجلود والجلود المدبوغة محلياً وتصديرها إلى الخارج يزيد بشكل ملحوظ من ربح هذه الحرفة.

---

(1) V. Cuinet: Op. cit. Vol. III. Pp.22.239.

وينقسم مربو الماشية حسب نوع الماشية التي يربونها وحسب نمط حياتهم إلى مجموعتين انتقاليتين هي: «الشاوية» و «المعدان» يحترف أفراد المجموعة الأولى تربية الخرفان والنعاج والثيران والأبقار وينتقلون مع قطعانهم من مكان إلى آخر دون أن يبتعدوا عن دجلة والفرات إطلاقاً. أما أفراد المجموعة الثانية فإنهم ينصرفون إلى تربية الجاموس فقط ويسكنون الأهوار والمستقعات التي تكونت من فيضان النهرين المذكورين ولا يتركون أكواخهم المعمولة من القصب لأن الجاموس لا يمكنه أبداً الاستغناء عن الماء الذي يقضي فيه القسم الأغلب من النهار. وتأتي الخرفان والنعاج في المقدمة من حيث العدد تتبعها الثيران والأبقار ثم يأتي الجاموس بعد ذلك أما التيوس والماعز فإنها تحتل المرتبة الأخيرة فهي تربى بالشكل الرئيسي في جبال كردستان ولا تصادف في سهول العراق الجنوبي إلا كأستثناء.

وتعود الخرفان والنعاج التي تربى في العراق الجنوبي في أصلها إلى ثلاثة أنواع فهي إما عراقية أو كردية أو نجدية من أواسط شبه جزيرة العرب، وتسمى تبعاً لذلك «عربي» و «كردي» و «نجدي» علماً بأن العربي ينقسم إلى «شفال» و «عواس».

والنوع العراقي أو «العربي» وعلى الأخص النوع المعروف باسم «شفال» هو بالطبع أكثر الأنواع انتشاراً في ولايتي بغداد والبصرة، ذلك أن النوع المعروف باسم «عواس» يربى بالدرجة الأوليإلى الشمال أكثر في الشريط الممتد بين بغداد والموصل ولا يتميز النوع «العربي» لا بالضخامة ولا بالسمنة لذا فإنه يقيم لأجل صوفه الذي يتميز بالقوة واللمعان والنعومة والذي يضم كل الألوان المعروفة من الأسود حتى الأبيض. وتوجد أحسن فئات هذا النوع عند ذلك الجزء من قبائل بني لام الذي يمتلك المراعي

الغنية الواقعة على فرعي دجلة طيب ودويريج. أما النوع الكردي فإنه يصادف على الحدود التركية ـ الفارسية وينتشر بشكل خاص في نواحي كركوك والسليمانية. وتشتهر الخرفان الكردية بكبر حجمها وضخامة أليتها ولهذا فإنها كماشية مخصصة للذبح أغلى من العراقية ويربى النوع «النجدي» بشكل كلي تقريباً في ولاية البصرة وبالدرجة الأولى في سنجق الحسا. وليس لهذا النوع لا قرون ولا إليه ولا صوف جيد ولكنه يتمتع باعتبار كبير لدى الأهالي هناك بسبب لحمه الدسم اللذيذ (١).

واستناداً لمقدار «الكودة» أي الضريبة الحكومية المفروضة على الأغنام ومقدارها ثلاثة قروش ونصف (ما يقرب من ٢٨ كبيكاً) للرأس الواحد، يسهل علينا أن نستنتج العدد الاجمالي للأغنام في العراق العربي على أساس مجموع المبالغ المتأتية من هذه الضريبة والواردة في الحوليات العثمانية الرسمية الخاصة بولايتي بغداد والبصرة.

وقد بلغ إيراد الكودة في ولاية بغداد في سنة ١٣٢١ هـ . ٣،٤٠٥٨١١ قرشاً في حين بلغ في ولاية البصرة في سنة ١٣٢٠ هـ ـ ١،٦١٥،٧٠٠ قرشاً الأمر الذي يجعلنا نستنتج بأن عدد الأعنام في أول هاتين الولايتين هو ٩٧٣،٠٨٩ الثانية ٤١٦،٦٢٨ رأساً وفي الثانية ٤٦١،٦٢٨ رأساً. وينبغي أن نذكر بأن هذه الأرقام تساوي ثلاث أخماس ما هو موجود بالفعل من الأغنام في البلد كله ذلك لأن هذه الاحصائيات لا تشمل القطعان التي تربى في اراضي السلطان لانها تدفع الكودة مباشرة إلى إدارة «الأراضي السنية» التي لا تنشر إحصائياتها من جهة، ومن الجهة الأخرى لا يدخل في هذا الأحضاء أيضاً ما يولد من الحملان في السنة التي جري فيها جمع الضريبة

---

(١) مجموعة التقارير القنصلية لسنة ١٩٠٤ الاصدار الأول ص٤ ، ٥.

لأن هذه الضريبة لا تؤخذ على الخروف إلا بعد أن يقضي السنة الأولى من عمره.

أما الماعز والتيوس التي جرى دمجها في الناتج العام مع الخرفان والنعاج بسبب من أن الضريبة على هذه وتلك هي ضريبة واحدة فإنها تؤلف ما لا يزيد على خمس كل ما هو من الماشية الصغيرة في العراق العربي [(١)]. ومن بين أنواع الماعز الثلاثة التي توجد هنا وهي: «العراقية» التي توجد في ولايتي بغداد والبصرة و «الكردية» التي تربى على طول الحدود التركية ــ الفارسية و «الشامية» التي تنتشر في الأماكن المتآخمة للصحراء السورية، يتميز الأخير منها بطول الآذان وغزارة الحليب ويوجد في جبال كردستان أيضاً ماعز من النوع المعروف بالأنغوري يعرف شعره الناعم الرفيع في العراق العربي باسم «مرعز» ويقيم عالياً في أسواق لندن.

ويحتل سنجق الحلة من حيث عدد الماشية الصغيرة الموجودة فيه المرتبة الأولى تأتي بعده بالترتيب سناجق كربلاء وبغداد والمنتفق والعمارة والحسا والبصرة.

وبالإضافة إلى «الكودة» تفرض على الماشية الصغيرة التي تجلب للذبح ضريبة أخرى لصالح «البلدية» أي مجلس المدينة ومقدارها خمسة قروش (٤٠ كبيكا) للرأس إذا ما كان كبيراً وثلاثة قروش (٢٤ كوبيكا) إذا كان صغيراً. وتعطي هذه الضريبة عادة بالالتزام ولكن للرعايا العثمانيين فقط حيث يلتزم هؤلاء بدفع إيجار ذبح الماشية مقدماً مرة في كل أربعة أشهر.

وتربى في العراق الجنوبي عدة أنواع من الأبقار والثيران هي:

---

(١) مجموعة التقارير القنصلية لسنة ١٩٠٤ الاصدار الأول ص٦.

«الرستقية» التي يذكرنا سنامها بالزبو الهندية وهي ملائمة بشكل خاص لأعمال الحقل وذلك بفضل ضخامتها وقوتها، و «العراقية» التي تخصص بالدرجة الأولى للذبح وتصدر بكثرة إلى الموصل وديار بكر وغيرها من المدن، و «الداري» التي يربيها المنتفقيون بالدرجة الأولى والتي تتخلف في كل الحالات عن الأنواع الأخرى، وأخيراً «النجدي» التي تصادف في ولاية البصرة بالقرب من نجد والتي تشتهر بغزارة حليبها.

والأبقار هي العون الرئيسي لا لمربي الماشية شبه المتنقل فقط وإنما للمزارع المستقر أيضاً فهي تؤمن لعوائل هؤلاء وأولئك الغداء من منتجات الحليب التي يبيعون قسماً منها أيضاً وبشكل مربح لسكان المدن والارياف. كذلك تقوم الأبقار بالنسبة لأفراد الفئة الأولى مقام حيوانات الحمل اثناء انتقالهم مع قطعانهم من مرعى إلى آخر، في حين تكون بالنسبة لافراد الفئة الثانية دابة عمل يستخدمونها في حراثة وإرواء الحقول وفي أثناء مواسم الدرس وما يشبه ذلك من أعمال الحقول. وبسبب فوائد الأبقار والثيران المتعددة هذه أعفت الحكومة العثمانية التي تهدف إلى تسهيل وضع المزارعين وتشجيع العمل الزراعي، هذه الماشية من أي ضريبة عدا ضريبة الذبح حيث تأخذ أحد عشر قرشاً (٨٨ كبيكاً) عن كل رأس.

ومن غير الممكن تحديد العدد الأجمالي للثيران والأبقار في العراق الجنوبي بسبب عدم تسجيلها ولأنها لا تخضع للضريبة الحكومية، هذا طبعاً إذا لم نقنع بالأرقام الوهمية، غير إن من الشائع على أية حال أن سنجق العمارة يحتل المرتبة الأولى من حيث عدد الثيران والأبقار تاتي بعده سناجق الحلة وكربلاء وبغداد، والمنتفق والبصرة.

بقي علينا لكي ننتهي من الحديث عن تربية الماشية، أن نورد بضعة كلمات عن الجاموس. إن القبائل التي تمتهن تربية الجاموس تقطن في

الأهوار الممتدة على طول دجلة والفرات وتعرف باسم عام هو «المعدان». وهي قبائل متوحشة لم تخضع بعد لتأثير المدنية الذيترك أثراً نافعاً جداً على القبائل العربية الأخرى حيث أشاع روح المسالمة عندها. فالمعدان لم يتخلوا حتى الآن عن عاداتهم القرصنية فهم عند أول فرصة ملائمة يهجمون في قواربهم الصغيرة المسطحة القاع على السفن التي تمر في الجوار متسترين بظلام الليل. وعندما يجري صدهم أو يفشلون يعمدون إلى الاختفاء بسرعة في أهوارهم حيث لا تتمكن من الوصول اليهم حتى القطعات العسكرية المؤلفة من الجندرمة المجهزة بالقوارب ذلك لأن سكان الأهوار يبادرون عند سماعهم باقتراب هؤلاء الجندرمة إلى تحويل أكواخهم المعمولة من القصب إلى أرماث عائمة يخلصون بواسطتها أنفسهم وأفراد عوائلهم وأمتعتهم كافة حيث يذهبون إلى مجاهل يصعب المرور بها. ويسكن مربو الجاموس هؤلاء الذين ينظر إليهم حتى أبناء جلدتهم بازدراء ظاهر، على قطع من اليابسة مبعثرة على شكل جزر صغيرة في الأهوار الشاسعة، وهم يسيرون شبه عراة ويتألف غذائهم بشكل كلي من حليب الجاموس والرز الذي يزرع هناك في الأهوار أيضاً.

والجاموس المتكيف بطبيعته للعيش في الأهوار يتطلب مع ذلك رعاية كبيرة، ففي الصيف ينبغي حمايته من البعوض والناموس الذي يعذبه حتى يوشك على الموت ولهذا فإنهم يطلون الجاموس ليلاً بالنفط أو يسوقونه إلى حظائر يجري تدخينها بالروث المضغوط [١] وفي الشتاء يتحتم المحافظة عليه من البرد الذي لا يتحمله الجاموس فيضعونه في أكواخ من القصب تجري تدفئتها بالقصب وتبن الرز. ويؤلف الجاموس الثروة

---

(١) يقصد ما يسمه العامة بـ «الجلّة» أو «المطال». المترجم.

الوحيدة للمعدان الذين يحصلون على مبالغ كبيرة ثمناً لما يبيعونه من حليب الجاموس وزبدته ولحمه، وهي المنتجات التي تستهلكها الطبقات الفقيرة من سكان المدن والقرى بسبب رخصها.

ومقدار الضريبة الحكومية المفروضة على الجاموس هو عشرة قروش (٨٠ كبيكا) للرأس الواحد، لذا فبإمكاننا أن نستنتج بأن عدد الجاموس في ولاية بغداد هو ١٠،٢١٨ رأساً وفي ولاية البصرة هو ١٨،٥٠٠ رأس [1] وذلك استناداً إلى المبلغ الأجمالى لضريبة الجاموس الوارد في الحوليات العثمانية لسنة ١٣١٨ هـ بالنسبة لولاية بغداد ولسنة ١٣١٧ بالنسبة لولاية البصرة. لكن هذه الارقام هي في الواقع بعيدة عن الحقيقة لأن جامعي الضريبة لم يتوغلوا إلى داخلية الأهوار التي يقطنها المعدان. وتترتب السناجق من حيث عدد الجاموس الموجود فيها على النحو التالي: العمارة أولاً ثم المنتفق ثم الحلة ثم البصرة وأخيراً بغداد، علماً بأن أجود الجاموس هو ذلك الذي تملكه قبيلة البومحمد التي تقطن الأهوار الواقعة إلى الشمال من القرنة. هذا ويؤخذ على كل رأس من الجاموس يرد إلى المجزرة أحد عشر قرشاً (٨٨ كبيكاً) لصالح «البلدية» أي مجلس المدينة.

وبانتقالنا إلى الحديث عن الزراعة لا يسعنا إلا أن نلاحظ ابتداءً بأن من الصعب أن تتعرف في زارع الأرض المسالم أي الفلاح على ذلك البدوي الذي أصبح بعد أن ارتبط بالارض وفقاً لنوع أشغاله الجديدة لا يقل عن الحكومة العثمانية نفسها حرصاً على الهدوء والنظام في البلاد.

لقد كان تعزيز هذا العنصر المسالم في العراق الجنوبي يؤلف منذ القدم الأهتمام الرئيسي والطبيعي للولاة المحليين الذين لم يترددوا حتى

---

(١) مجموعة التقارير القنصلية لسنة ١٩٠٤ الاصدار الأول ص١٠.

أمام محاولة تحويل العرب الرحالة إلى الحالة الزراعية بالإكراه وقد نظم باشوات بغداد لهذا السبب في ستينيات القرن التاسع عشر عدداً كبيراً من الحملات العسكرية التي كانت تحاصر مخيمات القبائل وتجبرها بالقوة على أن تباشر بزراعة الأرض. ولم يكن لهذا الأجراء اية نتائج إيجابية لسبب بسيط هو أن الرحل كانوا يبادرون فوراً وبمجرد ذهاب القوات العسكرية على ترك الحرفة التي فرضت عليهم بالقوة.

وكانت محاولة إدارة أراضي السنية لجذب الرحل إلى زراعة الضياع السلطانية الكثيرة العدد في العراق وذلك عن طريق منحهم الامتيازات المختلفة أكثر واقعية بعض الشيء ويمكن اعتبار ما جرى في السبعينيات الاجراء الأكثر نجاحاً من حيث نتائجه. فقد بيعت الأراضي الحكومية الخالية والقليلة الايراد أو اعطيت بالإيجار الطويل الأمد إلى بعض شيوخ اتحادي المنتفق وبني لام. وقد كان هذا الأجراء الخطوة الأولى على طريق تحويل الرحالة إلى مزارعين حيث جعلهم يتعرفون لأول مرة على مفهوم ملكية الارض ذلك لأن الأرض عند البدو وفي ظل نمط حياة التنقل التي يعيشونها لا تعتبر ملكاً لأحد.

وكان حفر قناة السويس التي قربت البصرة من اوروبا الدافع الثاني لأن يزيد البدو من تثمينهم لفوائد امتلاك الأرض بمعنى الحصول على منتجات العمل الزراعي والانتفاع بها بشكل كلي. لقد وفرت طرق المواصلات المباشرة التي تربط العراق الجنوبي بلندن ومرسيليا بواسطة البواخر، للخامات المحلية الوصول إلى الأسواق الأوروبية التي أخذ الطلب على حاصلات العراق الزراعية فيها ينمو بسرعة مزيداً بذلك من قيمة المنتجات الحيوانية والزراعية.

وأخذت إيرادات الشيوخ الذين استأجروا الأراضي الحكومية

واشتغلوا بزراعتها تزداد وأخذ عدد القبائل التي تنتقل إلى الزراعة يزداد بالتدريج ولكن باضطراد. وهكذا ازدادت في الثلاثين سنة الأخيرة مساحة الارض المزروعة بشكل كبير في العراق الجنوبي، رغم أنه من غير الممكن اعتبار أن الزراعة المحلية قد تجاوزت مرحلة تطورها الأولى، فلكي ترتفع إلى مستواها السابق الذي كانت عليه في عصر الكلدانيين قبل ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة أو في عصر خلفاء بغداد في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ينبغي أن يمر وقت غير قليل.

ويعود مستوى الزراعة الواطئ في العراق الجنوبي إلى أسباب كثيرة، يأتي في المقدمة منها تخريب شبكة قنوات الري والسدود التي تنظمها والتي كانت في العصور القديمة تغطي البلد كله وتنقل المياه إلى أبعد المناطق عن الأنهار في العراق الذي لم يكن بمقدوره الاستغناء عن الري الاصطناعي، بسبب شحة مياه الأمطار. لقد وجهت الضربة الساحقة الأولى لمنشآت الري في القرنين الثالث عشر والخامس عشر على يد المغول. ثم تخربت نهائياً بسبب الفتن وحوادث الشغب المتواصلة التي سادت في هذه المنطقة طيلة القرون الثلاثة التي استغرقها التنافس بين تركيا وفارس على امتلاك العراق الجنوبي من جهة، ومن الجهة الأخرى النقص الدائم في الأموال لدى الحكومة المركزية مما يعيقها عن صرف مبالغ لا يستهان بها تتطلبها إعادة شبكة الري القديمة ولو جزئياً على الأقل. ولا تتمتع بالارواء الجيد في الوقت الحاضر من مساحة العراق الجنوبي الهائلة إلّا مناطق دلتا نهر ديالى التي ترويها قنوات الخالص وخراسان وبلدروز [1] ثم المناطق

(١) الواقع أن بلدروز هو إسم لمدينة أما النهر فإن اسمه الروز وتقع عليه المدينة المذكورة ـ المترجم.

المتآخمة للفرات والممتدة من الناصرية إلى سوق الشيوخ وأخيراً ضفاف شط العرب.

والعقبة المهمة الثانية التي تعيق ازدهار الزراعة في العراق الجنوبي هي قلة سكان المنطقة وما يؤدي إليه ذلك من قلة الأيدي العاملة فعلى الرغم من أن كثافة الكسان تبلغ في ولاية البصرة ٢،٦ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد إذا اعتبرنا أن مساحتها تبلغ ١٥٠،٠٠٠ كم وسكانها ٩٣٥،٥٩٥ نسمة فإن نسبة المزارعين من ذلك ضئيلة جداً لأنه ينبغي أن نسقط من العدد الكلي أعداداً كبيرة من العرب الرحل وشبه الرحل إضافة إلى سكان المدن الكثيرين في عددهم أيضاً. وتشير إحصاءات (V. BERARD) [1] الخبير بالشؤون التركية إلى أن ثلث جميع سكان العراق الجنوبي الحضر وشبه الحضر أي عدا الرحل منهم، يتألف من سكان المدن ونصفهم من مربي الماشية وسدسهم فقط من الزراع.

ومن العوامل الأخرى التي تعيق تطور الزراعة، عدم كفاية رؤوس الأموال لدى الزراع وعدم وجود مؤسسات تمنح قروضاً صغيرة في العراق الجنوبي ورداءة طرق المواصلات وتأخر الفلاحين الذين يزرعون الأرض بطرق متأخرة وبأدوات بدائية جداً مثل جذع نخلة يقسمونه إلى نصفين ويستخدم بدلاًمن المعزقة، وأخيراً فإن الشيء الرئيسي هو إن الوقت لم يحن بعد لانبعاث هذه المنطقة.

ويجري الري الاصطناعي المتبع في هذه المناطق بأساليب مختلفة تبعاً لطبيعة الأرض التي ترتفع تدريجياً بالتقدم من الخليج شمالاً. ولهذا فإن الحصول على الماء من النهر ليس متشابهاً في سهولته في كل المناطق.

---

(1) V.BERARD, Le Sultan et les Pusssances. Paris, 1907, P. 396.

وبالإمكان تقسيم العراق الجنوبي من هذه الناحية إلى ثلاث مناطق تمتد المنطقة الأولى منها لمسافة لا تقل عن ٩٠ كم إلى الشمال من البصرة أي إلى موقع المدينة على الفرات والعزير على دجلة وتكون هذه المنطقة في مستوى النهر ولذلك فإنها تروى تلقائياً بواسطة المد، الذي يتكرر مرتين في اليوم فيرفع المياه في المنطقة الممتدة حتى البصرة إلى ارتفاع يتراوح بين المتر الواحد والثلاثة أمتار تبعاً للفصل الذي يجري فيه، أما عند العزير فأن المياه ترتفع بمقدار خمسة وعشرين سنتمتراً. أما المنطقة الثانية فإنها تشمل القسم الأوسط من العراق [1] أي إنها تمتد حتى قناة شط الحي التي تأخذ مياهها من دجلة عند كوت الامارة. وتروى هذه المنطقة بواسطة الترع والسواقي التي تتفرع من النهر دون صعوبة تذكر نظراً لأن ارتفاع الأرض في هذه المنطقة غير كبير. وتمتد المنطقة الثالثة إلى الشمال من شط الحي وهي عالية إلى درجة بحيث لا يمكن فيها الحصول على المياه من النهر إلّا بواسطة الآلات التي تغرف المياه من النهر والتي تعرف باسم «الكرود» أو «الجرود» و «النواعير» [2].

وتنقسم الأراضي المزروعة في العراق الجنوبي تبعاً لأسلوب الري المتبع فيها إلى ما يأتي :

١ . «ماوي» أو «سكي».. التي تروى بواسطة الترع والسواقي.

٢ . «كردي» أو «جردي».. التي تروى بواسطة آلات رفع المياه.

٣ ــ «كبيس» أو «جبيس».. التي تقع ضمن الأراضي التي تغمرها المياه.

---

(١) يقصد المؤلف هنا القسم الأوسط من العراق الجنوبي ـ المترجم.

(٢) مجموعة التقارير القنصلية لسنة ١٩٠١، الاصدار الأول ص٤، ٣.

٤ ـ «الديم» التي تعتمد كلياً على الأمطار ولهذا فإنها نادراً ما تصادف في العراق [1] وتعتمد كمية الحاصل الزراعي اعتماداً مباشراً على نظام الري ففي أراضي الـ «ماوي» يكون متوسط كمية الحاصل عشرة للواحد بالنسبة للحنطة والشعير وعشرين للواحد بالنسبة للرز، أما في أراضي «الكرود» فإن الشعير يكون عادة ثمانية للواحد في الوقت الذي يزداد فيه حاصل الحبوب جميعاً بمقدار أربع مرات في أراضي الـ «الكبيس».

وبما أننا سبق أن تحدثنا عن المزروعات الشتوية والصيفية في الفصل الأول من كتابنا هذا فبأمكاننا أن ننتقل رأساً إلى الحديث عن الضرائب التي تفرض على الزراع مباشرة. ومن هذه الضرائب الـ «ويركي» و «العشر» أي ضريبة الأرض ضريبة العشر المفروضة على الحاصل ويستعاض عن الأولي في العراق الجنوبي بتعريفة موحدة مقدارها ٥٠ قرشاً (٤ روبلات) في السنة تفرض على كل خيمة أو كوخ من القصب (صريفة). ويعتمد مقدار ضريبة العشر التي تجبى في العراق الجنوبي بشكل مباشر على الطريقة التي تروى بواسطة السواقي «ماوي» ١/٣ حاصل الأراضي التي تسقي سيحاً «كبيس» و ١/١٠ حاصل «الديم» و «الكرود» أي الأراضي التي تروى بواسطة الأمطار أو الآت رفع المياه، وذلك لندرة الأمطار بالنسبة للأولى وكثرة تكاليف الصيانة بالنسبة للثانية وتجري جباية العشر في هذه المنطقة كما هي الحال في كل الامبراطورية العثمانية من قبل موظفي الحكومة مباشرة أو عن طريق إعطاء هذه الضريبة بالإلتزام لأشخاص معينين يشترط أن يكونوا من رعايا الدولة العثمانية ولهم ممتلكات غير منقولة لا تقل قيمتها عن نصف مبلغ الايجار. وتسهيلا

---

(١) لابد أن المؤلف يقصد هنا القسم الجنوبي من العراق الأن زراعة الديم واسعة الأنتشار كما هو معلوم في المناطق الشمالية من العراق ـ المترجم.

للملتزمين تقسم الأرض المزروعة كلها في بعض الأقضية إلى قطع منفصلة تعرف بإسم «مقطّع» ولا تكون متساوية في جميع المناطق لا من حيث العدد ولا من حيث المساحة وإنما تعتمد في ذلك على مدى امتداد قنوات الري. ومقدار مقياس الأرض نفسه أي «الفدان» ليس ثابتاً في كل الأحوال فهو يساوي ٥٠٠ دونم في بعض الأماكن و ٣٠٠ دونم أي ٩١٨م [١] فقط في أماكن أخرى.

وعشر الحاصل إما أن يدفعه الملاكون مباشرة أو الفلاحون، وتكون حصة الملاك في الحالة الأولى نصف المحصول في حين تكون حصته في الحالة الثانية ربع أو خمس المحصول فقط. ولا تدفع مكافأة العمال الزراعيين نقداً إلا في الاستثمارات التي تستخدم آلات رفع المياه.

وتعتبر زراعة النخيل فرعاً مهماً آخر من فروع الزراعة العراقية إلى جانب زراعة الحبوب بل إنها تحتل في بعض المناطق المكان الأول كما هي الحال بالنسبة لضفاف شط العرب مثلاً. والنخلة هي شجرة عربية أساساً لأن الملاحظ أن حدود المنطقة التي تنشر فيها تتطابق مع حدود المنطقة التي يسكنها العرب وتتمتع النخلة عند العرب باحترام كبير فالمآثر تذكر إن الله عندما خلق الإنسان الأول أخذ التراب من تحت النخلة فهي بذلك تنتمي إلى نفس التراب الذي ينتمي إليه آدم ولهذا فإنها أخت جدنا المشترك وعمة لكل نسله.

ويمكن أن تنشأ مثل هذه الأسطورة بتأثير الدور المهم الذي تلعبه النخلة في اقتصاد العربي، فكما ان الجمل يطمن المطاليب الأساسية للرحل يقدم «النخل» كل ما هو ضروري للفلاح. فإلى جانب التمر الذي يؤلف طعاماً مجانياً مغذياً يجد كل جزء من النخلة أيضاً استخداماً مفيداً له في

---

(١) المعروفم أن الدونم الواحد يساوي ٢٥٠٠م. المترجم.

الأستثمارة الفلاحية، فمن أوراقها المنقوعة بالماء تحاك الحصران والأطباق والمراوح والسلال والأكياس. ومن جذوعها تصنع العوارض أو تستخدم للحطب أو كمواسير للمجاري ومن سعفها تصنع الموائد والكراسي والأسرة وأقفاص الدواجن وكذلك زوارق مستديرة «كفف» تطلى من الخارج بالقار وتذكرنا في شكلها الخارجي بقشرة فارغة للبرتقالة مقسومة إلى نصفين. ومن ليف النخلة تصنع الحبال كما أن نوى التمر يسحق ويستخدم علفاً للماشية إذ انه يزيد من حليبها على ما يدعيه الأهالي، وأخيراً فإن عصير التمر يتحول بعد أن يوضع في الشمس بضعة أيام إلى عصير حلو لزج يشبه العسل الأسود كثيراً ويستخدم بدلاً عن المربى [1].

وشجرة النخيل [2] (Phoenix Dactylifera) هي إما ذكر أو أنثى ويجري تكثيرها عن طريق فسائل تنمو في أساس الأنثى وتفصل عادة من جذر النخلة الأم بعد أن يبلغ عمرها ثلاث سنوات. والانثى هي وحدها التي تحمل الثمر أما الذكر فإن مهمته تقتصر على إخصاب الأنثى. وتجري عملية الاخصاب بشكل اصطناعي عادة في الفترة من نيسان إلى أيار عندما ينشق «الطلع» وهي عبارة عن أفراخ تشبه اللسان في شكلها تظهر في أعلى النخلة في بداية شباط تضمن في داخلها عذق التمر المقبل، حيث يضع الفلاح في وسط عذق الأنثى بضعة فروع من عذق الذكر فتقوم هذه الفروع بإخصاب عذق الأنثى بواسطة الطلع الذي تسقط عليها. ولا تعطي النخلة الأنثى بدون هذه العملية إلا حشفاً خالياً من النوى يميل طعمه إلى المرارة.

وعندما تحظى النخلة برعاية جيدة تبدأ بإعطاء الثمر في السنة الثالثة من عمرها. لكن عذوقها تقطع عادة في خلال السنتين الأولى من بدء

---

(١) يقصد الدبس. المترجم.

(٢) مجموعة التقارير القنصلية لسنة ١٩٠٢، الاصدار الخامس ص٣٥٩.

إعطائها للثمر قبل أن تنضج وذلك لكي لا تنهك النخلة قبل الأوان. وتعيش النخلة في الظروف الاعتيادية ما بين ثمانين وتسعين عاماً وتصل إلى أوج ازدهارها في سن الخامسة عشر والسادسة عشرة حيث تعطي آنذاك ما بين ٢/١،١ إلى ٢/٧،١ بود من التمر تبعاً لنوعية الأرض وغير ذلك من الظروف.

وينمو التمر على شكل عناقيد منفردة تتدلى من أعلى النخلة وتأخذ بالطور تدريجياً إلى أن تظهر عليها في شهر أيار الثمار الخضراء التي تعرف باسم «جمري» ثم تأخذ في الاصفرار في حزيران فتسمى في هذه الحالة «خلال» ثم ينضج الثمرة في تموز أو في بداية آب فيطلق عليه إسم «رطب» وبعد أن ينضج الثمر كلياً في نهاية آب وبداية أيلول يسمى «تمراً».

إن زراعة البساتين هي عمل طويل ودقيق وشاق ولهذا فإن الأرض الخالية يتم إعطائها على شكل قطع منفردة إلى الفلاحين فيقوم هؤلاء بشق سواقي الري وزراعة النخل فيها أي إنهم يحولون الأرض الخالية إلى بستان نخيل. ويكافأ الفلاح على هذا العمل الصعب بأن يسمح له بأن يستغل إيراد المزروعات التي يزرعها بين فسائل النخيل لحسابه لمدة سبعة سنوات. وبعد هذه المدة وعندما يبدأ النخل بإعطاء الثمر تتحول الأرض التي كانت خالية في السابق إلى بستان نخيل تعود ملكيته إلى صاحب الأرض الذي يتفق مع الفلاح إما على أساس أن يدفع له مبلغاً محدداً عن كل نخلة زرعها وإما أن يملكه ١/٤ أو ١/٢ البستان بحيث ان كل إيراد هذا الجزء يكون من حق الفلاح كلياً.

وتجبى ضريبة العشر المفروضة على بساتين النخيل بطريقتين، فإذا ما كانت مساحة الأرض المعنية معلومة يؤخذ من كل مساحة تزرع فيها مائة نخلة وتساوي ١٦/١٦٤،١ أو ٣ ساجن مربع أي مما يسمى بـ «الجريب »

مبلغ يتراوح ما بين أربعة روبلات وست وعشرين كبيكاً وإثني عشر روبلاً وثمانية وسبعين كبيكاً تبعاً لموقع البستان ونوعية التربة وغير ذلك من الظروف. وإلّا فإن كمية الحاصل يقدرها بواسطة النظر مخمنون خاصون يزورون البستان قبل نضج الثمر بقليل ثم يؤخذ من المالك تعهد خطي يتعهد فيه بأن يدفع للخزينة عند بيع الثمر مبلغاً يعادل قيمة خمس الحاصل على اساس أسعار السنة الماضية.

وتوجد في العراق الجنوبي جميع فروع الزراعة الأخرى كالبستنة وزراعة القطن وتربية دود القز ولكنها غير مزدهرة وخصوصاً زراعة القطن وتربية دود القز اللتان ليس لهما حتى الآن أي أهمية تجارية وتقتصر أهميتها على سد الاستهلاك المحلي المحدود جداً.

أما فيما يتعلق بحرف سكان العراق الجنوبي الأخرى فلا يجوز أن نتحدث عنها كثيراً ذلك أن الصناعة الضعيفة التطور التي تستخدم العمل اليدوي والأدوات البدائية جداً لا توجد إلّا في مدن قليلة في هذه المنطقة فمنتجات الصناعة المحلية تصنع بطريقة يدوية ويقتصر بيعها كلياً تقريباً على الاستهلاك الداخلي. وتتألف قائمة البضائع التي تنتج محلياً من المنسوجات الحريرية والقطنية من مختلف الأنواع والألوان والنقوش، ومناديل الرأس والأحزمة والأحذية على اختلاف أنواعها وأخيراً الأواني النحاسية والفخارية من أبسط الأنواع، الطرحات العربية التي هي بدون أكمام «عبا». إن انعدام استخدام قوة البخار الرخيصة يجرد الصناعة من إمكانية منافسة منتجات غرب أوروبا التي تصنع بواسطة المكائن والتي تؤدي أكثر فأكثر إلى تقليص حجم استهلاك منتجات الصناعة المحلية.

الفصل الرّابع

لا يمكن توضيح الوضع الحالي للطوائف المسيحية الكثيرة العدد في العراق الجنوبي أو صلاحيات رؤسائها الروحيين وتبعينها للحماية الدينية للدول الأوروبية ثم علاقاتها فيما بينها وموقف الحكومة المركزية منها إلا بالارتباط مع الوضع العام للـ «رعية» المسيحية في الامبراطورية العثمانية. لذا فإننا سنبدأ الفصل الحالي ببحث هذه النقطة الأخيرة في تسلسلها التاريخي.

لقد أصبح السلاطين العثمانيون المتصرفين بمقدرات الكنيسة الشرقية منذ أن احتل محمد الثاني القسطنطينية واستولى على عرش الأباطرة البيزنطيين في ١٤٥٣.

وقد وقعت على عاتق الفاتح مهمة صعبة هي إرساء العلاقات المقبلة منذ البداية بين المنتصرين والمندحرين الذين كانوا غريبين عن العثمانيين في اللغة والدين والعادات والتقاليد. وقد استند السلطان في هذا الأمر على تعاليم القرآن التي توصي بالإبقاء على الحياة ومنح الدينية لـ "أهل الكتاب" "أهل الكتاب" أي للذين عندهم كتاب مقدس من الشعوب المغلوبة، والمحافظة على ممتلكاتهم شرط أن يخضعوا خضوعاً مطلقاً للحاكم المسلم ويدفعوا الجزية.

لقد عُين كيناديوس وكان قد انتخب بأمر من السلطان محمد الثاني

لمنصب العرش البطريقي، الذي كان شاغراً منذ مدة طويلة، وسيطاً بين «الرعية» المسيحية والسلطان فأصبح بذلك مسؤولاً عن اخوانه في الدين وعن إخلاصهم للفاتح وعن دفعهم للـ «خراج» [١] أي ضريبة الرأس. لقد أغدق السلطان نعمه على البطريق الجديد وقدم له بيده العصا وألبسه الخاتم، وبذلك يكون السلطان قد التزم بكل الطقوس التي كانت تتبع في مثل هذه الحالات في عهد الأباطرة البيزنطيين [٢]. ورقي كناديوس في الوقت نفسه إلى باشا من ذوي الأطواغ الثلاث، ومنح لقب «ملت باشي» أي رئيس طائفة وتسلم «براءت» وهي وثيقة سلطانية تفوضه حكم المسيحيين كافة دون رقيب تقريباً.

وقد أخضعت لصلاحية بطريق القسطنطينية بموجب هذه «البراءت» التي أصبحت مثلاً جرى الالتزام به بالنسبة لجميع البطارقة في المستقبل، جميع الشؤون الكنسية ابتداءً من تعيين واقصاء الأساقفة وغيرهم من رجال الدين وانتهاءً بالدعاوي وشؤون الزواج والطلاق والارث وما أشبه. كما اعترف للبطريق فضلاً عن ذلك بالحق في إصدار القرارات في القضايا المدنية والجنائية التي لا يشترك فيها مسلمون والتي لا يتعدى العقاب فيها السجن أو النفي إلى الگاليرا، علماً بأن الجهة التي تنفذ قرارات البطريق

---

(١) لواقع أن التسمية الأصلية لضريبة الرأس التي تؤخذ من غير المسلمين هي «الجزية» لكنها كانت تسمي في بعض الأحيان «خراجاً» أيضاً. وقد ألغيت الجزية في الدولة العثمانية في عام ١٨٥٦ وحلت محلها ضريبة أخرى هي «بدل العسكرية» . المترجم.

(2) F. Van den steen de jehay. De la Situation Legale des Sujets Ottomen non-musulmans Bruxelles. 1906. P. 88.

هـذه هـي الحكومـة نفسـها. كـذلك ألقيـت علـى عـاتق البطريـق مهمـة توزيـع ضـريبة الـرأس بـين أفـراد الطائفـة ذلـك أن السـلطات العثمانيـة كانـت تقـرر المبلـغ الأجمـالي لهـذه الضـريبة مسـبقاً. هـذا وأن حقـوق و واجبـات الأسـاقفة في أسـقفياتهم والقسـس في أبرشـياتهم كانـت تماثـل مـا ذكـر أعـلاه ولكـن في حدود الرتبة التي يشغلها كل من رجال الدين هؤلاء [1].

ولم يكـن فـاتح القسـطنطينية علـى علـم بالمنازعـات والاختلافـات العقائديـة الـتي كانـت تفـرق أتبـاع المسـيح فـأراد في البدايـة أن يخضـع كـل الرعيـة المسـيحية دون تفريـق في المـذهب لزعامـة البطريـق اليونـاني. وكـان مطـران الأرمـن يـواكيم أول مـن خـرج علـى ذلـك، فقـد أسـتطاع في أثنـاء وجـوده مـع محمـد الثـاني في بروصـه أن يكسـب وده وبعـد أن انتقـل مـع الحاشـية المختـارة إلى القسـطنطينية بعـد أن تم الاسـتيلاء عليهـا دخـل في حظـوة السـلطان نهائيـاً. وبـذلك أسـتطاع رئـيس «الرعيـة» الأرمنيـة أن يحصـل لنفسـه، دون صـعوبة تـذكر، علـى اعـتراف بمسـاواته مـع البطريـق اليونـاني فعـين «ملت باشي» أو رئيساً لجميع المسيحين غير السلاف.

ولم تلبـث الطائفـة اليهوديـة الـتي وضـعت مـع المسـيحيين تحـت وصـاية بطريـق لأرمـن، أن تحـررت مـن تلـك الوصـاية فحصـل كبـير الحاخامـات موشـي كابسـالي مـن محمـد الثـاني لقـب «حاخـام باشـي» ومنحـت لـه علـى أفراد طائفته نفس الحقوق التي كانت قد منحت لبطريقي اليونان والأرمن.

وهكـذا تكونـت في الامبراطوريـة العثمانيـة حـتى بدايـة سـتينيات القـرن الخـامس عشـر ثـلاث طوائـف تتمتـع باسـتقلال ذاتي هـي الأرثوذكسـية والأرمنيـة واليهوديـة. وقـد سـاعدت الاسـتقلالية الذاتيـة الـتي تتمتـع بهـا هـذه

(1) Th. Lavallee. Histoire de la Turquie. Paris 1859. T. 1. p. 257.

الطوائـف علـى تبسـيط عمـل الحكومـة الإداري لدرجـة كبـيرة جـداً وأدت إلى أن يبتعـد الرعايـا غـير المسـلمين أكثـر فـأكثر عـن رعايـا السـلطان الـذين يـدينون بالاســلام ورســخت لــدى الطوائــف المســيحية المختلفــة بدرجــة تزيــد عــن المعتـاد تعلقهـا بـدينها ولغتهـا وعاداتهـا وأعرافهـا باعتبـار أن هـذه الأمـور تشـكل الأسس التي توحدها وتجعل منها شعوباً قائمة بذاتها.

لقــد اتصــلت أوروبــا بمســلمي الشــرق منــذ الحــروب الصــليبية غــير أن تلـك العلاقـات كانـت بعيـدة عـن الطـابع السـلمي حيـث اعتـاد العـالم المسـيحي أن ينظــر إلى المســلمين نظرتــه إلى أعدائــه الألــداء. ولم يتــورع البــابوات ملهمــو حملـة الصـليب، عـن اسـتخدام كـل الوسـائل المتـوفرة لهـم لتـأجيج هـذا الحقـد ولم يــترددوا حــتى في أتخــاذ إجــراءات مــن أمثــال منــع أي علاقــات تجاريــة مــع المســلمين مهــددين المخــالفين بالحرمــان مــن الكنيســة وبفــرض غرامــة علــيهم تعادل قيمة كل البضائع التي صدروها إلى ديار الاسلام (١).

وقـد شملـت هـذه النظـرة بعـد ذلـك العثمـانيين الـذين حلـوا علـى المسـرح العــالمي محــل مــن كــان قــبلهم بلعــب دور الشــعوب الإســلامية علمــاً بــأن الحقــد علــى العــدو الجديــد ازداد أكثــر بســبب الرعــب الــذي أثــاره التزايــد الســريع والمتواصــل للقــوة العثمانيــة الــتي أخــذت تهــدد كمــال واســتقلال أوروبــا نفســها. وقـد ظـل البـابوات هنـا أيضـاً مخلصـين لأنفسـهم فمـا أن وصـل خـبر سـقوط القسـطنطنية إلى رومـا حـتى أخـذ شـاغل عـرش القـديس بطـرس البابـا نيقـولا (٢) وخلفــاؤه الأقربــون كــاليكتوس (٣) وبيــوس الثــاني يــدعون الــدول الأوروبيــة

---

(1) P. Arminjon, Etrangers et Poteges dans I, Empire Ottoman, Paris 1903. T. 1.

(٢) نيقولا الخامس ـ المترجم.

(٣) كاليكتوس الرابع ـ المترجم.

بحماس إلى حملة صليبية جديدة ضد الأتراك. ولكن زمن الاثارة الدينية كان قد ولى فلم تؤد جهودهم لإيقاظ الحمية المسيحية المتراخية إلى النتائج المرجوة.

لكن المنع الذي فرضه بابوات روما على التجارة مع المسلمين ظل قائماً، ولم يجرؤ على الخروج عليه وإقامة علاقات تجارية مع العثمانيين إلا الجنويون والبنادقة الذين كان استمرار التجارة مع الممتلكات البيزنطية السابقة وعلى الأخص مع الشرق الادنى الذي كانت الجمهوريتان كلتاهما تحتكران التجارة فيه في القرن الثاني عشر مسألة حيوية للغاية بالنسبة لهم. ولم تكن المعاهدات التي عقدوها مع السلطان محمد الثاني في ١٤٥٤ ــ ١٤٥٥ إلا إعادة للوضع الذي كان سائداً في السابق، وباعتبار أن هذه المعاهدات ذات طابع تجاري بحت فإنها لم تضمن حتى ولو إشارة إلى الحماية الدينية.

ولا يصعب علينا، إذا أخذنا بنظر الاعتبار كل ما ورد ذكره أعلاه أن نتصور أي أثر صاعق تركه على اوروبا الغربية وخصوصاً على البابا رئيسها الديني، الحلف الدفاعي والهجومي الذي عقده الملك الفرنسي فرانسوا الأول مع السلطان سليمان الفخم [1] الذي لم يفعل في هذه الحالة إلا أن قبل

---

(١) يطلق المؤرخون عدة ألقاب وصفات على السلطان سليمان منها سليمان العظيم وسليمان الفخم وسليمان المشرع أو القانوني بل حتى ان بعض المؤرخين الأتراك يطلقون عليه أسم سليمان الثاني على اعتبار ان سليمان الأول هو النبي سليمان بن داود ولاعتبارات أخرى أنظر: عبد العزيز محمد الشناوي؛ أوروبا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٩، ص٦٥٨ وكذلك الهامش رقم ١ في الصفحة نفسها ـ المترجم.

الاقتراح الذي قدمه له «الملك المسيحي جدا».

وكان هذا الملك قد دخل في صراع غير متكافئ مع شارل الخامس الذي استطاع أن يوحد تحت سلطته نصف أوروبا تقريباً، فخسر، في ١٥٢٥ معركة حاسمة في بافيا فأسره خصمه السعيد الحظ وألقاه في السجن. وعندما يأس السجين من خلاصه أسرع بإقامة علاقات سرية مع السلطان العثماني هادفاً إلى دفعه إلى الهجوم على ممتلكات شارل الخامس فيجذب بذلك انتباه عدوه إلى الشرق. وقد استجاب سليمان لدعوة فرانسوا الأول بسرور ذلك لأن شارل الخامس كان عدواً للدولة العثمانية هذا إذا لم نذكر أن توجه الملك المسيحي إليه طلباً للمساعدة كان يداعب غروره وينعش آماله في تبادل المساعدة في إخضاع أوروبا المقبل.

وعلى الرغم من السرية التامة التي جرت فيها المحادثات ورغم أن الملك الفرنسي الذي كان قد تخلص من الأسر كان يحرص على أن ينكر في كل فرصة ملائمة اتفاقه مع السلطان، فإن الحقيقة لم تلبث أن انكشفت فأثار «حلف الزنبق المدنس مع الهلال» (١) كما أخذ يسميه خصوم فرانسوا السياسيون، عاصفة شديدة من الغضب في أوروبا (٢).

وكان شارل الخامس خصم فرانسوا الأول قد استولى في أثناء ذلك

---

(١) لقد أطلق البعض آنذاك على التحالف بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني هذه التسمية وهي ترجمة العبارة الفرنسية "L,Union Sacrilege du Lis et du Croissant" ولفظة Lis بالفرنسية اسم لزهرة الزنبق التي كانت تتخذ قديماً شعاراً لفرنسا. أنظر عبد العزيز الشناوي؛ المصدر السابق ص٧٢٧ وكذلك الهامش رقم ١ على الصفحة نفسها. المترجم.

(2) Th. Lavallee. Op. cit. T.1.p. 306 FF.

على تونس من الأتراك في عام ١٥٣٥ [١] فحرر خلال ذلك عدداً من الأسرى المسيحيين وطهّر البحر من القراصنة المسلمين [٢]، الأمر الذي أعطى أوروبا كلها حجة لأن تهاجم بشكل أكثر ضراوة الملك فرانسوا الأولى لحلفه الشاذ مع عدو المسيحية.

تحت ضغط كل هذا الهجوم وهذه الاتهامات قرر حليف سليمان أن يزكي نفسه أمام العالم المسيحي ويتخذ دور المدافع عن المسيحيين في ممتلكات السلطان.

وهكذا استطاع المبعوث الرسمي للملك الفرنسي (Chevalier Jean de la Foret) في سنة ١٥٣٥ نفسها أن يحصل من سليمان الفخم على أول وثيقة مكتوبة كانت فاتحة لما يسمى بالامتيازات. إن كبرياء وغطرسة السلاطين العثمانيين الذين كانوا آنذاك في أوج قوتهم لم تكن تسمح لهم بأن يربطوا أنفسهم بالتزامات ثنائية مع الكفار لذا فإن الوثيقة المذكورة لم تكن على شكل معاهدة وإنما عبارة عن مرسوم سلطاني منح فرنسا

---

(١) لم تكن تونس في ١٥٣٥ قد خضعت للدولة العثمانية بعد، وإنما كانت آنذاك مسرحاً للصراع بين العثمانيين والحفصيين والاسبان حتى استطاع العثمانيون تثبيت أقدامهم فيها عام ١٥٧٤ . المترجم.

(٢) لا يمكن أن يوصف النشاط البحري الذي كان العرب المسلمون في شمال افريقيا يمارسونه بالقرصنة بالمعنى المألوف لهذه الكلمة في الوقت الحاضر، ففضلاً عن أن القرصنة كانت آنذاك من أعمال البطولة التي يعتد بها وتثير الاعجاب فإن سكان شمال أفريقيا الذين كانوا ينظرون إلى نشاطهم هذا على أنه نوع من الجهاد لم يكونوا يهاجمون السفن الإسلامية ولا سفن الدول الصديقة بل يركزون هجماتهم على سفن الأعداء فقط . المترجم.

حقوقاً وأفضليات معينة في الامبراطورية العثمانية [1].

ومن هذه الحقوق :

١ . إقامة المحاكم القومية [٢].

٢ . حرية التجارة.

٣ ــ حرية الدين وممارسة الشعائر الدينية على أن يشمل هذا الحق جميع رجال الدين يعتنقون المذهب «الفرنسي» مهما كانت القومية التي ينتمون إليها.

٤ ــ حرية التجارة للأمم الأوروبية الأخرى ولكن تحت العلم الفرنسي فقط.

لقد أخذ الممثلون الدبلوماسيون والقناصل الفرنسيون في الدولة العثمانية يتوسعون بالتدريج أكثر فأكثر في تفسير البند الثالث من هذه الأمتيازات وهو البند الخاص بالحرية الدينية ويعطونه طابع الحماية الدينية وأصبحوا يتخذون مواقف رسمية أمام الباب العالي لصالح رعاياه الكاثوليك أو الوحدويين [٣]. وقد كان لويس الرابع عشر مستعداً للعمل من أجل فصل من يدينون بمعتقده نهائياً عن الرعوية الثمانية غير أن هذه النظرة

(1) Th. Lavallee, op. cit. T. 1. p. 325.

(٢) يقصد المؤلف بذلك إعفاء الرعايا الفرنسيين من الخضوع للقضاء العثماني وقصر خضوعهم على القضاء الفرنسي حيث تتم محاكمتهم في دور القنصليات الفرنسية . المترجم.

(٣) الوحدويين تسمية يطلقها المؤلف على أتباع الكنائس المسيحية غير الكاثوليكية الذين يرضون بزعامة البابا الدينية ويدعون إلى الوحدة مع كنيسة روما . المترجم.

المتطرفة لم تصادف إسناداً ولا استحساناً من جانب سفراء الملك الذي كانوا يدركون جيداً بأن السلطان لن يتسامح أبداً تجاه مثل هذا الخرق الفاضح لسيادته. أما تدخل الدبلوماسية الفرنسية شبه الرسمي في العلاقات بين السلطان و «رعيته» الكاثوليكية فلم يكن يثير رداً عدائياً من جانب الأتراك بسبب من أن الباب العالي كان ينظر إلى سفراء فرنسا على أنهم ممثلون لدولة صديقة وحليفة.

أما فيما يتعلق باتخاذ الدول الأوروبية الأخرى دور المدافع عن الشعوب المسيحية في الدولة العثمانية فقد كان على تلك الدول أن تهتم أولاً بتحرير نفسها من وصاية فرنسا. وذلك أمر استطاعت أنجلترا أن تحققه في ١٥٨١ وهولندا في ١٦١٢ والنمسا في ١٦١٥ عندما حصلت هذه الدول على الحق في أن تتاجر بحرية تحت علمها الخاص غير أنها لم تستطع مع ذلك أن تصل إلى درجة التساوي مع فرنسا في ما يتعلق بحقوق الحماية الدينية بسبب من أن الدولتين البروتستانتيين أنجلترا وهولندا لم يكن لديهما من تحميانه في الدولة العثمانية نظراً لأنه لم يكن يوجد آنذاك بروتستانت بين رعايا السلطان المسيحين. أما النمسا وهي الدولة الكاتوليكية فرغم أنها احتفظت بحقها في حماية الكاثوليك. ورجال الدين الكاثوليك في جميع المعاهدات التي عقدتها مع الباب العالي اعتباراً من معاهدة كارلوفتس في ١٦٩٩ إلا أنها لم تتمكن من الاستفادة من هذه الحقوق لأنها كانت في حالة حرب لم تتوقف تقريباً مع الدولة العثمانية. إن روسيا التي أصبحت منذ زمن معاهدة كجك كينارجة في ١٧٧٤ حامية الرعاية الأرثوذكس رسمياً هي وحدها التي استطاعت أن تحتل وضعاً مشابهاً لفرنسا في قضية الحماية الدينية خصوصاً بعد أن انشغلت فرنسا كلياً بالعثمانيين الكاثوليك.

وهكذا ظلت فرنسا الحامي الوحيد لرعايا السلطان الكاثوليک حتى مؤتمر باريس ١٨٥٦ الذي طرحت فيه لأول مرة قضية تدخل الدول بصورة جماعية لصالح الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية ثم دخل هذا المبدأ في الممارسة الدولية نهائياً عن طريق مؤتمر برلين الذي ساوى بين الدول الكاثوليكية والبروتستانتية في حقوق الحماية الدينية، فالمادة الثانية والستون من مقررات هذا المؤتمر تنتهي بالكلمات المهمة التالية :

« يعترف لوكلاء الدول الدبلوماسيين والقنصليين في الدولة العثمانية بحق حماية الشخصيات الدينية والرهبان والحجاج من جميع القوميات وكذلک المؤسسات الدينية والخيرية وغيرها في فلسطين وفي غيرها من الأماكن ».

صحيح أن المادة الثالثة والستين من معاهدة برلين تؤكد احتفاظ فرنسا بحقوقها السابقة في الحماية الكلية للكاثوليک من جميع الأمم الذين يعيشون في الدولة العثمانية لكن المانيا أخذت منذ ١٨٩٢ تحاول أن تعطي لهذه المادة، بمساعدة رجال القانون الأتراک، تفسيراً محدوداً بمعنى عدم الاعتراف بالحماية الفرنسية للمؤسسات الكاثوليكية التي أنشأت بعد ١٨٧٨ أي بعد مؤتمر برلين والتي لا تعود إلى رعايا فرنسا. وأخيراً حدث في ١٩٠١ بمناسبة الصدام الدموي الذي جرى في القدس بين رهبان يونانيين وكاثوليک من رعايا المانيا وايطاليا، أن هب الممثلون القنصليون لهاتين الدولتين مدافعين عن مواطنيهم الأمر الذي أدى إلى الاعتراف بحق المانيا وايطاليا في حماية رعاياهما الكاثوليک في الدولة العثمانية رسمياً بمرسوم سلطاني خاص. أما النمسا التي لم تكن حتى هذا الوقت لديها القدرة على منافسة فرنسا منافسة جدية في قضية الحماية الدينية للكاثوليک العثمانيين فقد استطاعت خلال القرن التاسع عشر أن تحقق نتائج باهرة في هذا

الشأن، فقد وسعت حمايتها لتشمل كاثوليك البانيا في ولايات قوصوة يانينا وسكوتاري وكذلك في مقدونيا، وقد اعترف بحق النمسا في هذه الحماية حتى من قبل (Congregatio de Propaganda Fide) [١] الذي اقترح في أمره الدوري في ١٨٨٨ على القاصدين الرسوليين والأساقفة اللجوء في شؤون الكاثوليك الألبان إلى مساعدة القناصل الفرنسيين فقط في الأماكن التي يكون فيها النفوذ الفرنسي هو الراجح وإلى مساعدة الوكلاء النمساويين في جميع المناطق الأخرى [٢].

وبعد أن أوضحنا الدور الكبير الذي وقع على عاتق فرنسا في مسألة الحماية الدينية دعونا نتتبع باختصار النشاط الديني ـ التنويري لهذه الدولة الذي أنتج ثماراً رائعة في العراق الجنوبي، وذلك منذ اللحظة التي ظهر فيها المبشرون الكاثوليك في الدولة العثمانية.

لم يفقد بابوات روما حتى بعد انقسام نهائياً في ١٠٥٤ [٣]، الأمل في إعادة «المنشقين الشرقيين» إلى حظيرتهم ولم يتخلوا، إلى أن سقطت بيزنطة، عن محاولاتهم لإعادة الوحدة الكنسية. وقد وقعت الكنيسة الشرقية منذ أن استبدل الصليب على كنيسة القديسة صوفيا بالهلال، تحت سلطة اولئك الأتراك أنفسهم الذين كان البابوات يدعون ضدهم على

---

(١) مجمع انتشار الايمان ويسمى الان مجمع العقائد. المترجم.

(2) P. Arminjon. Op. cit. p. 317 FF.

(٣) حول الانشقاق النهائي الذي حدث في هذه السنة بين كنيستي روما والقسطنطينية والعوامل التي أدت أليه أنظر: «عبدالقادر أحمد يوسف؛ الامبراطورية البيزنطية، دار المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت، ١٩٦٦، ص١٢٨ ـ ١٣٣ »

الدوام. كذلك اعتاد العثمانيون من جانبهم على النظر إلى البابوات على أنهم أعداؤهم الألدّاء وذلك ما دفع السلاطين إلى اتخاذ إجراءات حازمة لحماية رعاياهم الجدد من المسيحيين من تأثير رئيس الكنيسة الغربية عليهم. ولهذا تحتم على البابا أن يتخلى عن الاتصال المباشر بالمسيحيين الشرقيين ويتجه للبحث عن وسائل جديدة لجذبهم إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية، وقد أفاد في هذا المجال بشكل خاص الحلف الذي عقده فرنسوا الأول مع السلطان سليمان الفخم والنفوذ الكبير الذي حصل عليه الملك الفرنسي في بلاط ذلك السلطان. ولم يكن على البابوات إلا أن يغمضوا عيونهم عن الحلف المدنس مع الكفار لكي يستطيع الملك أن يأخذ على عاتقه تمثيل وحماية المصالح البابوية لدى الباب العالي.

لقد تهيأت لروما بفضل هذا الوضع إمكانية أن تبدأ بتنظيم الدعاية الكاثوليكية بين رعايا الامبراطورية العثمانية المسيحيين تنظيماً صحيحاً. فلم تكن قد قامت قبل ذلك إلا محاولات فردية قام بها رهبان كاثوليك عالو الهمة كانوا يمارسون التبشير في الشرق الأدنى على مسؤوليتهم الخاصة. وبعد مضي أقل من خمسين سنة على منح السلطان لأول امتيازات لفرنسا وفي ١٥٨٣ بالذات ظهر اليسوعيون وبعدهم مباشرة الكبوشيون في أقاليم الامبراطورية العثمانية بشكل رسمي [١].

ولم يكن البابا كريكوري الثاني عشر الذي بارك لهؤلاء المبشرين نشاطهم التبشيري، ولا هم أنفسهم قد فكروا وهم يتوجهون إلى الدولة العثمانية بتحويل المسلمين عن دينهم لأنهم يعلمون جيداً بأن نشاطاً من هذا النوع يقترن بأخطار فائقة قد تصل إلى طردهم من الأراضي العثمانية.

(1) P. Arminjon. Cit. p. 26.

لـذا فـإن الهـدف الوحيـد لنشـاط المبشـرين الكاثوليـک في ممتلكـات السـلطان كان المسيحيين الشرقيين.

ولم تلبـث الدعايـة الكاثوليكيـة بـين هـؤلاء أن أخـذت تـنجح بشـكل ملحـوظ وقـد سـاعد علـى ذلـک كثـيراً ظـروف معينـة كانـت ملائمـة لنشـاط المبشـرين، فعنـدما ظهـر هـؤلاء في الدولـة العثمانيـة كـان قـد مضـى علـى السـلاطين أكثـر مـن مائـة سـنة وهـم يمتلكـون بيزنطـة وقـد اسـتطاعوا خـلال هـذ المـدة الطويلـة أن يدرسـوا العلاقـات القائمـة بـين الكنيسـتين الشـرقية والغربيـة دراسـة جيـدة إلى درجـة بحيـث أنهـم لم يعـودوا يخشـون مـن أن يثـور المسـيحيون الشـرقيون الخاضـعون لهـم بالاتحـاد مـع البابـا وبمسـاعدة أوروبـا الغربيـة. وبعـد أن أطمـأن البـاب العـالي مـن هـذه الناحيـة غـير علـى الفـور موقفـه مـن رعايـاه المسـيحيين وزعمـائهم الـروحيين حيـث لم يعـد يـرى أن مـن الضـروري أن يجـاملهم، فلـم يعـد يـترک مناسـبة ملائمـة تمـر دون أن يشـعرهم فيهـا بـأن الامتيـازات الممنوحـة للمسـيحيين لا تعـدو كونهـا منـة مـن السـلطان وان السلطان بإمكانه أن يسحبها في أي وقت.

ولكـي نـزيح السـتار قلـيلاً عـن الوضـع الـذي كانـت تعيشـه «رعيـة» ارثوذكسـية واحـدة علـى الأقـل تحـت النـير التركـي نـورد فقـرة صـغيرة مقتبسـة مـن كتـاب «تركيـا في اوروبـا» الفـائق الأهميـة حيـث يصـف مؤلفـه الـذي تخفـى تحـت اسـم مسـتعار هـو (Odysseus) وضـع الكنيسـة اليونانيـة آنـذاک بالعبـارات التاليـة: «لقـد اعتـاد الأتـراک تعـريض رجـال الـدين لـلأذى والاهانـة بشـكل مكشـوف. فالبطارقـة كـانوا يعزلـون ويسـتبدلون بكثـرة قـدر الامكـان بهـدف الحصـول علـى أكثـر مـا يمكـن مـن الهـدايا الخاصـة، وقـد أعـدم ثلاثـة مـنهم علـى الأقـل ... ويكـاد لا يثـير الدهشـة أن هـذه الفـترة تميـزت بالتوجـه الواسـع نحـو الاسـلام. ومـن السـهل أن تفسـر هـذه الظـاهرة بـالظروف التعسـة الـتي كانـت

تعيشها الرعية والضرائب الزائدة عن الحد وعجز الكنيسة عن إبداء الحماية ... ويمكن اعتبار استمرار المسيحية بالوجود في ظل مثل هذه الظروف معجزة ... ».

ولهذا فليس هناك ما يدهش في أن تستجيب الرعية المسيحية التي كان يكتنفها الضنک عن طيب خاطر لدعوة المبشرين الذين كانوا يدعونهم إلى الانتقال إلى الكاثوليكية خصوصاً وأن الانتقال إلى كنيسة روما كان بالنسبة للمسيحيين الشرقيين يقترن بفوائد ملموسة تحدث على شكل حماية قوية من جانب الدبلوماسية الفرنسية التي كان تهتم بحرارة بمصير الذين يتحولون إلى المذهب الجديد وتدافع بشكل فعال عن مصالحهم أمام الحكومة العثمانية.

في ظل مثل هذه الظروف يمكن أن يعتبر نجاح الدعاية الكاثوليكية مضموناً ولا يبقى على المبشرين إلا أن يعينوا أساليب تحول «المنشقين» على نطاق واسع، وقد ظهر في البداية أن اكثر هذه الأساليب تحقيقاً لذلک الهدف هو جذب رؤساء طوائف مسيحية منفردة على أمل أن تحذو حذوهم الرعية كلها، غير أن مثل هذه الحسابات تبين أنها خاطئة لأن خضوع هذا البطريق أو الأسقف أو ذاک لروما كان ينظر إليه من قبل مساعديهم المباشرين على أنه التزام شخصي لا يلزم أحداً غير الشخص الذي التزم به، لذا فقد تحتم اللجوء إلى أسلوب أقل بريقاً ولكنه أكثر فعالية ونعني تحويل اعضاء منفردين في الكنيسة الشرقية إلى المذهب الكاثوليكي فوجه المبشرون كل جهودهم نحو زيادة عدد المتحولين إلى الكاثوليكية إلى أقصي حد ممكن.

وقد وضع هؤلاء المتحولون الجدد تحت حماية الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين الفرنسيين فوراً فخرجوا بذلک من دائرة

اختصاص زعيمهم الروحي السابق البطريق أو الأسقف ولم يعودوا يخضعون له. وقد وقف رؤساء الطوائف المسيحية الشرقية من المبشرين موقفاً يتسم بالصبر طالما لم يتخذ الانتقال إلى الكاثوليكية طابعاً شاملاً، ولكن ما ان أخذت صفوف رعيتهم تتقلص بشدة بسبب نجاح الدعاية حتي تغير موقف ممثلي الكنيسة الشرقية من خصومهم الغربيين بشدة.

وبعد أن قدر البطريقان اليوناني والأرمني وكذلک الأساقفة والقسس الخطر الذي يتهددهم من جانب المبشرين الكاثوليک حق قدره لجأوا إلى حماية الحكومة العثمانية، وكانت الحكومة العثمانية هي نفسها قد أقلقها اتساع الدعاية الكاثوليكية في الامبراطورية بسبب زياده المكانة الروحية للبابا، عدو الأتراک اللدود، بين المسيحيين العثمانيين وتقلص إيرادات الخزينة العثمانية نتيجة لتوقف اليونان والأرمن الذين تحولوا إلى الكاثوليكية عن دفع «الخراج» أو ضريبة الرأس [1]. وقد دفعت هذه الاعتبارات العثمانيين إلى التخلي عن موقفهم السلبي من المبشرين الكاثوليک وإلى اتخاذ عدد من الاجراءات تقترب من الاضطهاد الحقيقي ضدهم وخصوصاً ضد الذين تحولوا إلى الكاثوليكية.

لقد بدأت ملاحقة المبشرين في ١٦٠٥ عندما ألقي القبض بأمر من الصدر الأعظم على اليسوعيين الذين كانوا يعملون بنجاح بين يونانيي اسطنبول وألقوا في السجن ثم أخرجهم منه ولكن بصعوبة كبيرة البارون دي سوليناک السفير الفرنسي لدي الباب العالي آنذاک [2]. وقد تعرض اليسوعيون بعد ذلک للملاحقة أكثر من مرة وأغلقت مؤسساتهم الدينية

---

(1) P. Arminjon: op. cit. pp.27 – 28.

(2) Th. Lavallee. Op. cit. T. II. P. 56.

الخيرية، ولم يكن من النادر أن تحول الكنائس إلى مساجد غير أن جميع إجراءات الحكومة هذه لم يكن لها بالنسبة للمبشرين الأجانب عواقب وخيمة كما كانت بالنسبة لمن حولوهم إلى معتقدهم من الرعايا العثمانيين.

وقد قام باضطهاد هؤلاء الرعايا الذين تحولوا إلى المعتقد الجديد شركاؤهم في العقيدة الذين وجدوا في ذلك مسائدة فعالة وإسناداً حاراً من جانب السلطات التركية. فالباب العالي لم يكن يعترف للطائفة الأرمنية ــ الكاثوليكية ولا لأي طائفة أخرى من الوحدويين بالوجود المستقل بل أن هذه الطوائف كلها اعتبرت خاضعة لبطريق الأرمن الكريكوريين باعتباره الرئيس الرسمي لجميع المسيحيين من غير الأرثوذكس. وطبيعي تماماً أن يتخذ هذا الأخير كل ما يمكنه من إجراءات من أجل أن يعيد أفراد طائفته الذين تحولوا إلى الكاثوليكية إلى عقيدتهم السابقة. وكانت غيرة بطريق الأرمن المفرطة من جهة وتعصب المتحولين إلى الكاثوليكية من جهة أخرى تؤدي في بعض الأحيان إلى مصادمات دموية بين الجانبيين كان الحق فيها في نظر العثمانيين دوماً إلى جانب البطريق باعتباره السلطة التي تعترف بها الحكومة.

ولم تكن مسؤولية المبشرين أنفسهم في هذا الاضطهاد بأقل من ذلك، وهذا أمر يؤكده السفير الفرنسي في اسطنبول آنذاك المركيز (De Bonnac) الذي يصور في رسالة أرسلها على وزير الخارجية الفرنسي في ١٧٢٤ الجانب السلبي للدعاية التبشيرية على النحو التالي [1]: «أعترف بأن قضية توحيد اليونان والأرمن العظيمة والمقدسة لا تجري كما ينبغي وبأن الكثير من أولئك الذين يشتغلون بهذه القضية ليست لديهم لا الموهبة

---

(1) D, Avril. Documents relatifes aux Englises de Rorient. Paris 1862. p. 136 FF.

ولا المعرفة الكافية باللغات وبأن جميعهم تقريباً يأتون إلى الشرق الأدنى بقناعات مسبقة ليست قومية وإنما طائفية بحتة أيضاً وذلك أمر خطر عند التعامل مع منشقي الشرق الأدنى، إن القضية هنا هي ليست قضية الاستيلاء على حصن الخصم. من الضروري أن ننظر إلى اليونان والأرمن نظرتنا إلى الحلفاء السابقين الذين انقطعوا عنا وانعزلوا في جيش منفرد... هناك فرق كبير بين التوحيد عن طريق الخضوع الاختياري لرئيس اكنيسة المعنية وبين ابتلاع روما للوحدويين ابتلاعاً تاماً، فإذا كان بالإمكان الاكتفاء بالأول فلماذا السعي إلى الثاني الذي يقلق العقل ويثيره؟».

«يجب على البابا أن يحرص على أن تحتفظ الكنيستان اليونانية والأرمنية بعد أن تعترفا بزعامته بتدرج الوظائف الخاص بهما وبأن تبقى لدى هيأتيهما الكهنوتيتين السلطة التي كانتا تتمتعان بها قبل انشقاق فوتية... وسيكون من المرغوب فيه التقرب من أفراد هاتين الهيئتين إلى الحد الذي يمكن من الحصول على ثقتهم أو على أقل تقدير دفعهم إلى الاعتقاد بصدق نوايانا عند ذلك سيبدأون بالنظر بهدوء إلى تنويرنا لرعيتهم وإلى اشمئزاز هذه الأخيرة من الضلال الذي سيكون وعيهم له أكثر كلما كانوا واثقين من أن أحداً لن يتطاول على دائرة اختصاصهم »...

ويختتم المركيز (De Bonnac) رسالته بالقول: «أما عن جانب الطقوس فإن على المبشرين أن لا يتكلموا أو يكتبوا ضد صيام أو طقوس الأرمن واليونان وإنما على العكس يجب دفع حتى اولئك الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية إلى الالتزام بطقوسهم وصياماتهم السابقة لكي لا يختلفوا في شيء عن أبناء جلدتهم الذين ظلوا مخلصين لكنيستهم. ربما كان ذلك هو الأكثر أهمية».

إن هذه الرغبات التي أبداها السفير الفرنسي هي عبارة عن تلخيص

لكل ما قيل وكتب قبله بشان إصلاح وضع الدعاية الكاثوليكية في الشرق. وكان البابوات أنفسهم، وهم ذوو مصلحة قوية في اتساع وترسيخ مكانتهم الروحية بين المسيحيين الشرقيين، قد أقلقتهم وأثارت خشيتهم بوادر العداء الأول تجاه المبشرين فبادروا ابتداء من ١٦٦٩ إلى إصدار عدد كبير من الرسائل والمراسيم منعوا فيها الرهبان الكاثوليك من جذب الوحدويين إلى الكنيسة اللاتينية.

وكانت (Vongregatio de Propaganda Fide) التي أنشأها البابا كريكوري الخامس عشر في ١٦٢٢ خصيصاً لإدارة شؤون المبشرين الكاثوليك ولتوجيه نشاطهم تسعى دون كلل للتخفيف من تزمت وتعصب مندوبيها تجاه المسيحيين الشرقيين. وانطلاقاً من اهتمامها الدائب للقضاء على كل حجة مهما كانت صغيرة للصدام وسوء التفاهم بين هؤلاء وأولئك أصدرت في ١٦٤٥ مرسوماً يحدد العلاقات بين المبشرين والوحدويين الذين لهم سلكهم الكهنوتي الخاص بهم بالنقاط الأربع التالية.

١ ـ في المناطق التي يوجد فيها أكثر من سلك كهنوتي واحد تنتمي إلى مذاهب مختلفة يكون لكل منها سلطة على اتباع مذهبه فقط ويجب عليه أن لا يسمح لغيره ولا يقوم هو بنفسه باستمالة اتباع مذهب آخر إلى طائفته.

٢ ـــ للمبشرين الموجودين في المناطق المذكورة الحق في أن تشمل سلطتهم الوحدويين الذين هم ليسوا من اتباع مسلك وحدوي معين.

٣ ـــ ينبغي على المبشرين الذين يجذبون المسيحيين الشرقيين إلى الوحدة أن لا يحولوهم إلى الكاثوليكية بل على العكس هم ملزمون بأن يقنعوهم بأن يبقوا في طائفتهم السابقة وأن يستمروا على الخضوع للسلك الكهنوتي الخاص بهم.

٤ ــ يجب على المبشرين أن يساندوا ويساعدوا الأساقفة الوحدويين دون أن يمسوا سلطتهم بأيّ شكل من الأشكال. وعلى هؤلاء الأخيرين بدورهم أن لا يتدخلوا في نشاط المبشرين ويعيقوهم عن تأدية واجباتهم دون اتصال مسبق بروما.

ومع ذلك ظهر أن كل هذه الإجراءات غير كافية لتسوية العلاقات بين المبشرين والكنائس الشرقية ولتوجيه نشاطهم وجهة محددة أو لإقامة السلام الذي كان تعصب الكاثوليك يهدده باستمرار. ولهذا السبب تحتم على البابوات وعلى مجمع انتشار الايمان أن يذكروا المبشرين أكثر من مرة بالمراسيم والأوامر السابقة وأن يتوجهوا إلى الوحدويين الشرقيين بالنصح والموعظة محاولين استرضائهم. وقد كانت ضرورة مثل هذه التذكير قائمة حتى خلال القرن التاسع عشر الأمر الذي اضطر الباب بيوس التاسع الذي كان مهتماً جداً بقضية التبشير إلى أن يؤكد في ١٨٤٨ في رسالة خاصة بدأها بعبارة: "In Subreme Petri" (١) ضرورة عدم المساس بالطقوس الخاصة التي سمح بها أسلافه في كنائس الوحدويين الشرقية على الرغم من اختلافها الظاهر عن الطقوس الكاثوليكية (٢). كذلك رأى هذا البابا نفسه في عام ١٨٦٢ ضرورة أن يكرر بأن البابوات لم يلحوا في يوم من الأيام على تحويل الوحدويين إلى الكاثوليكية وإنما على العكس كانوا لا يتركون فرصة مناسبة تمر دون أن يطلبوا منهم الالتزام بدقة بطقوسهم وأوضاعهم السابقة.

وكان بيوس التاسع مهتماً بأن تتخذ قضية جذب المسيحيين

---

(١) باسم العرش البطرسي ـ المترجم.

(2) D, Avril

الشرقيين إلى الوحدة تنظيماً أكثر ملائمة فأسس لهذا الغرض في ١٨٦٢ قسماً خاصاً في مجمع انتشار الايمان تنحصر مهمته في إدارة العلاقات مع الكنيسة الشرقية. ويضم هذا القسم الذي سمي مجمع انتشار الايمان للأديان الشرقية بين أعضائه بالإضافة إلى الكرادلة وغيرهم من الشخصيات الدينية مستشارين علمانيين من الأشخاص الذين يلمون بلغات وقوانين وأعراف وعادات الشرق.

وتدل البيانات البابوية المتكررة حول منح الوحدويين حرية دينية واسعة على أن المسيحيين الشرقيين تمسكوا بقوة بتقاليدهم الكنيسة وطقوسهم الدينية واللغة التي يؤدون بها الخدمة الدينية إلى درجة بحيث تحتم على البابوات أن يتساهلوا في أكثر القضايا المتعلقة بالطقوس والمناسك جوهرية لا لشئ إلا لكي يدفعوهم إلى الاعتراف بالزعامة الدينية للبابا والانضمام ولو ظاهرياً فقط إلى الكنيسة الغربية.

إن كل ما ذكر أعلاه حول نشاط المبشرين الكاثوليك في الدولة العثمانية ينطبق أيضاً على الدعوة للكاثوليكية في العراق الجنوبي ولهذا لم يبق علينا، من أجل ان نتم رسم الصورة، إلّا أن نضيف التفصيلات التي تخص المبشرين في العراق بالذات.

كان رهبان فرقة (Carmes Dechausses) [(١)] الذين وصلوا إلى البصرة في ١٦٢٣ من مدينة اسيكان الفارسية التي كان لهم إرسالية دينية هم أول من ظهر دعاة الكاثوليكية في العراق. وقد بنوا بعد سنتين من هذا التاريخ وبترخيص من باشا البصرة وبالنقود التي جمعوها من تبرعات الجالية الأوروبية مصلي صغيراً ألحقت به صوامع الرهبان.

---

(١) الكرمليون الحفاة ـ المترجم.

وكــان قــد حــل في البصــرة في الوقــت نفســه تقريبــاً رهبــان برتغــاليون مــن فرقــة الأوغســطينين يحمــل كبــيرهم لقــب «نائــب رئــيس أســاقفة غــوا» (في الهنــد البرتغاليــة). ولم تلبــث أن قامــت بــين هــاتين الفــرقتين الكــاثوليكيتين منافســة شــديدة تحولــت بســرعة إلى عــداوة مكشــوفة بلغــت بشــهادة الرحالــة الايطــالي (Pietro della valle) الــذي زار البصـرة في ١٦٢٥ إلى حـد أن الأوغسـطينيين كــانوا يهــددون كــل كــاثوليكي يجــرؤ علــى التقــرب مــن الكــرمليين بالحرمــان مــن الكنيسة [1].

لم يتــدخل باشــوات البصــرة في هــذه الخلافــات الــتي نشــبت بــين الرهبــان المســيحيين وكــانوا يتصــرفون بــنفس الدرجــة مــن التســاهل تجــاه البرتغــاليين والفرنســيين علــى الســواء ذلــك أنهــم محتــاجون لمســاعدة الأســطول البرتغــالي في صــراعهم مــع الفــرس مــن جهــة ومــن الجهــة الأخــرى لم يكــن بمقــدورهم أن يمنعــوا الفرنســيين خوفــاً مــن أن تهــب الدبلوماســية الفرنســية للــدفاع عــنهم. وقــد انتهــي الصــراع بــين الأوغســطينيين والكــرمليين بانتصــار الأخــيرين الــذين لا يزالــون موجــودين في البصــرة حــتى اليــوم في الوقــت الــذي انمحــت فيــه حــتى ذكــرى الأوغســطينيين في البصــرة فتحــتم علــيهم أن يتركــوا المدينــة بعــد أن لم يعد في مقدورهم مواصلة الصراع مع الفرقة التي تنافسهم.

لقــد ترســخ وضــع الكــرمليين في البصــرة بمــرور الــزمن ولكــن تحــتم علــيهم أن يتعرضــوا إلى كثــير مــن المضــايقات والمصــاعب مــن جانــب الحكــام المحليــين الأتــراک الــذين لم يكــن مــوقفهم مــن الرهبــان الكاثوليــک يتميــز بــالعطف كمــا كــان الحــال عنــد اول ظهــورهم. ورأت الحكومــة الفرنســية، مــن

(1) Delle Valle. Voyages dans Turquie I,Egypte. La Palestine etc.Rouen 1745 T. p. 35. VIII

أجل أن تحمي الكرمليين في البصرة من ملاحقة الباشوات المحليين، أن تعين في ١٦٧٩ رئيس بعثة الكرمليين قنصلاً فرنسياً في البصرة بغض النظر عن القومية التي ينتمي لها وذلك استجابة لنصيحة سفيرها في اسطنبول الماركيز (De Nointel). وقد بلغ عدد هؤلاء القناصل الرهبان حتى ١٨٦٩ الذي حل محلهم فيها أول قنصل علماني في عاصمة العراق الجنوبي، أحد عشر قنصلاً.

ولقد ضمنت الحصانة التي يؤمنها منصب القنصل للكرمليين حياة هادئة نسبياً فواصلوا نشاطهم حتى دون الحصول على اعتراف رسمي بإرساليتهم من الباب العالي، هذا الاعتراف الذي لم يصدر على شكل مرسوم سلطاني إلا في١٧١١.

ومع ذلك لم يكن لنشاط الكرمليين مردود كبير قبل أن تغادر المنطقة فرقة الكبوشيين التي تنافسهم في العراق الجنوبي والتي كانت قد افتتحت إرسالية لها في بغداد منذ ١٦٢٨ وقبل أن يحتل الكرمليون أنفسهم مكانها بعد أن نقلوا مركز نشاطهم إلى عاصمة الخلافة الكبيرة في عام ١٧٢١.

وقد أثارت دعاية الكرمليين الناجحة بين أرمن بغداد بعد أربع عشرة سنة من استقرارهم في بغداد وفي ١٧٣٥ بالذات، أخوان الأرمن في العقيدة فصبوا على من تحول منهم جام غضبهم بعد أن دفعوا السلطات العثمانية إلى غلق كنيسة الكرمليين واعتقال رئيس بعثتهم (PERE BAILLET)، الذي لم يطلق سراحه إلّا بعد دفع فدية لا يستهان بها فأسرع بالعودة إلى فرنسا حيث أقنع الحكومة بتعيينه قنصلاً لفرنسا في بغداد وذلك على غرار ما حل للكرمليين في البصرة. وقد عاد (PERE BAILLET) إلى بغداد في عام ١٧٤١ متقلداً المنصب الجديد فاستطاع بذلك أن يأمن من استمرار ملاحقته من قبل السلطات العثمانية. لكن ذلك لا ينطبق على الذين تحولوا

إلى مذهبه من مسيحيي بغداد الذين تحتم عليهم أن يتعرضوا في ١٧٤٤ و ١٧٤٩ إلى اضطهادات أخرى سببها لهم رجال الذين الأرمن.

ظل رؤساء الكرمليين في بغداد يشغلون منصب قناصل فرنسا هناك حتي سنة ١٧٨١ التي ارتؤي فيها تعيين قناصل علمانيين لأن أكثر ملائمة لمصالح فرنسا السياسية والتجارية. ومع ذلک فقد ظل لإرساليه الكرمليين في بغداد الحق في رفع العلم الفرنسي على بناية الدير في كل المناسبات التي يجري الاحتفال بها.

ويتمتع الكرمليون بامتيازات أخرى نخص بالذكر منها السماح لهم بأن يكون عندهم في الأديرة ترجمان واحد ومدعٍ عام واحد في كل مدينة وذلک على غرار ما للبعثات الكاثوليكية في بقية أنحاء الدولة العثمانية. وتكمن واجبات الأول من الناحية الاسمية في الاتصال مع السلطات المحلية. أما الثاني فإنه يقوم بدور رجل الاقتصاد والكاتب العدل والمحامي في آن واحد. ولكن الوظيفتان كانتا في واقع الامر مجرد منصبين بلا عمل يقلدان للأهالي الأغنياء وذوي النفوذ الذين يبحثون عن الحماية الاجنبية، ذلک ان ترجمان الدير ومدعيه العام كانا يعتبران من ضمن الأشخاص الذين تكون الدولة الحامية للدير مسؤولة عنهم، كما ان هذه الحصانة كانت تشمل عوائل هاذين الشخصين بل إنها كانت تنتقل بالوراثة إلى أن أصدر الباب العالي، بالاتفاق مع الدول الأوروبية، قانوناً في ١٨٦٣ أصبح الأشخاص الذين يتولّون هاذين المنصبين بموجبه يتمتعون بالحماية خلال الفترة التي يكونون فيها في الوظيفة فقط ولا تشمل هذه الحماية إلّا أشخاصهم فقط. ومن الامتيازات الأخرى التي تتمتع بها إرسالية الكرمليين والباقية من الأزمنة السابقة وأعطاها قانون ١٨٦٥ صفة شرعية هي حق البعثة في أن تستورد من الخارج البضائع التالية دون ضرائب كمركية :

اللوازم والحاجيات الكنسية المستخدمة للخدمة الدينية.

جميع الأشياء اللازمة لحياة الدير اليومية ولمؤسساته التعليمية والخيرية كالمدارس ومستوصفات العلاج وملاجئ العجزة وما أشبه ذلك على أن لا تتعدى قيمتها ٤٠٠٠ قرش (ما يقرب من ٣٢٠ روبلاً) في السنة لكل راهب وراهبة.

وبانتقالنا إلى الحديث عن مؤسسات الكرمليين التعليمية والخيرية في العراق الجنوبي لا بد أن نلاحظ مسبقاً بأن البعثات الدينية الأجنبية لا يحق لها بموجب القوانين العثمانية أعادة بناء أبنية الكنائس والأديرة القائمة دون تأخذ موافقة خاصة من الحكومة في كل مرة. أما افتتاح مؤسسات جديدة فإنه محاط بشكليات أكثر ولا يمكن أن يتم إلّا بموجب فرمان سلطاني خاص يصدر بناء على توصية من وزير العدل الذي يعتبر الرئيس المباشر للدائرة المختصة بشؤون الأديان الأجنبية [1] والحصول على مثل هذا الفرمان هو في الكثير من الحالات ليس صعباً فحسب وإنما مستحيل أيضاً ولهذا فإن الكثير من مؤسسات الكرمليين تمارس نشاطها في العراق بشكل سري ودون ترخيص رسمي من السلطات المحلية.

وتوجد مؤسسات الكرمليين الرئيسية في بغداد حيث تقوم إما في بنايات الأديرة الواسعة أو في بيوت خاصة تبرع بها أهل الخير. ويمكن ترتيب هذه المؤسسات بحسب تاريخ افتتاحها على النحو التالي.

١ ــ مدراسة للأولاد تأسست منذ عام ١٧٤٢ وقد وسعت بنايتها مؤخراً بحيث أصبحت تتسع بسهولة لأكثر من خمسمائة صبي.

١ . ملجأ للأيتام الذين فقدوا أبويهم افتتح في ١٨٩١.

---

(1) CH. MORAWITZ: OP. CIT. P. 160.

مأوى للشيوخ تأسس من التبرعات الخيرية في ١٨٩٣.

مستوصف لإبداء الاسعاف الطبي لسكان بغداد الفقراء من جميع المذاهب المسيحية افتتح في ١٨٩٥.

أما المؤسسات التربوية والخيرية النسائية في بغداد فتديرها راهبات من فرقة [1] (DE LA PRESENTATION DE TOURS)، التي جاءت إلى العراق لأول مرة في ١٨٨٠.

وتوجد تحت إشراف هؤلاء الراهبات المؤسسات التالية.

مدرسة للبنات تأسست في ١٨٢٤ كان يقوم بالتدريس فيها أول الأمر معلمات من الأهالي لكنهن لم يبررن الآمال التي عقدت عليهن لذا فقد تحتم استبدالهن براهبات استقدمن من فرنسا. وحالة هذه المدرسة في الوقت الحاضر مزدهرة يشهد على ذلك عدد طالباتها الذي ازداد في بداية القرن الحالي فوصل إلى ٤٦٠ طالبة.

مدرسة داخليه للأحداث افتتحت في ١٨٨٦.

مشغل للتفصيل والخياطة يتبعه قسم لخياطة البياضات افتتح في ١٨٨٦ ايضاً.

دار للحضانة تأسست في ١٨٨٦.

ملجأ للأيتام تأسس في ١٨٩٠.

أخذت البصرة التي أوت الكرمليين عند أول مجيئهم تفقد أهميتها السابقة بالنسبة لرهبان هذه الفرقة بمقدار ما كانت إرساليتهم في بغداد تزداد نمواً وتبعاً لذلك فقد كان على الكرمليين في البصرة أن يقلصوا تدريجياً من دائرة نشاطاتهم بحيث لم يبق لهم في تلك المدينة في بداية

---

(١) تقدمة تور ـ المترجم.

القـرن الحـالي إلّا مدرسـة واحـدة لـلأولاد وأخـرى للبنـات يـديرها سـوياً شـخص واحـد مـن الكـرمليين ومعـه بضـعة معلمـين ومعلمـات مـن الأجانـب. غـير اننـا ينبغـي أن نـذكر أن النشـاط التثقيفـي للكـرمليين في البصـرة انـتعش مـرة أخـرى مـع مجيـئ الراهبـات الفرنسـيات إلى البصـرة حيـث عملـن هنـاک لفـترة قصـيرة في ١٨٩٩. وللكـرمليين في ولايـة البصـرة بالإضـافة إلى مدينـة البصـرة مدرسـة أخـرى لـلأولاد في العمـارة افتتحـت في ١٨٨٤ حيـث يرسـل إلى هنـاک سـنوياً وبالـدور راهـب مـن البعثـة الموجـودة في بغـداد. وقـد ألحـق بهـذه المدرسـة في ١٨٩٩ قسـم للبنـات وكـان في النيـة إنشـاء ملجـأ للأيتـام يتعلمـون فيه الحرف المختلفة.

وقـد حـدد المرسـوم الـذي أصـدره مجمـع انتشـار الإيمـان في عـام ١٦٤٥ والـذي سـبق لنـا ذكـره وكـذلک التوضـيحات الأخـيرة الـتي أصـدرها البـابوات مجـالات نشـاط الكـرمليين والهيئـات الكهنوتيـة الخاصـة بالوحـدويين في العـراق الجنـوبي بشـكل دقيـق. وعلـى هـذا الأسـاس تشـمل سـلطة الكـرمليين المباشـرة جماعـة غـير كثـيرة العـدد تتـألف مـن المسـيحيين المحليـين الـذين تحولـوا إلى المـذهب الكـاثوليكي وكـذلک مـن الأشـخاص الـذين ينتمـون إلى (لاتـين ملـتي). وتقصـد المصـطلحات التركيـة الرسميـة بهـذا الاسـم أو بــ «اللاتيـني» كمـا يـذكر اختصـاراً أحفـاد أولئـک التجـار البنادقـة الجنـويين والامـالفيين الـذين اسـتقروا في القـرنين التاسـع والعاشـر بأعـداد كبـيرة في الشـرق الأدنى وفي المـدن المتاخمـة للبحـر بمـا فيهـا القسـطنطينية نفسـها. وقـد ازداد تـدفق هـؤلاء بفضـل الاجـراءات التشـجيعية الـتي اتخـذها الأبـاطرة البيزنطيـون الـذين كـانوا يمنحـون الجمهوريـات الايطاليـة المـذكورة أفضـليات خاصـة وذلـک لـرغبتهم في التحـالف معهـا والاسـتفادة مـن مسـاندتها. ثم جـاء أخـيراً فرسـان الحملـة الصـليبية الرابعـة الـذين استعاضـوا عـن تحريـر فلسـطين

من أيدي الكفار [1] بالاستيلاء على القسطنطينية فأسسوا فيها في ١٢٠٤ أمبراطورية لاتينية وساعدوا بذلك كثيراً على زيادة عدد اللاتين الذين استوطنوا بيزنطة.

لقد رفض السلاطين الذين استولوا على الامبراطورية الاغريقية أن يعترفوا لجميع هؤلاء اللاتين بجنسيتهم الأجنبية وأخضعوهم مثل بقية المسيحيين غير الارثوذكس لسلطة البطريق الأرمني. وعندما اتخذت فرنسا دور حامي «أتباع الدين الفرنجي» في الامبراطورية العثمانية استطاع جزء من اللاتين الانضواء تحت حمايتها في حين ظلت الأغلبية خاضعة كالسابق لرجال الدين الأرمن حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما أخذت الطوائف المختلفة بما فيها الطائفة اللاتينية تعمل من أجل الأستقلال.

وقد اعترف السلطان محمود الثاني بفرمان خاص أصدره في ١٨٣٦ بوجود «لاتين ملتي» أي الطائفة اللاتينية وأخضعها في أول الأمر لإدارة «ناظر» وهو موظف مدني من الادارة العثمانية، ثم لم يلبث أن تأسس بعد ذلك «الديوان اللاتيني العثماني»، الذي كان يتبع وزارة الخارجية ومهمته

---

(١) هكذا كان الصليبيون يسمون المسلمين، وكان البابوات يذكون فيهم روح التعصب الديني ويدعونهم «لتحرير» الأراضي المقدسة، علماً بأن الحملات الصليبية ما هي في الواقع إلّا مشاريع استيطان غربية في الوطن العربي تكمن خلفها وتحركها دوافع اقتصادية وسياسية، لكن العرب استطاعوا في النهاية أن يقبروا هذه المشاريع المترجم.

هذه إلى (لكن) في جملة المترجم الاخيرة من المضحكات التي تشير إلى السخرية ونحن نرى حال الامة في فلسطين وغيرها وحال حكامها الذين سوّدوا صفحات التاريخ. حميد الدراجي.

تقتصر على إدارة شؤون اللاتين فاستبدل «الناظر» بـ «مدير الديوان»، الذي يعرف في الحياة العامة باسم «قنصل اللاتين» غير أن ذلك لا يعني انه يتمتع بنفس الحقوق ويضطلع بنفس الواجبات التي يتمتع ويضطلع بها القناصل الأجانب. إن مدير الديوان اللاتيني هو من حيث الوضع الرسمي الذي يشغله موظف عثماني يعتمده وزير الخارجية ولكنه لا يتسلم راتباً من الباب العالي بل يكتفي بالضرائب التي يجبيها بموجب تعرفه خاصة يفرضها مقابل أي عمل يقوم به أو أي وثيقة يصدرها أو يصادق عليها. أما واجباته باعتباره مديراً للاتين، فإنها تكمن في إصدار الوثائق وتسجيل الوصايا الدينية وإصدار البطاقات الشخصية وشهادات الحياة ... إلخ وهو يقوم بالإضافة إلى ذلك بمهمة حاك الصلح أي يكون وسيطاً للحكم في الدعاوى التي تقوم بين أفراد الطائفة اللاتينية [1]. وقد أخرجت القضايا المتعلقة بالزواج كافة من دائرة اختصاص مدير الديوان اللاتيني كلياً وأنيطت برجال الدين المختلفين حسب المكان الذي تقوم به القضية المعنية.

ومن رجال الدين هؤلاء في اسطنبول وكيل البطريق الرسولي، والقاصد الرسولي للعقائد الشرقية الذي يعتبر وكيلاً لبطريق اللاتين، وقد أقر منصب هذا الأخير عندما احتل الصليبيون عاصمة بيزنطية في ١٢٠٤ وانتهى من الناحية العملية مع سقوط الأمبراطورية اللاتينية في ١٢٦١ ومع ذلك ظل البابوات يعينون في هذا المنصب بطارقة كانوا في بداية الأمر يأتون إلى جزيرة كريت ثم أخذوا وبعد ذلك يبقون في روما دون أن يغادروا لكنهم كانوا في الحالتين يعينون وكلاء لهم في القسطنطينية من بين

(1) F. VAN STEEN DE JEHAY: OP. CIT. P. 320 FF.

رجال الدين الكاثوليک. واعتباراً من ١٧٧٢ اضطلع مجمع انتشار الايمان بتعيين هؤلاء المساعدين فجرد بذلک بطارقة القسطنطينية الكاثوليک حتى من صلاحيتهم الأخيرة هذه.

وتعود السلطة الدينية على «لاتين ملتي» في تركيا الأوروبية إلى رئيس أساقفة اسكوب ومطران سكوتاري بالإضافة إلى وكيل القاصد الرسولي في اسطنبول الذي أشرنا إليه. أما في آسيا فقد استحدثت المناصب التالية لهذا الغرض :

١ ـــ النائب الرسولي لمدينة حلب والمبعوث الرسولي في سوريا ومقره منذ ١٨٩٠ في بيروت.

٢ . بطريق القدس.

٣ . مطران سميرنا.

٤ . رئيس أساقفة بابل الذي يتبع روما مباشرة.

ويعتبر رئيس أساقفة بابل في الوقت نفسه قاصداً رسولياً للمسيحيين الشرقيين في ما بين النهرين وكردستان وآسيا الصغرى ويخضع له جميع المبشرين الكاثوليک الذين يعيشون في العراق الجنوبي، وتدين رئاسة أسقفيه بابل نفسها بوجودها إلى حمية الفرنسية (Madam Gue Bagnols) التي أوصت في ١٦٣٢ بمبلغ قدره ٦٠،٠٠٠ ليفر [1] فرنسي يخصص لإنشاء كرسي الأسقفية في بابل ووضعت لذلک شرطاً واحداً فقط هو أن يشغل هذا الكرسي على الدوام شخص فرنسي يختاره مجمع انتشار الإيمان، لقد اعتبرت بابل آنذاک غير بعيدة عن بغداد في موقعها فأصبحت هذه الأخيرة

---

(١) الليفر عملة فرنسية كانت متداولة في فرنسا سابقاً قيمتها أقل من الفرنک بقليل . المترجم.

مقراً لرئيس الأساقفة.

ولم يكن الباب العالي يعترف بهذا الأسقف شأنه في ذلك شأن بقية الوكلاء الرسوليين، كممثل للبابا ولذا فإن الحكومة العثمانية كانت ترفض بشكل قطعي منحه «البراءت» التي تعطيه الحق في الاتصال المباشر بالسلطات العثمانية بخصوص تمثيل وحماية مصالح البابا. ولهذا فإن رئيس أساقفة بابل والقاصد الرسولي إلى مسيحي ما بين النهرين وكردستان وآسيا الصغرى ليس في مقدوره الاتصال بالولاة المحليين أو بالسلطات العثمانية الأخرى إلّا عن طريق القنصل الفرنسي في بغداد.

ويعتبر رئيس أساقفة بابل نظراً لكونه رسولياً، وسيطاً بين الباب وبين طوائف الوحدويين في العراق الجنوبي ونعني طائفة الكلدان وطائفة السريان الكاثوليك وطائفة الأرمن الكاثوليك وطائفة الملكيين، وسنحاول في السطور التالية أن نعرض باختصار لتاريخ ظهور كل من هذه الطوائف.

النساطرة والكلدان

إن النساطرة [1] يعتبرهم الكثير من الأثنوغرافيين أحفاداً لسكان آشور القدماء يطلقون على أنفسهم اسم «سورايا» أي السوريين لذا فإنهم لم يسموا نساطرة إلّا لأنهم من أتباع بطريق القسطنطينية المارق نسطور. لقد

---

(1) REV. G. P. BADGER. THE NESTORIANS AND THEIR RITUALS. LONDON 1852VOL. 1L. CHAP. XL.:)

سوفوني، أسقف تركستان وطشقند، حياة اليعاقبة والنساطرة المعاصرة وطقوسهم، سانت بطرسبورغ ١٨٧٦؛

(REV. E. L. CUTTS. CHISTIANS UNDER THE CRESCENT IN ASIA.)

جاء نسطور هذا في أوائل القرن الخامس بآراء مفادها أن مريم العذراء ليست أماً للإله وإنما هي أمّ للمسيح الإنسان ذلك أن الذي ولدته ليس إنساناً إلهاً، وإنما يشتمل على طبيعة الهية فقط وبكلمة أخرى فإن مريم المقدسة قد ولدت المسيح البشر الذي يحلّ فيه الإله كما يحل في الهيكل.

وقد انبرى لفضح هذه التعاليم الكاذبة بحماس بطريق الاسكندرية كيريل، كما أدينت في المؤتمر الديني الثالث الذي انعقد في أفيسوس عام ٤٣١، لكن الهرطقة استطاعت مع ذلك أن تجد لها أنصاراً كثيرين بين المسيحين الشرقيين. لقد كانت مدارس الرها ونصيبين وجنديسابور في خوزستان هي المصادر الرئيسية لتعاليم نسطور. ولم تلبث النسطورية أن أصبحت المذهب السائد بين المسيحين القاطنين في فارس، وقد حدث انفصال الكنيسة السنطورية عن الكنيسة العالمية نهائياً في ٤٩٦ وذلك بفضل الجهود التي بذلها باوي أو بابي الذي كان في ذلك الوقت أسقفاً لطيسفون وسلوقيا. لقد أسرع باوي بدعوة مؤتمر نسطوري في أوديسا [١]، وقد وضع المؤتمر تنظيماً مستقلاً للكنيسة النسطورية ولسلكها الكهنوتي وطقوسها وعقائدها وأصبح باوي نفسه أول بطريق لها.

وقد ازدهرت الكنيسة الجديدة بسرعة وبشكل ملحوظ فكان المبشرون النساطرة في القرنين يتوجولون في أقسام آسيا الصغرى ووصلوا إلى الهند وشبه جزيرة العرب وكذلك إلى جزيرتي سيلان وسوقطرة بل وإلى الصين البعيدة كما تدل على ذلك الآثار التي وجدت هناك [٢]. وقد بلغت النسطورية أوج ازدهارها في عهد الخلفاء العباسيين وذلك بعد أن

---

(١) أوديسا هي مدينة الرها المشهورة وتسمى حالياً أوروفة ـ المترجم.

(2) A. H. LAYARD. NINEVEH AND ITS REMAINS. VOL 1 LONDON PP. 243 - 244

نقل الكرسي البطريقي في بداية القرن الثامن من طيسفون إلى بغداد فاستطاع النساطرة أن يؤمنوا لأنفسهم حماية الخلفاء بل والحصول على وظائف عليا في بلاط العباسيين وفي مدن الأقاليم على السواء أيضاً.

لقد وجه اقتحام المغول لما بين النهرين في القرن الثالث عشر أول ضربة قاسية للدعة التي كان يعيش فيها النساطرة ثم جاء غزو تيمور لنك الذي تبع ذلك في أواسط القرن الرابع عشر [1] فأكمل تدمير الكنيسة النسطورية الذي كان قد بدأه أحفاد جنكيز خان. فقد أبيد القسم الأغلب من النساطرة ولم يتمكن إلّا بقايا قليلة منهم من إنقاذ أنفسهم بالجوء إلى قلاع جبال كردستان الصعبة المنال واستمروا مختبئين هناك إلى أن احتل السلطان العثماني سليم الأول ما بين النهرين في ١٥١٥ [2] فواتت الجرأة بعضهم على مغادرة ملاجئهم الجبلية والاستقرار في سهول ما بين النهرين وفي فارس المجاورة لها.

وظلت الصلة الدينية بين نساطرة الجبال والسهول تتمثل بالإضافة

---

(١) لم يتخذ تيمور لنك لقب أمير ويبدأ بالحكم بمفرده إلّا بعد أن انتصر على منافسية في ١٣٧٠. وبعد سلسلة من الحروب شنها ضد خان الأورطة الذهبية في ١٣٧٣ ــ ١٣٧٤ و ١٣٨٩ و ١٣٩١ و ١٣٩٤ ــ ١٣٩٥ استطاع أن يحطم الأورطة الذهبية ويستولي على عاصمتها سراي بركة. وفي ١٣٩٨ غزا الهند واستولى على دلهي. وفي ١٤٠٠ بدأ صراعه مع السلطان العثماني بايزيد الأول فاستطاع أن ينتصر عليه وبإسره في معركة أنقرة. لقد مات تيمور لنك في نهاية ١٤٠٤ فانقطعت بذلك حملة كان قد سيرها إلى الصين ـ المترجم.

(٢) يقصد المؤلف هنا الجزء الشمالي من العراق الذي استولى عليه السلطان العثماني سليم الأول بعد أن انتصر على الصفويين في معركة جالديران الشهيرة التي وقعت في عام ١٥١٤ ـ المترجم.

إلى المعتقدات الدينية الواحدة بالرئيس الديني الواحد وهو البطريق أو المار شمعون كما اعتاد النساطرة على تسميته احتراماً. وكان هذا في أول الأمر ينتخب من قبل اجتماع عام يضم الأساقفة النساطرة لكن حدث في ١٤٥٠ أن عين البطريق آنذاک أحد أقاربه خلفاً له وقرر رغبة منه في أن تظل الأفضليات التي يتمتع فيها البطريق في أسرته، أن يجري اختيار رئيس الكنيسة النسطورية من الآن فصاعداً من بين أقربائه المقربين. وهكذا أصبحت السلطة البطريقية محصورة في أسرة واحدة وتنتقل عادة من العم إلى أكبر أبناء الأخ على أن يكون الأخير ملتزماً بقواعد العزوبة والأمتناع عن اللحم. وقد ظلت قرية كوجانيس التي تبعد عن جولة ميرک مسافة ١٣ فرستاً مقراً للبطريق.

ظل الوفاق قائماً بين نساطرة الجبال والسهول إلى سنة ١٥٥٢ التي حدث فيها فجأة انشقاق قسم النساطرة إلى فريقين متعاديين. لقد حدث هذا الانشقاق بمناسبة اختيار خلف للبطريق شمعون الخامس الذي توفي في ١٥٥١، فقد اختار القسم الأغلب من الشعب شمعونالسادس ــ بارمام، ابن الأخ الوحيد للبطريق المتوفي وذلک حسب العرف المتبع، لكن نساطرة السهول قرروا ــ بتأثير الدومنيكان الذين كانوا يقومون بدعاية واسعة في صفوفهم ان يتخلوا عن مبدأ تعاقب المنصب البطريقي في عائلة واحدة فاجتمعوا في الموصل وانتخبوا شخصاً اسمه ايفان سولاقا لمنصب البطريق. ولم يكن هذا وهو يعتمد على الأقلية ليأمل بالنصر على منافسة لذا فإنه قرر أن يلجأ إلى البابا طلباً للمسائدة.

توجه سولاقا إلى روما فارتسمه البابا يوليوس الثالث بطريقاً بعد أن أعلن عند إقدامه اعتنافه للمذهب الكاثوليكي ــ الروماني [١]، ومنح لقب

(1) (van den Steen de Jehav. Op.cit.p.229)

بطريق ما بين النهرين وعاد إلى الوطن يرافقه الكثير من رجال الدين الكاثوليک الذين درسوا اللغة السريانية خصيصاً لأغراض النشاط التبشيري. وأصبح النساطرة الوحدويون أي اولئک الذين تخلوا عن هرطقة نسطور واعترفوا بزعامة البابا يعرفون منذ ذلک الوقت تقريباً باسم الكلدان وهو الاسم الذي كان قد أطلقه عليهم لأول مرة البابا يوجينيوس السادس في المرسوم البابوي الصادر في ١٤٤٥ بمناسبة انضمام أحد أساقفة قبرص النساطرة إلى كنيسة روما.

لقد ظل خلفاء سولاقا الأقربون على ولائهم لروما لكن العلاقات مع هذه الأخيرة أخذت تضعف منذ أن انتقل البطريق الكلداني شمعون السابع دنخا إلى اقليم أروميا الفارسي، إلى ان أنقطعت نهائياً في ١٦٧٠. وقد عاد خلفاء دنخا المباشرون إلى النسطورية، ومنهم بالذات تبدأ سلسلة البطارقة النساطرة الموجودين حالياً في كوجانيس بالقرب من جوله ميرک.

وبعد أن اقتنع المبشرون الكاثوليک بأنه لم يعد بإمكانهم الاعتماد على خلفاء سولاقا اتجهوا إلى أحفاد شمعون السادس ـ بارمام الذين كانوا قد اختاروا القوش الواقعة بالقرب من الموصل لتكون مقراً لهم. وكان هؤلاء بتأثير المبشرين على استعداد لأن يعتبروا الوحدة مع روما بمثابة الضمان لقوميتهم واستقلالهم إلى أن برهنت الحقائق العكس. فعندما أبدى أحد الخلفاء بارمام وهو البطريق مار إيليا الثامن في رسالة له بعثها إلى مجمع انتشار الإيمان استعداده للاتحاد مع كنيسة روما الكاثوليكية شرط أن تبقى العقائد النسطورية دون تغيير وشرط أن يسمح له بأداء الخدمة الدينية علناً في روما رفضت مطالبه هذه. وقد فتح ذلک أعين النساطرة على نوايا مجمع الانتشار الإيمان الحقيقية فتحول البطريق الذي أسيء إليه بهذا الشكل إلى خصم لدود للتقارب مع روما.

وهكـذا تخلـى عـن الوحـدة مـع رومـا في الوقـت نفسـه تقريبـاً كـل مـن خلفـاء سـولاقا وبارمـام علـى السـواء. لـذا تحـتم علـى البـابوات أن يكفـروا جـدياً بقضـية إعـادة نفـوذهم بـين النسـاطرة وقـد اسـتغل أنوكنتيـوس الحـادي عشـر لهـذا الغـرض حقيقـة أنـه لا تـزال توجـد في ديـار بكـر وآمـد جماعـة صـغيرة مـن الكلـدان فأسـس في ١٦٨١ كرسـياً جديـداً لبطريـق كلـداني في ديـار بكـر وعـين فيـه أحـد رؤسـاء الأسـاقفة النسـاطرة مـن مدينـة آمـد كـان قـد تحـول حـديثاً إلى الكاثوليكية واسمه مار يوسف الذي اتخذ لنفسه لقب يوسف الأول.

وكانـت هـذه الخطـوة ناجحـة بحيـث أن الدعايـة الكاثوليكيـة بـين النسـاطرة بـدأت مـرة أخـرى تـنجح تـدريجياً وباضـطراد. فقـد انضـم مـار حنـا وأغلبيـة نسـاطرة الموصـل إلى كنيسـة رومـا الكاثوليكيـة في ١٧٧٦ وفي مقابـل ذلـک عـين البابـا مـار حنـا مطرانـاً للموصـل في أول الأمـر ثم بطريقـاً لهـا بعـد ذلـک. وبهـذا أصـبح لـدى الكلـدان بطريقـان همـا بطريـق ديـار بكـر السـابق وبطريـق الموصـل الجديـد، ولم تنتـه هـذه الازدواجيـة إلّا بعـد وفـاة بطريـق ديـار بكـر يوسـف السـادس واعـتراف البابـا بيـوس الثـامن في ١٨٣٠ بمـار حنـا رئيسـاً أوحـد للكنيسـة الكلدانيـة ومنحـه لقـب بطريـق بابـل، وكانـت بغـداد هـي المقـر الرسمي لبطريق بابل لكن البطارقة كانوا يعيشون عادة في مدينة الموصل [1].

وكـان مجمـع انتشـار الإيمـان يسـعى مـن أجـل أن يكـون لـه تـأثير في أختيـار البطارقـة فاسـتغل لـذلک حقيقـة أن رجـال الـدين الكلـدان في ١٨٤١ لم يسـتطيعوا التوصـل إلى اتفـاق نهـائي بشـأن الشـخص الـذي يخلـف بطـريقهم الـذي كـان قـد تـوفي لتـوه فعمـد إلى إلغـاء التقليـد القـديم الـذي كـان متبعـاً حـتى ذلـک الوقـت وهـو تعاقـب منصـب البطريـق في أسـرة واحـدة وعـين في

---

(1) (F. VAN DEN STEEN DE JEHAV. OP. CIT.P.231.)

المنصب الشاغر المطران زائيو (عيسايو) من خسروي في فارس وكان هذا قد تربى على يد مجمع انتشار الإيمان. وقد تخلى هذا البطريق عن منصبه في ١٨٥٨ بسبب خلافه مع البابا بيوس التاسع واختير بدلاً منه في العام الثاني مار يوسف أودو الذي التزم بتعليمات روما بشأن مراعاة عزوبة رجال الدين الكلدان، الأمر الذي زاد من خضوع الكنيسة الكلدانية للبابا.

أما عن الوضع الرسمي للكلدان في الامبراطورية العثمانية فإنهم كانوا في أول الأمر مثل بقية المسيحيين من غير الارثوذكس تحت سلطة رجال الدين الأرمن. ونتيجة للجهود التي بذلتها السفارة الفرنسية في اسطنبول اعترف في ١٨٤٣ باستقلال الكنيسة الكلدانية وحصلت من الباب العالي على فرمان خاص بذلك. غير ان الكلدان بادروا في السنة التالية أي في ١٨٤٤ من تلقاء أنفسهم فعقدوا مع بطريق الأرمن الكاثوليك اتفاقية خاصة أناطت به مسألة الوساطة في الاتصالات التي تجري مع الحكومة العثمانية. لكن السنوات الأخيرة شهدت رغبات عكسية بالاستقلال لدي الكلدان فرأى بطريق بابل بأن من الضروري تعيين نائب له في اسطنبول للاهتمام بالقضايا التي تتعلق بالباب العالي وتأسيس مجلس إداري يتألف من ستة أشخاص في اسطنبول أيضاً.

إن حقوق وامتيازات الطائفة الكلدانية التي اعترف بها بفرمان سلطاني خاص مماثلة في خطواتها العامة لتلك التي تتمتع بها «الملل» المسيحية الأخرى وهي تعطي بطريق الكلدان سلطة مطلقة على جميع الشؤون الكنيسة والقضايا التي تتعلق بإدارة الكنيسة وكذلك في القضايا المتعلقة بالزواج.

وكان وضع الرعايا الأتراك من النساطرة غير المنضمين إلى روما يتميز بضمان أقل تجاه عسف الأكراد بالمقارنه مع النساطرة الوحدويين أي

الكلدان، تؤكد ذلك الشهرة السيئة التي تمتع الأمير الكردي بدرخان بيك الذي ارتكب في ١٨٤٣ و١٨٤٦ ضد النساطرة مذبحة رهيبة بحيث أباد قبيلتين من قبائلهم هما تياري وتخوما [١]، إبادة تامة تقريباً. صحيح أن الحكومة العثمانية أرسلت حملة تأديبية ضد بدرخان لكن ذلك لم يحسن وضع النساطرة الذين لا يزالون حتى الان تابعين للأمراء تبعية تامة فيدفعون لهذا الرئيس أو ذاك من رؤساء القبائل الكردية أتاوات مقابل أمنهم الشخصي ولكن ذلك لا ينقذ قراهم من غارات ونهب الأمراء الآخرين المعادين للشخص الذي يحميهم.

ولم يكن وضع النساطرة أفضل من ذلك في مسألة الدفاع عن مصالح شعبهم أمام الباب العالي، فلم يعترف حتى الآن للطائفة النسطورية بالاستقلال ولذا فإنها تخضع لسلطة بطريق الأرمن لأنها غير سلافية وذلك على الرغم من ان هذا الخضوع هو إسمي فقط ولا يعيق رئيس الكنيسة النسطورية عن الاتصال المباشر بمتصرف منطقة جولة ميرك التي يقع فيها مقر البطريقية. في ظل مثل هذه الظروف تكون فرص النساطرة في تحقيق مطامحهم العادلة قليلة جداً وذلك لتعذر أن يكون لهم ممثل خاص بهم يدافع عن النسطورية في اسطنبول هذا إذا لم نذكر افتقارهم للحماية الأجنبية التي يتمتع بها الكلدان متمثلة بالسفير الفرنسي لدى الباب العالي والقناصل الفرنسيين في بغداد والموصل [٢].

---

(1) (REV. G. P. BADGER. OP. CIT. VOL. L. PP. 270FF.)

(٢) لقد افتتح فرع للقنصلية الفرنسية في الموصل في١٨٤٣ خصيصاً لحماية طائفة الكلدان التي كان عددها في ذلك الوقت قد ازداد أكثر من المألوف في المدينة المذكورة.

يـورد [1] (comte f san steen de jehay) في أحصـائية أرقامـاً تعـبر عــن النســبة العدديــة للنســاطرة والكلــدان في الامبراطوريــة العثمانيــة علــى النحــو التــالي: هنــاك ٧٥،٠٠٠ مــن الوحــدويين أي الكلــدان مقابــل ١٠٠،٠٠٠ مــن الــذين لم ينضــموا إلى رومــا. أمــا إحصــائيات مجمــع انتشــار الإيمــان فتشــير إلى أن عــدد الكلــدان في الدولــة العثمانيــة بلــغ في ١٩٠١ (٢٩٢٥) شخصــاً مــنهم ١٦٠٠ في بغداد والبصرة معاً.

اليعاقبة والسريان الكاثوليك

يــرتبط اليعاقبــة بالنســاطرة ارتباطــاً مباشــراً وهــم وإيــاهم مــن مصــدر واحــد ولكــنهم مــن أتبــاع مــروق ديــني آخــر يعــرف بالمنوفســتية ذلــك ان أرشمنــدريت القســطنطينية يــوتيخس ســقط وهــو يســعي لــدحض حجــج نســطور في تطــرف آخــر وأخــذ يــدعو إلى القــول بــأن الطبيعــة الإلهيــة في عيســى المســيح قــد تغلبــت تماماً على الطبيعة البشرية.

وقــد أدينــت هــذه التعــاليم في ٤٥١ في مــؤتمر خلقــدونيا لكــن ذلــك لم يعــق هــذا المــروق أن ينتشــر بشــدة وأن تبقــى حــتى الوقــت الحاضــر متمــثلاً في الكنيســة اليعقوبيــة والقبطيــة والأرمنيــة. وإذا توخينــا الدقــة فــإن اليعاقبــة وكــذلك الأرمــن لا يعتــبرون أنفســهم مــن أتبــاع يــوتيخس الــذي يعتبرونــه كــافراً وإنمــا يتبعــون تفســيرات تلميــذه دايســكورس بطريــق الاســكندرية الــذي يقــول بوجــود طبيعتــين في المســيح ولكنهمــا منــدمجتان لدرجــة شــديدة بحيــث أصــبحتا بمثابة الطبيعة الواحدة.

لقـد جـاء اسـم اليعاقبـة مـن اسـم آخـر أسـاقفة الرهـا (أورفـا حاليـاً) يعقـوب

---

(١) في الصفحات ٣٠ . ٣١ . ٢٣٥ . ٢٣٧ من كتابه.

(De la situation IEAAIE DES SUJETS OTTAMANS NON MUSULMANS)

برداي زنزل الذي كان داعية متحمساً للمنوفستية في القرن السادس وحقق نجاحاً كبيراً بين نساطرة ما بين النهرين، ولذا فإنه يعتبر المؤسس الحقيقي للكنيسة اليعقوبية وهو أول رئيس مستقل لها. وقد اختار خلفاء برداي مدينة انطاكيا واعتباراً من القرن الخامس عشر نقل رئيس الكنيسة اليعقوبية مقره إلى دير يقع بالقرب من ماردين هو ديري ـ زفيران ولكن بطارقتهم ظلوا محتفظين بلقبهم السابق.

لقد ظل اليعاقبة، باعتبارهم مسيحيين غير أرثوذكس، حتى الفترة الأخيرة تحت سلطة البطريق الأرمني ولم يتحرروا منها إلّا عندما حصل بطريق اليعاقبة بلروس في ١٨٧٣ على اعتراف الباب العالي به كـ « ملت ـ باشي » مستقل، غير ان ذلك لم يصادف استحساناً من جانب جزء كبير من رعيته وظل هذا الجزء يعتبر نفسه تحت وصاية بطريق الأرمن إلى ١٨٨٣ عندما حصل الانفصال النهائي للكنيسة اليعقوبية.

إن الحقوق والامتيازات التي اعترف بها الباب العالي «للسريان قديم» أي السريان القدماء وهو الاسم الذي يطلق عليهم في الوثائق العثمانية الرسمية مشابهة لتلك التي منحت للطوائف المسيحية الأخرى وهي تتعلق بالاستقلال في إدارة الشؤون المتعلقة بالزواج وما ينجم عنه من التزامات عائلية. ويمثل بطريق اليعاقبة في اسطنبول وكيل عنه ومجلس إداري دنيوي وذلك الدفاع عن مصالح كنيستهم وإدارة شؤون العلاقات مع الباب العالي.

ولم يكن اليعاقبة، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم النساطرة، بمنأى عن الدعاية الكاثوليكية، لكن هذه الدعاية لم تفض، على الرغم من أن نشاط المبشرين استمر بينهم عدة قرون، إلى نتائج ملموسة إلّا منذ وقت غير بعيد نسبياً. لقد ظل عدد «السريان الوحدويين» أي السريان الكاثوليك وهو

الاسم الذي أصبح يطلق على اليعاقبة الذين انضموا إلى كنيسة روما الكاثوليكية، غير كبير وباءت بالفشل جميع جهود مجمع انتشار الإيمان في إيجاد ميل راسخ إلى روما بين الطائفة المسيحية المذكورة.

في ١٧٨٣ شعر بطريق اليعاقبة الطاعن في السن كريكوري الثالث بقرب نهايته فألح على رجال الدين المجتمعين حوله وهو على فراش الموت بأن يختاروا رئيس أساقفة حلب ميخائيل جروة خلفاً له. وكان هذا قد قبل في حظيرة الكاثوليكية قبل ذلک ببضعة سنوات، وقد سارع بالتوجه إلى روما بعد أن اختير بطريقاً لليعاقبة تحت اسم أغناطيوس الرابع طالباً المصادفة على اختياره. وما أن عرفت طائفة اليعاقبة بذلک حتى رفضت أغلبيتها الاعتراف بصنيعة البابا واختارت متا أسقف مدينة الموصل بطريقاً لها. ورأى الباب العالي من جانبه عدم إمكانية الاعتراف بأغناطيوس الرابع وصادق على اختيار الأغلبية. وقد تحتم على من اختاره الحزب الكاثوليكي أن يهرب إلى لبنان حيث استقر في دير الشرفة الذي أسسه بنفسه والذي أصبح لبعض الوقت مقراً لبطارقة السريان والكاثوليک. ولم يعد هؤلاء البطارقة إلى ماردين قبل ١٨٥٣. وقد غيروا مقرهم خلال هذه الفترة عدة مرات.

لم يعترف الباب العالي بالانشقاق الذي حصل بين اليعاقبة إلّا في ١٨٣٠ حين أقرت الحكومة العثمانية بإلحاح من السفير الفرنسي في اسطنبول بطريق السريان الكاثوليک كـ «ملت باشي» أي رئيساً لطائفة مستقلة ومنحته نفس الحقوق التي يتمتع بها بطارقة اليعاقبة تقريباً. وفي ١٨٤٥ عقد السريان الكاثوليک بشأن تمثيل وحماية مصالحهم في اسطنبول. لكن هذا الاتفاق انهار مؤخراً ولبطريق السريان الكاثوليک الآن وكيل خاص لدى الباب العالي.

وينتخب رئيس السريان الوحدويين في اجتماع عام للأساقفة لكنه لا يباشر اختصاصاته إلّا بعد أن يصادق على اختياره البابا الذي يمنحه بالإضافة إلى ذلک لقب بطريق انطاکيا، ويلزم المنتخب الجديد خلال ذلک بأن يوقع على رمز الإيمان الذي وضعه في ١٦٤٢ البابا أوربان الثامن خصيصاً للمسيحيين الشرقيين وعلى وثيقة خاصة تؤكد طاعته للعرش المقدس. أما من حيث التدرج الكهنوتي فإن بطريق السريان الكاثوليک تابع للقاصد الرسولي في حلب ولمجمع انتشار الإيمان.

إن اليعاقبة والسريان الكاثوليک منتشرون في جميع ما بين النهرين وفي الكثير من مدن سوريا ولكن مراكزهم الرئيسية هي حلب وماردين والموصل ودمشق وحمص وحماة وديار بكر. ويصل عدد الجماعة الأولى أي اليعاقبة الصرف في الدولة العثمانية إلى ١٠٠،٠٠٠ نسمة. أما الجماعة الثانية فعددها غير معروف حتى ولو بشكل تقريبي وتشير إحصائيات مختلف الكتاب إلى أنه يتراوح ما بين ٣٠ إلى ٥٠ ألف. وقد كان عدد السريان الكاثوليک بموجب إحصائيات مجمع انتشار الإيمان في عام ١٨٩٨ (٢٢،٧٠٠) نسمة تقلص في سنة ١٩٠١ إلى ١٨،٠٥٠ نسمة علماً بأن نصيب ولاية البصرة منهم ١،٢٠٠ شخص في الحالة الأولى و ٦٠٠ شخص فقط في الحالة الثانية: ولا يعطينا (van den steen de jehav)[1] الذي أخذنا عنه هذه الأرقام مع الأسف أي تفسير لأسباب هذا النقص الكبير في عدد السريان الكاثوليک في بداية القرن العشرين.

الأرمن والأرمن الكاثوليک :

نذكر القارئ بأن السلطان محمد الثاني بعد احتلاله للقسطنطينية

(1) (f. van den steen dn jehay. op. cit pp 37. 241 242.)

مباشرة نقل من بروصه إلى عاصمته الجديدة جالبة أرمنية كبيرة العدد حصل رئيسها وهو رئيس الأساقفة يواكيم على لقب بطريق الأرمن القاطنين في الدولة العثمانية كافة، واعترف به في الوقت نفسه ممثلاً لجيمع الرعية المسيحية غير الارثوذكسية في الامبراطورية العثمانية.

وهكذا احتل رئيس أساقفة أرمني بسيط بإدارة السلطان، مركزاً أعلى بالمقارنة مع كاثوليكوس كليكا في سيس (في ولاية أدنة حالياً) وكاثوليكوس [1] اكتمار في وان اللذان يعيشان في الدولة العثمانية نفسها ويحتلان مرتبة أعلى في سلم التدرج الكهنوتي. إن إخضاع جميع رعايا الدولة العثمانية المسيحيين من غير الأرثوذكس إلى بطريق الأرمن في اسطنبول رفع ذلک البطريق إلى مستوى يكاد يكون مساوياً للمستوى الذي يحتله جاثليق كل الأرمن وهو الاسم الذي يطلق على رئيس الكنيسة الأرمنية الذي يعيش في أجمادزين والذي يتمتع بالسلطة الدينية على أرمن روسيا واوروبا الغربية وفارس والهند وأمريكا.

ومن الطبيعي أن يحرص بطريق الأرمن على سلطته حرصاً شديداً ضد أي تطاول عليها من الخارج مستغلاً الاسناد الذي يحظى به بشكل مستمر من الباب العالي، لذا فإن المبشرين الكاثوليک الذين استقروا في الدولة العثمانية منذ نهاية القرن السادس عشر وجدوا قي سعيهم لكسب أكبر عدد ممكن من رعايا السلطان المسيحيين إلى الكاثوليكية، خصوماً

---

(١) كاثوليكوس هو اللقب الذي أصبح يحمله بطارقة الكنيسة الأرمنية الكريكورية اعتباراً من القرن الرابع وبطارقة كنيسة جورجيا الأرثوذكسية اعتباراً من القرن الخامس تذكره الكتب العربية باسم جاثليق وهو ما سنفعله من الآن فصاعداً ــ المترجم.

عنيدين في شخص هذا البطريق ورجال الدين الخاضعين له.

وهكذا قام بين المبشرين الكاثوليك ورجال الدين الأرمن صراع يمكن الحكم على شدته من الفقرة التالية المقتبسة من تاريخ (hammer) [1] «إن البطريق الأرمني أفتيك الذي رقي إلى هذه المرتبة بفضل مساعي اليسوعيين الذين اعتمدوا على وعده بحماية الكاثوليك كشف عن نفسه بعد كعدو لدود لهؤلاء الآخرين. وفي مقابل ذلك وبإلحاح من حماته في الماضي القريب اختطف عندما كان في جزيرة خيوس ووضع في سفينة حربية فرنسية ونقل إلى فرنسا حيث سجن مدى الحياة. وقد اعطى اختفاء أفتيك دون أثر حجة لممارسة اضطهادات جديدة ضد الأرمن الكاثوليك الذين صدر مرسوم سلطاني بوضعهم تحت الحراسة، كذلك نفي أسقفا اسطنبول والقدس الذين سمحا للمبشرين بالوعظ بحرية إلى الكاليرا على أثر شكوى من رجال الدين الأرمن ـ الكريكوريين. وأخيراً منع اليسوعيون أنفسهم من ممارسة أي نشاط. ولم يكتف الصدر الأعظم بذلك فأمر بإعدام بطريق الأرمن الكاثوليك ساري وستة من مساعديه وكانوا قبل ذلك رهن الاعتقال وقد أنقذ بعضهم حياته باعتناق الإسلام. أما الأسقف (comidas) الذي رفض الارتداد عن الكاثوليكية وإثنان آخران من الأرمن الكاثوليك فقد قطعت رؤوسهم علناً».

يظهر مما ذكرنا أن الاضطهاد الذي كان يمارس ضد المتحولين الجدد وبالدرجة الأولى ضد الأرمن الذين اعتنقوا الكاثوليكية لم يمر دون ضحايا، وقد ازداد عدد هؤلاء الضحايا أكثر في أثناء حملات الاضطهاد

---

(1) (hammer histoire de ? empire ottoman trad de ? allemande par doehe?)
(t. III. paris 1844 pp. 334 335).

التي قامت في ١٦٩٩ و١٧٥٩ و١٧٨٢ و١٨٢٨. ولقد ازداد الوضع الصعب الذي يعيشه المتحولون إلى الكاثوليكية وحماتهم المبشرون سوءاً من أن الباب العالي رفض أن يعترف بالأرمن الكاثوليك كطائفة مستقلة وأن يدخل معهم في أي محادثات إلّا عن طريق خصمهم الرئيس بطريق الأرمن.

وبسبب ذلك لم يجلب لروما النصر الذي تريده حتى تحول افرام أسقف مدينة حلب إلى الكاثوليكية. وقد استطاع هذا الأسقف أن يؤمن اختياره لمنصب جاثليق سيس في ١٧٤٠، لكن ما ان تأكدت الطائفة الأرمنية في سيس بأن الجاثليق الجديد صنيعة للبابا وحصل منه على لقب بطريق كليكا، إلّا وبادرت إلى اختيار جاثليق جديد، فاضطر الجاثليق السابق الذي اتخذ لنفسه، لاسترضاء روما، اسم بطرس الأول، في آخر الأمر وبعد أن فشل في الحصول على الاعتراف به من قبل الأغلبية الساحقة من الأرمن بل ومن الباب العالي نفسه، إلى الهرب إلى لبنان والاعتكاف في دير القرين [1].

لفتت ملاحقة الأرمن الكاثوليك في آخر الأمر انتباه فرنسا فكانت حافزاً لتدخل نشيط قام به ممثلوها لدى الباب العالي. وكانت الحجة التي استغلها هؤلاء هي المرسوم الذي أصدره السلطان محمود الثاني في ٨ كانون الثاني ١٨٢٨ رداً على اشتراك أساطيل فرنسا وبرطانيا وروسيا في تدمير الأسطول العثماني في خليج نافارينو، والذي قضى بطرد جميع المبشرين الكاثوليك ومن تبعهم من الأرمن من الدولة العثمانية. وقد تمكن

---

(1) (m. c. famin. Histoire do la rivalite et du proteorate des eglises chetiennes en orient Paris. 1853. p. 107.)

سفير شارل العاشر الجنرال (guilleminot) الذي أرسل إلى الدولة العثمانية بعد عودة العلاقات الدبلوماسية معها مباشرة من أن يحصل من السلطان على أمر لم يقض بإلغاء المرسوم السابق فقط بل قضى أيضاً بإخراج الأرمن الكاثوليك من دائرة اختصاص بطريق الأرمن الكركوريين فوضعوا في القضايا المدنية تحت حماية موظف عثماني خاص اسمه «ناظر»، أما في القضايا الدينية فقد أصبحوا يتبعون القاصد الرسولي في اسطنبول (١).

لقد استبدل الناظر في ١٨٣١ بأسقف وكانت الـ «براءت» التي أعطيت لهذا الأخير اعترافاً رسمياً من الباب العالي بـ «طائفة الأرمن الكاثوليك». وقد صدر مرسوم بابوي منح فيه الأسقف الجديد رتبة رئيس أساقفة ــ بريماس (٢). وبإلحاح من السفارة الفرنسية في اسطنبول جرت في ١٨٧٥ مساواة البريماس رئيس أساقفة الأرمن الكاثوليك ببطريقي اليونان والأرمن الكريكوريين من حيث الحقوق والامتيازات بل واعترف له بالحق في أن يمثل مصالح الوحدويين من جميع الطوائف الأخري.

بعد أن استطاعت الدبلوماسية الفرنسية أن تؤمن الاستقلال لطائفة الأرمن الكاثوليك أصبح وجود بطريقية كليكيا التي أسسها البابا بنديكتوس الرابع عشر لا معنى له. فرجال الدين الذين أشغلوا هذا المنصب لا يمكن أن يكونوا خاضعين للبريماس رئيس أساقفة اسطنبول لأنهم أعلى منه منزلة ولا يمكنهم في الوقت نفسه أن يصبحوا رؤساء لطائفة الأرمن الكاثوليك لأن الباب العالي لم يعترف بهم. وقد أمكن التخلص من هذا

---

(1) (p. arminjon op. cit. pp. 33 – 34.)

(٢) (primas) كلمة لاتينية تعني الرئيس الأول وهي في الكنيسة الكاثوليكية والانكليكانية تعني الأسقف الأول من حيث المرتبة والامتيازات . المترجم.

الإشكال بنجاح في ١٨٦٦ عندما توفي بطريق كليكا بطرس الثامن وذلك بأن انتخب خلفاً له ربيب مجمع انتشار الإيمان حسون الذي كان قد أصبح رئيس أساقفة بريماس في القسطنطينية منذ ١٨٤٦. وقد سارع البابا باستغلال هذا الاتحاد للوظيفتين في شخص واحد والذي نظم بشكل مقصود فأصدر مرسوماً بابوياً خاصاً يبدأ بكلمة (reversurus) الغي فيه منصب رئيس أساقفة بريماس مكتفياً من الآن فصاعداً برئيس واحد يلقب ببطريق الأرمن الكاثوليك وجاثليق كليكا [1].

وكان هذا المرسوم البابوي (reversurus) الذي أصدر في ١٢ تموز ١٨٦٧ سبباً في انقسام الأرمن الكاثوليك وكاد يؤدي إلى أن يبتعد عن روما القسم الأغلب من الوحدويين. وخلاصة القضية أن روما كانت قد أوصلت حسون في ١٨٤٦ إلى منصب رئيس أساقفة بريماس دون أن تشترك الطائفة في ذلك، وفي ١٨٥٠ اختار البابا منفرداً خمسة أساقفة قام حسون هذا بعد ذلك بتكريسهم وفي المرسوم البابوي المذكور اكد البابا نهائياً حقه في التدخل في الشؤون الداخلية للكنيسة الأرمنية ــ الكاثوليكية وخصوصاً في اختيار وتعيين الأساقفة وفي الاشراف على الطائفة. وقد بادر حسون وأنصاره إلى مساندة البابا فوراً لكن خصومهم الذين أطلق عليه إسم «خصوم حسون» والذين كانوا في السابق أيضاً يعتبرون أطماع البابا هذه خرقاً لحريتهم واستقلالهم القومي هبوا بشكل حازم للدفاع عن حقوقهم التي جرى انتهاكها.

ولا يسعنا، من أجل أن نفسر مثل هذا التوتر في المشاعر القومية لدى الأرمن الكاثوليك، إلّا أن نذكر بأن هذا الوقت بالذات هو الذي قامت

(1) ed. Engelhardt. Op. cit. t. IIp. 59).

فيه بين الأرمن العثمانيين حركة قومية ترمي إلى إنشاء «أرمينيا الكبرى» المستقلة. لقد أخذ حزب «أرمينا الفتاة» الذي تشرب بالأفكار الليبرالية في المدراس الفرنسية، يسعى لأن يقيم هذه الأفكار على أساس عثماني وبدأ يعمل على إثارة الوعي القومي لدى قومه. وقد نجحت جهودهم في هذا المجال في آخر الأمر وادت إلى سن ما يسمى بـ «الدستور الأرمني لسنة ١٨٦٠» الذي نظم الادارة الداخلية للطائفة الأرمنية على النمط الديمقراطي بحيث يتفوق الأساس الانتخابي وتستبدل السلطة الفردية بالجماعية. إن هذا النظام القومي الذي صادق عليه الباب العالي في ١٨٦٣ لم يوجد بالطبع استقلالاً داخلياً حقيقياً لرعايا السلطان الأرمن ولكنه حدد بدقة حقوق وواجبات كل عضو منفرد تجاه «أمته» وبالعكس، فكان بذلک بمثابة الاسمنت اللاصق الذي كان يكتل الأرمن العثمانيين في كل قومي واحد قائم بذاته [1].

في ظل مثل هذه الميول الفكرية للطائفة الأرمنية ليس هناک ما يدهش في أن يشعر حتى الأرمن الكاثوليک بنهوض الروح القومية فهبوا يصدون بحزم مطامع البابا التي سبق ذكرها. وهكذا رفض «خصوم حسون» الاعتراف بحسون رئيساً دينياً لهم واختاروا بدلاً منه أسقفاً يتفق معهم في الرأي معتمدين على إسناد الباب العالي الذي لم يكن بمقدوره إلّا أن يعترف بعدالة احتجاجهم على خرق البابا للحقوق التي منحها لطائفة الأرمن الكاثوليک حاكمها الشرعي السلطان.

وقد رد البابا على ذلک بأن اعتبر «خصوم حسون» وأسقفهم مارقين، وبذا بدت القطيعة التامة حتمية الأمر الذي كان يهدد بأن يبتعد عن روما

---

(1) (adyssens. Op. cit. p. 437.)

مئات الألوف من الوحدويين فلقد ثار على موضوعات المرسوم البابوي [١] (reversurus) أيضاً المارونيون في لبنان والملكيون ستتحدث عنهم فيما بعد بالإضافة إلى الأرمن الكاثوليك، فكان ذلك من جهة والاسناد الحازم لـ «خصوم حسون» من جانب الباب العالي من جهة أخرى مما كسر إصرار روما وأجبر البابا على التراجع، فاستدعي حسون إلى روما وتسلم لقب كاردينال وظل هناك. غير أن الصلح النهائي، مع ذلك لم يتحقق إلّا في ١٨٨٨ عندما توصل الحزبان إلى وفاق أديإلى إنشاء تنظيم جديد لطائفة الأرمن الكاثوليك [٢].

كان التنظيم الجديد هذا مماثلاً في خطوطه العامة للأسس التي وردت في «النظام القومي لسنة ١٨٦٠»، حيث يقف على رأس الطائفة بطريق يتبعه مجلسان الأول للشؤون الدينية يتألف من ممثلي رجال الدين والثاني للشؤون المدنية ويتألف من الأرمن. وتدير الطائفة بالاتفاق مع البطريق جميع ممتلكاتها المنقولة وغير المنقولة وكذلك المعاهد التعليمية والتربوية حيث يؤسس لهذا الغرض عدد من المجالس الثانوية واحد لكل فرع من فروع الادارة. ويطبق النظام نفسه ولكن بشكل مصغر على الأسقفيات والابرشيات [٣].

لقد ألغيت نهائياً في الوفاق المذكور الادعاءات التي عبر عنها البابا في مرسوم (reversurus) للتدخل في انتخاب البطريق والأساقفة. فعلى الرغم من رغبة البابا باشتراك أساقفة معينين في انتخاب البطريق فأن

---

(١) كلمة لاتينية تعني العودة ـ المترجم.

(2) (ed. Engelhardt. T. IIp. 58 ff.)

(3) (f. van den steen de jehay. Op. 253 ff.)

الانتخاب أصبح من اختصاص الطائفة كلها ممثلة بستين منتخب (ثمانية عن رجال الدين وإثنان وخمسون عن الأرمن). حيث ينبغي على مجمع الأساقفة أن يختار البطريق من بين خمسة مرشحين يقدمهم هؤلاء الستون، وأن يخبر الباب العالي وروما بهذا الاختيار للعلم فقط. أما عن تعيين الأساقفة فإن البابا كان قد قضى بأن يبقى له الاختيار النهائي من بين مرشحين ثلاثة بقدمهم له السينودس [١]، لكن القواعد الجديدة قضت بأن يسمى اجتماع مشترك لمجلسي الأسقفية المعنية الديني والمدني ثلاثة مرشحين يختار نجمع الأساقفة أحدهم ويصادق البطريق عليه دون أن يأخذ موافقة البابا مسبقاً. وتؤلف هذه القواعد على الرغم من أن الباب العالي لم يصادق عليها وأن روما لم توافق عليها الأسس التي تدار بموجبها طائفة الأرمن الكاثوليك.

من بين ١،٦٨٠،٥٠٠ نسمة من الأرمن العثمانيين وهو العدد الذي ذكره بطريق الأرمن الكركوريين لمؤلف كتاب: (de la situation legale des sUjets ottomans non-musulmans) يؤلف الأرمن الكاثوليك بموجب إحصائيات مجمع انتشار الايمان لسنة ١٩٠١ التي أوردها هذا المؤلف أيضاً ٩٠،٠٠٠ نسمة منهم ما يقرب من ١٦،٠٠٠ من الوحدويين يعيشون في اسطنبول نفسها [٢].

ويوجد في ولايات بغداد والموصل والبصرة في الوقت الحاضر ما لا يزيد عن ٥،٠٠٠ من الأرمن الكريكوريين والأرمن الكاثوليك. لقد كان

---

(١) السينودس هنا هو المجمع الكنيسي الذي يضم رجال دين وأشخاصاً مدنيين ومهمته معالجة الشؤون الكنيسية المختلفة. المترجم.

(2) (f. van den steen de jehay: op. cit. 51-52 261.)

الأرمن في القرن التاسع عشر كثيري العدد لكن الطاعون المخيف في ١٨٣١ أباد أعداداً كبيرة منهم، ثم انتقل بعد ذلک القسم الأغلب ممن بقي حياً منهم إلى الهند وغيرها من الأقطار.

وإذا ما قارنا بين الوضع الحالي لكل من الأرمن الكاثوليک والأرمن الكريكوريين في الامبراطورية العثمانية لا بد أن نتصول إلى الاستنتاجات التالية: لقد تعرض الأرمن الكاثوليک في البداية لعدد من الاضطهادات من جانب أخوانهم الذين كانوا يعتمدون على إسناد السلطات العثمانية لكنهم وصلوا أخيراً بفضل العون الذي أبدته لهم الدبلوماسية الفرنسية إلى مرفأ هادئ. أما الأرمن الكريكوريون فإنهم ظلوا حتى منتصف القرن التاسع عشر يتمتعون بعطف دائم من جانب الباب العالي الذي كان ينظر إليهم على إنهم «ملتي صديقة» أي «طائفة مخلصة من الرعية» لكنهم أصبحوا حالياً يتعرضون للاضطهاد والكل لا يزال يذكر المجاوز المريعة التي ارتكبت ضد الأرمن الكريكوريين في ١٨٩٤ ــ ١٨٩٦ حيث سفح الدم المسيحي في جميع ممتلكات السلطان تقريباً، حتى اسطنبول نفسها كانت مسرحاً لمذبحة رهيبة.

أما في العراق الجنوبي فقد أمكن بفضل الاجراءات التي اتخذتها السلطات المحلية في الوقت المناسب تجنب إراقة الدماء بحيث أن الخطر الذي تعرض له الأرمن العثمانيون اقتصر في هذه المنطقة على كثرة الأيتام الذين تحتم على كل عائلة موسرة من الأرمن العراقيين تقريباً أن تؤيهم.

الملكيون :

بقي علينا لكي ننتهي من استعراض مجال نشاط المبشرين الكاثوليک في العراق الجنوبي أن نتحدث باختصار عن الملكيين الذين يعيش قسم من جاليتهم الصغيرة في بغداد والقسم الآخر في البصرة.

إن أصل اسم الملكيين هو من الكلمة العربية «ملك» وقد أطلق هذا الاسم على المسيحيين السريان الذين لم يعتنقوا هرطقة نسطور ويوتيخوس بل كانوا يطيعون وينفذون أوامر الامبراطور ماركيان الموجهة ضد تلك التعاليم الكاذبة، وذلك للسخرية بهم [1].

وبعد فتح العرب لسوريا أصبح أسم الملكيين يطلق في بعض الأحيان على مسيحيي أنطاكيا الذين احتفظوا بالمذهب الأرثوذكسي واستخدموا اللغة العربية بدل اليونانية في إداء الطقوس الدينية واعتباراً من منتصف القرن الثامن عشر أصبح اسم الملكيين يطلق على مسيحي سوريا ومصر الذين انضموا إلى روما والذين حافظوا، رغم اعترافهم بزعامة البابا، على مذهبهم واستمروا على إداء طقوسهم الدينية باللغة العربية [2].

لقد بدأت محاولات جذب الملكيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية منذ ١٨٥٣ عندما أرسل البابا سكستوس الخامس إلى الشرق الأدنى بعثة خاصة لهذا الغرض ولكنها لم تحقق أي نجاح. ولم يكن بالأمكان اعتبار نجاح الدعاية الكاثوليكية بين هذا الشعب اليوناني ـ السرياني مضموناً إلّا اعتباراً من ١٧٤٤ بعد أن توجه بطريق الملكيين إلى البابا بنديكتوس الرابع عشر طلباً للمصادقة على تعيينه. وقد تحتم على هذا البطريق المنضم إلى روما في البداية أن يجابه صعوبات من جانب الباب العالي الذي رفض أن يسمح له بالعيش في دمشق التي كانت قد أصبحت اعتباراً من ١٥٣١ المقر الرسمي لبطارقة الملكيين، محتجاً بعدم وجود قنصل فرنسي في هذه المدينة. وقد تحتم على صنيعة روما بسبب ذلك أن يغادر العاصمة السابقة

(1) (m. c. famin. Op. cit. pp. 72-73.)

(2) (f.van dan steen de jehay. Op. cit. p. 270-ff.)

للخلفاء الأمويين ويستقر في لبنان ولم يرجع خلفاؤه إلى دمشق ثانية إلّا في ١٨٤١.

وقد ظل اليونان ـ السريانيون، بسبب عدم اعتراف الباب العالي لهم بالوجود المستقل، تابعين للكنيسة اليونانية حتى ١٨٣١، ولم يصبحوا تحت حماية بطريق الأرمن الكاثوليک الذي كان قد حصل لتوه من الحكومة العثمانية على اعتراف بحقه في الوجود المستقل، إلّا في السنة المذكورة. ومن أجل أن تزداد أهمية الرؤساء الدينين الملكيين منحهم البابا الكريكوري السادس عشر في ١٨٣٨ لقب بطريق انطاكيا وبطريق الاسكندرية وبطريق القدس على رغم من أنهم لم يتمكنوا من التحرر من الوصاية الخارجية نهائياً إلّا بعد عشر سنوات وذلک بموجب مرسوم سلطاني خاص. عند ذلک عين البطارقة الملكيون ممثلاً خاصاً لهم في اسطنبول ومنحوه لقب «وكيل» وذلک للاتصال بالباب العالي في الشؤون التي تخص الطائفة.

وقد عقدت طائفة الملكيين خلال القرن التاسع عشر عدة مؤتمرات، اجتمع آخرها في ١٨٤٩ في القدس لوضع قواعد الادارة الذاتية الداخلية للطائفة، لكن قرارات هذه المؤتمرات لم تحظ بمصادقة البابوات الذين اعتبروها عقبة تعيق إخضاع هذه الطائفة نهائياً لسلطتهم. والواقع أن نفوذ روما بلغ في الفترة الأخيرة من السعة بحيث أن مندوباً بابوياً كان يحضر في انتخاب البطريق على الرغم من كل احتجاجات الباب العالي ضد التدخل الخارجي.

وينبغي ألا نخلط بين الملكيين أي اليونان ــ السريانيين واليونان ــ الوحدويين أي اليونان الصرف الذين انضموا إلى روما، فالدعاية الكاثوليكية بين سكان عاصمة الامبراطورية العثمانية والولايات المجاورة

لها لم تحقق قبل ١٨٦١ النجاح. ومنذ هذه السنة الأخيرة تكونت طائفة غير كبيرة من اليونان ـ الوحدويين تتبع في الشؤون الدينية أسقف اللاتين في اسطنبول وتخضع في الشؤون المدنية لديوان اللاتين أو لبطريق الأرمن الكاثوليك [1].

يصل عدد الملكيين حسب إحصائيات مجمع انتشار الايمان لسنة ١٩٠١ إلى ١٢٦،٢٠٠ شخص علماً بأن مراكزهم الرئيسية هي ولايات بيروت في لبنان وحلب ودمشق في سوريا. ويوجد منهم في ولاية بغداد ما يقرب من ٥٠ شخصاً أما في البصرة فلا يزيد عددهم على بضعة أشخاص.

أن الحركة المضادة للأكليروسية في فرنسا نفسها وبالشكل الرئيسي نشاط المبشرين البروتستانت المتزايد أكثر فأكثر بين المسيحيين العثمانيين يمكن أن تكون جزئياً عقبة أمام استمرار نجاح الدعاية الكاثوليكية، في الامبراطورية العثمانية.

ان الأثر الذي تركته لا أكليروسية فرنسا في الشرق الأدنى لا يزال في بداية ظهوره وقد انعكس حتى الآن في مشروع تأسيس سلسلة كاملة مما يسمى بالارساليات الدنيوية (missions laiques) التي تخلت عن أية دعاية دينية وانهمكت كلياً في قضية تعليم رعايا السلطان، فكان عليها بذلك أن تصبح منافساً جدياً للمؤسسات التعليمية التابعة للارساليات الدينية الكاثوليكية. وكانت أول تجربة لتنفيذ هذا المشروع عملياً هي «الليسية في سالونيك» التي افتتحت في ١٩٠٧ والتي تتألف من مدرسة للتجارة وقسم ثانوي للبنين والبنات كان فيه في بداية ١٩٠٨ (٤٢٠) دارساً من كلا

(1) (f. van den steen de jehay. Op. cit. pp. 266-267.)

الجنسين [١].

كانت منافسة المبشرين البروتستانت تؤلف خطراً أكثر جدية، فقد ظهر هؤلاء في الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن التاسع عشر ووضعوا نصب أعينهم مهمات أوسع مما كان يضعها الرهبان الكاثوليك من مختلف الفرق. فأولئك الرهبان كما يظهر مما عرضناء سابقاً كانوا يهدفون كلياً إلى إعادة المسيحيين الشرقيين إلى حظيرة كنيسة روما في حين أن ممثلي جمعيات الكتاب المقدس في بريطانيا وأمريكا كان هدفهم توعية المسلمين أنفسهم بنور التعاليم المسيحية أما تحويل المسيحيين العثمانيين إلى البروتستانتية فكانوا يهتمون به كقضية ثانوية.

أن الدوافع التي دفعت المبشرين البروتستانت لأن يوجهوا نشاطهم هذه الوجهة هي تحول بعض المسلمين عرضاً في الهند والظروف غير المواتية التي حصلت في بداية عملهم بين المسيحيين واليهود.

ففي الهند كان من بين المتحولين إلى البروتستانتية بضعة مسلمين دفعوا حياتهم مقابل ارتدادهم عن الاسلام. وقد ألهمت هذه الحقائق أحد رجال الدين الانكليكان وهو المدعو (claudius Buchanan) فكرة توجيه جهود المبشرين البروتستانت نحو المسلمين، فألقي في ١٨٠٩ في برستول خطابه الذي أثار في حينه ضجة كبيرة والذي عرض فيه بشكل فصيح ومقنع حججه لصالح ضرورة الاهتمام بتحويل المسلمين إلى المسيحية [٢].

وقد وجدت دعوته الملحة هذه صدى لها بين المبشرين الامريكان الذين قرروا نذر أنفسهم لهذا النوع من النشاط فاستقروا في سوريا

---

(1) (bulletin do comite de rasie francaise. 1908 pp. 109-273.)

(2) (rav. S.m. zwemer: op. p. 315.)

يحدوهم هدف خاص هو دراسة اللغة العربية واتقانها والتمكن من جوهر الدين الاسلامي وأسسه. وكانت النتائج الاولى لهذه الدراسة هي ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ووضع عدد كبير من المؤلفات التي حاولوا فيها دحض تعاليم الاسلام. ومن أجل أن تطبع هذه المؤلفات أسسوا لهم مطبعة خاصة في مالطة نقلت في ١٨٣٣ إلى بيروت. وهكذا أعدت الارسالية السورية غير قليل من المبشرين الذين قرروا نذر أنفسهم كلياً لمسألة نشر المسيحية بين أتباع الدين الاسلامي.

وفي الوقت نفسه وبالتوافق مع هذه الجهود جرب المبشرون الانجليز والامريكان أن يعملوا على تحويل المسيحيين واليهود العثمانيين إلى البروتستانتية. حيث تخصص الامريكان بالدرجة الأولى بالعمل بين الأرمن في حين وجه الانجليز اهتمامهم إلى اليهود. وقد تحتم على المبشرين البروتستانت أن يصطدموا في خطواتهم الأولى في هذا السبيل بمقاومة عنيدة من جانب رجال الدين الأرمن والحاخامات اليهود وأن يصادفوا عداءاً ظاهراً من جانب المبشرين الكاثوليك يضاف إلى ذلك الشك والريبة الذي جابهتهم به السلطات التي منعت البروتستانت حتى من بيع الكتاب المقدس [1]، ثم جاءت الضربة النهائية التي وجهها لنجاح الدعاية البورتستانتية بين المسيحين العثمانيين المرسوم السلطاني لعام ١٨٣٤ الذي صدر بإلحاح من بطريقي اليونان والأرمن في اسطنبول والذي منع الانتقال من طائفة مسيحية إلى أخرى.

ونتيجة لذلك جرى التضييق على الدعاية التي كان المبشرون البروتستانت يقومون بها وتعرض من استجاب لهم إلى ملاحقات متكررة

---

(1) (s. descombaz. Histoire des missions evangaliques. Paris. 1860.p. 136 ff.)

من جانب شركائهم في الدين سابقاً وكذلك من جانب السلطات العثمانية إلى حد قامت معه أمام الدول المعنية ضرورة ملحة هي الدفاع عن مصالح الطائفة البروتستانتية امام الباب العالي. وقد قامت بريطانيا العظمى بالخطوة الأولي في هذا المجال عندما عمدت في ١٨٤٠ بإسناد من بروسيا إلى الطلب من الباب العالي بأن يسمح ببناء كنيسة بروتستانتية في القدس. وقد رفضت الحكومة العثمانية هذا الطلب في أول الأمر لكنها اضطرت بسبب عدم مساندة أية دولة أخرى لها في هذا الأمر، إلى التراجع فافتتح أسقف أنكليكاني جاء من لندن أول مصلى للبروتستانت في القدس عام ١٨٤٢ (١).

وفي ١٨٥٠ اعترف رسمياً بوجود الطائفة البروتستانتية وذلك بفضل الجهود المشتركة التي بذلها ممثلو بريطانيا وبروسيا والولايات المتحدة الامريكية. وأصبح لها الحق بموجب المرسوم السلطاني الذي صدر في السنة المذكورة في أن يكون لها مندوبها الخاص أي «وكيل» في اسطنبول. كما تألف مجلس إداري تابع للـ «وكيل» يتألف من إثني عشر عضواً. ونظمت على هذا الغرار تقريباً الطوائف البروتستانتية في الأقاليم. وينبغي أن نلاحظ في هذا المجال بأن فرمان السلطان وكذلك السلطة العثمانية، لم تفرق بأي شكل من الأشكال بين الكنائس المختلفة مثل اليرسبتيرية والأسقفية والميثودستية ... الخ ولهذا فإن اسم «بروتستانت» يشمل أتباع كل من هذه الكنائس وكذلك الذين تحولوا إليها دون تفريق على اساس القومية (٢).

وبعد أن أمنت بريطانيا العظمي بهذا الشكل شرعية تمثيلها لرعايا السلطان البروتستانت، قررت أن تستحصل من الحكومة العثمانية الموافقة

(1) (ED. ENGELHARDT: OP. CIT. T. L. P. 61FF.)

(2) (f. van den steen de jehay. Op. cit. p. 219ff.)

على أن يزاول المبشرون البروتستانت تبشيرهم بحرية بين المسلمين أنفسهم. وقد بدا أن الوقت الذي اختير لمثل هذه المبادرة كان موفقاً نظراً لما شمل الدولة العثمانية من حركة إصلاحية تهدف إلى إصلاح أنظمة الدولة وتحسين وضع الشعوب الخاضعة للسطان.

وهكذا فبعد ان توصل ممثل بريطانيا لدي الباب العالي اللورد (stattford) يسانده السفير الفرنسي، إلى إلغاء الفرمان الذي يمنع الانتقال من طائفة مسيحية إلى أخرى في ١٨٤٤ بدأ محاولاته في الالحاح على رفعت باشا الصدر الأعظم آنذاک من أجل أن يُلغى رسمياً الاعدام المفروض على كل من يرتد عن الاسلام [(١)].

وفي عام ١٨٥٥ في خلال المفاوضات التي سبقت عقد معاهدة باريس [(٢)] طلب (stattford) هذا من السلطان أن يعترف بصراحة لرعاياه المسلمين بالحق في الانتقال إلى المسيحية بحرية. غير أن ممثلي فرنسا وروسيا والنمسا لم يساندوا هذا الطلب لأنهم لم يروا أن هناک فائدة تجنيها المسيحية من وراء هذا التوسيع لمفهوم الحرية الدينية. أما المندوب العثماني فقد رفض بشكل قاطع مناقشة اقتراح السفير الانجليزي هذا مشيراً إلى أن أمراً مثل هذا يقوم به السلطان سيوجه إلى مكانته باعتباره خليفة للمؤمنين [(٣)] ضربة لا يمكن تلافي نتائجها.

---

(1) (ed. Engelhardt. Op. cit. t. 1. p. 129ff.)

(٢) المقصود هنا هو المعاهدة التي أنهت حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) والتي وقعها في باريس في آذار ١٨٥٦ ممثلو بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وسردينيا وبروسيا والدولة العثمانية ـ المترجم.

(٣) يعني أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول الله ـ المترجم.

وقد هدد إصرار سفير بريطانيا العظمى وتصلب الأتراك أعمال المؤتمر التمهيدي بالانقطاع نهائياً لو لا أن توصل الجانبان إلى إتفاق وسط صيغ بقرار صدر على النحو التالي: «بما أن اعتناق أي دين يعتبر في تركيا قضية حرة فإن أياً من الرعايا العثمانيين لا يمكن أن يلاحق أو يجري التضييق عليه بسبب دينه ولا ان يجبر على تركه». وقد أقام المبشرون البروتستانت حقهم في التبشير بالمسيحية بين المسلمين على هذه العبارة الغامضة.

لقد ازداد الخطر المقترن بنشاط من هذا النوع بسبب من أن المبشرين المتحمسين لم يشاؤوا أبداً أن يحسبوا الحساب لعدم احتمال رجال الدين المسلمين وتعصب السكان الجهلة. فهم لم يكتفوا بأن يقوموا هم أنفسهم بمهاجمة الاسلام في مواعظهم وإرشاداتهم بل دعوا المسلمين الذين تحولوا عن الاسلام حديثاً إلى أن يفعلوا ذلك أيضاً. وقد هدد اسطنبول في ١٨٦٤غضب عارم أصاب العامة؛ لأن خمسة من المسلمين الذين تحولوا إلى البروتستانتية واحدهم كان ملّا سابق أخذوا يشتمون دينهم السابق علناً وبعبارات مهينة. ولم تتمكن الحكومة من أخماد الحريق الآخذ بالاشتعال إلّا بعد أن اعتقلت المرتدين فوراً ومنعت الاجتماعات العامة التي يقوم بها البروتستانت وأغلقت الدكاكين التي يباع فيها الكتاب المقدس [1].

إن سفير بريطانيا العظمي آنذاك (sir h. bulwer) ليس فقط لم يحتج على أوامر السلطات العثمانية هذه وإنما قدر في رسالة كتبها إلى وزير الخارجية الانجليزي تسامح العثمانيين حق قدره واتهم في ذلك كله

---

(1) (ed. Englhardt. Op. cit. T. II. P. 81 ff.)

المبشرين البروتستانت الذين «ينشرون، بسلوكهم الطائش الذي يتسم بالتحدي، الشغب بين الشعب ويعيقون انتشار المسيحية في البلاد أكثر مما يسهلونه» على حد تعبيره.

وفي غضون ذلک كان المبشرون الكاثوليک قد ثاروا ضد انتهاک حرية المعتقد الديني المقدسة (the sacred freedom of conscience) واتهموا ممثل بريطانيا العظمى بالحذر غير المناسب الذي كان يؤدي حسب اعتقادهم إلى وأد الحرية الدينية في الدولة العثمانية. غير أن الـ (foreign office) [1] أخذت بوجهه نظر السفير فطلبت في ١٨٦٩ من وكلية الموقت «أن يدعو المبشرين لأن يحترموا أعراف الشعب الذي يتمتعون بضيافته وأن يؤذوا مشاعره وأن يتجنبوا أيضاً كل ما من شأنه أن يخل بالأمن والهدوء العام».

ولتلافي أي سوء تفاهم جديد بين المبشرين البروتستانت والسلطات العثمانية اتفقت الدول المعنية بهذه القضية مع البابا العالي على حرية الدعاية البروتستانتية على ان تراعي الشروط التالية:

يجب أن يزود كل مبشر بجواز سفر عثماني للعيش والتنقل في الامبراطورية العثمانية، والمبشر الذي يرغب في مزاولة التطبيب ملزم بأن يحصل مسبقاً في اسطنبول على الاجازة اللازمة لذلک، وأخيراً لا يمكن أن يباع الكتاب المقدس وغيره من مطبوعات التبشير أو أن توزع مجاناً إلّا بعد أن تفحص الرقابة العثمانية كل نسخة منها وتضع عليها توقيع السماح [2].

يظهر مما ذكر بأن نشاط البروتستانت قد قيّد بقواعد معينة لكن

---

(١) وزارة الخارجية ـ المترجم.

(2) (zwemer: op. cit. p. 377.)

المهم بشكل خاص أنهم لم يحرموا من إمكانية التبشير بين المسلمين العثمانيين.

لقد استغلت جمعيتا الكتاب المقدس الانجليزية والأمريكية هذه الموافقة الصامتة من جانب الحكومة العثمانية فقررتا الاهتمام جدياً بالمسلمين وأرسلتا إلى مختلف أصقاع الامبراطورية العثمانية، مبشرين كانوا قد أعدوا خصيصاً لمثل هذا العمل. ومن هؤلاء (anton grivrail) ممثل «british and foreign bible «society» [1] الذي أرسل إلى العراق الجنوبي، ١٨٧٨. وفي نفس الوقت تقريباً وصل إلى هذه المنطقة أيضاً «robert bruce» مرسلاً من قبل القسم الهندي في [2] «church missionary». وقد رأى المبشران المذكوران كلاهما بأن حقل نشاطهما يعد بمردود كثير ولهذا وباتفاق بين الجمعيتين اللتين أرسلتهما بدأ في بغداد في ١٨٨٠ بيع الكتاب المقدس وتوزيعه مجاناً. واعتباراً من ١٨٨٢ استقرت church missionary» «society في بغداد نهائياً، فقد نقلت إرساليتها من الحديدة ووسعت نشاطها إلى درجة بحيث بدأت تنافس الكرمليين لا في مجال إبداء المساعدة الطبية للسكان فقط وإنما في ميدان التربية والتعليم أيضاً.

وبعد أن ثبتت «church missionary society» أقدامها في بغداد مدت نشاطها إلى الموصل وحلت هناك محل الـ [1] (american Presbyterian board) الذي كان يعمل هناك قبل ذلك.

أما عن البصرة فإن الدعاية البروتستانتية فيها كانت عرضية إلى أن

---

(١) جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية ـ المترجم.

(٢) الجمعية التبشيرية ـ المترجم.

(٣) المجلس البرسيتيري الاميركي ـ المترجم.

وصل من اميركا في نهاية ١٨٩١ ممثلو [١] «arabian mission» وكانت هذه قد تأسست في منتصف ١٨٨٩ بفضل جهود بذلها عدد من طلاب المعهد اللاهوتي للكنيسة المصلحة (theological seminary of the reformed church) في نيو برنزويك بولاية نيوجرسي في الشمال الشرقي من أميركا [٢]. وبعد مناقشات طويلة قرر الشبان الغيورون على الحركة التبشيرية نذر أنفسهم كلياً للنشاط التبشيري في شبه جزيرة العرب أو البلدان المتاخمة لها. وبما أن الكنيسة التي ينتمون إليها لم يكن لها إي إرسالية تعمل بين المسلمين ولم يكن بمقدورها أن تفكر بتأسيس مثل هذه الارسالية بسبب افتقارها للأموال اللازمة لذلك فإن الطلاب توجهوا إلى الجمعية مباشرة طلباً للاسناد. ولقد أطلق المؤسسون اسم «العربية» على إرساليتهم لإثارة الاهتمام بقضيتهم، وضد نشروا برنامج نشاطها المقبل وكانوا يعملون بلا كلل عن طريق القراءة والوعظ والخطب والمؤلفات المطبوعة، للفت انتباه الناس إلى الأهمية الفائقة التي ترتديها هداية سكان شبه جزيرة العرب بنور تعاليم المسيح.

لقد وجدت حرارة الوعظ الذي كان يقوم به المبشرون الشبان والنداءات المتكررة التي كانوا يوجهونها إلى المجتمع وحماس الشباب الذي أظهروه لعملهم المقبل صدى في قلوب السامعين فبدأ سيل التبرعات يرد على صندوق (arabian mission) التي كانت قد تأسست منذ عهد قريب وقد مكنها ذلك من أن تحقق مشاريعها بسرعة، وهكذا قام إثنان من أفرادها في ١٨٩٠ بالطواف في ساحل شبه جزيرة العرب فوقع اختيارها على البصرة التي استقرت فيها في السنة التالية أي في ١٨٩١ الـ (arabian

(١) الارسالية العربية ـ المترجم.

(2) (zwemer. Op. cit. p. 353. ff.)

(mission) التي أنشأت فرعاً لها في جزيرة البحرين في ١٨٩٣ وأخر في مدينة العمارة على دجلة في ١٨٩٤.

بهذا الشكل وضع الأساس للدعاية البروتستانتية بين السكان المسلمين في ولاية البصرة. وكانت المساعدة الطبية المجانية للسكان اولى الوسائل التي كان المبشرون الامريكان يحاولون الاتصال بواسطتها بالمسلمين حيث يقوم الطبيب في المستوصف بتلقين المرضى حقائق تعاليم المسيح قبل أن يباشر في فحصهم. وقد أنشأت وظيفة طبيب في إرسالية البصرة منذ ١٨٩٢ كانت توجد بشكل دائم بين المبشرين إمرأة طبيبة كان عليها، بسبب تمكنها من الدخول إلى الحريم، أن توصل الدعاية البروتستانتية إلى النساء المسلمات.

وكان بيع الكتاب المقدس مترجماً إلى العربية بل وتوزيعه مجاناً وسيلة أخرى لا تقل فعالية لجذب المسلمين إلى حظيرة البروتستانتية ذلك أن (van dyck) كان قد أنجز أحسن ترجمة للكتاب المقدس ١٨٦٥. ولهذا عمدت (arabian mission) منذ ١٨٩٢ إلى الاتفاق مع (british and foreign bibla society) حول منحها حق احتكار توزيع منشورات الجمعية المذكورة في ولاية البصرة وفي المناطق المتاخمة لها من شبه جزيرة العرب. ويلاحظ القس البروتستانتي (s. zwemer) بفخر وهو أحد الشخصيات الرئسية في (arabian mission) وقد استمددنا من كتابه الموسوم بـ (arabin the cradle of Islam) المعطيات التي سبق ذكرها بشأن نشاط المبشرين الامريكان في البصرة، بأن الطلب على الكتاب المقدس وخصوصاً بين المسلمين قد ازداد من ٦٢٠ نسخة في ١٨٩٢ إلى ٢،٤٦٤ نسخة في ١٨٩٩ [1].

---

(1) (zwemer: op. cit. p. 365.)

وإلى جانب النشاط التربوي والتعليمي الذي كان عند (Arabian mission) في البصرة لا يزال في مرحلة البداية ينبغي أن نذكر أن هذه الارسالية كانت تقوم بالوعظ في الشوارع وتنظيم المجادلات الدينية التي ينظر إليها المبشرون الامريكان على أنها إحدى الوسائل الناجحة للتأثير على المسلمين. وينصح بالقيام بهذا النوع من الدعاية بشكل خاص المبشرون الذين يجوبون القرى والأرياف ويعملون خارج المدن الكبيرة بشكل عام. أما في المدن فإن البروتستانت يفضلون أن يقوموا بالوعظ والمجادلات في دورهم. أما فيما يتعلق بأساليب الوعظ في الشوارع والمجادلات الدينية فهناك عدد كبير من المؤلفات جمعت فيها كل مطاعن المسلمين بالميسحية ووضع لكل منها تنفيذ إضافة إلى تعليمات بشأن اسلوب وطريقة ضبط النفس في أثناء الجدل الديني. ومن هذه الارشادات ما هو طريف فلنورد النموذج الآتي كمثل عليها:

«يفضل الوعظ من مكان مرتفع وإلا فيستحسن في غير ذلك من الحالات الجلوس فالشخص يكون تهيجه أقل وهو جالس ويكون كلامه أقل إثارة. أجلسوا إذا كان ذلك ممكناً بشكل يكون فيه الحائط وراء ظهوركم فإن لذلك فوائد كثيرة. في أثناء الجدل صلوا مع أنفسكم لأجل أن تتكلموا ببطء وبصوت مؤثر ولا تجيبوا على السؤال فوراً لكي لا تنكشفوا لمن يجادلكم وإنما فكروا بالجواب أولاً ومن ثم أعرضوه بهدوء واختصار» [1].

ورغم أن المبشرين الامريكان كما يظهر مما ذكرناه قد استخدموا كل الوسائل المجربة من أجل أن يضمنوا النجاح بين المسلمين إلّا أن مردود

---

(1) (Ibid. P. 384.)

نشاطهم لا يتناسب مطلقاً مع الجهود والأعمال التي بذلها أعضاء الـ (arabian mission) فالمسلمون الذين انتقلوا إلى البروتستانتية علناً لا يتعدى عددهم العشرة بمن فيهم جميع الزنوج الذين كانوا يخدمون المبشرين أنفسهم. ويفسر المبشرون هذا الفشل بخوف المسلمين الذين تشربوا بنور تعاليم المسيحية ويمكن اعتبارها أتباعاً للمسيح سراً، من التعرض للاضطهاد والموت بسبب الارتداد عن الاسلام [١].

أما عن الدعاية البروتستانتية بين الأرمن العثمانيين فإننا ينبغي أن نعترف بأن نجاحها كان كبيراً، حيث يوجد في الجزء الأسيوي من الدولة العثمانية وحده، حسب إحصائيات الميجر (r. hubir) ما لا يقل عن ١٨٨، ١٠٢ ممن تحول منهم إلى البروتستانتية عندهم ١٩٨ كنيسة و ٣٥٦ مدرسة [٢]. وإذا ما كان المبشرون الامريكان قد كسبوا في البصرة القليل من الاتباع بسبب قلة عدد الجالية الأرمنية هناك فإن عدد من تحول من الأرمن إلى البروتستانتية في بغداد يصل إلى ٤% من عددهم الكلي.

تبقى علينا في نهاية هذا الفصل أن نتحدث باختصار عن اليهود الذين يبلغ عددهم في بغداد ٤٠،٠٠٠ نسمة في حين لا يقل عددهم في

---

(١) ليس هذا سبب الاعراض وانما هو لعدم الاقتناع بتلك التعاليم لكونها غير مقنعة أساساً وتخالف المعقول وما ذكر يعد تبريراً لفشلهم الذريع مع كون الناس في تلك الفترة غاية الفقر والفاقة وقد استغل المبشرون ذلك إلّا أنهم لم يحصلوا على شيء وقد فوجيء المبشرون في بلدة العمارة مثلاً وهم يذكرون بعضاً من معجز سيدنا المسيح (ع) بالصلاة على محمد وآل محمد مدوية عدة مرات من قبل المستمعين من المسلمين ممن كانوا يعدّونهم لاعتناق المسيحية. حميد الدراجي

(2) (f. van den steen de jehay. Op. cit. p. 226.)

البصرة عن ٥،٠٠٠ فضلاً عن أنهم منتشرون بأعداد كبيرة أو قليلة في كل مدن العراق الجنوبي ومراكزه التجارية الكبيرة.

لقد وضعت الطائفة اليهودية التي كانت تُعرف في الدولة العثمانية باسم «يهودي ملتي» أو «ملتي موسوي» (الطائفة الموسوية) عند استيلاء السلطان محمد الثاني على القسطنطينية تحت سلطة بطريق الأرمن، شأنها في ذلك شأن المسيحيين غير الأرثوذكس. غير أن كبير الحاخاميين آنذاك موشي كابسالى استطاع لا أن يتحرر من هذه التبعية فحسب بل أن يكون أيضاً مساوياً في الصلاحيات بالنسبة لأبناء دينه مع بطريقي اليونان والأرمن. وهكذا حصل رئيس الطائفة اليهودية المستقلة على لقب «حاخام باشي» وكان مكانه في الاحتفالات الرسمية يأتي بعد البطريقين المذكورين [1].

وهكذا فإن الحقوق والامتيازات التي كان اليهود يتمتعون بها في تركيا لم تكن تقل عن تلك التي مُنحت للمسيحيين. وبمقدار ما كان وضع المسيحيين يتحسن بسبب ضغط الدول الأوروبية على الباب العالي كان وضع اليهود العثمانيين يتحسن هو الآخر نظراً لأن التحسينات والاصلاحات التي كانت الحكومة العثمانية تجرها كانت تشمل بالتساوي جميع رعايا السلطان دون تفريق على أساس الدين. فبيانا السلطان خطي شريف كلخانة ١٨٣٩ وخطي همايون ١٨٥٦ كانت تخص اليهود سوية مع المسيحيين وتمنح هؤلاء وأولئك أوسع في الادارة وتحدد لدرجة معينة فقط سلطة رؤسائهم الدينيين.

ويكون تنظيم الطائفة اليهودية حالياً على أساس الادارة السلطانية

---

(1) (loeh. La. Situation des Israelites en turquie. en serbie et serbie et en roumanie paris 1877 p. 3.)

الصادرة في ١٨٦٤ على النحو التالي :

يقف على رأس الطائفة الحاخام باشي أي كبير الحاخاميين يتبعه مجلسان أحدهما ديني والآخر علماني. وينتخب الحاخام وكذلك أعضاء المجلسين كليهما من قبل مؤتمر شعبي كبير يتألف من ٦٠ علمانياً و ٢٠ حاخاماً منتخبين عن القسطنطينية و ٤٠ ممثلاً عن الطوائف اليهودية في سالونيك وأدرنه وسميرنا والقدس وبروصة وبغداد والقاهرة [1].

ويُنتخب الحاخام باشي من بين الحاخامات الذين هم من رعايا الدولة العثمانية ويصادق الباب العالي على انتخابه بفرمان خاص ويظل في منصبه مدي الحياة ولا يستبدل بغيره إلّا إذا فقد نهائياً قواه العقلية والبدنية بسبب الشيخوخة والهرم. والحاخام باشي باعتباره رئيس الطائفة اليهودية، يقوم بتمثيل مصالحها رسمياً أمام الباب العالي وإليه تعود الرقابة العليا على الادارة والحق الكلي بغرض «الحِرِم» أي الحرمان من «السينوغوغ» على أفراد الطائفة.

يضم المجلس العلماني أو «مجلسي جسماني» تسعة أعضاء من العلمانيين ويختص بالشؤون المالية للطائفة كجمع وتوزيع الضرائب المختلفة والاشراف على الممتلكات غير المنقولة وحل المنازعات التي تحدث بسبب هذه القضايا أي أن جميع المصالح المادية للطائفة تقع تحت إدارته. أما المجلس الديني (مجلسي روحاني) فيتألف من سبعة حاخامات وله الأشراف العام على التمسك بالدين والطقوس بشكلها المقرر، ويتفرغ لهذا الغرض ثلاثة من أعضاء المجلس يختصون بشؤون الزواج والاسرة أما الباقون فيشرفون على تنفيذ الفروض التي يقررها قانون

---

(1) (dr. e. graf von mulinan: die laeinische kirche im turkischen reiche s. 18 ff.)

موسى فيما يتعلق بالطعام الذي يسمح لليهود بتناوله والطعام الذي لا يسمح لهم به.

إن تنظيم الطوائف اليهودية في مدن الأقاليم العثمانية التي توجد فيها هذه الطوائف يماثل في خطوطه العامة التنظيم الذي وصفناه علماً بأن الحاخام الذي يقف على رأس كل طائفة من هذه الطوائف يخضع للحاخام باشي ويتلقى منه كل التوجيهات والايضاحات اللازمة.

وفي الوقت الذي ترجع غالبية اليهود العثمانيين الذين يعيشون في ممتلكات السلطان في آسيا واوروبا، في أصلهم إلى اسبانيا التي طرد منها أجدادهم في ١٤٩٢ فإن اليهود في العراق يعتبرون أنفسهم أحفاداً لليهود الذين كانوا موجودين في الأسر البابلي.

وإذا ما كانت احياء اليهود أي الـ «كيتو» في المدن العثمانية بشكل عام تذهل المشاهد باحتشاد بيوتها وفقرها وقذارتها فإن صفات الـ «الكيتو» الخارجية هذه كلها تظهر في البصرة وبغداد بشكل أكثر تجسداً.

واليهود العراقيون الذين يعيشون بشكل منعزل تماماً عن المسلمين والمسيحيين متعصبون لمعتقداتهم ويشتغلون مثل أبناء جلدتهم في اوروبا بالتجارة والربا والسمسرة. وكان اليهود المحليون قبل أن يفتتح البنك العثماني فروعاً له في العراق الجنوبي يهيمنون على جميع الشؤون المصرفية تقريباً بحيث نجد بينهم حتى الآن إلى جانب الفقراء شديدي الفقر مليونيريين حقيقيين مثل الاخوان ساسون الذين أصلهم من بغداد حيث أصبح أحدهم واحداً من أكبر أصحاب المصانع في بريطانيا في حين صار الآخر رئيساً لشركة هندية واسعة الثراء.

ويتميز أحفاد أسرى بابل بالتأخر الشديد في المجال الفكري ذلك أن مدارسهم الدينية أولت جل اهتمامها للتعليم الديني ولم تخصص للتعليم

العام إلّا القليل من العناية إلى أن أتى الاتحاد الاسرائيلي العالمي (alliance Israelite universelle) لمساعدة شركائه في الدين.

كان هذا الاتحاد قد تأسس في فرنسا في ١٨٦٠ بهدف تحرير اليهود ورفع مستواهم الفكري والخلقي والدفاع عنهم تجاه المضايقات والملاحقات. وهكذا كان من مهمات هذا الاتحاد الكفاح ضد التشريعات الاستثنائية الأجنبية الموجهة ضد اليهود من جهة تحسين حياة اليهود عن طريق العناية بشؤون التربية والتعليم من جهة أخرى (١).

وبما أن اليهود في الدولة العثمانية يتمتعون بالمساواة مع المسيحيين ولا يتعرضون إلى اضطهاد أو ملاحقات استثنائية، لم يضطر الاتحاد إلى ممارسة نشاط سياسي مكثف في ممتلكات السلطان بل اكتفى بأن ينبري من حين إلى الآخر للدفاع عن شركائه في الدين. ولهذا كانت المهمة الرئيسية للاتحاد في الامبراطورية العثمانية هي مقاومة الدعاية المسيحية بين اليهود وذلك أن جمعيات تبشيرية كثيرة العدد وبشكل رئيسي بروتستانتية نذرت نفسها لتحويل اليهود إلى المسيحية، وقد استغلت رغبة الشباب اليهودي في التعلم ففتحت لهم على أوسع مدى أبواب مدارسها التي تهتم بمخططات تحويلهم عن دينهم في المقام الأول.

قرر الاتحاد أن يأخذ بيده قضية تطمين الحاجات الدينية لليهود لذا فمنذ أن أسس أول مدرسة من هذا النوع في ١٨٦٢ في تطوان في مراكش (٢) غطت شبكة كاملة من المؤسسات التعليمية العامة في الدولة العثمانية

---

(1) (bulletin de ralliance Israelete universelle annee 1902. no 27 p. 2ff.)

(٢) ينبغي ان لا يفهم من ذلك بأن مراكش كانت تابعة للدولة العثمانية، فالمعروف أن هذا القطر العربي لم يخضع للعثمانيين. المترجم.

وقد أهتم الاتحاد بإعداد المعلمين فافتتح في ١٨٦٨ في باريس (ecole oriental) normale وأسس في اسطنبول (seminaire rabbinique) لرفع المستوى الثقافي للحاخامات أنفسهم.

وهكذا أوجدت كوادر الرجال المؤهلين لمكافحة الدعاية البروتستانتية، لكن الاتحاد لم يكتف بذلك بل اهتم أيضاً بتحسين الوضع المادي لفقراء اليهود من أجل أن يبعدهم عن التأثر بالنشاط الخيري الذي كان يمارسه المبشرون. وقد فتح الاتحاد لهذا الغرض مدارس حرفية في الكثير من المدن، وعمل في الاماكن التي لم تكف فيها الأموال لذلك على أن يتدرب أطفال الفقراء مجاناً على الحرف المختلفة لدى اليهود أصحاب الورشات ويقوم هو من جانبه بتهجير هؤلاء التلاميذ بالملبس والمأكل. إن الاتحاد لم ينس حتى الزراعة فتأسست المدارس اللازمة لذلك في يافا وفي جديدة في تونس.

يتركز نشاط الاتحاد في العراق الجنوبي حتى الآن في بغداد بالدرجة الأولي فقد أقيمت هناك منذ ١٨٦٥ مدرسة للأولاد يدرس فيها منهج واسع يضم بالإضافه إلى المواضيع التعليمية العامة تدريس اللغات الفرنسية والانجيليزية والتركية والعربية. ويقبل في هذه المدرسة المسيحيون والمسلمون إلى جانب اليهود وعدد طلاب هذه المدرسة هو ٣٥٠ طالباً. أما مدرسة البنات التي تأسست في ١٨٩٥ فإن عدد الطالبات فيها كان ١٨٠ طالبة، في حين أن المدرسة الابتدائية المخصصة لتعليم القراءة والكتابة وتدريس اللغتين العبرية والعربية، افتتحت في ١٨٠٢ وكان عدد طلابها ٢٠٠ طالب. وفضلاً عن ذلك بدأوا في بغداد اعتباراً من ١٨٧٤ بتعليم الصبيان النجارة والحدادة والسكافة والخياطة، كما تأسست في ١٨٩١ للبنات ورشة خاصة يتعلمن فيها أشغال الابرة بكل أنواعها.

كان أبناء يهود البصرة الموسرين يدرسون أيضاً في مدارس الاتحاد الاسرائيلي التي ذكرناها في بغداد نظراً لأن معهد الاتحاد في البصرة لم يفتتح إلّا في ١٩٠٦ وقبل هذه السنة لم يكن يوجد إلّا المدارس الدينية.

وتوجد هذه المدارس الدينية في مدن ولاية البصرة الأخرى ففي العمارة مدرستان ومدرسة واحدة في كل من الناصرية وشطرة المنتفك والحي، ذلك لأن جاليات يهودية كبيرة أو صغيرة تعيش في كل من هذه المدن. وهكذا فلا يزال أمام الاتحاد اليهودي العالمي في العراق الجنوبي عمل كثير في ميدان تحسين التعليم المدرسي الذي يتلقاه الشباب اليهود في هذه المنطقة.

ويأتي جزء من الأموال التي تصرف على المدارس والمؤسسات الخيرية اليهودية في الامبراطورية العثمانية من المساعدات التي يقدمها (ALLIANCE LSRAELITE UNIVERSELLE) و [١] (ANGLO-JEWISH ASSOCIATION) والمحسنين من الأشخاص، أما الجزء الآخر فيأتي من ضرائب خاصة فرضها اليهود في الدولة العثمانية بأنفسهم على أنفسهم بالإضافة إلى ضرائب التي يدفعونها للحكومة. ومن هذه الضرائب:

١ ـ الضريبة الوطنية ويتراوح مقدارها بين ١/٤ ليرة و٣ ليرات عثمانية في السنة (ما بين روبلين وإثني عشر كوبيكاً و٢٥ روبل وخمسين كوبيكاً).

٢ ـ ضريبة فرضت على اللحم والنبيذ والجبن ومقدارها ٣٠ بارة (ست كوبيكات) على الحقة الواحدة (١٢٨٥ غراماً) من اللحم و٢٠ بارة (أربع كوبيكات) على الحقة الواحدة من الجبن.

٣ ـ ضريبة تفرض على الشهادات والبطاقات وغير ذلك من الوثائق

---

(١) الرابطة الانجليزية ـ اليهودية ـ المترجم.

التي يصدرها ديوان الحاخامية.

٤ ـــ الضـــريبة المفروضـــة علـــى الجـــزارين والمتـــاجرين بالبضـــائع الكولنيالية وتجار الخمور [١].

بقـي أن نضـيف إلى كـل مـا قلنـاه عـن اليهـود أن العـراق الجنـوبي يعـد أن يكـون «أرض الميعـاد» إذا مـا تحقـق في يـوم مـن الأيـام المشـروع الـذي يقترحـه الكاتـب اليهـودي (ZANGWILL) والـذي يقضـي بإسـكان اليهـود المنتمـين إلى الأقطـار الأوروبيـة المختلفـة في هـذه المنطقـة العثمانيـة. لقـد ولـد هـذا المشـروع بالارتبـاط مـع بنـاء سـكة حديـد بغـداد ومشـروع إحيـاء قنـوات الري القديمة في العراق الجنوبي.

---

(1) (F. VAN DEN STEEN DE JEHAY. OP. tCI. P. 353.)

الفصل الخامس

تعـيش في المـدن الواقعـة علـى طـول المجـرى الأدنى لدجلـة والفـرات وعلـى الأخـص في العمـارة وسـوق الشـيوخ والناصـرية وكـذلك في البصـرة والمحمـرة وشوشـتر طائفـة صـغيرة آخـذة بـالانقراض تثـير الاهتمـام تعـرف في أوروبـا الغربيـة باسـم «مسـيحيو يوحنـا المعمـدان» وعنـد المسـلمين باسـم «الصبة» مـن الفعـل العـربي «صبأ» الـذي يعـني يغسـل [1] أمـا هـم فيطلقـون علـى أنفسـهم إسـم «منـدائي» أي عبـدة منـداهي، رسـول الحيـاة، أو منـدائي يحي ويعني تلامذة أو أتباع يوحنا.

ولا يـذكر الكتـاب الاغريـق أو الرومـان في المؤلفـات الـتي وصـلت إلينـا، شيئاً عن الصائبة، على ما يذكر البروفسور خفولسون في كتابه :

«DIE SSABIER UND DER SSABISMUS» [2]

ويكـاد يكـون مـا ورد في القـرآن هـو أول خـبر عـنهم، فقـد جـاء في الآيـة

---

(1) (D. CHWOLSON. DIE SSAHIER UND DER SSABISMUS T. 1 ST. PETERSBURG 1856. S. 9-11.)

(٢) يوجـد عـرض مركـز لأصـل تسـمية الصـابئة علـى الصـفحات ٢٥ ــ ٣٠ مـن كتـاب الـدكتور رشـدي عليـان الموسـوم بـ «الصـابئون حـرانيين ومنـدائيين، بغـداد ١٩٧٦» . المترجم.

التاسعة والخمسين من السورة الثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (١) كذلك جاء في الآية السابعة عشرة من السورة الثانية والعشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٢).

يظهر من هذه النصوص أن الإسلام ساوى الصابئة بـ «أهل الكتاب» أي المسيحيين واليهود الذين عندهم كتاب مقدس ولم يعتبرهم من المشركين. وقد ذهب الخليفة عمر في هذا المجال إلى أبعد من ذلك حيث سمح للمسلمين بالزواج من الصابئيات وبأكل لحوم الحيوانات التي يقومون بذبحها لكن الكتاب المسلمين المتأخرين وبالأخص مفسري القرآن ليست عندهم مثل هذه النظرة المتحررة إلى الصابئة بل إن بعضهم لا يعترف بأنهم من «أهل الكتاب» وذلك على الرغم مما جاء في القرآن (٣).

---

(١) هذه هي الآية ٦٢ من سورة البقرة وقد أسقط منها المؤلف عبارة «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» - المترجم.

(٢) هذه هي الآية من سورة الحج وقد أسقط منها المؤلف عبارة «إن الله على كل شيء شهيد».

والحقيقة أن ذكر الصابئين ورد في آية أخرى من آيات القرآن الكريم هي الآية ٦٩ من سورة المائدة وهي كالآتي :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ - المترجم.

(3) (d. chwolson: op. cit. t. 1. s. 54.)

أمـا في أوروبـا الغربيـة فـالمعروف أن أقـدم أخبـار عـن هـذه الطائفـة صـدرت في القـرن السـابع عـن البرتغـاليين الـذين هـم أول مـن دعـا الصـابئة بـ «مسـيحيو يوحنـا المعمـدان». ومنـذ ذلـك الوقـت أورد أغلبيـة الرحالـة الـذين زاروا العـراق الجنـوبي في كتابـاتهم أخبـاراً مفصـلة بدرجـة كبـيرة أو قليلـة عـن هذه الطائفة التي تثير الاهتمام.

وعلـى الـرغم مـن ذلـك فـإن ديـن الصـابئة لم يجـر البحـث فيـه إلّا قلـيلاً حـتي إن العلمـاء الأوروبيـين لم يتوصـلوا حـتى الآن إلى حـل قضـية أصـل هـذا الـدين وجـوهره. فالبروفسـور خفولسـون في كتابـه المـذكور يتمسـك بـالرأي القائـل بـأن ديـن الصـابئة مـا هـو إلّا الديانـة الـتي كـان يعتنقهـا الكلـدان القـدماء بعـد أن تـأثرت بشـدة بالديانـة اليهوديـة وتعـاليم زرادشـت [١]. في حـين أن بعـض العلمـاء الآخـرين يعتـبرون المنـدائيين إحـدى الطوائـف الغنوصـية [٢] الـتي تربـت بأفكـار الفـرس والكلـدان بدرجـة ملحوظـة. ويعتقـد آخـرون بـأن الصـابئة هـم أتبـاع تلامـذة يوحنـا المعمـدان الـذين كونـوا في زمـن مـا في فلسـطين نفسـها وخارجهـا طوائـف دينيـة خاصـة ارتفعـت فيهـا منزلـة المعمـدان حـتي كـادت تقـارب منزلـة الإلـه. وهنـاك فريـق آخـر مـن البـاحثين يميـل إلى

---

(1) (Ibid. S. 101.)

(٢) الغنوصـية هـي أتجـاه ديـني فلسـفيظهر في القـرون الثلاثـة الأولى بعـد المـيلاد في سـوريا ومـا بـين النهـرين وانتقـل إلى الامبراطوريـة الرومانيـة، وهـو مـزيج مـن أديـان الشـرق القديمـة والفلسـفة اليونانيـة والأفلاطونيـة الحديثـة والمعتقـدات المسـيحية. يعتقـد الغنوصـيون بالتوصـل إلى المعـارف العليـا عـن طريـق الكشـف ولـيس عـن طريـق الاسـتدلال والبرهنـة العقليـة. وقـد انقسـم الغنوصـيون إلى عشـرات الفـرق منها المسيحية ومنها الوثنية ـ المترجم.

اعتبار الصابئة أحفاداً للصدوقيين [1] على أساس أن الفريقين لا يعترفان ببعث الأموات. وأخيراً هناك فريق من الباحثين يعتبرهم مجرد عبدة نجوم انتقلوا إلى العراق الجنوبي من حران القديمة عندما دمرها المغول بقيادة هولاكو خان في القرن الثالث عشر.

لقد بدا لنا، بسبب هذه الآراء المتضاربة عن الصابئة، أن من المفيد أن نعرف القارئ بعقائد وطقوس هذه الطائفة الصغيرة التي تخفى بعناية عن الغرباء حتى أعراف وعادات حياتها اليومية. لقد استقينا جزءاً من المعلومات التي سيوردها أدناه عن طريق السؤال من الأهالي المحليين العارفين بحياة الصابئة في حين استمددنا الجزء من الأخبار التي أوردها الرحالة الأوروبيون والتي جرى التحقق منها في مكانها، وعلى

---

(١) الصدوقيون هم أتباع إحدى الطوائف الاجتماعية الدينية اليهودية قامت في فلسطين في الفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي أي بعد الاحتلال اليوناني لفلسطين. جاء اسم هذه الطائفة على ما يبدو من اسم مؤسسها صدوق. كان الصدوقيون يدعون إلى الالتزام بما هو مكتوب في التوراة وإلى الامتناع عن تفسيرها لذلك فإنهم وقفوا ضد الفريسيين الذين كانوا يدعون إلى تفسير التوراة تفسيراً جديداً يتفق مع الظروف الاجتماعية الجديدة. والصدوقيون لا يعترفون بالقدر وينكرون وجود الملائكة ولا يعترفون بخلود الروح وبعث الأموات. أما الصابئة المندائيون فإنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويؤمنون بالحساب والعقاب حيث يذهب الصالحون منهم إلى عالم النور في حين يذهب المذنبون إلى عالم الظلام ويؤمنون أيضاً بوجود الملائكة ويعتقدون بأن مقرها الكواكب وتحتم عقيدتهم وجود مخلوق يتوسط بين الروحانية والمادية، ويبدو أنهم يشبهون في هذه النقطة الأخيرة الغنوصيين الذين يعتقدون بوجود الكثير من القوى الوسطى بين الله والطبيعة ـ المترجم.

الأخص من كتاب (etudes sur la religion des soubbs) الصادر في باريس في ١٨٨٠. فعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس بحثاً علمياً فإنه يستحق مع ذلك اهتماماً خاصاً لأن مؤلفه السيد سيوفي ـ نائب القنصل الفرنسي في الموصل جمع كل المعلومات التي أوردها فيه من أحد الصابئة مباشرة وهو ابن أحد القسس [1] الصابئة. لقد كان هذا الصابئي الذي قرر أن يكشف أسرار دينه لشخص يعتنق ديناً آخر، في طريقه إلى التحول إلى الكاثوليكية بفضل الجهود التي بذلها رئيس بعثة الكرمليين في بغداد آنذاك (pere marie joseph)، وكان قبل أن يتعرف على نائب القنصل المذكور قد طرده الصابئة من صفوفهم باعتباره مرتداً عن دينهم.

ولكي نوضح بجلاء العناصر الأجنبية التي تكونت منها عقائد الصابئة الدينية والتشوش الذي حدث بسبب اقتباسها من الأديان الأخرى، فإننا سنبدأ حديثنا بالتعرض باختصار للمأثر الشفهية التي تتعلق بحياة الصابئة في الفترة التي سبقت انتقالها إلى العراق الجنوبي وخوزستان المجاورة له، بشكلها الذي توجد فيه عند الصابئة حالياً.

كان على رأس الصابئة قبل فترة طويلة من ظهور يوحنا المعمدان الذي يعتبره الصابئة مشرعهم الأول، شخص اسمه دانانوك [2] وكان يهيمن على السلطتين الدينية والزمنية. وقد تخلى دنانوخت هذا بإيحاء من

---

(١) يستخدم المؤلف كلمة دياكون التي تعني في الكنيسة الأرثوذكسية مساعد القس أثناء أداء الخدمة الدينية مقابل كلمة شكندة عند الصابئة وكلمة قس مقابل ترميدة وأسقف مقابل كنزفرة. نرجو من القارئ الكريم أن يلاحظ ذلك ـ المترجم.

(٢) الصحيح دنانوخت وهو الإسم الذي سنستخدمه بدلاً من دانانوك من الآن فصاعداً. المترجم.

الأرواح الشريرة عن عبادة الإله الحق وأخذ يعبد الشمس والقمر والنار وجذب معه إلى تلك العبادة الشعب الخاضع له، ولهذا أرسل ملك الموت ساروييل لقبض روح هذا المرتد لكن روحه بعد أن أنبت بشدة عادت مرة أخرى إلى غلافها الجسدي لكي تكفر عن ذنوبها بإعادة العبادة الحقة إلى الصابئة. وقد حاول دنانوخت الذي عاد إلى الحياة أن يؤدي هذه المهمة بدقة لكنه لم يستطع أن يعيد إلى الديانة السابقة إلّا قسماً ضئيلاً من شعبه الذي انصرفت جماهيرة الأساسية إلى الوثنية [1].

وقد انقرض رجال الدين الذين كرسهم دنانوخت بمرور الوقت فظل الصابئة الذين كانوا يعيشون آنذاك في القدس بدون كهنة فأدى ذلك إلى اندماجهم تدريجياً مع إحدى الطوائف اليهودية التي لا تعترف بالختان (لا يوجد الختان حتى الآن عند الصابئة). وإلى أن يفقدوا دينهم بشكل كلي تقريباً وقد دفع الخوف من أن يختفي الدين الصابئي من على وجه الأرض نهائياً أحد ملوك الجنة وهو مار أدريوثا الذي سنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد إلى أن ينعم على الصابئة بمشروع هو يوحنا المعمدان، وكان ظهور المعمدان إلى العالم محاطاً بالمعجزات وقد حدث على ما تذكر مأثورات الصابئة على النحو التالي :

كان يعيش في القدس زوجان صالحان هما أبوساوا وأينشفي، ولم يكن لهما أولاد بالرغم من إنهما كانا طاعنين في السن. وقد أرسل مار أدريوثا إلى أينفشي أحد ملوك الجنة هو منداهيي الذي جعلها تشرب ماء عجيباً فأنجبت ولداً.

وعندما عرف اليهود الذين كان الصابئة يعيشون بين ظهرانيهم، عن

---

(1) (m. n. siouffi: etudes sur la religion des soubbas. Paris 1880.p. 31.)

طريق حلم رآه أحدهم بأن أبن أينشغي سيتمكن من السيادة عليهم مع الوقت بل سيحولهم الى ديانته، قرروا أن يقتلوه بمجرد أن يولد. لكن زاربيل ليليثا الحورية التي حضرت الولادة كشفت نيتهم فأستلت الوليد من فم أينشفي وسلمته إلى الملائكة الذي نقلوه على الفور إلى الجنة حيث أرضع من حلمات شجرة مخزيون التي تدر الحليب.

وهكذا ترعرع يوحنا المعمدان أو يحيى كما يسميه الصابئة في ألمه أد نهورا (الجنة) وأطلع على العلوم كافة ثم عمد باسم مانه ربه ومار أدربوثا ومنداهيي وحصن ضد النار والسيف بواسطة الرقي، ثم نقل الى القدس حيث سكن في بيت والديه، وقام يحيى في اليوم التالي لوصوله بتعميد والديه الأمر الذي أزعج اليهود بشدة فبادروا إلى الاجتماع عنده في البيت وطالبوه بعلائم ومعجزات وتظاهروا بأنهم سيعترفون به مبعوثاً من الله إذا ما أظهر المعجزات. وقد وافق يحيى على طلبهم عن طيب خاطر فأعاد البصر إلى العميان الذين أتوا بهم إليه وأعاد للمشلولين قابليتهم على الحركة وأشفى المصابين بأمراض أخرى. وعندما رأي اليهود بأن هذه المعجزات هي تأكيد للحلم الذي سبق ذكره بادروا في البداية إلى إحراق داره لكنه خرج منها سالماً ثم حاولوا الاعتداء على حياته عدة مرات ولكن الفشل كان نصيبهم في كل مرة. عند ذلك فقد سجد أغلبية اليهود باستثناء رئيسهم اليزار وأشياعه، ليحيى وتعمدوا على يديه فأصبحوا صابئة.

لقد ظل يحيى زمناً طويلاً أعزب يقضي الجزء الأغلب من وقته بالصلاة، وبما أن أتباعه كانوا يحاولون تقليده فإن توجههم نحو العزوبة أدى إلى أن يتقلص عدد الصابئة بشكل ظاهر، ولهذا فقد اقترح على يحيى أبوه السماوي منداهييأن يتزوج امرأة أسمها أنهر أرسلت له من مشوني كشطة أي العالم الأرضي غير المنظور.

وبعد أن وجه يحيى الصابئة إلى الدين الحق انتهت مهمته فظهر إليه أبوه السماوي منداهيي بهيئة صبي يطلب التعميد، غير إن يحيى أجل القيام بذلك الى اليوم التالي. وعندما ذهب في الصباح الباكر إلى النهر لكي يغطس في الماء كعادته ثم يؤدي صلاته مثل أمامه مرة أخرى الصبي الذي كان قد طلب منه تعميده من قبل. فدعا يحيى الغريب إلى الدخول في النهر وتهيأ للبدء بالتعميد لكن الماء تراجع أمام الاثنين بشكل غير متوقع تاركاً المعمد والمعمد على اليابسة. وقد تكرر ذلك ثلاث مرات قبل أن تثبت بكلمة من منداهيي المياه في مكانها وقبل أن تبدأ الطيور في السماء والسمك في النهر بتمجيد ملك السماء. فعرف يحيى الذي كان يمتلك موهبة فهم الحيوانات عند ذلك حقيقة الشخص الذي كان يقف أمامه فارتمى يقبل أيدي أبيه، وما أن أخذ هذا يحيى من يديه حتى سقط المعمد جثة هامدة وتبعت روحه منداهيي حيث سارا سوية عبر المطراثة (جهنم) [1] وعبرا نهره دخشاشة ووصلا أخيراً إلى الجنة حيث سكن يحيى في قصر أبيه السماوي.

وقد واصل الصابئة بعد موت يحيى الذي ترك لهم عدداً كبيراً من تلاميذه بهيئة رجال دين من مختلف المراتب، العيش في القدس على وفاق تام مع الطائفة اليهودية ورئيسها اليزار الى أن تمكنوا من أن يجذبوا مربي ابنة اليزار الى دينهم. وقد ولد ذلك عداوة بين الصابئة واليهود تحولت بالتدريج الى صراع مكشوف وانتهت بمحق اليهود للصابئة. لم يبق

---

(١) المطراثة عند الصابئة هو المطهر الذي تذهب إليه الأرواح الخاطئة بعد انبعاثها حيث تتعذب فيه بدرجات متفاوتة إلى أن تتطهر من ذنوبها فتلتحق بالملأ الأعلى. المترجم.

من أتباع يحيى أحياءً إلا حفنة قادهم من القدس إلى دمشق أنوش أثرا الذي أرسل إليهم خصيصاً من الجنة. وقد نصب هذا عليهم اثنين من الحكام الدنيويين هما الأخوان فرّوق ملكة وأردوان ملكة وأناط السلطة الدينية بالقسس والأساقفة الذين كرسهم بنفسه مجدداً. وقد نبه أنوش أثرا فروق ملكة بشدة الى أن يتجنب الصدام مع اليهود لكن ذلك لم يثن هذا الحاكم الصابئي عن الانتقام من اليهود لمحقهم للصابئة في القدس. وقد انتهى النزاع الجديد بأن دخل فروق ملكة إلى البحر الأحمر وهو يتعقب على رأس شعبه بأجمعه، اليهود الذين كان يقودهم موسى الذي تذكر مآثر الصابئة إنه عاش بعد يوحنا المعمدان، فابتلع البحر الصابئة جميعاً فيما عدا قائدهم نفسه وبضع عشرات من الرجال والنساء. وابتعد الصابئة الذين نجو بهذا الشكل المعجز إلى شوستر في خوزستان حيث تكاثروا بالتدريج وتحسنت أحوالهم بشكل ملحوظ لكن دينهم أضمحل تماماً بسبب موت رجاله في البحر الأحمر. ومن أجل أن يعاد الصابئة إلى الدين الحق أرسل إلى شوستر من العالم الأرضي غير المنظور (مشوني كشطة) رجل صالح هو آدم أبو الفرج الذي ظن شيوخ الصابئة بسبب هيئته المتواضعة أنه جوال اعتيادي فأشفقوا عليه وشغلوه راعياً لماشيتهم.

لقد ترك الحكام المسلمون المحليون الصابئة بسلام إلى أن تولى أمر المسلمين شخص يدعى محمد كلهور الذي استدعي شيوخ الصابئة واقترح عليهم اعتناق الإسلام طوعاً وإلا فإنه سيجرهم الى ذلك بالقوة. وبعد محادثات طويلة تقرر أن يترك الصابئة بسلام إذا استطاع أحدهم أن يقوم بمعجزة أكبر مما قام به كلهور الذي حول الحبل الى حية والحجر الى أسد ثم بسط سجادة الصلاة على سطح النهر وصلى عليها. فارتبك الصابئة ولم يعرفوا ماذا يفعلون الى أن أشارت عليهم إحدى العجائز بأن يلجأوا

إلى أبي الفرج المذكور الذي لم يتمكن من التفوق في المباراة مع كلهور فحسب وإنما عمد إلى معاقبة هذا الأخير على ملاحقته للصابئة، فقد أخذ نواة تمر وزرعها في الأرض فنمت منها أمام أعين المشاهدين نخلة أعطت ثمراً في الحال، ثم اقترح أبو الفرج على كلهور أن يتسلق النخلة ويجمع التمر، ولم يكد يصل إلى أعلى النخلة حتى أخذت النخلة بكلمة من صاحب المعجزة الصابئي تطول الى الأعلى ثم بدأت الرياح التي استدعاها أبو الفرج من الجنوب والشمال تطوح بها مرة الى هذا الجانب ومرة الى ذاك، وظل كلهور الجالس عليها يتعذب الى أن أقسم على أن يترك الصابئة بسلام.

وبعد أن عين أبو الفرج القسس والأساقفة وأرشد الصابئة الى الدين الصحيح عاد مرة أخرى الى مشوني كشطة (العالم الأرضي غير المنظور) لكن كلهور على الرغم من القسم الذي أداه عاود اضطهاد الصابئة بمجرد أن غادر حاميهم القوي شوستر. وقد أصبح وضع أتباع يحيى في نهاية الأمر لا يطاق الى درجة بحيث اضطروا مغادرة ممتلكات كلهور فسكن قسم منهم في دزفول واستقرت أغلبيتهم في المحمرة واستطاعوا هنا أن يتواءموا مع المسلمين لفترة طويلة الى أن أدي نزاع وقع بين أحد الصابئة وعربي الى صدام دامٍ بين الشعبين أفضى الى فناء القادمين فناءً تاماً تقريباً. وقد هرب من بقي حياً منهم الى دزفول وعاشوا بين الصابئة الموجودين هناك. ونظراً لعدم وجود رجال دين حقيقيين بسبب موتهم في أثناء الاضطهادات الشديدة، كان يقوم بالخدمة الدينية والطقوس لهؤلاء وأولئك أناس خيرون شرفاء تختارهم الرعية نفسها.

وظل الحال على هذا المنوال الى أن حل الطاعون الكبير في ١٨٣١ الذي اجتاح ما بين النهرين وفارس المجاورة لها وذهب بالعديد من

الضحايا من صابئة دزفول. وقد رجع قسم من الذين نجوا من الوباء الى شوستر مرة أخرى في حين انضم قسمهم الآخر إلى طائفة صغيرة من الصابئة كانت موجودة آنذاك في سوق الشيوخ على الفرات، وكانت تلك الطائفة قد فقدت أثناء الطاعون قادتها الدينيين فتوجهت الى صابئة شوستر فأرسل لها هؤلاء اثنين من الشكندة أي دياكونين، وقد اختار هاذان ثلاثة من العلمانيين الفضلاء وكرساهم دياكونات ثم بدأوا باختيار واحد منهم ليصبح قسيساً ويتطلب لذلك حسب قواعد الدين الصابئي وجود أربعة دياكونات على الأقل. وهكذا أعيدت لدى صابئة العراق الكهانة التي أصبحت منذ ذلك الوقت تتعاقب في عوائل هؤلاء المنتخبين.

لا يتعدد عدد الصابئة القاطنين في العراق الجنوبي وفي خوزستان المجاورة لها في الوقت الحاضر ٤٠٠٠ ــ ٥٠٠٠ نسمة والحرف الرئيسية التي يزاولونها هي الصياغة والصناعات اليدوية والتجارة. ثم تأتي بعد ذلك تربية الماشية وصناعة الزوارق الخفيفة التي تصنع من القصب وتطلى بالقار وتعرف في العراق باسم (مشحوف) ثم تأتي أخيراً الزراعة.

أما اللغة التي يتكلم بها الصابئة حالياً فهي لغة قريبة جداً من السريانية، وهي على ما يعتقده العلماء الذين تخصصوا بدراستها لا تعدوا كونها لهجة من لهجات السريانية على الرغم من أنّ لها حروفها الخاصة ونحوها الخاص كما إنها ليست مفهومة تماماً للمسيحيين السريان المتواجدين في الموصل [1] وقد كتب بهذه اللهجة المعروفة في المؤلفات العلمية الأوروبية باسم «المندائية» جميع كتب الصابئة المقدسة التي وضعت في الفترة ما بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين. وعدد هذه

(1) S.M.Zwemer.op.cit.288

الكتب كثير إلى درجة بحيث لا يتضمن حتى أحسن مؤلفات العلماء المستشرقين قائمة كاملة لها حتى الآن.

ويتصدر كتب الصابئة المقدسة التي لا يعترف أبداً بالتوراة ولا بالإنجيل كتاب «سدره به» (الكتاب العظيم) الذي يسمى أيضاً بـ « كنزه » (١) (الكنز) والذي يحتوي على طقوس الخدمة الدينية وتعاليهم بشأن خلق العالم وأساطيرهم ... الخ (٢).

ويضم كتاب «سدره ملک» (كتاب الملک) كل ما يتعلق بالجانب الطقوسي من الدين الصابئي وكذلک الأعياد والصلوات وقواعد الحياة الصالحة، وغالباً ما يطلق على هذا الكتاب الثاني اسم «دراشة أديهيا» إ أنه يحتوي على الأحاديث المأثورة التي بشر بها يوحنا المعمدان الذي يعتبره الصابئة كما ذكرنا مشرعهم الحقيقي.

وتأتي بعد هذين الكتابين كتب أقل أهمية مثل: «ديوان» و «سدره نمشوتو» (كتاب الأرواح) و «سدره آدم» (كتاب آدم) و «أسفر ملواشه»

---

(١) الصحيح «كنزه ربّه» أي الكنز العظيم. المترجم.

(٢) يتألف هذا الكتاب من قسمين يحتوي الأول منها على موضوعات كثيرة مثل نظام تكوين العالم وحساب الخليفة وصفات الخالق ووعظ وأدعية وحكايات ... إلخ ويعالج الثاني شؤون الميت فيتحدث عن المراسم التي ينبغي اتباعها في الجنائز وتلقين الأموات وكيفية دفنهم وكيفية خروج الروح من الجسد وتنقلاتها حتى تستقر في عالم الأنوار وأسباب تحريم البكاء أو إعلان الحداد ... الخ.

انظر: الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، الكتاب الأول بغداد ١٩٦٩ ص٧٠، رشدي عليان، المصدر السابق، ص١٢٣. المترجم.

(كتاب الأبراج) وكثير غيرها [١].

ولا يفهم محتويات هذه الكتب في الوقت الحاضر إلا القليل من الصابئة فرجال الدين وحدهم هم الذين يستطيعون قراءة وفهم هذه النصوص المقدسة عندهم وهم يعملون بجد وحماس على صيانة هذا الامتياز الذي يختصون به من تطاول رعيتهم. ولذا فإن من السذاجة أن يكتفي الصابئة الحاليون بالمآثر الشفهية التي حرفت إلى حد كبير عند انتقالها من جيل إلى آخر وأصبحت شديدة الاختلاف عمّا هو مكتوب في كتب الصابئة [٢].

ونحن في الوقت الذي لا نريد فيه أن نعرض بشكل علمي دين الصابئة على أساس كتبهم المقدسة، على الأقل بسبب من أن القسم الأغلب من هذه الكتب لم يترجم إلى اللغات الأوروبية ولم يدرس أبداً من قبل العلماء والباحثين، فإننا سنكتفي بالاضطلاع بمهمة أكثر تواضعاً هي عرض جوهر العقائد الدينية للصابئة بالشكل الذي يفهمها به أتباع هذه الطائفة القاطنون حالياً في العراق الجنوبي.

يقف على رأس الكون مانة ربه الواحد الأجل الخالد الذي يوجد

(١) يفتقر المؤلف هنا إلى الدقة فهناك الكثير من الكتب الصابئية التي تحمل أسم ديوان مثل «ديوان المة ريشايا ربه» و «ديوان اباشر» و «ديوان تفسير البغرا» ودواوين الرقي والتعاويذ وغيرها. كما إن كتاب آدم هو نفسه كتاب «سدره ربه» أو «كنزه ربه» الذي سبقت الإشارة إليه، أما «سدره نمشوتو» فيبدو أن المقصود به كتاب «سدره أدنشماثه» أي كتاب التعميد وسر المعمودية المقدس. حول كتب الصابئة الدينية انظر: الليدي داروور؛ المصدر السابق، ص ٦٥ ـ ٧٥؛ رشدي عليان، المصدر السابق، ص١٢٢ ـ ١٢٥. المترجم.

(2) Demis de Rivoyer. Op. cit. p. 281

بذاته وهو السبب الأول لكل شيء ومصدر النور والحياة. لكنه بالرغم من ذلك لم يخلق الكون مباشرة وإنما خلق ٣٦٠ مخلوقاً من المخلوقات العليا فقط وجد كل منها بذاته بكلمة من مانه ربه. وأول من خلق من هؤلاء هو مار ادربوثا الذي أصبح رئيساً للآخرين ولهذا فإن الصابئة يبدأون صلاتهم دائماً بالدعاء له.

إذن هذه الكائنات العليا ليست آلهة ولكنها تعتبر مع ذلك أعلى من الملائكة، وجميعهم متزوجون من كائنات مؤنثة تشبههم ولهم أطفال يولدون بشكل إعجازي. وبما أن مانه ربه أعطى كلاً منهم إحدى ممالك ألمة أد نهورا أي الجنة ليحكمها فإننا سوف نسميهم في حديثنا اللاحق ملوك الجنة وجميعهم يخضعون في تدرج دقيق لمار أدربوثا وبالإمكان تشبيه علاقتهم به بعلاقة الأمراء التابعين بسيدهم [1]. فهم يتسلمون منه الهبات على شكل سطوة جديدة يمنحهم إياها وعليهم بالمقابل ان يخضعوا له خضوعاً تأماً وأن ينفذوا كل ما يكلفهم به وأن يأتوه عند أول دعوة منه وإلّا فإنه سيفرض على من يخرج عن طاعته عقاباً شديداً وذلك بأن يجعل الأنهار والنباتات تجف في مملكته ويهلك أفراد عائلته.

وقصارى القول أن الكون عند الصابئة يذكرنا بنظام الحاكم في

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى مؤسسة التبعية التي كانت إحدى مكونات الإقطاع الأوروبي الأساسية في القرون الوسطى وهي عبارة عن علاقة شخصية بين سيد وتابع كان أساسها في البداية عسكرياً حيث يتعهد التابع بالدفاع عن سيده عسكرياً مقابل حماية السيد له من غوائل الدهر ... وتعتمد التبعية الاقطاعية على واجبين أساسيين يؤديهما التابع لسيده هما الولاء والإخلاص.

للتفصيل حول هذه الموضوع انظر: عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، ٤٧٦ ـ ١٥٠٠، بيروت، صيدا، ١٩٦٧، ص١٢٠ ـ ١٢٣. المترجم.

الشرق القديم، حيث لا يقوم مانه ربه بنفسه بأي أمر شأنه في ذلك شأن أي ملك كلداني، وإنما فوض مديراً خاصاً هو مار أدربوثا بإدارة مملكته جميعها بعد أن جعله رئيساً مفوضاً من قبله على جميع الملوك الخاضعين له. ويحتل نظام التدرج بحسب الأهمية المركز الأول بين هؤلاء الملوك كما أن كلاً منهم لا يحكم مملكته بنفسه وإنما بفعل ذلك بواسطة مساعد له أو شخص موثوق يفوضه بذلك.

ويحتل الملائكة الذين يقومون بمهمة الخدم المرتبة التالية بعد ملوك الجنة وهم ينقسمون الى عدة طوائف تبعاً لنوع الخدمة التي يؤدونها، فبعضهم له أيدي تشبه الجاروف وهم مخصصون لشق الأنهار وحفر البحيرات وآخرون مهمتهم حراسة الريح وفريق ثالث ينفذ فقط ما يكلف به مثل ملك الموت ساوربيل الذي يرسل لقبض أرواح الأشخاص الذين انتهى أجلهم في الحياة الدنيا.

أما الملائكة الشريرون أو الشياطين فإنهم موجودن عند الصابئة أيضاً حيث يتمثلون في الملوخونات [1] الذين يقومون بتعذيب المذنبين في جهنم أو الذين يحاولون غواية الناس، أو الذي يتسببون في أي أذى أو فاجعة تصيب البشر. وهذا النوع الأخير من الشياطين يعيش على الأرض مختفياً في الخرائب والزوايا المظلمة، وهم في ذلك مثل «الجن» لدى الشرقيين وجميع هؤلاء الملوخونات يتميزون بمظهر غير اعتيادي فبعضهم له رؤوس وأطراف حيوانات متوحشة وبعضهم الآخر تكون عيونهم طولية بينما يمتلك فريق ثالث منهم أجنحة، ويؤلف ما يسمى بـ «كرسة سايتة»

---

(١) الملوخون هو رمز لقوة قاسية متعطشة لكثير من الدماء والضحايا البشرية. المترجم.

المرحلة الانتقالية بين هؤلاء والبشر، حيث يكون نصفهم بشر ونصفهم الآخر حيوان ويتميزون بالقسوة الشديدة إلى درجة بحيث ان من يتقمصونه لا يمكن أن تشفيه لا صلوات ولا تعاويذ عدد كبير من الكهنة [1].

وليس بالإمكان أن تعتبر جنة الصابئة أو ألمة أد نهورا أي عالم النور جنة بالمعنى المسيحي لهذه الكلمة لسبب بسيط هو إنها على غرار الممالك الأرضية، فالواقع إن جميع الممالك الثلاثمائة والستين التي يتألف منها أملة أد نهورا لها نباتاتها وأنهارها ومدنها، وفيها يمكن أن يوجد، بإرادة ما أدربوثا الموت والحزن وذلك على الرغم من أن هذا المكان هو محل للنعيم الدائم. وسكان جنة الصابئة مخلوقات غاية في الكمال نظراً لأنه لا يذهب إلى هناك إلا الصابئة الصالحون ولكن ذلك لا يمنعهم من التعرض لنواحي الضعف عند البشر كالجزع والفضول والخوف وما أشبه. ومانه ربه لا يسكن في أملة أد نهورا وإنما يبعد مسكنه عن مقر الصالحين بمسافة طويلة جداً إلى درجة بحيث إنه عندما رغب ملوك الجنة الثلاثمائة والستون في أن يذهبوا إليه تحتم على مار ادربوثا أن يصلي لكي يمنحوا قوة خاصة تمكنهم من قطع هذه المسافة. ومع ذلك فإن هذه الصلاة لم تكف لقطع الطريق كله.

ويسمى العالم السماوي الثاني الـمـة أد هشوخة وهو يشابه الأول في تنظيمه ولكنه أقل منه أهمية فهو المكان الذي يعيش فيه بعد الموت أولئك الصابئون بعد أن يكونوا قد كفروا عن خطاياهم في جهنم ويعيش فيه كذلك كل من هو من غير الصابئة ممن عاش حياة صالحة، هذا مع العلم بأن سكان هذا العالم يفتقدون النعيم المطلق الذي يتميز به ألمة أد نهورا.

---

(1) M. N. Siouffi. Op. cit. p. 42 FF

وكل من هذين العالمين أزلي لا يفنى كما يحدث بالنسبة للعالمين الفانيين الآخرين.

وهذان الأخيران يوجدان على الأرض وهما متساويان من حيث السعة ولكن الأول منهما عالم غير منظور وغير معروف ويسمى مشوني كشطة أي البلد العظيم وعلاقته بالثاني أي بالعالم المنظور كعلاقة اليد اليمنى باليسرى. سكان الأول هم من أتباع الدين الصابئي وهم يشبهون سكان الأرض في كل شيء ولكنهم لا يأثمون ولهذا فإنهم يذهبون بعد الموت ال ألمة أد نهورا مباشرة كما أنهم لا يحلقون شعرهم أبداً كما إن جميع رغباتهم تتحقق بمجرد أن يتفوهوا بعبارة معينة تعلموها من السماء وهم لا يعترفون بالملكية الخاصة بل يمتلكون الأشياء على أساس مشاعي.

ويتحتم على الصابئة الذين يعيشون مثل بقية البشر في العالم الفاني الثاني المعروف باسم «اوردو ــ تيفل» أي «الأرض المكتسبة» (١) أن يمروا من خلال جهنم «مطراثة» قبل أن يدخلوا الجنة التي يفصلها عن جهنم نهر «نهره دخشاشة».

ولا يعرف كيف خلق العالمان السماويان الأزليان. أما خلق العالمين الفانيين فقد حدث على ما تذكر مآثر الصابئة على النحو التالية :

فوض مانه ربه مار ادربوثا بخلقهما فعمد هذا وفقاً للأوامر التي تسلمها إلى إرسال أحد ملوك الجنة هو هيبل زيوا إلى العالم السماوي الثاني المة أد هشوخة لكي يأتي بروهية (٢) وهي زوجة شخص يدعى

---

(١) يبدوا أن المقصود هو « أره تيبل » أي العالم السفلي. المترجم.

(٢) يقصد الروهة وهي نفس الحياة المادية وأبناؤها السبعة هم الكواكب السبعة. انظر: الليدي دراوور: المصدر السابق: ص٤٦، ٦٢، ٨٨، ولكننا سنستمر على كتابتها بالشكل الذي أورده المؤلف. المترجم.

كارافيون. وبعد سفر طويل ومتعب استغرق مئات السنين وصل هيبل زيوا أخيراً إلى المكان الذي تقيم فيه روهية غير إنه تحتم عليه أن يجتاز عدداً كبيراً من المحن وأن يلجأ حتى إلى الحيلة بأن يتخذ شكل أخي روهية لكي ينتزعها من بيت والديها ويجلبها إلى ألمة أد نهورا. وبعد إثني عشر يوماً من وصولها ولدت روهية مولوداً ذكراً هو أورم الذي أصبح عملاقاً حقيقياً منذ أن بلغ عمره السنتين والنصف. عند ذلك بدأ هيبل زيوا بتكوين العوالم السبعة فأخذ حفنة من تراب الجنة ورماها في المحيط اللامتناهي الذي كان قائماً في المحل الذي يوجد فيه حالياً كوكبنا الأرضي، فتكونت من ذلك التراب أرض صلبة كالحديد وضع عليها أور [١] الذي أقيمت على ظهره العوالم الستة الأخرى التي خلقت بنفس الأسلوب من ستة حفنات أحدها من الحديد والأخرى من النحاس والثالثة من الزئبق والرابعة من الرصاص والخامسة من الفضة والسادسة من الذهب.

ثم خلقت بعد ذلك السماوات السبع وأرسيت عليها الكواكب التي ما هي في الواقع إلّا أولاد روهية ولدوا لها بعد أن سقاها هيبل زيوا «ماء الحياة». وفي الوقت نفسه قام الملائكة بطلب من هيبل زيوا بحفر أربعة أنهار عظام هي الفرات النوراني ودجلة المتألق وخاشتر العظيم وشارانك [٢] التي كانت مياهها عذبة صالحة للشرب. وكان آخر ما خلق هو «المطراثة» السبع التي لم تكن إلّا جهنم التي تقع في أقصى الأرض.

وقد خلق مشوني كشطة أي العالم الفاني غير المنظور بنفس الطريقة التي خلق بها عالمنا الأرضي مع فارق واحد هو أنه من أجل إسكان الأول جلب زوجين من الجنة في حين سكن في الثاني في بداية الأمر آدم كاورة

---

(١) أور هو تنين الأرض الهائل. المترجم.

(٢) الأنهار هي دجلة والفرات والكرخة والكارون ـ المترجم.

قدمايي، أي أدم الإنسان القديم وزوجته حواء المخلوقين من التراب وذريتهما، وفي الوقت الذي ينحدر فيه جميع البشر من آدم وحواء فإن الصابئة كانوا نتيجة مباشرة لزواج آدم كاوره من بنت آدم كسيه أي آدم غير المنظور الذي يعيش في مشوني كشطة.

وبعد أن انتهى هيبل زيوا من خلق العالم وإسكانه، استقر بأمر من مار أدربوثا للعيش على حدو المطراثة أي جهنم وفوض بثاهيل وهو أحد ملوك الجنة الثلاثمائة والستين الأشراف على هذه الأخيرة أي جهنم. وظهر أن بثاهيل كان حاكماً صارماً فهو لم يسمح لأي روح بدخول الجنة وقد أدى إلى أن تمتلئ جهنم بشكل تام لذلك بادر هيبل زيوا فأرسل ملك الموت ساوربيل إلى مشوني كشطة (العالم الفاني غير المنظور) لكي يقبض روح شيتهل [1] الصالح لتكون مثلاً يحتذى به لأرواح الآثمين. ولكن ذلك لم يؤدي إلى نتيجة الأمر الذي حتم على مار ادربوثا أن يستدعي هيبل زيوا ويعين بدلاً منه ملكاً آخر ملوك الجنة هو أواتر [2] الذي كان أكثر تساهلاً

---

(١) يبدو أن المقصود هنا هو شيتل الذي هو «أنقى روح بشري» والذي توضع روحه في كفة الميزان في حين توضع في الكفة الأخرى روح الشخص المتوفى بعد أن يكون قد مرت بالمطهر «فإذا خفت كفة الروح عن كفة شيتيل أرسلت لإعادة تطهيرها وإن لم يكن كذلك دخلت في سفينة نور تبحر في نهر تحيط بعالم الأنوار إلى المواطن الإلهية حيث يقيم ذووه الذين توفوا منذ أقدم الأزمان».

أنظر: الليدي دراووه، المصدر السابق، ص٢٨٢. المترجم.

(٢) أباثر أو أواتر موزانيا ملاك النجم القطبي الذي يتحكم بالموازين التي توزن بها الأرواح، وهو غير «أباثر راما» لأن هذا هو لقب هيبل زيوا.

أنظر: الليدي دراووه، المصدر السابق، ص٢٨٢، ١٥٩. المترجم.

فهو مثلاً لم يكن يري بأن من الواجب فرض العقاب على الشخص ذو الأفكار الآثمة طالما إنه لم ينفذ هذه الأفكار.

يتحتم على روح كل صابئي من سكنة كوكبنا الأرضي أن تمثل بعد الموت أمام أواثر بعد أن تمر قبل ذلک من خلال جهنم. ويؤدي إلى هذه الأخيرة طريقان أحدهما للصالحين والآخر للمذنبين، يتطلب قطع كل منهما مدة مقدارها خمسة وسبعون يوماً. وتقطع أرواح الصالحين هذه المسافة دون مساعدة من أحد في حين يجر الروح المثقلة بالذنوب خادمان من خدم الجحيم. ويعمل أواثر على محاسبة كل الأرواح التي تمثل أمامه بمجرد أن تصل فالصابئة لا يؤمنون بيوم الحساب. ويسمح للأرواح التي تظهر نتيجة الحساب إنها نقية من الذنوب بالذهاب رأساً إلى مقر الصالحين ألمة أد نهورا بعد أن تأخذ من أواثر العلامة الخاصة الضرورية لعبور نهر «نهره دخشاشه» الذي يفصل الجنة عن النار. أما الأرواح المذنبة يحكم عليها بعقوبات مختلفة هي عبارة عن عدة أنواع من العذاب يعرضونها له تحت أشراف بثاهيل.

ويعتقد الصابئة بوجود خمسة أنواع أساسية من العذاب هي :

١ ـــ يوضع الزناة في قصبة الأور الهوائية حيث يتعرضون للحرارة الشديدة أثناء زفير الأور وللبرد القارص عند شهيقه.

٢ ــ يفرض على اللصوص عقاب يعرف باسم نوره دياقده أي نار جهنم ويتلخص في ربط أرواحهم في الأقسام الداخلية من مواقد جهنم.

٣ ـــ يكبل شهود الزور بالقيود ويوضعون في الحبس إلى أن يكفروا عن ذنوبهم تماماً.

٤ ـــ يوضع التجار الذين يخدعون زملاءهم بين صخرتين تقتربان وتبتعدان عن بعضهما بالتعاقب وبذلک تسحقان روح المذنب ثم تتركانها

وهكذا.

٥ ــ النوع الخامس من العذاب مخصص للذين يكنون الضغينة للقريب وخصوصاً لأولئك الذين يصطلحون مع خصومهم في الظاهر ويبحثون في الخفاء عن وسيلة للإضرار بهم ويتلخص هذا النوع من العذاب بأن تربط أعناق المذنبين بسلاسل متدلية من الأعلى تضطرهم إلى الوقوف بشكل دائم في موضع واحد وفي موضع مشدود [1].

وهناك إلى جانب هذه الأنواع الأساسية أنواع أخرى من العقاب للذين يرتكبون آثاماً صغيرة فالجواسيس والأشخاص الذين يلفقون عمداً دعوى كاذبة وكذلك أولئك الذين يوقعون الأبرياء بدسائسهم تحت طائلة القضاء يلبسون ثياباً من الجليد، والفضوليون وكذلك الذين يتسمعون من وراء الأبواب تثقب آذانهم بسلك متوهج، والكذابون يفرض عليهم أن يحملوا بأيديهم جمراً يلسعهم بحرارته ولكنه لا يحرق. وهناك العديد من الذنوب الأخرى الأقل مرتبة ولكل منها أيضاً عقاب معلوم.

ولكن لكل عذاب من جهنم نهايته، فكل روح آثمة تبقى في الجحيم مدة محددة تطول أو تقصر تبعاً لعدد وأهمية الذنوب التي ارتكبتها. وهكذا لا يفرض العذاب الأبدي إلّا على أرواح القتلة وأرواح الرجال الذين يقيمون علاقات مع فتيات دون القيام بطقوس الزواج المقررة وكذلك أرواح الصابئة الذين يلاحقون شخصاً من أبناء دينهم فيجبرونه بذلك على الانتقال إلى دين آخر.

وموقع جهنم يحدده النجم القطبي الذي هو مستقر لأواثر لذلك فإن الصابئة يولون أوجههم أثناء الصلاة شطر هذا النجم متصورين أنهم يرفعون

(1) (M. N. Siouffi: op. cit. p. 126 ff)

صلاتهم لأواثر نفسه. ويرفض الصابئة الحاليون، مع ذلك، بغضب اتهامهم بأنهم من عبدة النجوم ويؤكدون بأن نجوم السماء تلعب في حياتهم نفس الدور الذي تلعبه تقريباً في حياة شعوب الشرق الأخرى فهي تستخدم عند قراءة طالع المواليد الجدد أو عند تحديد الأيام أو الساعات المباركة للبدء بإنجاز أية قضية هامة كالسفر أو بناء بيت أو ما أشبه.

ويحصي الصابئة إثني عشر كوكباً منها ـ ومنها الشمس والقمر ـ تعتبر عليا والخمسة الأخرى دنيا. وجميعها تعتبر كما ذكرنا أعلاه أبناء لروهية وهي كائنات حية لا تفنى عند فناء العالم كما يحصل بالنسبة للنجوم التي هي أجسام خالية من الروح يمكن أن تتحول إلى لا شيء، وإنما تنتقل إلى أد هشوخة. والكواكب خاضعة لمار ادربونا، وهي بدورها تسيطر على أبراج الفلك الإثني عشر وعلى النجوم وعلى ظواهر طبيعية معينة كالعواصف والأمطار والزلازل وما أشبه، إلى جانب تأثيرها على الحوادث الأرضية كالحروب والمجاعات والأوبئة وما شابه ذلك من الكوارث. ولهذا فإن الصابئة يعتبرون الكواكب منفذة لما تقدره العناية الألهية ورغم إنهم لا يرتفعون بهذه الاجسام السماوية إلى مصاف الألهة إلّا إنهم يكنون لها قدراً معيناً من التقديس.

وتوجد في ديانة الصابئة إلى جانب هذه المعتقدات التي تكونت بتأثير الأفكار الوثنية والمفاهيم الشرقية نتف من التعاليم المسيحية شوهها التصور الخاطئ لروح المسيح إلى درجة بحيث لم يعد بالإمكان التعرف عليها. فمثلاً يوجد لدي الصابئة، إلى جانب الأسطورة التي سبق ذكرها عن حياة وأعمال يوحنا المعمدان، معلومات عن عيسى المسيح أيضاً. أنهم لا يقرون بأنه ابن الله ويضعونه في مرتبة أدنى من يحيى. كذلك تظهر سيرة حياة المسيح كما تذكرها الأساطير الصابئية إلى أي مدى هم شوهوا

شخصية هذا المنقذ.

لقد حدثت ولادة المسيح الذي يعتبره الصابئة ابن خالة يحيى على أساس أن مريم العذراء على ما تذكر مآثرهم هي أخت لا ينشفي بشكل يشبه تماماً الشكل الذي حدثت فيه ولادة يوحنا المعمدان، الفرق الوحيد هو أن الأب السماوي ليشو مشبهة (عيسى المسيح) لم يكن واحداً من ملوك الجنة الثلاثمائة والستين وإنما هو حاكم لإحدى الممالك التي تأتي أدنى من العالم السماوي ألمة أد هشوخة وهو شخص يدعى روهة دخشابة [1]. وقد فعل هذا الأخير كما فعل والد يحيى منداهيي فأعطى لمريم العذراء ماء عجيباً شربته فولدت ولداً هو يشو الذي بدأ بمجرد أن ظهر إلى العالم بالكلام والمحاججة كما يفعل الشخص البالغ. ونقل عيسى بعد أن بلغ عمره سنتين إلى الجنة مثل يحيى وهناك أطعمه من حلماتها شجرة مخزيون التي تدر الحليب وهناك أيضاً درس كل المعارف والعلوم. وعندما بلغ عمرة عشرة سنوات أتى به أبوه السماوي إلى يحيى الذي عمده في نهر الأردن. وما أن خرج عيسى المسيح من الماء حتى هبط إليه أبوه السماوي روهة تفجة بهيئة حمامة تحولت إلى صليب بعد أن وصلت إلى الأرض وكان ذلك إشارة إلى الطريقة التي سيموت بها يشو مشيهه ثم أوصى روهة تقجة ابنه أن يعمد أتباعه لا في النهر أو في مياه جارية كما يفعل يحيى والصابئة وإنما بالطريقة التي يتبعها المسيحيون منذ ذلك الوقت. وكان ذلك على ما يراه الصابئة بداية للانشقاق بينهم وبين المسيحين.

---

(١) اللفظ الصحيح هو «روهة تقجة» وهو ما سنستخدمه من الآن فصاعداً. المترجم.

وقد صلب اليهود يشو فيما بعد لكن الصابئة يؤكدون بأن روحه كانت قد فارقت جسده قبل أن يصلب لذا فإن الذي سمر إلى الصليب لم يكن إلّا جثة خالية من الحياة. وكانت آخر الكلمات التي وجهها يشو إلى أتباعه قبل أن يموت هي الطلب منهم أن لا ينتقموا له لأنه سينتقم لنفسه من اليهود بنفسه في يوم القيامة [1].

أما عن قيامة عيسى المسيح هذه فتذكر المآثر الصابئية بأن المسيح يظهر على الأرض قبل نهاية العالم بفترة طويلة ويصبح السيد الوحيد للكون فيقضي على جميع الأديان ويستبدلها بالمسيحية. ويبقى الصابئة وحدهم مخلصين لمعتقدهم رغم أنهم يعترفون بسلطة يشو الزمنية. وسوف يسعى المسيح لأن يلتقي مع الصابئة ويحدث اللقاء أخيراً في مدينة كبيرة تحيطها أحراج القصب أي في العمارة لأن هذه المدينة ينطبق عليها هذا الوصف أكثر مما ينطبق على أية مدينة أخرى. وبعد أن يصل المسيح إلى هناك يطلب من الصابئة اعتناق المسيحية لكنهم يرفضون ولا يريدون التعميد على الطريقة المسيحية، فيهددهم بقتل جميع الصابئة لكنهم يشيرون له إلى موضع في الكتاب يذكر فيه أن أي صابئي يموت بيدي عيسى المسيح عاري الرأس يتجاوز جهنم ويذهب مباشرة إلى الجنة، لذا يكشف الصابئة جميعهم عن رؤوسهم ويمدون أعناقهم مستعدين لاستقبال الموت. وبعد أن يرى المسيح قوة إيمانهم يتركهم بسلام.

بعد هذه الحوادث يختفي جميع الصابئة من على وجه الأرض ويفقد الماء لونه الطبيعي ويتلون بجميع الألوان المعروفة ويفقد الناس

---

(1) (M.N.Siouffi.op.cit.163 ff.)

الذين يستعملون هذا الماء قدرتهم على التناسل فيتطلب الأمر تدخل أحد ملوك الجنة وهو باور زيوا لبعث الصابئة إلى الحياة أخرى، حيث يهبط من أجل ذلك إلى الأحواز يرافقه جميع الصابئة العزاب الموجودين في الجنة والنار فيزوجهم من ساكنات مشوني كشطة (العالم الأرضي غير المنظور) فيصبح لون الماء قاتماً مرة أخرى ويفقد خاصيته المميتة حتى أن الصابئة يتكاثرون بشكل كبير خلال فترة قصيرة. غير إن هذه البحبوبة من العيش لا تستمر طويلاً حيث لا يلبث الماء أن يفسد مرة أخرى فيفقد الصابئة قدرتهم على التناسل ويصل بأسهم إلى درجة بحيث يصبح الواحد منهم مستعداً لأن يتخلى دون تفكير عن زوجته للآخر على أمل أن يكون له خلف.

وتكون أيام هذا الياس علامة على حلول نهاية العالم التي تكون على النحو التالي: يأمر مار اربوثا كلاً من أواثر وبثاهيل أن يعودا إلى مملكتيهما في ألمة أد نهورا (الجنة) بعد أن يصطحبا معهما جميع الأرواح التي مازالت باقية في المطراثة (جهنم) التي تلغى اعتباراً من تلك اللحظة. بعد ذلك يطلق هيبل زيوا الرياح الأربعة فتدمر كل شيء يعترضها وترفع الشر في الهواء حيث تغادر أرواحهم أجسادهم الفانية وتتوجه إلى ألمة نهورا مباشرة. وفي نفس الوقت الذي تجري فيه هذه الحوادث تنتقل الشمس والمقر والكواكب إلى أماكن أخرى وتسقط النجوم من مواضعها وتفنى وتطوى السماوات السبعة وتدخل في حلق الأور الذي ينتفض بأمر من هيبل زيوا فيؤدي به ذلك إلى أن ينشطر إلى اثنين. أما الأراضي السبع فتعود إلى شكلها الأول أي الماء.

بعد أن انتهينا من الأسفار الدينية الخاصة بالصابئة ومن أساطيرهم الدينية حول أصل الآلهة ونظام الكون الفريد في نوعه ننتقل إلى الناحية

الطقوسية من الديانة الصابئة، وسنبدأ ذلك بالحديث عن رجال الدين الذين يلعبون في حياة الصابئة دوراً غاية في الأهمية.

إن الأهمية التي يتمتع بها رجال الدين الصابئة يحتمها أن الصابئة لا يرون فيهم مجرد رعاة ومشردين وإنما يعتبرونهم أيضاً وسطاء بينهم وبين سكنة السماء. ولهذا يتمتع رجال الدين عند الصابئة بنفوذ واحترام كبيرين. فهذه الطائفة لا ترى أن من الواجب عليها أن تعيل رؤساءها الروحيين فحسب وإنما أن تحيطهم أيضاً بكل أسباب الراحة التي تليق بمقامهم. ولهذا فكل صابئي يقوم إلى جانب ما يدفعه مقابل الطقوس التي يطلبها. يمنح رجال الدين هدايا اختيارية تصل في مجملها إلى خمس دخله الصافي.

ورجال الدين الصابئة على ثلاث مراتب هي: الشكندة أي الدياكون والترميدة، أي القس والكنزفرة أي الأسقف [1]. والطريق إلى منصب القس يكاد يكون مسدوداً تماماً بالنسبة للعلمانيين فإلى جانب النفقات الكبيرة التي يتطلبها الإعداد لهذا المنصب الديني والذي يستمر لمدة اثني عشر سنة كاملة يتحتم على المرشح أن يبرهن أيضاً على نقاء وشرعية أصله إلى الجيل الثالث على الأقل، كما إن من الشرط الحتمية الأخرى هو أن يكون الشخص خالياً من أي عيب جسماني مهما كان حتى ولو كان ذلك أصبع زائد في الرجل، ولذا فإن من يرغب في أن يصبح رجل ديني يتعرض لفحص مسبق من جانب القساوسة. ولهذا فليس هناك ما يدهش مع وجود مثل هذه القيود، في أن تحتكر المناصب الدينية من قبل بضعة عوائل تنتقل

(١) هناك مرتبة أعلى من مرتبة الكنزفرة هي مرتبة «ريش أمة»، لكن أحد من رجال الدين الصابئة لم يصل إلى هذه المرتبة منذ فترة طويلة. المترجم.

فيها من الأب إلى الإبن ولا ترغب هذه العوائل في التخلي عن الفوائد العديدة التي يوفرها لها وضعها الحافل بالامتيازات. أما عن منصب الدياكون أي الشكندة فيختارون له عادة اولاد رجال الدين وهم في سن السابعة حيث يسلمونهم للقسس لكي يعلموهم ويظلّوا عندهم إلى أن يبلغوا التاسعة عشر من العمر يمنح بعدها المرشح رتبة دياكون حيث يساعد القس أو الأسقف في أداء الخدمة الدينية ويبقى في هذه المرتبة إلى أن يكرس قساً أي ترميدة وعليه لكي يصل إلى ذلك أن يحصل على موافقة الرعية التي يمكن أن تعترض على ترشيحه فيفقد بذلك الحق في الترقية.

والتكريس نفسه له طابع خاص وهو يستمر عادة من شهرين إلى بضعة أشهر يجري خلالها القضاء على نوازع الجسد. عند البدء بالتكريس يأمر القس ببناء كوخين متقاربين من القصب يقضي الشخص الذي يراد تكريسه في أحدهما ليلة كاملة وهو يصلي حيث يمنعه الأشخاص الذين يعينون لحراسته من النوم. وفي اليوم التالي ينقل الممتحن إلى الكوخ الثاني في حين يحرق الكوخ الأول إشارة إلى أن القس الذي تخلى عن الدنيا لن يستطيع بعد الآن العودة إليها. ويقضي الترميدة (القس) المقبل ستة أيام وستّ ليالٍ متوالية دون نوم حيث يقوم القسس الذين يرافقونه بمراقبة سيئ الحظ هذا ووخزه بالدبابيس أو بالمسامير كلما يبدأ النعاس بالتغلب عليه. ويتحتم على الشخص الذي يجري تكريسه في خلال هذا الأسبوع أن يتبرع لشؤون الخير بالقدر الذي تسمح به حالته.

وتجري للشخص المراد تكريسه في اليوم السابع الذي رتب الأمر بحيث يكون يوم أحد، مراسيم الدفن ليكون ذلك دليلاً على موته الحقيقي بالنسبة للدنيا ثم يجري له أربعة قسس مراسيم التعميد في النهر، وعليه في

خلال الستين يوماً التي تلي ذلك أن يغطس في النهر ثلاث مرات في اليوم وأن لا يخلع ملابسه المبتلة قبل أن يؤدي الصلاة المقررة وذلك بغض النظر عن حالة الجو ومهما كان الفصل السنوي. ويتألف طعامه أثناء فترة التكريس من لحم الخروف والطيور والخبز الذي عليه أن يعدّه بنفسه وأن يغطسه في الماء سبع مرات قبل تناوله وتزداد التجربة صعوبة بسبب من أن هذه الأيام الستين يمكن أن تمدد فتصبح ثلاث أو أربعة أو حتى خمسة أشهر وذلك لأنهم لا يحسبون إلّا الأيام التي لم يدنسها شيء حتى لو لم يكن الخاضع للتجربة نفسه السبب في هذا التدنيس إذ يكفي أن يكون الفاعل زوجته أو أمه، كذلك تحذف أيام الإصابة بالأمراض من الحساب. وبعد مرور ستين يوماً خالية من الدنس يعمد الشخص المراد تكريسه في النهر مع زوجته وأمه إذا كان له زوجة وأم. ويقوم في اليوم التالي بتوزيع صدقة جديدة فيصبح اعتباراً من تلك اللحظة ترميدة أي قساً حقيقياً بإمكانه أن يقوم للآخرين بطقس التعميد وهو من واحد من أهم الطقوس في ديانة الصابئة.

أما الصعوبات والمحن التي يصادفها الشخص المراد تكريسه أسقفاً وهو شخص يختاره القسس من بين صفوفهم فتكاد تكون أكثر من ذلك. على المنتخب قبل كل شيء أن يقرأ المسخثة فهو قداس على روح الميت سنفصّل الحديث عنه فيما بعد. ثم يجري تعميده في النهر طيلة أيام الأحد الثلاثة التالية. وعلى المنتخب في أثناء ذلك أن يظهر مدى علمه ومن أجل ذلك يجبرونه بعدد من الوسائل على أن يقرأ أمام مجمع القسس وبصوت عالٍ الكتب الرئيسية الثلاث المقدسة عند الصابئة وأن يفسر المواضع الصعبة والغامضة فيها.

بعد هذا الامتحان الأولي يحل الجزء الأصعب من التجربة وهو إلزام

القس الذي تقرر أن يكون أسقفاً قبل أن يتسلم الرتبة التي يريدها أن يكون حاضراً عند وفاة أحد الصابئة رجلاً كان أم أمرأة على أن يكون صالحاً عاش حياة لا غبار عليها باعتراف الجميع. لكن إيجاد مثل هذا الشخص الصالح ليس أمراً ممكناً على الدوام في حين أن تكريس الأسقف لا يمكن أن يجري بدون ذلك لأن على الشخص الذي يجري تكريسه أن يهمس في أُذن المحتضر بكلمات معينة لينقلها عنه إلى أواثر، هذا فضلاً عن أنه ينبغي عليه قبل أن تجري المصادقة نهائياً على الرتبة أن يبارك زواج قسٍ يقوم هو بدفع نصف الصداق لزوجته. وينتهي التكريس يقوم بامتحان الأسقف الجديد خلاله بتعميد جميع القسس في النهر فيصبح من حقه بعد ذلك عقد الزواج الذي يعتبر من امتيازات الكنزفرة. ورجال الدين الصابئة لا تشترط فيهم العزوبة فكل رجل دين بإمكانه أن يتزوج مرات تصل إلى الثلاث فيما إذا كانت زوجتاه الأولى والثانية قد توفيتا قبل الأوان [1]. ومما يميّز رجال الدين الصابئة أيضاً امتناع الأساقفة والقسس عن تناول الطعام مع الغير حتى لو كانوا من أقربائهم لأن لمس الشخص العلماني لطعامهم يدنسه. ولا ينطبق ذلك على الدياكون. وينطبق ذلك أيضاً على مياه الشرب التي يجلبها القسس والأساقفة من النهر بأنفسهم بعد أن يغسلوا فيه الجرة ما لا يقل عن سبع مرات. وعلى العموم فإن كل شيء يعود إليهم يتدنس عندما يمسه الغير ولذا يجب أن يغسل في النهر أو في مياه جارية على الأقل [2].

---

(١) الواقع أن الجمع بين أمرأتين فأكثر ليس محرماً عند الصابئة وإنما لم يكن مستحباً فحسب، فكثير منهم بما في ذلك رجال الدين يجمعون بين أكثر من امرأة: انظر: الليدي ادراوور، المصدر السابق: ص١١٧. المترجم.

(2) (T.M. lycklama a nijeholt: op.cit.p.231 ff)

تتضح مما ذكرنا الأهمية الكبرى التي يرتديها التعميد والغسل في حياة الصابئة لذا يفضل اتباع هذه الطائفة السكن على ضفاف الأنهر أو بالقرب من المياه الجارية.

لكن التعميد لدى الصابئة لا يطابق المفهوم المسيحي القائل: «تعميد واحد يمحو الذنوب» فهو يجري عندهم مرات لا تحصى ولأي سبب كان فيجري مثلاً في كل يوم أحد أو يوم عيد وعند العودة من سفر إلى بلد إسلامي أو مسيحي وبعد لمس الميت، وعندما يتعرض الشخص لعضة كلب أو حية أو حيوان متوحش أو عندما يتذوق لحم حيوان لم يذبحه الصابئة أو يحرم أكله عندهم وهكذا لكن الحالات الأساسية التي يجري فيها التعميد هي :

١) التعميد الذي يجري للوليد عندما يبلغ السنة الأولى من العمر لأنه يمكن للوليد الجديد من الانضمام إلى الصابئة المؤمنين.

٢) التعميد الذي يجري للعريس والعروسة عند زواجهما. وليس بمقدور أي صابئي أن يتجنب هذين العمادين في حين يسمح باستبدال الأنواع الأخرى من التعميد بمجرد الاغتسال.

ويجري تعميد المواليد على النحو التالي: يذهب القس في يوم الأحد أو في يوم أحد أيام الأعياد إلى ضفة النهر وهو في كامل حلّته التي تسمّى رسته ومعه الوالد الذي يراد تعميده وهناك تقرأ الصلاة ويلبس رسته أيضاً. ثم يسأل القس أم الولد عن اسم وليدها فتسلمه ورقة صغيرة كان القس نفسه قد كتب عليها مسبقاً الاسم الذي أظهرت الحسابات التنجيمية بأنه أسعد الأسماء. وبعد أن يقرأ الترميدة «القس» صلاة قصيرة يضع في اصبع الطفل الذي يحمله الدياكون على يديه ــ فالدياكون يكون أثناء التعميد بمثابة الإشبين ــ حلقة من أغصان الأس. بعد ذلك يدخل القس

والـدياكون والطفـل ثلاثـتهم إلى النهـر ويخوضـون في المـاء حـتى الركـب دون أن يرفعـوا أذيـال ملابسـهم ثم يقـوم القـس بـرش الطفـل ثـلاث مـرات بمـاء يغترفـه مـن النهـر بحفناتـه مـردداً عبـارة «أنـت تتعمـد عمـاد الثلاثـة (ثم يهمـس مـع نفسـه) مانـه ربـه، منـداهي، يحي يوحنـا» وعنـد خروجهمـا مـن المـاء ينـزع القـس حلقـة الأس مـن أصـبع الطفـل ويضـعه علـى رأسـه ثم يبـدا بعمليـة دهنـه بالزيت المعطر.

يركـع القـس في البدايـة علـى ركبتيـه ويرمـي بعـض البخـور في نـار جـرى إشـعالها في موقـد صـغير متنقـل ويمسـك الـدياكون الطفـل فـوق النـار بحيـث يصـيبه دخـان البخـور. ثم يسـكب الترميـدة بعـد ذلـك في راحـة يـده اليسـرى بضـع قطـرات مـن زيـت السمسـم المعـد خصيصـاً لطقـس التعميـد يغمـس فيهـا أطـراف يـده اليمـنى ثم يمررهـا علـى جبـين الطفـل مـن أحـد الصـدغين إلى الأخـر مـردداً عبـارة: «خـتم الحـي» ثم يمررهـا علـى رقبتـه ويقـول: «اسـم الحـي واسـم منـداد هيـي منطوقـان عليـك». بعـد ذلـك يـدهن بالطريقـة نفسـها بطـن الوليـد ثم يمسـح يديـه في الختـام بأيـدي الطفـل ويقـرأ صـلاة الختـام الـتي يغطـي الـدياكون في أثنائهـا وجـه الطفـل بيديـه أو بيـدي الطفـل نفسـه. وبعـد هـذا كلـه يقبِّـل القـس قلنسـوته سـتين مـرة، أمـا إذا كـان مـن يقـوم بالتعميـد أسـقفاً فإنـه يقبـل عصـاه ويرفـع الـدياكون طـوق الأس الموضـوع علـى رأس الطفـل ويمـس بـه شـفتي وجبـين الطفـل ثم يرميـه في النهـر، وهنـا تنـزع عـن الطفـل الحلة المقدسة «رسته» وينتهي الطقس.

أمـا الاغتسـال فـإن الصـابئة يمارسـون في كـل مـرة يريـدون فيهـا تجنـب التعميـد لسـبب مـا. ويعتـبر الاغتسـال إلزاميـاً عنـد نـزف الـدم سـواء حـدث ذلـك عرضـاً أم بشـكل مقصـود كالحجامـة مـثلاً وكـذلك بعـد المشـاجرة والمـرض وفي حالـة تنـاول الـدواء وبعـد الأكـل عنـد شـخص غـير صـابئي .... الخ.

والاغتسال كالتعميد يتوجب أن يجري في النهر والصابئي عندما يزاوله ينزع ملابسه كلها ويبدأ بغسل شعره علماً بأن الأشخاص الصالحين لا يقصون شعرهم أبداً ثم ينزل بعد ذلك إلى الماء ويجعل وجهه ضد التيار ثم يغطس بالماء ثلاث مرات مردداً صيغة التعميد وقارئاً بعد كل غطسة الصلاة المقررة. وعندما يخرج إلى الشاطئ يغسل وجهه ويمرر يده الرطبة على جبينه ثلاث مرات ثم يدخل أصابعه المبللة في أذنيه ومنخريه ثلاث مرات ويتمضمض ثلاث مرات وأخيراً يغسل رجليه في الماء ثلاث مرات ويدفع الماء عن نفسه إلى النهر ثلاث مرات. وبعد ذلك يلبس الصابئي ثوباً نظيفاً ابيض فيعتبر طقس الاغتسال منتهياً. وتقوم النساء بهذا الطقس بكل تفصيلاته مع فارق واحد فقط هو أنهن ينزلن إلى النهر بملابسهن.

ويشبه الصابئة في مراعاتهم الدقيقة للنظافة والاغتسال بعد كل دنس اليهود الذين أخذوا عنهم أيضاً على ما يبدو عادة الاقتصار في أكلهم على لحوم حيوانات معينة يشترط أن يذبحها القسس أو جزارين خاصين [١]، يسمح لهم رجال الدين بمزاولة هذه الحرفة التي يبجلها الصابئة بعد التأكد من أن أصلهم وحياتهم لا تشوبها شائبة وأنهم خالون من أي نقص بدني.

أما اللحوم التي يسمح بتناولها عند الصابئة فهي لحم الخروف (وليس النعجة) والدجاج وبيض الطيور وبعض الأسماك. أما لحم البقر والثيران والجاموس فهي محرمة كلياً [٢].

وهناك قواعد معينة ينبغي الالتزام بها عند ذبح الخروف سواء قام

---

(١) يطلق الصابئة على هؤلاء اسم «الحلالية» ومفردها «حلالي». وهي التسمية التي سنستخدمها من الآن فصاعداً. المترجم.

(2) (T.M. lycklama a nijeholt: op.cit.p.234 ff)

بـذلک القـس أو الحـلالي، وإذا لم تـراع فـإن الحـلإلى وكـل مـن يأكـل اللحـم يعتـبرون نجسـين وملـزمين بـأن يتطهـروا بالتعميـد، وهـذه القواعـد هـي علـى النحـو التـالي: يوضـع الخـروف بعـد أن تـربط أرجلـه علـى حصـران مفروشـة علـى الأرض بحيـث يكـون رأسـه متجهـاً نحـو الشـرق وهـذا الوضـع يتـيح للحـلالي أن يتجـه بوجهـه نحـو الوجـه القطـبي وأن يمسـک بـرأس الحيـوان بيـده اليمـنى. وينبغـي أن يحضـر الـذبح شـاهد يتحـتم أن يكـون ديـاكون إذا كـان الـذي يقـوم بالـذبح قسـاً وشخصـاً عاديـاً إذا كـان مـن يـذبح الخـروف حلاليـاً اعتيادياً. ويقـرأ مـن يقـوم بالـذبح في اللحظـة الـتي يـذبح فيهـا الخـروف الصـيغة الموضـوعة لهـذه المناسـبة، ثم يقـرأ بعـد ذلـک عنـدما يقـوم بغسـل يديـه والسـكين بالمـاء صـلاة جديـدة يشـهد فيهـا علـى أن الـذي قـام بـذبح الحيـوان هـو فـلان (يـذكر اسـم الشـخص) ويطلـب الصـفح مـن مانـه ربـه ومنـدادهيي وتراعـي القواعـد نفسـها عنـد ذبـح الـدجاج وكـل مـا ينتمـي إلى عـالم الطيـور بوجـه عـام وذلـک بـأن يغسـلوا بالبدايـة أرجلهـا ومناقيرهـا ثم يمسـكوها مـن الجنـاحين والرقبـة ويـذبحوها مـولين أوجههـم شـطر الـنجم القطـبي، ولا يسـمحون للطـير المـذبوح بـأن ينـتفض علـى الأرض وإنمـا يضـمون رأسـه تحت الجناح ويمسكون به بأيديهم إلى أن يموت.

ويلتـزم الصـابئة المتـدينون بقواعـد الاقتصـار علـى تنـاول اللحـم الحـلال [١] بدقـة وصـرامة إلى درجـة بحيـث أنهـم لا يـأكلون أثنـاء السـفر في بـلاد لا تـدين بـدينهم وكـذلک عنـد وجـودهم في بيـت شـخص غـير صـابئي، إلّا لحـم الحيوانـات الـتي يـذبحوها بأنفسـهم بـل حـتى الخبـز يحـاولون أن يصـنعوه

---

(١) أي لحـم الحيوانـات المسـموح بأكـل لحومهـا والمذبوحـة علـى الطريقـة الصـابئية ــ المترجم.

بأنفسهم.

إن نموذج الشخص الصالح لدى الصابئة هو من ينفذ بدقة الطقوس والقواعد الدينية والذي يتميز بالإضافة إلى ذلك بالبر وحسن الخلق والتواضع وأحترام الوالدين والاستقامة. ومن الاعمال التي يحمد عليها كل صابئي موسر تكلفه بنفقات استنساخ الكتب المقدسة حيث يقدم لهذا الغرض مبلغاً معيناً من النقود إلى واحد أو أكثر من القسس تبعاً لعدد الكتب التي يرغب في استنساخها.

ويستحق الصابئي الذي يفي بكل هذه الالتزامات أن يقام له إذا رغب طقس خاص يسمى «مسخثه» [1] ومفاده أن يقام عليه قداس الميت وهو حي ويحبذ الصابئة المتدينون أن يقام لهم هذا الطقس تحسباً للموت المفاجئ أو الوفاة في الصحراء أثناء السفر أو في أية ظروف مشابهة يكون فيها المتوفى قد تعذر عليه الاغتسال أو ارتداء الحلة المقدسة «رسته» مما يؤدي إلى أن يحكم على روح هذا الصابئي أن تبقى مدة طويلة في الجحيم.

والصابئي الذي يجري له طقس «المسخثه» يسمى بعد إجراء الطقس «شالمونة توبة» [2] أي «المؤمن الطاهر» ويعتبر بمثابة الميت لذا فليس من حقه أن يصدر أي أمر مهما كان بسيطاً إلى أي كان حتى زوجته وأولاده، إنه لا يستطيع حتى أن يطلب منهم أن يعطوه قدحاً من الماء وإنما يتحتم

---

(١) المسخثه عند الصابئة قداس يقام على الميت أو من هو حكم الميت. المترجم.

(٢) التسمية هي «شالمانه متهمين» وهي التي سنستعملها من الآن فصاعداً. المترجم.

عليه أن يأتي به بنفسه وطبيعي أنه ينبغي على الشالمانه متهيمن بشكل خاص أن يكون صارماً في تجنب أية رذيلة وأن يمتنع عن ارتكاب أي إثم أو دنس، وهو ملزم بنفس الدرجة من الصرامة بأن يتحمل دون تذمر الهموم البسيطة والأحزان العميقة على السواء وأن يكون راضياً بكل شيء وسعيداً على الدوام (1). وإذا لم تكن زوجة هذا الشخص الذي انقطع عن العالم راغبة في التوائم مع النمط الجديد لحياة زوجها يعطونها الطلاق، لكن النساء الصابئيات نادراً ما يلجأن إلى الطلاق لأن الصابئة يحتقرون المطلقات احتقاراً شديداً حتى أن الصابئي الذي يتزوج مطلقة يفقد إلى الأبد حقه في أي منصب ديني أو في أن يختار حلالياً وعلى العموم يتخلى الناس عن اعتباره شخصاً صالحاً.

ولا يجري طقس «المسخته» إلّا الأسقف الذي يقوم بمصاحبة أربعة أو خمسة قسس باقتياد الشالمانه متهيمن المقبل إلى المعبد أو إلى المكان الذي يقوم مقامه حيث يقضي الأخير سبعة أيام بلياليها في تهجد وصلاة دائمين. ويجلب القسس المشاركون في إقامة الطقس معهم في اليوم الأول مقداراً معيناً من الحنطة والسمسم ويذبحون الحمامة ويجمعون دمها في إناء خاص ثم يطحنون الحنطة برحى يدوية ويصنعون من الطحين ستين قرصاً من الفطائر حجم الواحدة بحجم ثمرة التين تخبز في موقد متنقل ثم توزع بعد ذلك بين الأسقف والقسس الذين يقرأون على كل قرص منها صلاة خاصة يكررونها ستين مرة. وعند انتهاء الصلاة يضعون على كل قرص نقطة من كل من زيت السمسم ودم الحمامة ويقدمون ثلاثة منها إلى «الشالمانه متهيمن» الذي يأكل واحداً منها في الصباح والآخر عند الظهر

---

(1) (M.N siouffi: op.cit. p. 95 FF)

والثالث في المساء بعد أن تضاف إليها كمية قليلة من اللوز والجوز والكشمش. أما السبعة والخمسون قرصاً الباقية فإنها تدفن في الأرض في سورة المعبد إشارة إلى أن «الشالمانه متهيمن» قد دفن بالنسبة للعالم. وتتكرر هذه العملية طيلة الأيام السبعة. وفي اليوم الثامن تقام وليمة عند الأسقف يشارك فيها «الشالمانه متهيمن» حيث تقرأ عليه قبل انتهاء الأكل صلاة الميت يقرأها جميع الحاضرين وهم وقوف يمسك كل منهم بيده بآخر لقمة من الطعام لا يضعها في فمه إلّا بعد انتهاء الصلاة. وهكذا ينتهي «المسخثه» ويتمتع الصابئي الذي أجري له باحترام لا يقل عن الاحترام الواجب لرجل الدين بحيث أن من يلتقي به من أبناء دينه ينحني له انحناءة كبيرة.

ويجري طقس «المسخثه» للأموات أيضاً ولكنه يقتصر على الذين ينتمون إلى الطبقات الموسرة منهم لأن حتمية اشتراك أسقف وعدد من القسس لا يقل عن أربعة تتطلب من الورثة مصاريف باهضة تدفع كمكافأة للذين يقومون بهذه الخدمة الدينية. أما مراسيم الدفن فتكون في العادة على النحو التالي: يقوم الدياكون الذي يجب أن يتواجد عند فراش كل مريض شديد المرض بأجلاس المريض بمساعدة أقاربه وذلك بمجرد أن يلاحظ حلول ساعة احتضاره ثم يصب عليه في البداية ماءً دافئاً بارداً ويبدأ بذلك من الرأس ويقوم بقراءة الصلاة المقررة نيابة عن المحتضر إذا كان هذا في حالة لا تمكنه من أن يقرأها بنفسه.

وبعد أن يغسل المتوفى يوضع بحيث يكون وجهه باتجاه النجم القطبي ويلبسونه «الرسته» أي الحلة المقدسة عند الصابئة وهي حلة من القماش الأبيض تتألف من القطع التالية :

١) السروال.

٢) القميص.

٣) «كنزالـه» أي العمامة التي يلفون بها الرأس بحيث تترك إحدى نهاياتها مدلاة فوق الكتف الأيسر.

٤) «النصيفة» وهي نوع من الطبرشيل يلقي على الكتف إلى جانب العنق ويتدلى من الأمام حتى الركب.

٥) «الهميانة» وهو حزام من الصوف يصنعه القسس بأنفسهم.

٦) «القبوعة» وهي قطعة القماش لها أربع زوايا، ترمى على الرأس بطريقة بحيث تلفه من الجانبين [1].

ويقوم مقام التابوت قفص من الصفصاف يقوم أربعة دياكونات بوضع المتوفى فيه ثم يحملون الجثة يتقدمهم أكبرهم على نقالة إلى المقبرة حيث يباشر الدياكونات بعد وصول الموكب الحزين بحفر القبر بأنفسهم، ثم يسجى المتوفى في القبر بحيث يكون وجهه متجهاً نحو النجم القطبي. وبعد ذلك يقوم الدياكون الأقدم، الذي كان قد ضرب الضربات الثلاث الأولى بالمعول عند حفر القبر، برمي ثلاث حفنات من التراب على الجثة المسجاة في القبر ثم يحذو حذوه الحاضرون جميعهم.

وعند العودة من المقبرة يقيمون وليمة جنائزية يقرأ القسس في نهايتها صلاة الأموات بحيث يسمعها الجميع وهم وقوف ممسكين بأيديهم بآخر لقمة من الطعام يضعونها في أفواههم بعد انتهاء الصلاة. وتعتبر

(١) يبدو أن الأمر التبس على المؤلف فالرسته الكاملة للفرد العادي تتألف من خمس قطع في حين تحتوي رسته الكاهن على سبع قطع، والقبوعة هي نفسها النصيفة، أما الكنزاله فهي النصيفة أيضاً عندما توضع على الرأس بهيئة خاصة أثناء إجراء «الرهمي» والتي هي عبارة عن أدعية تمهيدية للتكريس. انظر: وصفاً كاملاً للرسته في: الليدي دراوور، المصدر السابق: ص٧٧ ـ ٨٠. المترجم.

الوليمة الجنائزية أمراً حتمياً حتى بالنسبة للفقراء ولو كان كل ما يقدمه هؤلاء من الطعام يتألف من الخضراوات وحدها. أما الأغنياء فإنهم يقيمون ولائم جنائزية في يوم الدفن وكذلك في كل من اليوم الثالث والسابع والخامس عشر والأربعين والستين بعد الوفاة.

ومن بين الطقوس الأخرى التي ترافق الأحداث الأكثر أهمية في حياة الصابئة والتي ينبغي أن نشير إليها الزواج الذي يحمل طابعاً خاصاً تماماً :

يحاول الشاب في البداية أن يحصل على موافقة من يختارها فيرسل لهذا الغرض الخاطبات الى الفتاة التي راقت له. وبعد أن توافق يفوض الشاب الأسقف أو القس بطلب يدها من أبيها ويقوم هذا بعد أن يصغي للمبعوثين بالانفراد، كما يقضي العرف، في غرفة منفصلة للتشاور مع زوجته وابنته. ويحدد الخاطبون في حالة الموافقة بالاتفاق مع أب العروس رأساً المبلغ الذي يتوجب على العريس أن يهديه الى الفتاة، كمهر ذلك أن الصداق [١] لا يدفع عند الصابئة حتى لو كانت المتزوجة من بنات الأغنياء. وفي الصباح التالي تجلب قريبات العريس للعروس نيابة عنه خاتمين أحدهما من الذهب والآخر من الفضة ويضعنها في أصابعها ثم يشبكن شعرها بثلاث قطع من الذهب ويضمخن يديها ورجليها بالحناء [٢].

---

(١) يقصد المؤلف هنا الأموال والأمتعة التي يدفعها والدا الفتاة عند زواجها. المترجم.

(٢) تعطي أوراق نبات Law sonia inerms بعد أن تجفف وتطحن لوناً أحمر. إن عادة صبغ الأيدي والأرجل بالحناء منتشرة لدى المسلمين - الشيعة.

[الواقع إن استعمال الحناء لا يقتصر على الشيعة فقط، بل تستعمله نساء الشرق بوجه عام] المترجم.

ويستمر طقس الزواج الذي لا يجريه إلا الأساقفة ثمانية أيام ويتحتم أن يبدأ في يوم أحد فتتوجه الفتاة يرافقها إثنان من القسس (ترميدة) الى النهر حيث يعمدها الاثنان بالتعاقب، ثم يعمد العريس مرتين بنفس الطريقة أيضاً، وبعد ذلك يستبدل الشابان المقبلان على الزواج حلتهما المقدسة (رسته) بملابس العيد ويذهبان إلى بيت الأسقف ويظلان فيه طيلة أسبوع العرس، حيث يكون مكان العروس قد أعد في غرفة خاصة تحجبه ستارة من القماش، أما العريس فيقيم مع المدعوين في فناء الدار في كوخ مصنوع من أغصان الصفصاف.

وبعد أن يسكن الأسقف العروسين في بيته يفوض ثلاث نساء معروفات بالاستقامة ولا تربطهن ببعض علاقات القربى بالتأكد من عذرية العروس فيفعلن ويعلن عن ذلك بصرخة معينة [1] يكررنها ثلاث مرات في حالة تأكدهن من عذرية العروس، ومرة واحدة في حالة العكس، ويكون من حق العريس إذا ما كانت نتيجة الفحص سلبية أن يتخلى عن الفتاة التي اختارها وعن الاستمرار في إجراء الطقوس.

وبعد أن ينتهي الأسقف من هذه الشكليات يقوم بتعيين وكيل عن

---

(١) يكون إعلان ذلك بإطلاق الزغاريد، وتصف الليدي دراوور التي شاهدت عدة أعراس صابئية بشكل يختلف بعض الشيء حيث تقول: «دخلت الفتاة ومعها الجميع إلى بيت (الكنزفرة) لتجتاز اختباراً يجب أن يسبق عمادة الأعراس، وهو أن تقوم امرأتان (زوج الكنزفرة وأمه عادة) [أو أية امرأة صابئية صالحة يعتمد على خبرتها وخلقها كما يذكر مترجما كتاب الليدي دراوور السيدان نعمي بدوي وغضبان رومي] بالتأكد من عذرية الفتاة فإن لم تكن عذراء صمتت المرأتان وإذا كان العكس أطلقتا الزغاريد». الليدي دراوور. المصدر السابق، ص١٢٠. المترجم.

الفتاة يكون في العادة أبوها ويمسك بيده ويضعها في يد العريس ثم يتوجه الى الوكيل سائلاً أباه: «هل تعطي ابنتك (اسم الفتاة) لفلان؟» وبعد أن يأتي الجواب بالإيجاب يسأل العريس: «هل تأخذ فلانة زوجة لك»؟ وبعد أن يؤكد العريس ذلك يسأل الأسقف الوكيل مرة أخرى: «بكم أعطيت ابنتك؟» وعلى الوكيل أن يعطي دائماً جواباً واحداً لا يتغير هو: «بألف دينار» رغم أن هذا المبلغ لا يطابق الواقع أبداً، ثم يوجه الأسقف للعريس السؤال التالي وهو: «وأنت ماذا تعطيها» فيذكر العريس جواباً على هذا السؤال صيغة مقررة هي «لقد أعطيتها حمولة جمل من الملابس الحريرية ومثلها من الملابس الكتانية». وبعد أن يوثق الأسقف عقد الزواج بهذا الشكل يسمح للأب أو وكيل العروس بالانصراف إلى بيته ذلك أن الصابئة يعتقدون بأن من المعيب على الأب [1] أن يحضر زواج ابنته.

ويبدأ الكنزفرة أي الأسقف بعد ذلك بقراءة صلاة خاصة يقود العريس بعد انتهائها الى غرفة العروس ويجعلهما يقفان بحيث يكون ظهر أحدهما نحو الآخر وبحيث يبقى العريس خارج الستارة في حين تكون العروس خلفها وتكون الستارة بمثابة الحائط الذي يفصل بينهما، ثم يقرأ للعروسين مرة أخرى صلوات يقوم الأسقف في أثنائها بين الحين والآخر بضرب رأس أحدهما برأس الآخر. وعند انتهاء هذا الجزء من الطقس يخرج الأسقف مع العريس إلى الفناء فيجلس جميع المدعوين فوراً الى مائدة الطعام باستثناء العريس الذي لا يستطيع في هذا اليوم تناول الطعام نظراً لأنه يرتدي الرسته. وعندما يحل الظلام يحدد الأسقف بواسطة النجوم اللحظة المناسبة فيقود العريس ويدخله على العروس تحت الستارة مردداً:

---

(١) عدم حضور الاب زواج ابنته عرف اجتماعي عراقي. حميد الدراجي

«هـذا هـو زوجـک أحبيـه وأطيعيـه». ثم يقـول للعـريس: «هـذه هـي عروسـک يجـب أن تطعمهـا قبـل أن تبـدأ أنـت بالأكـل وتكسـوها قبـل أن تكتسـي أنـت يجـب أن تجعلهـا راضـية علـى الـدوام» وبهـذا يكـون الـزواج قـد انتهـى. يعتـبر الزوجـان طيلـة الأيـام الثمانيـة الـتي تسـتمر خلالهـا احتفـالات الـزواج غـير نظيفـين وكـذلک الأشـياء الـتي يلمسـانها تكـون بحاجـة الى تطهـير. ولا يعـود الزوجان الى نظافتهما السابقة إلا بعد أن يتطهرا بواسطة التعميد في النهر.

وتكـون النفسـاء في أعلـى درجـات النجاسـة فـلا أحـد يسـتطيع طيلـة شـهر كامـل أن يمسـها دون أن يـنجس نفسـه ولهـذا السـبب تعـزل جميـع الأدوات المنزليـة الـتي تسـتخدمها بعنايـة عـن بقيـة الأدوات ويمنـع زوج النفسـاء طيلـة هـذا الشـهر مـن إقامـة الطقـوس أو ذبـح الحيوانـات إذا كـان رجـل ديـن أو حـلالي كـذلک لا تسـتطيع النفسـاء ذاتهـا طيلـة فـترة مـا بعـد الـولادة أن تصـلي أو تحضـر عنـد اداء الخدمـة الدينيـة ولـذا فأنهـا تكـون معرضـة لهجـوم الأرواح الشـريرة وأخطرهـا اليـول الـذي يـأتي إلى النفسـاء لـيلاً ويسـتل منهـا قلبهـا. لـذا فـإنهم لا يتركـون المـرأة بعـد الـولادة وحـدها في الليـل أبـداً تلافيـاً لوقـوع مثـل هـذه المصـيبة، وحـتى في النهـار عنـدما تخـرج مـن البيـت يعطونهـا سكيناً أو خنجراً لكي تحمي نفسها من الشياطين.

وهنـا لا يسـعنا إلا أن نشـير إلى أن الاعتقـاد نفسـه يسـود بـين النسـاء الفارسـيات، فـالجني (الشـيطان) الـذي يسـرق قلـب النفسـاء وكبـدها هـو ال ووسـيلة الـتخلص منـه هـي الخنجـر الـذي يوضـع وهـو نصـف مسـلول مـن غمـده تحـت رأس النفسـاء بعـد أن تكـون القابلـة قـد رسمـت بواسـطته خطوطـاً في الهواء في كل جهة من الجهات الأربع.

وقبـل أن ننتقـل إلى تكـوين المعبـد وإلى الخدمـة الدينيـة عنـد الصـابئة نرى أن من الضروري أن نتحدث باختصار عن الصلاة.

الصلاة عند الصابئة مرهونة كما هي عند المسيحين بأوقات وحالات معينة هي: قبل الأكل وقبل النوم وقبل السفر وقبل الشروع بأي عمل. حيث ينبغي للصابئي أن يتلو في كل حالة من هذه الحالات الصلاة الخاصة بها. ويتوجه الصابئة في صلاتهم الى مانه ربه وإلى ما أدربوثا وملوك الجنة الآخرين والى يحيي وآدم وسام بن نوح وإلى شهداء الصابئة الذين قتلهم في القدس الطاغية اليهوي اليزار. لقد كانت هناك في البداية ثلاث صلوات إجبارية في اليوم تقام الأولى في الفجر والثانية في منتصف النهار والثالثة عند غروب الشمس، وقد ألغى علماء الصابئة فيما بعد صلاة منتصف النهار ذلك لأن كلاً من الصلوات تستغرق ما لا يقل عن ساعتين لذا فإن الجزء الأغلب من النهار يذهب في الصلاة ولا يبقى وقت تقريباً للاهتمام بالشؤون المختلفة.

أما عن المعبد أو المشكنة [١] باللغة الصابئية فإن عدد المعابد الدائمة عند الصابئة العراقيين لا يتعدى الاثنين أولهما في شطرة العمارة والآخر في سوق الشيوخ التي هي في الوقت نفسه مقراً لأسقفهم.

إن السبب في عدم وجود معابد دائمة للصابئة في مدن العراق الجنوبي الأخرى يكمن حسب رأي السيد سيوفي في افتقارهم للأموال الكافية [٢] ولكن طالما أن تكوين معابد الصابئة كما سنرى فيما بعد بدائي جداً ولا يتطلب أي مصاريف تقريباً فإن من الصعب الموافقة على هذا

---

(١) أفردت الليدي دراوور فصلاً خاصاً في كتابها السابق الذكر هو الفصل الثامن للحديث عن بيت العبادة الصابئي يمكن للقارئ الراغب بالتفاصيل الرجوع إليه. المترجم.

(2) (m.n sionffi op cit. P. 118)

الرأي. الأصح أنّه ينبغي الاعتقاد بأن الصابئة المنغلقين جداً فيما يتعلق بدينهم وطقوسهم متقصدون في عدم بناء معابد دائمية وذلک کي لا يثيروا فضولاً هم في غنى عنه من جانب من يغايرهم في الدين ولکي يتجنبوا على الأخص مضايقات صغار موظفي الدولة العثمانية. ويشير الى ذلک أيضاً السيد (cuinet) في كتابه [1] «admin La Turquie d asiw Geographie istra tivw 11»

ولهذا ينتشر بين الصابئة على نطاق واسع المشكنة أي المعبد المؤقت، وهو عبارة عن كوخ من القصب طوله خمسة أمتار وعرضه أربعة أمتار يطلي من الخارج بالطين، تكون فيه السماء سقفاً له [2]، وفي المعبد من هذا النوع فتحتان بدلاً من النوافذ تقع أحداهما في الشرق والأخرى في الغرب إضافة إلى باب واحد يتجه نحو الجنوب لذا فإن الداخل منه يجد أمامه النجم القطبي بدون أن يتقصد ذلک. ويقام في وسط المعبد مرتفع صغير من الطين يشبه المذبح في حين يقوم في أحد جانبي البناء حوض للماء يملأ عند الحاجة بماء النهر بواسطة ساقية صغيرة.

ويوقت بناء مثل هذه المعابد المؤقتة عادة مع عيد «البانشو» [3] الذي يحتفل به طيلة الأيام الخمسة التي تضاف إلى نهاية الشهر الثامن من التقويم الصابئي لكي يكمل عدد أيام السنة الثلاثمائة والخمسة والستين لأن

---

(1) (t111 p 222)

(٢) يقصد المؤلف أن هذا المعبد يكون بدون سقف علماً بأن المعبد الصابئي يكون له سقف عادة إلا عند إجراء طقوس معينة فيكون المعبد عند إجراء تلک الطقوس بلا سقف. المترجم.

(٣) الصحيح «البنجة» وهو عيد الخليقة. راجع حول أعياد الصابئة المندائيين: رشدي عليان، المصدر السابق، ص١١٧ ـ ١٢٢. المترجم.

كل واحد من الاثني عشر شهراً يحتوي على ثلاثين يوماً. وهذا العيد هو واحد من أكبر الأعياد فكل يوم من أيامه الخمسة مكرس لواحد من ملوك الجنة ويتحتم على الصابئة جميعهم في هذا العيد ذكوراً وإناثاً أن يغتسلوا في النهر ثلاث مرات في اليوم وأن يرتدوا ملابس بيضاء. وتزداد أهمية عيد البانشو نظراً لأنه يجري في أثنائه تكريس المعبد الموقت الجديد الذي تصاحبه طقوس دينية مهيبة ولأن فيه يجري إعداد فطائر خاصة مخصصة لطقس التناول.

ونورد لوصف هذا الاحتفال المقطع الذي أورده المبشر الأمريكي (Zwemer) في كتابه [١] نقلاً عن عدد ١٩ تشرين الأول ١٨٩٤ من جريدة (Standard)، والذي يشرح فيه مؤلف مجهول هذا الاحتفال بشكل شاعري على النحو التالي :

«يسير عبدة النجوم رجالاً ونساء قبيل منتصف الليل ببطء بمحاذاة النهر متجهين الى المشكنة الذي كان قد بُني قبل قليل. وهناك يدخل كل منهم بالتعاقب في عشة صغيرة جداً مضفورة أقيمت في الجانب الجنوبي من المعبد فوق بركة من الماء ثم يخلع ملابسه ويسبح في البركة وفي أثناء ذلك يردد الترميذة أي القس الذي يكون واقفاً خارج العشة لكل واحد منهم عبارة «اسم الحي، السم الكلمة الحية منطوقان عليك» وعند الخروج من الماء يلبس الرجال والنساء الرستة ويذهبون الى مكان مكشوف أمام المعبد حيث يجلسون على الأرض محيين الحضور بعبارة «سود هويلخ» أي كن موفقاً ويجيبهم الحضور على ذلك بعبارة «اسواثه الهيي هويلخ» أي بركة الحي عليكم.

---

(1) s.m. zwemer. Op. cit. p. 299. ff.

«وكان عدد الحضور يزداد مع اقتراب ساعة الاحتفال، وعند منتصف الليل تماماً كان هناك عشرون صفاً من الأشخاص يلبسون البياض ويجلسون بوقار متجهين بوجوههم نحو المشكنة ينتظرون بصمت وصول الكهنة. وهناك قسمان يمسك كل منهما مصباحاً يحرسان مدخل المعبد ولا يحولان بصرهما عن الدب الأكبر. وبمجرد أن تأخذ هذه النجمة وصفاً يشير الى حلول منتصف الليل يعطي القسان إشارة بذلك بأن يرفعا قنديليهما فيتحرك بقية الكهنة بعد بضع دقائق في موكب مهيب».

«يسير في المقدمة أربعة من الشكندة أي أربعة دياكونات يليهم أربعة قسس (ترميده) يضع كل منهم في خنصره خاتماً من الذهب ويمسك بيده عكازاً من أغصان شجرة الزيتون على شكل صليب. ويسير بعد القس الرئيس الروحي للطائفة الكنزفرة وهو كاهن ينتخبه زملاؤه ويكون منصرفاً عن العالم حتى أنهم ينظرون إليه كما لو أنه متوفياً يحل في مستقر الصالحين، ثم يأتي بعده أربعة دياكونات آخرين يمسك أحدهم بعصا الكنزفرة الكبيرة التي تعرف باسم «در افشيد زيوا» [(١)] وهي رمز لمنصبه الديني. أما الثاني فيحمل كتاب عبدة النجوم المقدس «سدره ربه» أي الكتاب العظيم، في حين يحمل الثالث قفصاً فيه حمامتان حيتان ويحمل الرابع قدراً من الحنطة وحبات السمسم».

يسير الموكب بين صفوف المصلين الذين يقبلون ثياب الكنزفرة عندما يمر بالقرب منهم ويرفع القسان اللذان يقفان على باب المعبد ستارة الباب فيدخل الموكب الى الداخل ويأخذ الدياكونات مواقفهم إلى يمين

---

(١) الصحيح درافشه زيوا وهي ليست عصا الكنزفرة وإنما هي علم النبي يحيى، أما عصا الكنزفرة فإسمها «المركلة». المترجم.

المذبح ويساره في حين يقف الكنزفرة في الوسط مباشرة قبالة المرتفع الطيني الذي يقوم مقام المذبح والذي يوضع عليه الكتاب المقدس «سدره ربه» بعد ذلک يأخذ القس الأكبر حمامة حية وينظر الى النجمة القطبية ويمد يده إليه ثم ينزل الحمامة ويقول: «باسم الحي ليشارک النور الأول، النور القديم، الآله الخالق نفسه» وتلفظ هذه الكلمات بشكل واضح ويسمعها جميع المصلين خارج سياج المعبد فيقف الجميع في لباسهم الأبيض في وقت واحد، ويخرون سجداً أمام نجمة الشمال التي كانوا يتأملونها قبل ذلک وهم صامتون ثم يجلسون مرةأخرى وهم يتلون الصلاة دون ضجيج.

وفي هذه الأثناء يتنحى الكنزفرة في المشكنة جانباً ويحل محله قس كبير يعمد إلى فتح الكتاب الموضوع فوق المذبح ويبدأ بالقراءة فيه مترنماً يرفع صوته مرة ويخفضه مرة أخرى، وبين الحين والآخر يقطع القراءة ويهتف «ليتمجد اسمک يا واهب الحياة» ويتلقف المصلون هذا الهتاف ويرددونه وهم مطأطأ والرؤوس يخفون وجوههم بأيديهم. في الوقت نفسه يقوم اثنان من الترميدة أي قسان آخران بإعداد القربان الذي يطلقون عليه اسم بهثة [1] ايلويو أي «السر الأعظم» فيقوم واحد منهم باستخدام الفحم لإشعال نار في موقد من الطين يوجد في أحد جانبي المذبح في حين يقوم الآخر بطحن الحنطة بواسطة رحى يدوية ثم يعصر حبوب السمسم ويستخرج منها الزيت ويخلطه بطحين الحنطة فيصنع بذلک عجيناً يعمل منه أقراص حجم الواحدة منها بحجم قطعة النقد التي تساوي شلنين. تلصق الأقراص إلى جدران الموقد المحمي فتنضج بسرعة، ويكون

---

(١) البهثة هي الخبز المقدس. المترجم.

الطقس في أثناء ذلك ماضياً في سيره حيث الترنيم الرتيب وجواب المصلين. عندما تصبح الأقراص كلها جاهزة يأخذ أحد القسس من الشكندة أي الدياكون الواقف بجانبه الحمامة الباقية في القفص ويقطع عنقها بسرعة بواسطة سكين حادة ويأخذ دمها بحرص شديد، ثم يقوم القسان اللذان صنعا الأقراص بجلب هذه الأقراص بحيث تقع أربع قطرات من الدم بشكل صليب على كل منها. وبعد ذلك يقوم القسان اللذان أعدا الأقراص بتوزيعها على المصلين وذلك بأن توضع لهم في أفواههم مباشرة مع تلفظ عبارة «لينطبع ختم الحي عليك».

«وفي أثناء ذلك يقوم الدياكونات الأربعة بحفر حفرة صغيرة في المعبد نفسه خلف المذبح ويدفنون فيها الحمامة الذبيحة وينهي القس الأكبر قراءته ويتنحى فيحل محله أمام الكتاب المقدس الرئيس الديني ويبدأ بتلاوة المسخته متوجهاً طيلة الوقت نحو النجم القطبي الذي لا يحيد المصلون أيضاً عنه بأبصارهم طيلة استمرار الطقس. ويستمر الرئيس الديني بتلاوة المسخته حتى يحل الفجر فيصيح عند ذلك بصوت عال: «أتذكرك يا اواتر فتذكرني أنت أيضاً» وبهذا ينتهي الطقس».

وعند الانتهاء يقاد الى الكوخ القصبي الذي يقام مقام المعبد خروف كان قد أحضر مسبقاً فيقوم الكنزفرة بذبحه هناك ويراعي في ذلك القواعد المعتادة في مثل هذه الحالات. إن هذا الخروف هو أضحية تقدم لاواتر وبثاهيل ولهذا فإن لحمه يقسم بعد أن يسيل منه الدم الى قطع بعدد الموجودين وتوزع عليهم، وينتهي الاحتفال بأجمعه قبل حلول الفجر ويعود الصابئة الى بيوتهم قبل أن تشرق الشمس في الأفق.

أما فيما يتعلق بـ «البهثه ايلويو» أي القرابين فينبغي أن نلاحظ بأن

كاتب المقطع الذي أوردناه أعلاه يختلف مع السيد سيوفي [1] الذي يذكر في الفصل السادس عشر من كتابه بأن «البهثة ايلويو» لا يقدم إلا للأساقفة والقسس وللذين يتميزون بحياتهم الصالحة مع العلمانيين فقط. أما الأشخاص العاديون البسطاء فإن لهم عند الصابئة شكل آخر من أشكال القربان يسمى «بهثه» فقط ويجري على النحو التالي:

يقوم قسان بتعميد أحدهما الآخر بالتعاقب ويجلبان معهما إلى النهر كمية معينة من الحنطة يقومان بغسلها فيه ثم يجففانها بنشرها على قطعة من القماش الأبيض، ثم يقومان بطحن هذه الحبوب برحى يدوية ويصنعان من الطحين عجيناً غير مختمر يعملون منه أقراصاً خفيفة كالورق. ويرافق هذه العمليات كافة قراءة الصلوات المقررة لهذه المناسبة. فهذه الصلوات على ما يعتقد الصابئة تحول تلك الأقراص الى نفس الخبز الذي يأكله سكان ألمه اد نهورا أي الجنة. وتحفظ «البهثه» في أواني خاصة مغلقة بإحكام في بيوت القسس ويقوم هؤلاء بتوزيع هذه الأقراص على الصابئة في أيام الأعياد بأن يضعوها في أفواههم مباشرة لأنها تتحول الى خبز عادي عندما يلمسها أحد العلمانيين.

ولكي يجري «البهثه» بالصورة الصحيحة ينبغي على الشخص أن يكون قد عمد على الطريقة الصابئية، وأن يتمتع بسمعة طيبة وسلوك لا غبار عليه، ويفقد الصابئي الذي يتخلى عن دينه طوعاً الحق في تذوق «البهثه» والذين لا يتعرضون لهذا العقاب هم فقط أولئك الذين أكرهوا على التخلي عن دينهم بالإكراه ثم عادوا إليه بمجرد أن سنحت لهم الفرصة لذلك. ومن يتذوق «البهثه» يحصل على قوة جديدة من الإيمان تطهره من

---

(1) (m.n. siouffi op. cit. p. q2 ff)

الذنوب ويصبح بإمكانه أن يرى مستقر النعيم ألمه اد نهورا بعين الروح إذا ما ركز على ذلك أفكاره كما يجب. والقس الذي يشرک في «البهثه» من لا يستحق يكون قد ارتكب ضلالاً أما الشخص الذي يشارک فيه ثم يقع في الاثم مرة أخرى فإن عقابه يتضاعف بسبب ذلك عشرة مرات.

ويوجد لدي الصابئة الى جانب القرابين الاعتراف أيضاً ويعرف عندهم باسم «شومخوته» [1] وان كان لا يشبه، من حيث جوهره السر المقدس المسيحي، وبالمقابل فكما أن الكنيسة عند المسيحيين لا تنكر على الآثم النادم أبداً الأمل في أن يحصل على الغفران المنشود فإن الاعتراف عند الصابئة لا يؤدي الى الغفران إلا في حالة ما إذا لم يرتكب النادم الاثم السابق مرة أخرى، وتعطى للصابئي من باب التساهل فرصة الاعتراف بالذنب الواحد ثلاث مرات لا أكثر حيث لا يعود الاعتراف في المرة الرابعة نافعاً ولا ينقذ الآثم من أهوال الجحيم. والوسيلة الوحيدة أمام الآثم لتجنب هذه الأهوال في مثل هذا الاثم المستعصي هي توزيع الحسنات ومساعدة البائسين وتحرير المحبوسين من السجون أما بدفع ديونهم أو عن طريق التوسط لهم عند السلطات، وكذلک استنساخ أكثر ما يمكن من الكتب المقدسة على حسابه الخاص.

ويجري الاعتراف أو «شومخوته» عند القس في بيته حيث يلبس القس «الرسته» ويصغي للنادم على انفراد لأن سر الاعتراف يجب أن يصان بحرص شديد. وبعد أن يسمع «الترميدة» اعتراف المعترف يفتح الكتاب المقدس ويقرأ منه الموضع الذي يجري فيه الحديث عن العذاب المعد في جهنم لعقاب من يرتكب الذنب الذي اعترف به النادم، ثم ينصح هذا

---

(١) الاعتراف عند الصابئة هو «أياسه وتيابه» أي الغفران والتوبة. المترجم.

الأخير بأن يمتنع في المستقبل عن ارتكاب هذا الذنب. فيعبر المعترف عن تصميمه على التوبة ويقبِّل الكتاب المقدس ويد الكاهن.

لم يبقَ في الختام إلا أن نتحدث باختصار عن الأعياد وعن الصيام عند الصابئة. يوم العيد في الأسبوع هو الأحد الذي يسمى «هبشبه» وهو اسم لأحد لملوك الجنة الذي يخرج في هذا اليوم من الجنة الى العالم الأرضي غير المنظور (مشوني كشطه) ليعمد سكان ذلك العالم. ويقوم رجال الدين الصابئة محاكاة له بتعميد الصابئة وتزويجهم في يوم الأحد عادة. ويقضي الصابئة المؤمنون هذا اليوم في الراحة حيث يتركون العمل ويجتمعون عند القسس لسماع قراءة الكتب الدينية أو يتحدثون في قضايا الوعظ والإرشاد.

ويحتفل الصابئة بالإضافة إلى يوم الأحد وعيد «البانشو» أي عيد الأيام الخمسة الذي مر ذكره، بالأعياد التالية :

١ ــ يوم رأس السنة الجديدة. ويقع في اليوم الأول من أول شهر من أشهر الشتاء. حيث تعمل كان عائلة على أن تحضر قبيل حلول هذا العيد أباريق من الفخار بعدد أفرادها إضافة إلى كمية من اللوز والجوز والتفاح وما أشبه ذلك لكنهم لا يتناولون هذه المآكولات إلا بعد إنصرام أسبوع رأس السنة الجديدة، وفي الوقت نفسه يتزود كل واحد بكمية من اللحم والماء تكفي لهذا الوقت لأن ذبح الحيوانات وجلب الماء من النهر محرم في أثناء احتفالات السنة الجديدة. وفي اليوم الذي يسبق السنة الجديدة والذي يعتبر هو الآخر عيداً يتعمد الصابئة ومن أجل أن لا يتدنسوا فإنهم يقضون ليلة رأس السنة الجديدة ساهرين ولا يخرجون من بيوتهم طيلة اليوم التالي. وأول عمل يقومون به بعد أن يغادروا بيوتهم في اليوم التالي هو زيارة كهنتهم الذين يبدأون بعد ذلك بالطواف برعيتهم حيث يتسلمون

من كل عائلة هدايا نقدية.

٢ ـ العيد الثاني من حيث الأهمية هو «دهقه حنينه» الذي يحتفل به في الثامن عشر من أول شهر من أشهر الربيع احتفاء بذكرى عودة هبيل زيوا الميمونة الى الجنة من سفرته الطويلة والصعبة بحثاً عن روهية أم أور. ويستمر هذا العيد خمسة أيام يتناول الصابئة خلالها طعاماً مجهزاً بشكل خاص من الخبز والرز والتمر وذلك بالرغم من أن ذبح الحيوانات والطيور وأكل لحمها غير محرم في هذه الأيام.

٣ ـ ولدى الصابئة أيضاً يوم خاص مكرس لذكرى الأموات وهو اليوم الأول من الشهر الثاني من أشهر الربيع وهو اليوم الذي تذكر مآثر الصابئة بأن الصابئة الذين قادهم ملكهم الأسطوري فرّوق ملكة ماتوا فيه في البحر الأحمر. وتقوم كل عائلة هذا اليوم بإرسال كمية من الطعام الى القسس لكي يصلوا ويذكروا الأموات من أفرادها.

أما عن الصيام فإنه في نظر الصابئة إمساك عن أي قضية سيئة ولهذا فإنهم يحجمون في أيام الصيام التي تسمى «مُبَطّلْ» (١) عن القضاء على حياة أي مخلوق فيمتنعون عن ذبح الحيوانات والطيور، ولذلك فإنهم يتجنبون بدون قصد أكل اللحوم مثل المسيحيين، وعدد أيام الصيام إثنان وثلاثون يوماً لكنها غير متصلة بمعنى أنها لا تتعاقب الواحد بعد الآخر وأنما هي موزعة على الأشهر المختلفة فيما عدا الأربعة عشر يوماً الأول من أول شهر من أشهر الشتاء التي تعتبر جميعها أيام صيام.

---

(١) المبطل عند الصابئة هو اليوم غير المبارك أي اليوم النحس الذي يجب عدم التعامل أثناءه كما يجب عدم إجراء أية مراسيم دينية. انظر: الليدي دراوور، المصدر السابق، ص١٥٠. المترجم.

وإذا عمدنا الى إجمال النتائج التي نستخلصها من جميع ما ذكرناه عن الصابئة ليس بإمكاننا اعتبارهم مسيحيين على الرغم من آثار المسيحية المعروفة البادية في عقائدهم الدينية. فالواقع أنهم يعبدون ويتوجهون في صلواتهم بالإضافة الى الكائن الأعلى الى ثلاثمائة وستين ملكاً من ملوك الجنة ويبجلون الكواكب ولا يعترفون بعيسى المسيح وينكرون التوراة والإنجيل. كما أن عندهم ما يشبه أسرار التعميد والقربان والاعتراف ويستعملون في بعض الأحيان علامة الصليب. كذلك لا يمكن قرن الصابئة باليهود بسبب عدم ممارستهم للختان على الرغم من أنهم لا يأكلون إلا اللحم الحلال ويفرقون بين الحيوانات التي يسمح بأكل لحمها وتلك التي يحرم أكلها كما أنهم ينظفون أنفسهم ويغتسلون بنفس الدقة التي يفعل بها ذلك اليهود.

وإننا في الواقع نمسك عن أن نقرر من هم الصابئة على أساس عقائدهم الدينية وذلك لأن العلماء الأوروبيين ما زالوا لم يصلوا الى استنتاج نهائي بهذا الخصوص من جهة، ومن الجهة الأخرى يتعذر إعطاء رأي علمي دقيق دون دراسة جدية مسبقة لعلم اللاهوت المقارن ودون اطلاع مفصل وعميق على جوهر عقائد الصابئة الدينية وعلى محتويات كتبهم المقدسة، بل وحتى على حياتهم وعاداتهم وأعرافهم.

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

فهرس الكتاب

مقدمة الناشر: البصرةُ علوية المنشأ والهوى ٣
البصرة في اللغة ٤
فضل البصرة ٥
أوّلاً: جذور التشيع في البصرة ٧
الفرق الشيعية الإمامية في البصرة ٨
وصايا الإمام عليّ عليه السلام ببني تميم ٩
دور أهل البصرة في نصرة الإمام عليّ عليه السلام في صفين ١١
شيعة البصرة والإمام الحسن بن عليّ ١٣
ثانياً: دور شيعة البصرة في نصرة الإمام الحسين بن علي ١٥
ثالثاً: دور شيعة البصرة في الأخذ بثارات الإمام الحسين ١٨
شهداء الطف من شيعة البصرة ٢٠
الفصل الأوّل ٢٩
الفصل الثاني ١١٧
الفصل الثالث ١٨٩
الفصل الرّابع ٢٦٣
الفصل الخامس ٣٣٥
فهرس الكتاب ٣٨٧